رحلة عقل
فى
دُروب الفكر والأدب

تأليف

محمد يوسف عدس

بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب: رحل عقل في دروب الفكر والأدب

تأليف: محمد يوسف عدس

رقم الإيداع: ٢٠١٦/٧٨١

الطبعة الأولى ٢٠١٦



مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل
ش ٢٦ يوليو ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ / ٠٢٧٨٧٧٥٧٤
Tokoboko_5@yahoo.com

مقدمة الكتاب

هذا الكتاب سياحة فى أعماق الحياة والكتب ؛ إنها تجربة عقل نَهِمٍ لا يتوقف عند الأشكال والظواهر البرّانية ، وإنما يغوص إلى الجذور والأعماق باحثًا عن حقائق الأحداث والشخصيات الإنسانية . ولأن مؤلّفه لا يزال مؤمنا بأهمية الكتب فى تحصيل المعرفة الإنسانية- سترى فى استعراضه ومصادره عشرات الكتب ، على جانب كبير من الأهمية .

بعضها ينطوى على قصص بالغة الغرابة -ربما- تلفت نظرك بالصياغة الأدبية لمضمونها؛ فتحسبها قصة من صنع الخيال ، ولكنك ستكتشف أنها تتناول وقائع وأحداث ، وشخصيات حقيقية ، غير أن كاتبها قد آثر استخدام أسماء مُنتحلة لهم : إمَّا تجنُّبًا للمساءلة القانونية- كما فى قصة "زنبقة النهار" التى يتحدث كاتبها عن علماء منخرطين فى بحوث وانتاج أسلحة سرية لحساب البنتاجون لأمريكي .. وإمَّا لأن الشخصيات الواردة -أغلبهم- ينتمون إلى أسرة الكاتب نفسه .. كما فى رواية "العالم الذى خلّفه وراءه" وهي رواية لأديب مصري فى المهجر الأسترالي ..

فى إطارالأدب والنقد الأدبي يطرح الكتاب قضية مثيرة للجدل ؛ فقد دأب بعض كبار الكتاب على الاستدلال بالأعمال الأدبية لتأكيد أو تفنيد قضايا سياسية معينة يسعوْن لترويجها ، وبعضهم يستتر باصطناع الأدب للنيل من شخصيات ورموز إسلامية .. متعلّلًا بحجة أنه يكتب قصة أو شعرًا ؛ ومن ثم فهو أو هي غير ملتزميْن بالحقائق الموضوعية أو التاريخية؛ لذلك يحاول هذا الكتاب الإجابة على هذا السؤال: هل يصِحُّ أن يتحول العمل الأدبي إلى وثيقة تاريخية..؟! وهو هنا لا يناقش القضية من الناحية النظرية فحسب وإنما يضرب الأمثال من الواقع ؛ حيث يستعرض أخطاء كُتَّاب مرموقين مثل محمد حسنين هيكل ، ويفنِّد مزاعمهم ..

ولأن بعض الانتاج الأدبي المتميّز يلقى من أجهزة الدولة الرسمية فى الثقافة والصحافة والإعلام إعراضًا وإهمالا ملحوظًا ، حرص هذا الكتاب على أن يستعرض بعض الأعمال الأدبية التى جنَى عليها النظام القمعي فغيّبها عن نظر المثقفين المتشوّقين لأعمال جادة فى الإبداع الفني .. فى الوقت الذى سمح للأعمال الهابطة بل التافهة أن تملأ الفراغ الأدبي . ومن ذلك أن تتولى أجهزته الثقافية الترويجَ لأعمال أدبية صادمة لعقيدة الأمة مجدّفة فى دينها ومقدّساتها .. لذلك ستجد نقدًا لرواية "وليمة لأعشاب البحر" وكتبًا أخرى أصدرتها وزارة الثقافة فى سلاسلها المشهورة مثل: كتاب "المختار من الأغاني للأصفهاني" .

أما نموذج الأدب الرفيع الذى تمّ حظر تداوله فوْر نشره ، فستجده فى عرضنا لمسرحية شعرية بعنوان: "البعث ..." للدكتور صلاح عدس.. علمًا بأن مؤلفها قد تم اختياره مِنْ قِبَلِ وزارة الثقافية لتأليف مسرحية فى موضوع متّفقٍ عليه ، وبناء عليه منحته الوزارة "منحة تفرُّغ" لمدة عام لإنجازها ، ولكن المؤلف قدّم رؤيته الخاصة فى الموضوع ، التى لا تتفق مع تصوّرات الوزارة وتوقُّعاتها ، فأهالت عليها التراب.. وسيتضح للقارئ أسباب هذا وتفاصيله ..

ولأن الإنصاف فضيلة تكاد تكون مهجورة فى هذا الزمن الذى اضطربت فيه القيم الأخلاقية، واختلطت فيه معايير الخير بالشر ، حرص هذا الكتاب على أن يزيح بعض الالتباسات الفكرية التى أحاطتْ بشخصية الأديب الكبير نجيب محفوظ ، وألصقت به صفة الإلحاد .. وسيندهش القارئ أن يطّلع –ربما لأول مرة– على حقائق موثّقة اكتشفتُ بعضها بالصدفة المحضة ، وبعضها الآخر بالبحث الدقيق ، تنفي عن نجيب محفوظ تهمة الإلحاد ، وترفع عنه شيئًا من الظلم وسوء الظن الذى تسبّبَ فيه أصدقاؤه العلمانيون، قبل أعدائه الإسلاميين.

ولا تعجب أن تجد –على نفس المنوال– محاولة لإنصاف شخصية أخرى فى مجال آخر وزمن آخر ، هي شخصية الفقيه والداعية والمجاهد "إبن تيمية" الذى توفّر على تشويه صورته عند الناس بعض المتشدّدين المعاصرين ؛ الذين نسبوا

إليه كل الفتاوى والآراء المتشددة فى الدين ، وشاركهم فى تشويه صورته فقهاء السلاطين فى عصره ، والزنادقة المارقون فى عصرنا . لقد وصمه بعض معاصريه بالكفر فى كتاباتهم وأشاعوا مقولتهم بين العوام ..؟! حتى ليحتاج الأمر إلى أن يؤلف فيه أحد تلامذته المسمَّى "ابن ناصر الدمشقي" كتابًا يبرِّئه من تهمة الكفر بعنوان " الرَّد الوافر على من زعم أن شيخ الإسلام ابن تيمية كافر". ستقرأ تفاصيل هذه القصة فى "ابن تيمية المفْتَرَى عليه".

وهكذا يطوف بك هذا الكتاب فى مختلف القضايا الفكرية والأدبية والسياسية طواف المتأمل المحلل المتأنّى ، الحريص على تجلية الحقائق وإزالة ما لحق بها من زيف وتحريف ..

ويفتح عينيك على قضايا وطنية وإسلامية وإنسانية قد تبدو لك غير ذات أهمية ، ولكنك ستكتشف بعد اكْتِناهِ حقائقها أنها ألزم ماتكون للمثقف المعاصر؛ وهل يمكن أن ينكر مثقف جاد معنيٌّ بهموم أمته فى هذا العالم الذى تصْطَخِبُ فيه الأفكار والقوى لتشكّل واقعنا العالمي الذى نتحرّك فيه ، ونريد أن يكون لحياتنا ووجودنا معنى وفاعليه..؟! هل يمكن أن نتجاهل أسئلة حيويّة كهذه:

- هل الصدام حتمي بين الإسلاميين والعلمانيين..؟
- الأموال المنهوبة من مصر.. هل يمكن استردادها..؟
- الديمقراطية البريطانية كأعظم وأعرق ديمقراطية: كيف نشأت وكيف تم تفكيكها.. وما هي الأسباب والدوافع التى تقف وراء هذا وذاك..!
- كيف تم بناء الاتحاد الاتحاد السوفييتي ، وكيف انهار..؟ وما العبرة فى هذا بالنسبة لنا..!
- وكيف تمكنت دولتان مسلمتان من العالم الثالث هما: تركيا وماليزيا أن تحققا نهضة مرموقة رغم الأنواء والمعوّقات .. وكيف استطاعتا

الوقوف على أقدامهما بين الدول المتقدمة معتمدتين على مواردهما الخاصة، وسواعد أبنائهما..؟

وقضايا أخرى كثيرة من هذا القبيل تطالعك فى ثنايا هذا الكتاب .. أرجو أن تتحقق الفائدة منها للقارئ الجاد؛ الباحث عن الحقيقة وعن المتعة العقلية فى آنٍ واحد.. والله الموفق.

محمد يوسف عدس

ملبورن- أستراليا

فى ١٤ يناير٢٠١٦م

****

زنبقة النهار

حقائق أغرب من الخيال

لقاء عاصف مع الدكتورة مارى لوبين :

[المشهد فى مكتب رئيس قسم بحوث الكائنات الدقيقة بإحدى الجامعات الأمريكية]

لفت نظر الدكتورة "مارى لوبين" عند دخولها لأول مرة مكتب الدكتور " بروك " رئيس القسم الذى تم تعيينها فيه -كباحثة ومحاضرة- أن جدران الغرفة مزيّنة بعدد كبير من الصور التي تستعرض نشاطاته الواسعة : صورة له مع جورج بوش الأب، وصور أخرى لزياراته إلى دول العالم الثالث ومنها مصر، وصور له في زياراته لسجون تكساس .. حيث كان يجرى أبحاثه على نزلائها بزعم مساعدتهم في تشخيص وعلاج أمراضهم .. مما أفاضت فيه الصحف الأمريكية .. ووصفته بالعالم الخيّر المحبّ للضعفاء والمقهورين ..

كانت دكتورة مارى في الثلاثينيات من عمرها .. طويلة القامة معتدلة القوام تمشى شامخة الرأس بثقة في النفس واضحة .. وتبدو على وجهها سيماء النبل والجمال .. مما لا يتوفر عادة في كثير من النساء المشتغلات بالأبحاث العلمية.

أَجْلَسَها دكتور بروك في مقعد أمامه وهو ينظر إليها نظرة فاحصة ثم سألها: "مارى.. سوف أتحدث إليك مباشرة عن نقطة هامّة هي السبب الحقيقى لدعوتك إلى الحضور هنا.. أريد أن أستوضح منك.. ما هو رأيك في الحرب البيولوجية ..؟" .

كانت مارى تظن أنه سيسألها عن استعدادها لحضور المؤتمر العلمي الذى دُعيت إليه خارج الولايات المتحدة ، ولم تتوقع أبدًا أن يوجّه إليها هذا السؤال

العجيب .. فى مثل هذا المناخ الأكاديمي بالذات .. ناهيك عن أن يصدر من دكتور بروك ..!

لقد كان آخر شئ يمكن أن تتصوره من هذا العالم المشهور في الإعلام بروحه الإنسانية وسعيه في إنقاذ حياة المرضى بسجون تكساس ..! تمالكت دكتورة مارى نفسها وردت بإجابة حاسمة .. وربما صادمة أيضا حيث قالت :

"سيدي .. إن الحرب البيولوجية عمل لا أخلاقي تماما .. ولعلى أضيف أيضا بأنه عمل غبيّ إلى أقصى حدود الغباء .. فنحن لا نستطيع أن نسيطر على الكائنات الحية الدقيقة إذا أطلقناها من عقالها" ...

ابتسم دكتور روك ابتسامة صفراء وهو باديَ الامتعاض .. ثم تابع أسئلته في نفس الموضوع وكأنه لم يسمع إجابتها : "هل يمكن أن تشاركي في أبحاث من هذا القبيل ..؟" فهزت دكتورة مارى رأسها بالنفي القاطع وأردفت قائلة : "لا .. على الإطلاق" ..! ثم تابعت:

"هل من المفيد أن أذكّرك يا دكتور روك بأنك خبير في علم البكتيريا والفيروسات .. فأجاب بشئ من السخرية لم يحاول إخفاءها .. قال: أعرف أنني خبير الفيروسات والبكتيريا.. فماذا تقصدين.. !؟".

أجابت مارى: "مع احترامي الشديد لك ولمكانتك العلمية .. ولكنك لا تعرف جوانب من سلوك بعض أنواع من البكتيريا التي أُجرى عليها تجاربي .. وهي في صميم تخصصي وخبرتي..!

حكّ دكتور روك رأسه وقد بدا عليه مزيد من الاستياء والإحباط، ثم تابع أسئلته دون أن يعلق على ما قالته بشئ: "إذا سمعتِ عن أبحاث فى الحرب البيولوجية تجرى قريبا منك أو في محيطك فهل تلتزمين الصمت بإزائها ..؟".

ترددت دكتورة مارى هنيهة وهي تفكر في هذا الكلام العجيب ، ثم أجابت بلهجة تأكيد لا تدع مجالًا للشك: "لا .. لا أعتقد أنني يمكن أن أصمت..!".

كان دكتور روك قد أفرغ آخر ما في جعبته لسبْر أغوارها ؛ حيث بلغ قمة شعوره بالإحباط والكآبة ثم قال: "حسناً يا مارى .. إنك لا تصلحين كلاعب في فريق .. وأنت على كل حال أدرى بمصلحتك الخاصة .. ولكني أؤكد لك أن أفكارك لا تسير على نفس الخط من التفكير السائد هنا .. وموقفك غير ملائم برمّته من الناحية السياسية في هذا المناخ .. هل تفهمين ما أقول..؟.

لقد تبين لمارى واضحا في تعبيرات وجه دكتور روك غضب عارم وروح عداء سافرة وكأنه يتمنى لو ينشب أظافره في عنقها ..!

من عرف دكتورة مارى يعلم أنها تتمتع بقدر كبير من الذكاء والتفوق في مجال تخصصها، ولها إنجازات علمية لا تُنكر .. ولكن هذا لا يتنافى مع أن تكون في الناحية السياسية ساذجة.. فهي كغيرها من العلماء المنكبّين على أبحاثهم المستغرقين في نشاطاتهم التخصصية .. ليس لديهم أي فكرة ولا حتى فائض من الوقت يسمح لهم بالتدقيق في فهم البيئة التي يعملون في إطارها .. إنهم على قدر من السذاجة –في هذا الجانب– يجعلهم عاجزين أو قل ذاهلين عن فهم ما يدور حولهم ..

إهتز عالم دكتورة مارى من أقطاره كلها فجأة .. وأصيبت بصدمة في هذه الشخصية التي كانت تمثل عندها نموذجا للعالِم الإنسان المخلص في مساعدة البائسين والمقهورين من نزلاء السجون .. لقد انكشف لها فجأة الجانب المظلم لهذه الشخصية اللامعة .. وشعرت بتصادم هائل بين أهداف هذا الرجل وبين أحلامها الشابة ، ونزْعتها المثالية ..!

حاولت أن تدافع عن نفسها دون مزيد من التصادم مع رئيسها في العمل فقالت: "سيدي أعرف أنني مختلفة .. ولكنني أحاول فهم مواقف الآخرين وآرائهم .. ولا أعتقد أنني مخطئة في موقفي السياسي .. وإنما لدى مقتربات مختلفة لمعالجة المشكلات التي تواجهنا".

كانت غاية الرجل من كل أسئلته أن يسبر أغوار دكتورة مارى ليعلم مدى إستعدادها لأن تضع التزامها الأخلاقي جانبا.. وأن تفعل شيئا مخالفا لهذا

الالتزام لكي تحافظ على وظيفتها الجديدة .. ولكنها رسبت في هذا الاختبار ووقعت الواقعة، فلم يعد لكلام ماري الأخير أي تأثير أو معنى جدير بالالتفات إليه .. ولم تدرك أنها قد وصلت إلى باب مسدود بالنسبة لمصيرها الأكاديمي في قسم دكتور روك إن لم يكن في الجامعة كلها ...!

نظر الرجل نحو النافذة ثم قال: "بالمناسبة يا ماري .. هل تحبين الناس؟.. إنني أعتقد أنك عاطفية من الأعماق.." .. ومرة أخرى تحس ماري برشقة جديدة في صميم مشاعرها ، مع استمرار مسلسل الأسئلة الغريبة التي يسدِّدُها إليها دكتور روك .. ووجدت ماري نفسها تنطلق في الكلام فتقول: "دكتور روك لقد قررت أن أكون واحدة من العالمات عندما حددت هدفي في الحياة وهو مساعدة أولئك الذين يعانون من الأمراض .. لقد كرّست حياتي لهذه الغاية خلال تجاربي في البحث العلمي" ... تحوّل روك بكلّيته نحو ماري قائلا بحدة: "من أين جئت بهذه الأفكار الغبية ..؟!".

ثم أضاف دون أن يدع لها فرصة للرد: "لا يهم الآن .." ثم تحول عن الموضوع وأضاف بسخرية واضحة: "لا شك يا ماري أن رحلتك إلى الخارج ستكون مثيرة لك .. ولكن قبل أن أنسى .. عليك أن تأخذي بعض التطعيمات الضرورية قبل السفر .. فليس هناك أتعس من أن يقع المرء فريسة للمرض وهو بعيد عن وطنه ، ولكي أريحك فقد أعددت لك كل الطعوم اللازمة بنفسي ، ويمكنك أن تعودي إلى مكتبي مرة ثانية في آخر النهار للحصول عليها ، كما أرجو أن تُعدّي ملخصا وافيًا عن المؤتمر الذى ستحضرينه.." .

خفف دكتور روك من لهجته الحادة، فأصبح أكثر ليونة ولُطفا عندما قال: "ماري .. إنه تشريف كبير لمن كان مثلك في مُبتدأ حياته الوظيفية هنا أن يُدعى إلى هذا النوع من المؤتمرات العالمية ذات المستوى الرفيع .. فأرجو ألا تُفسدي هذه المناسبة .. هل تفهمين ما أعنيه ..؟!" لم تجد ماري ما ترد به عليه سوى أن هزت رأسها بالإيجاب .. ولكنها لم تفهم كيف تحوّل الرجل من حدته فجأة إلى إنسان لطيف رقيق ..!

بعد هذا اللقاء العاصف شعرت دكتورة مارى أن أبواب الجحيم قد إنفتحت عليها وبدأت الحرب الخفية تلاحقها في كل مكان بكلية "بلفورد" : شائعات لا يُعرف مصدرها عن الوافدة الجديدة .. وقبل أن تتعرف إلى الناس أو يتعرفوا عليها تشكّلت ضدها مواقف معادية من جانب زملائها الأكاديميين الذين قاطعوها .. ومن موظفي الإدارة الذين عاملوها بازدراء، ومن طلاب الكلية الذين أمطروها بملاحظاتهم البذيئة .. وقاطعوها وهي تحاضر ، حتى أنها لم تستطع أن تكمل فكرة واحدة طرحتها في محاضراتها .. لقد بلغ انحطاط الشائعات أن نسبت إليها اتهامات في شرفها.

سافرت مارى إلى المؤتمر ولكن بعد عودتها بدأت تشعر بأعراض مَرَضيَّة غريبة، فقد بدأت الطعوم التي حصلت عليها قبل السفر تفعل فعلها الآن .. إنها لم تدرك هذه الحقيقة إلا متأخرا ..

استقبلها رئيس القسم بتجاهل وإعراض شديدين وأخبرها صراحة أنها لم تعد تصلح للعمل في قسمه وعليها أن تبحث لها عن مكان آخر ..

دكتور جاريد ماكِنكولْز:

هنا يتدخل دكتور "جاريد ماكنكولز" رئيس قسم السرطان بنفس الكلية الذي كان معجبا بأخلاقها وعلمها وجمالها ، وأصبح زوجها بعد ذلك .. تدخّل لينقذ حياتها ومستقبلها الأكاديمي ، ولو بصفة مؤقتة فألحقها باحثة في القسم الذي يرأسه ..

الصدفة القدريّة هي التي جمعت الشخصين ليواجها مؤامرة واحدة ومصيرا واحدا ؛ فقد كان دكتور ماكنكولز مستهدفا من داخل الجامعة وخارجها بسبب أبحاثه التي كشف فيها عن حقيقة مرض المحاربين القدامى العائدين من حرب الخليج الأولى في عهد الرئيس بوش الأب .. حيث أكّد أنهم ليسوا مصابين بأمراض عُصابية نفسية (كما يزعم البنتاجون) وإنما هي أمراض عضويّة ويمكن علاجها أو السيطرة عليها بالعلاجات الدوائية ..

وحدد الدكتور ماكنكولز بوضوح مصدر هذه الأمراض بأنها أمراض ناتجة من تعرّض هؤلاء الناس لملوّثات بكتيرية وكيميائية .. وبهذا تحدى الموقف الرسمي الذي أعلنه البنتاجون وأصر عليه وروّج له إعلاميا ؛ بهدف القضاء على الشكوك التي بدأت تساور الأمريكيين حول سر هذه الأمراض وأسبابها الخفية.. حتى لا تتطرق إلى الرأي العام أي فكرة عن وجود أسلحة بيولوجية سرية ، تطوّرها الولايات المتحدة .. فتفقد بذلك فاعليتها، وكان البنتاجون يفضّل التضحية بمرضى حرب الخليج مع علمه أن المصابين منهم ومن أسرهم قد بلغ عددهم مائة ألف أو يزيدون ، على أن يفشى هذه الأسرار العسكرية، واعتبر أن من يتصدى لإفشائها خائن لبلاده.

أما بالنسبة للدكتور ماكنكولز، فإنه كان يرى أن ترك ما يزيد على مائة ألف من الأمريكيين يعانون أمراضا مجهولة العلاج حتى الموت هو جريمة وطنية لا أخلاقية ولا إنسانية، وبسبب هذا الموقف استحق دكتور ماكنكولز هو الآخر العقاب ..!

وسوف نكتشف ونحن نتابع مأساة دكتور ماكنكولز وزوجته مارى أن هناك سببا إضافيًّا آخر لرغبة السلطات داخل الجامعة وخارجها في استئصالهما معًا ؛ فقد كانت مارى هي الوريث الشرعي الوحيد لثروة طائلة تقدر بمليارات الدولارات، أوصى بها أبوها الذي توفى في ظروف غامضة وهي لا تزال طفلة، حيث تولّت أسرة أخرى تربيتها.. وأخفت عنها تماما نسبها الحقيقي وميراثها .

عرفت مارى هذه الحقيقة متأخرا.. وبدأت البحث عن ميراثها والمطالبة به، بل عرفت (أكثر من هذا) أن هناك مجلسا من الأوصياء الأشرار يديرون هذا الإرث وينهبون منه الملايين لخدمة مصالحهم الخاصة .. بل الأدهى من ذلك أن الجزء الأكبر من هذا الإرث يموّل مراكز أبحاث الأسلحة البيولوجية في البنتاجون وفي عشرات من الجامعات الأمريكية من بينها الجامعة التي تعمل هي فيها .. ومن هذا تفهم سر عداء إدارة الجامعة لها وعلى رأسهم مدير الجامعة .. فهم جميعا متعاونون مع مجلس الأوصياء ومع شخصيات ذات نفوذ في الإدارة

الأمريكية للإبقاء على هذه الثروة تحت أيديهم حتى لو اقتضى الأمر تحطيم صاحبة الإرث الشرعية نفسيا وأكاديميا ثم التخلص منها هي وزوجها نهائيا ...!!

وقد جرت محاولات عديدة لوضع السم في طعامها وفي طعام زوجها وأصيبت بأمراض قاتلة لولا وجود زوجها بجانبها في الوقت المناسب لعلاجها وإنقاذ حياتها .. ولم يقتصر الأمر عند ذلك فقط، بل دُبّرت لهما حوادث تصادم بسيارات نقل استهدفت سيارتهم الصغيرة لولا أن تداركتهما العناية الإلهية في كل مرة .. كما تم تحطيم سقف منزلهما واقتحامه والاستيلاء على أوراقهما وأجهزة الكمبيوتر التي يستخدمونها، بقصد الوصول إلى أي دليل لإدانتهما والتشهير بهما. وأخيرا لم يجد الدكتور ماكنيكولز وزوجته بُدًّا من الفرار بحياتهما بعيدا عن الجامعة وعن ولاية تكساس كلها .. ليُنشئا في كاليفورنيا مركزا خاصاً للأبحاث ويواصلا علاج مرضاهم من رجال البحرية الأمريكية، وكان هؤلاء الضباط هم الذين ساعدوهما على الفرار خارج الولاية سرا .. وأصبحوا عونًا لهما في إنشاء هذا المركز ومساندة نشاطهما وأعمالهما في مجالي البحث والعلاج ...

التجربة في كتاب منشور:

قرر الزوج وزوجته أن يسجّلا هذه التجربة الرهيبة في كتاب مفصّل يفضح فريقا من العلماء الأشرار المتآمرين على حياة البشرية مع مجموعة من المتنفذين في الإدارات الحكومية والبنتاجون بصفة خاصة في تطوير وصناعة أسلحة بيولوجية سرية يمكن أن تهدد حياة البشر على هذه الكرة الأرضية بالفناء التام .. جاء العنوان الفرعي للكتاب

"تراجيديا الحرب البيولوجية الأمريكية"، أما العنوان الرئيسي فهو: "مشروع داي ليلي" Project Day Lily، و"داي ليلي" نوع من الزهور الجميلة هي زهرة السوسن أو "زنبقة النهار" أطلقه علماء الأسلحة البيولوجية وصفا لميكروب جديد تخلّق في معاملهم تحت إشراف البنتاجون وهو ميكروب بالغ الخطورة يتسبب في أمراض كثيرة .. ومن خطورته أنه لا يظهر في أي تحليلات معملية للدم وبالتالي يستحيل علاجه .. وبقاؤه سرًّا على هذا النحو

ضروري لاستمرار فاعليته وتأثيره كسلاح سري في الحرب البيولوجية التي تشنها أمريكا على العالم ..

الاسم الحقيقي للمؤلفين هو: دكتور جارث نيكولسون ونانسى نيكولسون، وقد انتحلا في قصة الكتاب إسمين مستعارين هما: جاريد ماكنكولز وماري لوبين .. علما بأن كل الأسماء الأخرى الواردة في الكتاب منتحلة أيضا وليست حقيقة .. وقد نبّه المؤلفان القارئ إلى هذه الحقيقة في مقدمة الكتاب .. وأوضحا السبب في ذلك وهو: أن ذكر الأسماء الحقيقية للشخصيات من شأنه أن يعرضهما لمساءلات قانونية لا قبل لهما بها .. ولكن رغم أن الأسماء مستعارة إلا أن الأحداث الواردة في الكتاب كلها حقيقية .. وكذا الحوارات التي دارت فيه فقد تمّ بناؤها من واقع خبرتهما الشخصية وذكرياتهما .. ومن شهود عيان تطوعوا بنقلها إليهما .. أما الحقائق العلمية التي نوقشت في الكتاب فهي صحيحة أيضا.

وقد تم توثيقها في دراسات وأبحاث منشورة .. وفي تقارير وشهادات رسمية أمام لجان تحقيق رئاسية وفي الكونجرس الأمريكي .. إنها تجربة بالغة الغرابة أودعها المؤلفان في كتاب من ٥٦٨ صفحة مشتملة على الوثائق والتقارير الرسمية في ملاحق الكتاب .

نماذج غريبة من الشخصيات :

يصور المؤلفان شخصيات الكتاب تصويرًا دقيقًا يرقى إلى مستوى الأدب الرفيع، وذلك من خلال حركاتها وسلوكها والحوارات التي دارت بينها .. وقد صيغ كل هذا صياغة أدبية محكمة تجعلنا نشعر أنها تعبّر تعبيرًا صادقًا عن السمات الفريدة المتميزة لكل شخصية على حدة .. ومن خلال حواراتهم وسلوكهم يتبين لنا أن أكثر هؤلاء العلماء منخرط في هذا النشاط اللاأخلاقي بل الإجرامي – وأقصد به إنتاج أسلحة بيولوجية قاتلة (عن اقتناع) وكأن الواحد منهم يحقق أيديولوجيته الخاصة ورؤيته للعالم والبشر .

ولكننا سنصادف أيضًا علماء آخرين -على قلّتهم- قد إنخرطوا مرغمين في هذا النشاط ولم يدركوا حقيقة ما تورطوا فيه إلا متأخرًا .. وحينذاك تبيّن لهم أنه لا فكاك لهم، لأن حياتهم وبقاءهم مرهونان بالكتمان والاستمرار في العمل وعدم البوح بأسراره .. وأمامهم أمثلة بارزة على ذلك ؛ حيث فقد خمسة من العلماء حياتهم في ظروف غامضة لأنهم أبدوا إعتراضهم على الأسلحة البيولوجية وأرادوا الانسحاب من هذه المهمة الإجرامية .. بل إن جنرالًا في البحرية الأمريكية فقد حياته بنفس الأسلوب لمجرد أنه تجرّأ وحاول التحقّق والبحث عن طبيعة "ظاهرة مرض حرب الخليج" .. حيث بدأ يتشكك في الرواية الرسمية للبنتاجون والحكومة .. تلك الرواية التي تزعم: أنه مرض نفسي أصيب به الضباط والجنود بسبب ضراوة الحرب وأنه لا صلة له بالأمراض العضوية أو التعرض لمواد ملوثة بالبكتيريا أو غيرها من أسلحة الدمار الشامل ..

ومن الشخصيات المغلوبة على أمرها نصادف الدكتور "مِنْج لون" وهو عالم صيني عبقري من علماء الأحياء الدقيقة .. فرّ من الصين ولجأ إلى الولايات المتحدة، حيث سقط في شباك عصابة الأسلحة البيولوجية .. يقول عنه الكتاب: إنه عالم فذ ذو نزعة إنسانية ولكنه غير قادر على مقاومة أوامر رؤسائه حتى عندما تبين له أنها ضد الإنسانية وضد الأخلاق. ويعزو الكِتاب ذلك العجز جزئيًا إلى أنه قد اعتاد على طاعة رؤسائه السابقين في النظام الشيوعي الاستبدادي دون مناقشة ..

يعتقد دكتور منج لون أن فيروس الإيدز (HIV) وحده لا يقتل الإنسان وإن كان أحد أسباب هدم جهاز المناعة .. فقد لوحظ من الحالات التي فحصها لمرضى الإيدز وجود بكتيريا مصاحبة من نوع خطير من "المايكوبلازما" واستطاع أن يعزو التدهور السريع لجهاز المناعة إلى هذه البكتيريا لأنها على خلاف فيروس الإيدز قادرة على خداع خلايا المناعة .. حيث تتغلغل في أنسجة الجسم وأعضائه وتختفي تمامًا من مجرى الدم، فلا تظهر في أي تحليل لدم المريض..

قال وهو يتحدث إلى رئيسه الجنرال "آرمهوايت": "الذي يحيرني حقًا هو كيف دخلت المايكوبلازما هذه إلى مرضى الإيدز..!" هنا يتنبه جنرال آرمهوايت أن منج لون قد وصل إلى منعطف خطير في استفساراته، فنظر إليه محذّرًا في لهجة واضحة التهديد .. قال: يجب أن تتنبه أننا عندما نتحدث عن الإيدز فيجب أن نحصر كلامنا عن فيروس الـ HIV .. ونقطع ألسنتنا تمامًا عن الخوض في المايكوبلازما المصاحبة لهذا الفيروس .. إن آلاف الأطباء في العالم يتعاملون مع الإيدز ويتحدثون عنه ولا يذكرون فى حديثهم ولا يتشككون فى وجود أي مكروب أو فيروس آخر إضافي مصاحب لفيروس الإيدذ .." . لاحظ الجنرال آرمهوايت أن منج لون يهز رأسه صامتًا وقد بدا على وجهه الوجوم وعدم الاقتناع فواصل تحذيراته بعبارات صارمة وجارحة في نفس الوقت .. حيث قال: "مِنج .. إنك تثير غضبي بسبب ما يعتريك من نوبات إنسانية تافهة من وقت لآخر .. لا تنْسَ أننا توصّلنا إلى سلاح بيولوجي رائع .. إنه آخر شئ يمكن أن يتوقعه أي إنسان .. فهو ينتج عددًا لا حصر له من الأعراض المرضية المحيرة للإنسان تسلمه إلى الموت أو العجز المزمن ؛ وبهذا يمنحنا ميزة فائقة على المدى الطويل -فيما يتعلق بأهدافنا العسكرية- ضد الدول المارقة والمشاغبة مثل كوبا وكوريا الشمالية .. فانتشار العجز بين سكان هذه البلاد المعادية يمكن أن يؤدى بها إلى الإفلاس .. حيث يتحول العدد الأكبر من الناس إلى مُعَوَّقين غير قادرين على الإنتاج"..

هز دكتور "مِنْج لون" رأسه مستنكرًا وحاول مرة أخرى أن يوضّح فكرته مبديًا شكّه في القدرة على احتواء هذا المرض .. قال: "إذا تحول هذا المرض إلى وباء فلن ينجو منه الجنود الأمريكيون بل سينتقل معهم إلى أسرهم هنا .. و لن ننجو منه نحن كذلك ..! .. أنا لا أظن يا سيدي أنه مرض يمكن السيطرة عليه.. ولا أعتقد أن المضادات الحيوية ستكون ذات فاعلية في هذه الحالة" ..

زمجر جنرال "آرمهوايت" وردّ بحزم بادى العنف: "دكتور لون .. العلماء من أمثالي وأمثالك لن يصيبهم هذا المرض أبدًا بسبب هذا الكائن الدقيق .. إننا

كائنات مختلفة .. إننا علماء كبار .. من جنس أعلى شأنًا من بقية الناس .. إننا نملك مفاتيح هذه الأسرار المستغلقة على سائر البشر"..!

لم يستسلم دكتور لون بعدُ بل مضى في محاولة إقناع الجنرال فألقى بآخر ما في جعبته من هواجس ومخاوف حيث قال: "سيدي .. إن إطلاق هذا الكائن بين الناس قد يتسبب في كوارث لا حدود لها .. فهو ميكروب قابل للتشكّل والتكيّف وتتغير خصائصه بمرور الوقت .. ومن ثم يصبح شرساً لا نستطيع مقاومته..!".

أجاب الجنرال نافذ الصبر: "مِنْج .. يجب أن تتوقف عن هذا الهراء والجدل العقيم .. لقد أصبح الأمر خارج أيدينا الآن .. إنه الآن في يد أعلى مستويات الإدارة السياسية للبلاد".

في هذه الأثناء جاء الدكتور "دويْتشمان" وقد تناهت إلى مسامعه أطراف من الحديث فأراد أن يساند الجنرال .. قال وهو يوجه النقد إلى دكتور منج لون: "لا تكن شديد النبل يا دكتور منج .. فالأرض قد ضاقت بسكانها .. وإبادة هذه الجحافل من السكان المتخلّفين يترتب عليه بالتأكيد تحسّن في وسائل العيش على هذا الكوكب .. أنظر إلى أفريقيا وآسيا وغيرهما من قارات العالم الثالث وهي تعج بحشود من البشر .. هذه "المايكوبلازما" سوف تقوم بعمل رائع في خدمة أهدافنا السياسية العليا على المدى البعيد .. هل تحتاج إلى أن أذكّرك ..؟ إنها أهداف من شأنها أن توفّر الفرصة لعدد أقلّ من سكان هذا الكوكب -هم صفوة الصفوة- للتحكم في موارد الأرض .. تذكّر أيضًا أن هذا الانفجار السُّكّاني الذي نشهده اليوم يعوق أهدافنا التي رسمناها للقرن الواحد والعشرين..! إن بقاء هذه الأعداد الهائلة من البشر سوف يحدث خللًا خطيرًا في النظام العالمي الجديد..! أنت مثلًا جئت هاربًا من الصين الشيوعية .. تصور ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن مجموعة من القادة الشيوعيين الأغبياء قد تمكنوا من السيطرة على العالم ..! إن العالم كله سوف يصبح مثل الصين الحمراء..!".

تمهّل دكتور "منج لون" قليلًا حتى تهدأ انفعالات "دويتشمان" ثم ابتدره بقوله: "ولكن يا سيدي ليس كل الناس أقوياء بدنيًّا وعقليًّا في آن واحد ..

ونحن نعلم أن بعض عظماء التاريخ كان من بينهم أناس معوّقون بدنيًّا ولكنهم عباقرة .. فإذا انتشر هذا الوباء الذي نشارك في صنعه سيكون أمثال هؤلاء العباقرة هم أول الضحايا" .

هنا تدخل الجنرال آرمهوايت ليحسم الأمر وينهى الجدل .. قال: "من يحتاج مثل هؤلاء المعوقين.!؟ فليذهبوا إلى الجحيم .. إن العالم سيكون أفضل إذا تخلّصنا منهم .. أمضوا إلى أعمالكم يا سادة وكفى جدالًا" .

علماء ولكن أشرار:

هناك نماذج أخرى من الشخصيات المعقدة تعمل في الجامعة ومراكز الأبحاث بها .. مما يصوّره الكتاب أحسن تصوير .. من هذه النماذج شخصية دكتور "جيلتر" ودكتورة "آمى كرابنر" .. فدكتور "جيلتر" يتمتع بقدرة هائلة على إخفاء حقيقة ما يكنُّه من مشاعر تجاه الآخرين، حيث يظهر لهم المودة، بينما يدبر لهم المكائد في الخفاء للإيقاع بهم .. وهو دائم المفاخرة بما يتمتع به من مواهب عبقرية مزعومة وبما تم إنجازه على يديه .. وفي الحقيقة ما يزعم هو أنها إنجازات ليست أكثر من مبالغات، أو إنتحالات من أعمال الآخرين، الذين أوقعهم الحظ العاثر تحت سيطرته الإدارية .. أما عبقريته الحقيقية فتتجلى في قدرته على الخداع وتدبير المؤامرات للآخرين، وتشويه سمعتهم بنسبة أشياء سيئة من صنع خياله الخصب إليهم ...

وتتجاوب مع هذه السمات الشيطانية دكتورة "آمى كرابنر" .. هذا إلى جانب كونها قبيحة الوجه حقود وتافهة .. ومن ثم فلا عجب أن يتوافقا معا في التآمر على زميلة لهما بالكلية تتمتع بقسط ملحوظ من الجمال والاستقامة والإنجازات العلمية الحقيقية هي الدكتورة "مارى لوبين" .. وهكذا بدأ دكتور جيلتر ودكتورة كرابنر في نسج شائعات مهينة عنها .. فعندما أصيبت بمرض غريب (بسبب سموم وضعت لها في الطعام) أشاع جيلتر وكرابنر أنها لا تعانى من مرض عضوي، ولكنه مجرد أعراض عصابية لمرض نفسي ..

وينضم إليهما أستاذ ثالث من الشخصيات المرموقة في الكلية هو دكتور "جراهام" إذ يساهم بنشر شائعات كاذبة ضد دكتورة مارى لتيئيسها ودفعها إلى الجنون أو الإنتحار .. لذلك وجدناه يسعى بين أعضاء هيئة التدريس والطلبة والإداريين بقصة لا يملّ من ترديدها .. مفادها: أنها سرقت رسالتها للدكتوراه من أحد طلابها ثم حطمت مستقبله .. وأن الأستاذ الذي كان يشرف على رسالتها راودها عن نفسها فأذعنت له .. ولولا ذلك ما حصلت على درجة الدكتوراه.

تلك عينة من البشر إختارهم مدير الجامعة المرموز إليه في الكتاب باسم "دكتور ماستر" ليقوموا نيابة عنه بالأعمال القذرة بل والإجرامية ضد مارى وزوجها.

في هذه الأثناء يلقى دكتور " كانون" مصرعه في ظروف غامضة داخل مكتبه في الجامعة ويشيع مدير الجامعة أن تحقيقات الشرطة كشفت عن قاتله وهو إرهابي من أصل إيراني .. والحقيقة أن تحقيقات الشرطة لم تسفر عن شئ وقيّدت الحادثة ضد مجهول .. ثم تتوالى الاغتيالات لخمسة آخرين من العلماء بالجامعة وتُلفّق التحقيقات على نفس المنوال.

كانت دكتورة مارى تعتزم السفر إلى بريطانيا للمشاركة في مؤتمر ينعقد في جامعة أكسفورد، ووجدها مدير الجامعة فرصة للتخلص منها بعيدًا عنه فجمع أتباعه وأخطرهم بالمهمة الجديدة ثم ترك لهم تدبير التفاصيل وحذّرهم في نهاية الاجتماع قائلًا: "أنا لا أريد أن أعرف ما ستفعلونه ولا متى .. أنا مهتمّ فقط بالنتائج .. لا يَرِدُ اسمي على ألسنتكم .. ولا تتصلوا بي أثناء العملية .. هذه العملية يجب أن تكون محكمة غير قابلة للاكتشاف" .

وفي محاولة أخرى يجرى حوار طويل بين دكتور "بِلْتشَرْ" نائب رئيس الجامعة للأبحاث وبين دكتور" إيطاليانو" المكلّف بمهمة جديدة لاغتيال دكتورة مارى .. وعندما أبدى إيطاليانو بعض الاعتراض عنّفه محذرًا: " دعني أضع لك المسألة بطريقة أخرى -كما فهمت من دكتور ماستر- إذا لم تشارك في هذه المهمة وتفعل ما تؤمر به فلن يكون لمكانك أو مركزك وجود في خطة الجامعة القادمة" .. وكذلك يريد بلتشر ألا يذكر إيطاليانو شيئًا عن رئيس

الجامعة أو عنه شخصيًّا فيقول: "أنا ليس لي أي علاقة بالموضوع .. ولم أتحدث إليك بشئ .. هل فهمت..؟!" فلما واصل إيطاليانو اعتراضاته ألقى إليه بلتشر بآخر تهديد قال: "أنت تعرف أن هذه ليست أول مرة تقوم بخدمة مماثلة لدكتور ماستر .. أم أنك قد نسيت..!!" هنا انهارت مقاومة إيطاليانو فجأة وشرع يسأل مع زملائه: "ما هي الجائزة والزيادة في المرتبات والحسابات البنكية..!!".

أقول معلقًا: عندما يوجد شخص ما على رأس مؤسسة علمية مثل الجامعة يديرها بعقلية رئيس عصابة .. وعندما يكون مسئولًا عن تطوير مشروع إجرامي في الأسلحة البيولوجية السرية متسترًا تحت غطاء الجامعة وسمعتها العلمية ... لابد أن يسرى الفساد في هذه المؤسسات إلى النخاع .. ولا يُستغرب أن تطفو على السطح وتبرز مثل هذه الشخصيات المنحرفة فتملأ المكان بالعفونة والشر .. وتُطارد الشخصيات التي تتمسك بنبلها الأخلاقي وكرامتها العلمية من أمثال دكتورة مارى وزوجها دكتور جاريد.

عندما قرر (رئيس العصابة) التخلص من دكتور جاريد ماكنكولز (الاسم الرمزي لمؤلف الكتاب) بعث إليه بثعبان ناعم الملمس هو دكتور "كلينجر" .. جاءه بوجه بشوش هادئ ليسمح له بالمشاركة في اجتماع علمي مع زملاء لدكتور جاريد قادمين من هولندا .. وحرص أن يجلس على مائدة الطعام بجوار دكتور جاريد ليدسّ له السم في طعامه على غفلة منه .. ولكن دكتور جاريد أصبح يتوجس خيفة من تناول الطعام خارج بيته بعدما تكررت محاولات تسميمه هو وزوجته .. فاقتصر على تناول لقيمات قليلة .. ومع ذلك شعر في تلك الليلة بآلام حادة في معدته وتأكدت بذلك شكوكه في دكتور كلينجر.

تصاعدت محاولات إغتيال دكتور جاريد وزوجته وتعددت أساليبها .. وقد سبق أن أشرنا إلى محاولة بعض سيارات نقل كانت تتحرش بسيارتها الصغيرة والتصادم بها فى الطريق .. كما لاحظ دكتور جاريد أن حرس الجامعة يتربصون به لقتله عند خروجه من الجامعة فكان يتخذ فى كل مرة طريقا مختلفا بعيدا عن أعين الرقباء .. وفى إحدى الأُمسيات وهو عائد إلى منزله جرت مطاردة له، ولكنه تمكن من الإفلات منهم .. ويلغ الأمر بالتحرّشات والاعتداءات إلى

درجة السّطو على منزلهما وسرقة وثائق وملفات خاصة بهما.. كما سُرقت عينات الدم والأنسجة التي حصلا عليها من مرضى حرب الخليج (لفحصها) في معملهما بالكلية .

رئيس الجامعة يكشّر عن أنيابه :

ضيّق عليهما رئيس الجامعة الخناق والمحاصرة .. وفُرضت الرقابة الكاملة على اتصالاتهما وبريدهما والفاكسات التي تصل إليهما في الجامعة.. فكانت هذه كلها ترسل إلى رئيس الجامعة أولا لفرزها او حجزها لديه إذا لزم الأمر .. فقد قرر الرجل حرمانهما من كل نشاط علمي : فلا ندوات ولا محاضرات ولا مقابلات صحفية ولا نشر لأبحاثهما في مجلات علمية ...

فلما فشلت كل محاولات الاغتيال قرر إبعادهما نهائيًّا من الجامعة .. فسلط على دكتور" جاريد " لجان تحقيق وجّهت إليه إتهامات .. أبطلها بحججه ومنطقه .. وأخيرًا قام رئيس الجامعة بتشكيل لجنة عليا برئاسته وعضوية نوابه الكبار للنظر في أبحاثه وتقييمها وإثبات تجاوزاته للنظام الجامعي .. كانت أسئلة المحققين تُصوّب إليه كالرصاص من كل جانب باستفزاز واضح .. ولكن دكتور جاريد امتصّ غضبه بهدوء وأجاب عليهم إجابات منطقية أفحمتهم جميعًا .. ثم شرع يهاجم مواقفهم ويكشف عما فيها من تناقضات .. مما جعل أحد أعضاء لجنة التحقيق يبدى إمتعاضه من أسلوب المحققين المستفزّ والهجوم الذي لا مبرر له على زميل لهم من كبار العلماء ...

فلما تبين للرئيس أن الطوق الذي أحكمه على رقبة دكتور جاريد بدأ ينكسر وأنه لا فائدة من الاستمرار في التحقيق .. وقف فجأة بادي الإحباط ثم أشار بانتهاء الجلسة وانفض الجمع إلى حال سبيله ... ولكن دكتور جاريد أيقن أنه لا سبيل إلى بقائه في هذا الجحيم وأنه لم يعد أمامه هو وزوجته غير الفرار..

كانت بداية اهتمام دكتور ماكنكولز بالظاهرة التي أُطلق عليها مرض حرب الخليج عندما عادت إبنته مريضة .. وكانت مجندة في حرب الخليج الأولى .. كانت تعانى من مرض غريب أبرز أعراضه الإعياء الشديد المزمن مع تدهور في

صحتها العامة .. وقد صنّفها أطباء الجيش مع الأمراض النفسية كغيرها من العائدين من الحرب .. ولكن أباها وهو الطبيب العالم فحصها وتأكد أنها لا تعانى من أي اضطرابات نفسية .. وإنما هى مصابة بنوع من الميكروب يسمى "مايكوبلازما فِرْمِنْتَانْس" Mycoplasma Fermentans.

أكد هذا الاتجاه عند دكتور ماكنكولز أن دكتور "موشى" – من أطباء الجيش – قد تشكك هو أيضًا في الحالات المرضية للجنود العائدين، حيث لاحظ أنها لا تستجيب للعلاجات النفسية العصبية .. فأحال بعضهم للدكتور ماكنكولز لفحصهم وعلاجهم .. هؤلاء الجنود والضباط الذين تحقق الشفاء لهم على يد دكتور ماكنكولز كانوا أكبر دعاية له في أوساط القوات البحرية وأسرهم ممن يعانون من أعراض مماثلة .. وكانوا أكبر عون له في محنته مع إدارة الجامعة، وفي إنشاء مركز أبحاثه الخاص بكاليفورنيا .

إنفتاح الأفق:

من هنا فصاعدًا سوف نشير إلى صاحبي القصة باسميهما الحقيقيين: جارث نيكولسون ونانسى نيكولسون .. ونهمل الاسم المستعار (جاريد وماري ماكنكولز) .. فقد حدث تغير جذري في حياتهم : كانا ممنوعين -أثناء عملهما بالجامعة- من التحدّث إلى الصحافة والإعلام .. بل من المحاضرة أوالاشتراك في المؤتمرات العلمية .. ولكن بنضالهما ومساعدة أصدقائهما في القوات البحرية والكونجرس إنفتح الطريق أمامهما لمخاطبة الرأي العام الأمريكي على نطاق واسع .. وتمكّنا من المحاضرة في وزارة الدفاع وفي إدارة المحاربين القدامى ..

واستطاع دكتور جارث نيكولسون تقديم تقارير مفصلة إلى الكونجرس وأدلى بشهادته (تحت القَسَم) أمام لجنة المحاربين القدامى .. وجاء تقريره في ٢٤ يناير ٢٠٠٢ شاملًا وقاطعاً ومدعّمًا بالوقائع والأدلة العلمية المستخلصة من دراسته وفحصه لعدد كبير من مرضى حرب الخليج .. واستطاع أن يلفت نظر البنتاجون بقوة إلى ضرورة الإعتراف بحقيقة المرض والبدء في علاجه بالطريقة

الصحيحة .. باعتباره مرضًا عضويًّا لا علاقة له بالأمراض النفسية .. وقد أثبت في تقريره الحقائق التالية:

١. أن المرضى قد تعرضوا في حرب الخليج لمواد كيمائية سامة ولأشعة ذرية ولأسلحة بيولوجية.

٢. أن المرض قد انتقل إلى أفراد أسر الضحايا الأكثر إختلاطًا بهم.

٣. وجود نوع من بكتيريا المايكوبلازما يسمى "فرمنتانس".

٤. وجود أعراض مرضية ناتجة من تحلّل الجهاز العصبي المركزي ؛ منها مرض الإعياء الشديد المزمن المسمّي "فيبروميولوجيا".

٥. إمكانية علاج إصابات المايكوبلازما بنوع من المضادات الحيوية هي: دوكسيسكلين.

وشدّد دكتور نيكولسون في نهاية تقريره على ضرورة محاكمة المسئولين عن إعداد الجيش للمعارك وعن إنكار حقيقة المرض والمماطلة في علاجه ..

وردت في ثنايا الكتاب حقائق أخرى كثيرة بعضها جاء عرضًا .. ولكن في مجموعها تستحق من القارئ المحلل كثيرًا من التفكير والتأمل .. فوق أنها تثير تساؤلات مهمة منها مثلًا: أي نوع من النظام هذا الذي يحكم الولايات المتحدة..؟! .. من هذه الحقائق:

١- اعترف الجنود المرضى بأن قياداتهم أمروهم بتلقي عدد كبير من التطعيمات قبل الذهاب إلى الجبهة بزعم أنها ضرورية لمقاومة آثار الأسلحة ذات الدمار الشامل التي عند صدام حسين .. وأمروهم ألا يفصحوا لأحد عن هذه التطعيمات حتى لا يفسد صدام حسين هذه الخطة ..!

٢- حصل دكتور نيكولسون على تقارير من أصدقاء له في منطقة الشرق الأوسط عن تفشى أمراض الإنهاك المزمن والسرطان بشكل ملحوظ بين الأهالي في المناطق العسكرية ..

٣- عندما تفجر موضوع ظاهرة مرضى الخليج في الإعلام الأمريكي اختفت الطعوم المخزّنة بالآلاف حتى لا يتم فحصها في أي تحقيق محتمل .. وفعلًا عندما طلب الكونجرس ملفّات هذه الطعوم للتحقيق لم يحصل على شيء..

٤- عرف دكتور نيكولسون من حراس سجون تكساس الذين لجأوا إليه لعلاجهم عن جوانب مروّعة من التجارب التي أُجريت على نزلاء السجون دون علمهم بحقيقة هذه التجارب ، فلما فقدوا حياتهم قام الجيش بنقلهم إلى معسكراته .. حيث أحرقت جثثهم مع سجلاتهم في مدافن خارج المدينة .. وقال أحد الحراس إن الجيش أخذ صورة من هذه السجلات كما أخذ تعهّدات منا إذا وجدنا أي ملفات أخرى مفقودة، فإن من وجدها مسئول عن تسليمها فورًا إلى الجيش ..

٥- دكتور تشارلز مورفى: ضابط طبيب بالبحرية الأمريكية كان رئيسًا لوحدة مهمتها إجراء تجارب على بعض المتطوعين المجندين في البحرية في أحد المستشفيات العسكرية ، أفلت أحد ضحاياه من الموت وجاء يطلب مساعدة دكتور نيكولسون .. إنه المجنّد "مايكل جونز" .. يقول: "عندما أفقت من إحدى النوبات التي انتابتني أثناء التجارب سألت الممرضات عن زملائي المتطوعين فعرفت أنهم قد ماتوا جميعًا ولم يبق سواى .. فلما ذهبت إلى دكتور ميرفى أستفسر منه ، أنكر الواقعة تمامًا .. بل أنكر أنه عمل في المستشفى الذي ذكرتُه له وكنت أخضع فيه لتجاربه ، كذلك أنكرت القوات البحرية وجود إسمي ضمن سجلات مرضاها.." ولكن مع إصرار المجنّد ومساعدة نائب الكونجرس عن ولايته تمكّن من إسترجاع ملفّه الطبي من المستشفى .. وظهر توقيع دكتور مورفى عليه مصحوبًا بخاتم مكتوب عليه [تجارب الحرب البيولوجية] .

٦- أعجب ما ورد في الكتاب من أخبار دكتور مورفى هذا أنه عمل فترة من الوقت رئيساً لمعمل أبحاث خاص بالحرب البيولوجية في مصر .. [طبعًا هو مركز أمريكي ..! يذكر الكتاب أنه معروف باسم "مركز أبحاث أمراض المناطق

الحارة" .. فأي مركز هذا ..؟ وفي أي موقع يوجد على خريطة المحروسة ..؟ وماذا كان يفعل دكتور "مورفى" في مصر ..!؟]

هذا "المورف" الذي لم يتورّع عن استخدام مواطنيه الأمريكيين حيوانات تجارب على الأسلحة البيولوجية هل يتورع عن استخدام المصريين التعساء الذين تغص بهم المستشفيات العامة ويموت منهم العشرات يوميًا في صمت – هل يتورع عن استخدامهم حيوانات تجارب للحرب البيولوجية ..؟! سؤال يحتاج إلى بحث قد لا أطيقه ولا أشعر بقدرتى على المواصلة فيه رغم أهميّته البالغة ولكن يكفي أننى قمت بواجب التنبيه إليه .. !

من هما المؤلّفان ..؟

ما ورد في هذا المقال ليس قصة أدبية من نسج الخيال .. وإنما هى وقائع وأحداث حقيقية جرت على الأرض .. هي حقائق عاشها شاهدا عيان وكانا من ضحاياها .. وشاءا أن يسجلاها للتاريخ والعبرة في كتاب .. وليس المؤلفان شخصين عاديين .. ولا صحفيّين ممن يجرون وراء الأخبار المثيرة لإمتاع القراء ونيل الشهرة .. إنما هما من أبرز العلماء وأكثرهم شهرة في الولايات المتحدة .. وضعهما القدر -في مرحلة من حياتهما- معًا في واحد من أكبر مراكز تطوير الأسلحة البيولوجية في العالم .. إنهما الزوجان دكتور جارث نيكولسون ونانسى نيكولسون ..

الأول هو [الآن] مدير وكبير العلماء في أشهر مركز أبحاث طبية بهانجتون في ولاية كاليفورنيا .. كان في السابق أستاذ الطب التكاملي في جامعة كابتول .. كما عمل أستاذًا في جامعة "نيوكاسل" بأستراليا ، ثم في جامعة تكساس .. تعتبر أبحاثه وكتاباته من أهم المراجع التي يحرص الباحثون على الاتصال بها، لمعرفة آخر تطورات البحث العلمي في الكائنات الدقيقة.. نُشر له أكثر من ٢٥٠ دراسة علمية وطبية .. وحرر ١٤ كتابًا لمجموعة من كبار العلماء .. وعمل في مجالس تحرير عشرين مجلة طبية وعلمية .. وهو الآن رئيس تحرير مجلتين علميتين .. حصل على جوائز عديدة في الطب والعلوم من الولايات المتحدة وبريطانيا.

أما زوجته وشريكته في تأليف الكتاب فهي رئيسة مجلس إدارة المركز المذكور.. عملت في كثير من الجامعات الأمريكية ، ونُشر لها خمسون بحثًا علميًا مرموقًا .. وحاضرت في مؤتمرات علمية عالمية بالولايات المتحدة وخارجها .. بلغ عددها ٦٠ مؤتمرًا .. وحصلت هي أيضًا على جوائز علمية .. وكانت امرأة العام العلمية سنة ١٩٩٦ – ١٩٩٧م ..

مركز الأبحاث الطبية الذي يملكه الزوجان العالمان ، طبّقت شهرته الآفاق .. وله موقع على الإنترنت يحظى باحترام واسع من العلماء ، وهو مؤهل لزيارة عشرات الألوف من المستفسرين وطالبي العلاج والمؤيدين لتوجّهات المركز والمساندين له في أنحاء العالم. وعنوانه على شبكة الإنترنت هو www.immed.org لمن أراد أن يتثبّت.

لندن فى ١٥نوفمبر ٢٠١٠

****

العالم الذى خلفه وراءه

رواية لأديب مصرى فى المهجر

هذه رواية تصوّر حياة أسرة مصرية من الطبقة الوسطى تعيش فى القاهرة، ولكن لها أصول ريفية فى بعض قرى الدلتا بمحافظة الدقهلية ؛ فنحن أمام أسرة وُلد أبناء الجيل الثانى منها و عاشوا حياتهم فى المدينة بعيدا عن القرية، وأسرة أو أسر ريفية تمثل جذور الأب والأم .. هما إذن مجتمعان أو عالمان مختلفان كثيرا؛ فى أساليب المعيشة.. وفى سلّم القيم السائدة.. وفى نظرة كل منهما إلى العالم وإلى الناس .. ومع ذلك نجد أن أعضاء هذين المجتمعين حريصون على ألا تتقطع وشائج الصلة فيما بينهم ، بل نجد علاقات حميمة تقرّب بعضهم من بعض ، يفهم كل منهم الأخر، ويقدّر ما بينهم من إختلافات ، سواء كانت اختلافات فكرية أو سلوكية.. وسنرى أن هذه الاختلافات فى النظرة والسلوك ليست مصدر تباعد أو نفور بقدر ما هى مصدر تواصل وتكامل .. وفى كثير من الأحيان مثار تعليقات فكهة، وحكايات يتندّر بها الكبار والصغار فى مجالسهم ، بمزيج من الدهشة المعلنة والفخر المكنون..

يرجع المؤلف إلى ذكريات طفولته الأولى فى الزقازيق فيروى لنا أطرافا من حياة الأسرة فى مجتمع هادئ مستقر تجرى فيه علاقات أخوية وجوار بين الأسر المسلمة والمسيحية، كعنصرين متلازمين فى المجتمع من قديم الزمن. قد يضطرب هذا المناخ السلمى أحيانا وتتعكر المياه فى أجزاء من مجراه بسبب حدث طارئ، عادة ما يكون مصدره شائعات بين بعض الجهلاء، ولكن مثل هذه الأحداث نادرة الوقوع ، سرعان ما يتم إحتواؤها فى جوّ وُدِّيّ، من خلال قنوات التواصل بين العقلاء من الجانبين.

ولعل المؤلف هنا يحاول أن يلفت نظرنا إلى أن هذا المناخ الإجتماعى الصحي ، كان هو السائد المستقر فى مصر.. وأن الذى يحدث الآن من إضطرابات بين المسلمين و المسيحيين، تعددت وتيرة حدوثها وعلا صداها فى

الصحافة والإعلام بشكل غير مسبوق، مما يعكّر الأجواء المتوترة بين المواطنين المسيحيين والمسلمين.. لابد أن يكون عنصرا دخيلا.. تغذّيه مصالح سياسية مشبوهة.. وليس جزءًا طبيعيا من العلاقات الأصيلة بين المصريين، وتاريخهم الطويل و العريق فى التفاهم والتسامح.

تغطى الرواية فترة تمتد على مدى عقدين من الزمن، و بالتحديد سنوات الأربعينات و الخمسينات من القرن العشرين.. و الذين عاصروا هذه الفترة بوعي -وهم الآن قِلَّة قليلة- يعلمون أنها كانت فترة حافلة بالأحداث الجسام والتحوّلات الكبرى فى تاريخ مصر.. لقد شهدت هذه الفترة تغيرات هائلة وصراعات وإضطرابات خطيرة على المستوى المحلى والعالمى على السواء؛ وقد إنعكس هذا كله على حياة المجتمع المصرى بأسره .. يطرحها المؤلف فى روايته فيبرز ملامحها وآثارها العميقة فى وقائع حيّة تشكل فى حقيقة الأمر الخلفية الاجتماعية و الفكرية لكل ما يجرى من أحداث وتطورات درامية فى محيط أسرة السيد المصرى: فى حياة أفرادها و علاقاتهم بعضهم ببعض؛ و علاقاتهم بالآخرين فى المجتمع، وبصفة خاصة مشاركة بعض أفرادها فى الحركة الوطنية، وتعرضهم لاضطهاد السلطات الحاكمة بسبب هذا النشاط.

هذه إذن رواية واقعية، بمعنى أنها تصف واقعا حقيقيا لأسرة مصرية محددة، يعرف المؤلف أفرادها معرفة حميمة، يعرف أوضاعهم ويحس بمشاعرهم ويشاركهم فى أفراحهم وهمومهم، ويعانى معهم صعوباتهم ومشاكلهم الطارئة والمزمنة، وهي مشكلاة حقيقية وليست متخيلة، ومن هنا جاء صدق الرواية، وأصالتها، ولكن المهم أن المؤلف لا يلجأ إلى السرد التاريخى المباشر، بل يصف الواقع مغموسا برؤيته الخاصة للشخصيات والأحداث، وما تمثله هذه الشخصيات من قيم وتأثيرات على مجرى الأحداث والوقائع، فى سياق درامي يدمج القارئ فى تياره بطريقة طبيعية لا افتعال فيها؛ فإذا به مثلا يتعاطف مع شخصيات بعينها، لا يملك إلا أن يمنحها مشاعره.. أستطيع أن أصف شعورى الخاص مثلا تجاه شخصية سميحية وهى شخصية محورية فى هذه

الرواية، يتفاعل حول مشكلتها أفراد الأسرة جميعا، وتتشكل مواقفهم، وتوتّراتهم بعضهم مع بعض..

سميحة هى أصغر أفراد الأسرة، وجدت نفسها فجأة محرومة قهرا من مواصلة الدراسة.. لم يكن ذلك عن ضيق ذات اليد، فالأسرة واحدة من أسر الطبقة المتوسطة.. ميسورة الحال فى ذلك الزمن، عائلها فى وظيفة لا بأس بها، ذات دخل كافٍ ليجعلها أسرة مستورة، وتملك الأم بضعة أفدنة من أرض زراعية ورثتها عن أبيها، وهى لا تبخل بإسعاف الأسرة بالمال عندما تطرأ ظروف تستدعى مساعدة إضافية. كل أخوة سميحة وأختيها الأكبر منها، واصلوا تعليمهم حتى المرحلة الجامعية، بعضهم تخرج، وحصل على وظائف محترمة وبعضهم مازال يواصل تعليمه بلا انقطاع.. و لم تكن سميحة متخلّفة فى دراستها ولا راغبة عنها، بل كانت مقبلة على الدراسة بحماس، ومتفوقة على قريناتها فى المدرسة.. والغريب أن والدها -وهو رب الأسرة المسئول- لم يكن هو الذى اتخذ قرارا بوقفها عن مواصلة الدراسة، وإذن فمن صاحب هذا القرار المشئوم..؟ إنه الأخ الأكبر "سى نادر" هكذا كان يخاطبه الجميع داخل الأسرة.

لـ (سى نادر) هذا مكانة متميّزة بين جميع الأخوة والأخوات؛ فالجميع يعملون له ألف حساب .. شعورهم نحوه مزيج من الاحترام والاعتزاز.. ولكنه احترام مشوب بالخشية من انتقاداته المستمرة لهم، ومن تعليقاته اللاذعة على تصرّفاتهم.. صغُرت أو كبُرت، كأنه رقيب عتيد يحصى عليهم الأنفاس .. ربما كانت هذه طريقة مبطّنة لبسط سيطرته على الآخرين. إذا نظرت إلى سى نادر من الخارج لا تملك إلا الإعجاب به؛ فهو رجل هادئ رابط الجأش شديد الثقة بنفسه، لا يُسمع له صوت مرتفع مهما كانت درجة غضبه، له قدرة على الإقناع والنفاذ إلى العقول بكلام هادئ رصين.. شديد العناية بمظهره وأناقته.. ولكنه ينفق دخله كله من وظيفته المرموقة على مطالبه الشخصية، ومتعه الخاصة، التى تدور حول الملبس المتميز، وارتياد السينما والمطاعم الفاخرة مع أصدقائه من أبناء الطبقة العليا فى المجتمع. ولذلك يضطر إلى اللجوء إلى والدته يطلب منها قروضًا لا تُردّ..

مقيم فى بيت الأسرة المزدحم ولكنه لا يسهم بشيء من النفقة فيه. لقد أمعن فى بلوغ سن الزواج، ولكنه لا يقبل عليه جادا ؛ قد يستجيب لإلحاح والدته وأبيه، فيقدم على خطوبة فتاة، يبدى نحوها فى أول الأمرشيئا من الحماس، ولكن سرعان ما ينطفئ هذا الحماس وينسحب من الخطوبة فجأة، مُتمحّلا بعض الأعذار الواهية والمبررات التافهة..

استسلم الجميع على مضض لقرار سى نادر بحرمان سميحة من مواصلة التعليم إلا سميحة نفسها، التى أُسقط فى يدها، ولم تجد أحدًا ينهض لنجدتها فى مواجهة هذا القرار الغاشم، سوى أصغر إخوتها طارق، الذى كان ينظر إلى سلوك أخيه الأكبر فى جملته باستغراب شديد وعدم رضا، وقد تفجر غضبه بقوة بعد قراره الظالم الذى لم يعبأ بتفسيره أو تبريره للآخرين.. كأنما كان يتوقع من الجميع الإذعان والاستسلام بلا مناقشة، على اعتبار أنه يصدرقرارته عن حكمة وتروٍّ.

تجرّأ طارق فناقشه فى الأمر مُحْتجّا، ففوجئ نادر ولم يستطع أن يقدّم إجابة منطقية، بل حاول صرفه بسخرية واستعلاء، قائلا له: ما أنت إلا تلميذ صغير لا تدرك من هذه الأمورشيئا.. إذهب واعتن بدروسك.. ثم أمسك به وحاول طرده من غرفته، فاستشاط طارق غضبا ولطمه على وجهه بجُمْعِ يده، وكانت هذه الواقعة أول صدام عنيف فى تاريخ أسرة السيد المصري، و من هنا بدأت العلاقات فى الأسرة تتوتر، وتتصارع الإرادات ووجهات النظر: لا فيما إذا كان قرار سى نادر هذا صحيحا أو خطأ.. فالجميع يدرك أنه قرار خاطئ.. ولكن فى كيفية مواجهة سى نادر بهذه الحقيقة، و الأسلوب الأمثل لحمله على تغيير قراره، لتعود سميحة إلى المدرسة، وتستعيد حقها فى التعليم الذى حرمت منه قصرا، وهى تشعر بالقهر والذهول؛ فهى ترى أن أختيها الأكبر منها أكملتا تعليمهما.. فشغلت إحداهما (فريدة) وظيفة طبية، أما خديجة فقد تزوجت ممّن أحبت، وتفرغت لتربية أطفالها راغبة.. وقد غمرها زوجها كمال بإنفاقه الكريم فأغناها عن الوظيفة..

حتى سميحة نفسها رغم حزنها العميق، وشعورها بالظلم الفادح الواقع عليها، كانت تتحاشى أن تكون مشكلتها سببا فى معاناة الأسرة لأى اضطراب أو توتر، وكلما شعرت ببوادر اضطراب، كانت تعتكف فى غرفتها وتبكى بدموع حارقة على حظها االعاثر، لم تستطيع أن تستوعب هذا الجور على حقوقها.. ولم تفهم سبب هذا الصمت الذى يحيط بمشكلتها.. ولا هذا الشلل الذى أصاب أبويها وإخوتها تجاه هذا القرار.. كان قلبها يحترق فى صمت.. وتفيض بها مشاعر الغضب المكبوت أحيانا عندما تنفرد بأمّها، فتعبّر عن آلامها الدفينة.. تقول والدموع تنهمر من عينيها: "لماذا أنا وحدى دون الجميع..؟! ألأننى خلقت بنتا..؟! لماذا لا أذهب إلى المدرسة مثل بقية البنات من زميلاتى..؟! لماذا يحرّم عليّ سى نادر حتى الخروج إلى الشارع.. لم كل هذا الظلم..!".. لم تكن سميحة تتلقى أى إجابة من والدتها الحزينة سوى محاولات لطمْأنتها، ونصيحتها: "إصبرى يا ابنتى إن شاء الله سنجد لمشكلتك حلا يرضيك ويريحك..." ولكن هذا الحل لا يأتى أبدا.. فهل فى المسألة سر لا يعرفه أحد..؟ أم أنهم يعرفون السر ولا يجرؤون على المكاشفة والحديث عنه..؟!

مسألة حيّرت طارق كثيرا بل شغلت كثيرا من وقته حتى أصبحت همّه الأول يبيت ويصبح فيه.. يقلّب الأمر على وجوهه المختلفة، حتى وصل إلى اقتناع بأن أصل المشكلة كلها يكمن فى عقل سى نادر.. فى تركيبته الشخصية.. التى صبغت كل مواقفه تجاه الأسرة جميعًا: فهذا الأخ الأكبر نشأ مدلّلا .. أسرف عليه والديه فى التدليل، فلم يكن يعبّر عن رغبته فى شيء إلا سارعا إلى تحقيقها له، مهما كلّفهما ذلك من مشقة.. فهو الإبن الأول الذى رزقا به بعد عناء وطول انتظار .. وقد أصيبت أمه عقب ولادته بمرض شديد غريب كادت أن تفقد حياتها بسببه ..

كانت نتيجة هذا النوع من النشأة أن تحوّرت شخصية نادر حول ذاتها، فهو أناني شديد الأنانية لا يرى سوى نفسه، ولا يعبأ بمشاعر الآخرين أو مصالحهم، يشعر بأن الجميع ينبغى تسخيرهم فى تحقيق مطالبه ورغباته، ويرى أن هذا حق شرعي لا ينبغى أن يشاركه فيه أحد .. وعلى الجميع أن يتحملوا جموحه،

وأخطاءه إن حدثت..! فهو لا يعترف أبدا بأن له أخطاء.. حتى وهو يعيش عالة على أبويه، ولا يساهم فى تكاليف الأسرة بشيء من راتبه وهو قادر.. إنه يرى الخطأ دائما فى جانب الآخرين من أفراد الأسرة..

إنه لا يكفّ عن توجيه انتقاداته وسخريته من سلوكهم وأفكارهم .. فأصبح كل واحد منهم يتوارى بعيدا عنه، حتى لا يواجه سخريته وانتقاداته التى يرى فيها انتقاصًا من كرامته الشخصية وخصوصياته.. أصبح سى نادر شخصية متسلطة يريد أن يسيطر على الجميع، وأن يسخّرهم فى خدمته .. وكان طارق يكره كل ذلك منه .. لم يكن ليستسيغه أو يستوعبه.. ولم يفهم لقرار سى نادر بإلزام سميحة بالبقاء فى البيت أى مبرر مقنع .. فهو لا يصدّق زعمه بأن الأم فى حاجة إلى من يساعدها فى حمل جزء من الأعباء المنزلية .. فقد كان فى البيت خادمتان تقومان بالعمل اللازم كله..

ولم يكن هناك سوى تفسير واحد عند طارق: أن هذا الرجل الأنانيّ يريد خادمة خاصة نظيفة ومتعلمة يثق فيها وتكون طوع أمره، وعند إشارته.. وكانت ضحيته هى هذه الأخت المسكينة التى لم يعبأ بإنسانيتها أو بحقوقها ومصلحتها.. ولم يرحم ضعفها وصغر سنّها وقلّة حيلتها.

حاولت الأم أن تفهم سر هذا القرار من سى نادر فلم يقدّم لها سوى عبارة مبهمة قائلا: " ألا ترين أنها بلغت سن الخامسة عشرة وأصبحت ناضجة .. ولا ينبغى لها أن تختلط بالشبان خارج البيت..؟!" وسعت إلى استرضائه.. فقالت له: "إن كنت تخشى عليها من شيء نرسل معها أخا من إخوتها ليوصّلها كل يوم إلى المدرسة.. وهى لا تمانع فى ذلك.. بل ترحّب بهذا الحلّ إن كان يرضيك... ولكن سى نادر صمم على موقفه وطلب من أمه ألا تفاتحه فى هذا الأمر مرة ثانية ..

بل زاد فى عنته تجاه أخته.. وأصبح يراقب حركاتها ويعد عليها أنفاسها وهى فى البيت.. فعلى إثر مناقشة حادة انفعلت فيها سميحة وشعرت بحرارة تتصاعد من صدرها إلى رأسها ففتحت نافذة الغرفة لتستنشق هواء باردا، فقفز نادر نحو النافذة وأخذ يتطلع إلى نوافذ العمارة المواجهة ليرى إن كان هناك شبان

ينظرون نحو أخته .. ثم شبّك مصراعى النافذة، وعنّفها بشدة قائلا لها: "ألم أنهك عن الاقتراب من هذه النافذة .. وألا تفتحيها لأى سبب من الأسباب..!"

من هذه المواقف تأكد لدى طارق أن هذا الرجل فى عقله شيء من الخلل غريب، ولا ينبغى الاستسلام له بل تجب مواجهته .. ولم يرَ أى مبرر أن تظل الأسرة تحت رحمته.. ولا أن تتحمل بقاءه فى البيت دون مبرر، بل يجب أن يستقل بمسكنه بعيدا عن الأسرة، فهو موظف قادر على الزواج والاستقلال.. ويكفى ما عانته الأسرة على يديه من منغصات، وما تلاقيه أختهم الصغرى من اضطهاد وتعنّت مريض...! إكتشف طارق أيضا أن موقف أباه السلبي تجاه بقاء نادر فى البيت وعدم تكليفه المشاركة فى نفقات الأسرة أنه يريد أن يمكّن نادر من ادخار بعض المال من مرتبه يساعده على نفقات الزواج الذى يرتقبه الجميع .. كما أن السيد المصرى كان مستعدًّا لتحمل الكثير من أخطائه، حتى لا يثير غضبه، وحتى لا يبدو أمام الآخرين بأنه يطرد ابنه الأكبر من بيت الأسرة، ولعل هذه بعض سمات باقية من نشأته على القيم الريفية التقليدية، لم يستطع رغم علمه وثقافته أن يتخاص منها...

كانت هذه الخواطر والتوترات تتفاعل فى عقل طارق .. وتجول فى عقول أفراد أسرة السيد المصرى، وتصنع التيار التحتي المستمر فى جهازها العصبي.. فيلقى بظلاله الكئيبة على حياة الأسرة، دون أن تجد له حلا.. إذ تبدو مشلولة الإرادة، عاجزة عن المصارحة والمواجهة.. يحاول طارق أن يستوعبها، ولا يجد لها مبررا ولا نهاية، فيزداد غضبه وتحتد مواقفه تجاه الأخ الأكبر، الذى يبدو سادرا فى غيّه، بهدوء عجيب...!

يقدّم لنا المؤلف شخصيات روايته بأسماء مستعارة، فقد اختار السيد المصري إسما لعميد الأسرة، وأطلق على الأم إسم أم نادر، عادة ريفية قديمة فى نسبة الأم إلى إبنها البكر.. وعرفنا سميحة كشخصية محورية فى الرواية، كما عرفنا شيئا عن طارق وهو فى الحقيقة الشخصية الرئيسة فى الرواية .. عرفناه من خلال موقفه من سى نادر، وانحيازه إلى قضية أخته الصغرى المظلومة.. مما يوحى لنا بأننا أمام شخصية قوية جريئة، تشعر بتحمل المسئولية فى سن مبكرة.. هذه

الشخصية هى فى الواقع مدار الحدث الدرامي الذى يتطور ويتعقّد ويتصاعد حتى يؤدّى إلى رحيل صاحبه خارج الوطن، ليستكمل دراسته الجامعية أولا، ثم ينتهى به الأمر إلى هجرة دائمة بعيدا عن الوطن.

كذلك ألمحنا إلى اسم الأختين الكُبْريَيْن: فريدة الطبيبة و خديجة المتزوجه من الأستاذ كمال، وسيعرف القارئ أن ثمرة هذ الزواج الأولى هى الطفلة عزيزة الشقية، التى كان لحضورها المفاجئ فى المواقف الساخنة دورا مهما فى تبريد أجواء المناقشات عندما ترتفع حرارتها، وإعادة الجو المتوتر إلى أوضاعه الطبيعية بين الفرقاء من أفراد الأسرة.. فقد كانت الأحداث السياسية والإجتماعية مدار نقاش مستمر بينهم على اختلاف منازعهم وتعدّد وجهات نظرهم ...

يبدو أن المؤلف كان حريصا على أن يقدم إلينا نموذجا للأسرة المصرية من الطبقة الوسطى فى ذلك الزمن، وقد استطاع فى الحقيقة أن يصور هذه الأسرة بمشكلاتها وهمومها واهتمامها بشئون الوطن السياسية والاجتماعية والفكرية، ومشاركتها الفعالة فى النشاط الوطنى، وتضحياتها فى هذا السبيل.. وأرى أن التعرف على هذا الجانب بالغ الأهمية فى المقارنة بين نموذجي الأسرة المصرية من الطبقة المتوسطة فى مجتمع الأربعينات والخمسينات من القرن العشرين ،وبين الإسرة المصرية فى هذا العهد؛ فقد تقلصت الطبقة المتوسطة، وتحولت إلى أشباح هزيلة غير قادرة على التماسك أمام التجريف المستمر لرصيدها الذى أنجزته فى الماضى ، و تحت الضربات القاصمة المتلاحقة التى تتلقاها من أنظمة قمعية دائمة العمل على تجفيف ينابيعها الروحية والفكرية والاقتصادية .. فلم يعد حديث هذه الأسر يدور حول هموم الوطن الكبرى وإنما تتمركز مشاغلها اليومية حول غلاء المعيشة والحصول على رغيف الخبز، وإذا تطرقت إلى شيء من هموم الوطن فالشعور السائد هواليأس من إصلاح الأوضاع الفاسدة فى السياسة والاقتصاد، ونهب المال العام، وفضائح رجال المال والأعمال والبطالة والبلطجة الأمنية، والانحياز المهين لأعداء الأمة..

يقدم فتحى فارس مؤلف الرواية مشاهد وأوضاع الطبقة المصرية الوسطى والأسرة المصرية ، خلال الأربعينات والخمسينات من القرن الماضى، شديدة

الاختلاف عما نألفه اليوم سائدا فى المجتمع المصري.. خصوصا فى هذا الجيل الذى ولد وعاش -خلال العقود الثلاثة الأخيرة- فى مجتمع يمكن أن نطلق عليه مجتمع قانون الطوارئ.. وفى هذه الناحية تكتسب الرواية أهمية خاصة بالنسبة للمؤرخين وخبراء علم الاجتماع وعلماء النفس السياسي، وللقارئ المثقف بصفة عامة ؛ فبالإضافة إلى ما أسلفنا من التحام الأسرة المصرية بالشأن الوطني.. وتطلّعها إلى مستقبل أفضل تتخلص فيه البلاد من الاحتلال البريطاني والمَلَكيّة الفاسدة، لم تكن هذه الأسرة تعانى ولا تنشغل كثيرا بمشكلات الأسَعار وضيق العيش والبطالة..

وإطلالة القارئ على مائدة أسرة السيد المصري ووجباتها الغنية بكل ما طاب من أنواع الطعام -كما يصفها المؤلف- يدرك هذه الحقيقة.. فهو حفيّ بمائدة الأسرة، وبالوجبات اليومية التى يجتمع حولها أفرادها يتبادلون أطراف الحديث فى سرور وإقبال واضحين، يصفها بتفصيل شديد ويشير إلى مكوّناتها ومذاقاتها المختلفة، ومهارة الأم فى تجهيز الوجبات الشهية.. ومعرفتى الشخصية بالمؤلف تؤكد لى أن هذه الحفاوة بالطعام وتنوّع مذاقاته هى بعض سماته الشخصية التى أسبغها على شخصية طارق .. كأنه يصف نفسه .. فلا شك أن شخصية طارق ومواقفه ودوره فى الرواية بصفة عامة تعكس السمات الجوهرية لشخصية المؤلف نفسه .. بحيث تبدو لى أحيانا أنها سيرة حياته الخاصة فى قالب روائي.

من أفراد هذه الأسرة الكبيرة سيتعرّف القارئ على شخصيات الأبناء: أحمد وماجد وحمدى وحسن .. وسيرى أن كل واحد منهم عالم قائم بذاته: فأحمد ضابط فى الجيش يقضى معظم وقته منذ التحاقه بالكلية العسكرية بعيدا عن البيت والأسرة، فلا يرونه إلا لِمامًا، وغالبا ما يكون هذا فى إجازة قصيرة أو على مائدة الطعام، ومع ذلك فهو معنيّ بأحوال الأسرة ومشكلاتها .. وكثيرا ما يناقشها مع أخته الكبرى خديجة وزوجها كمال، وقد توصّلا معا إلى حقيقة أن سى نادر يعانى من مرض نفسي، وأن شيئا ما لا بد من عمله لمواجهة هذا الوضع .. ولكن انشغاله بعمله، والأحداث الدرامية المتلاحقة التى وقعت فى

محيط الأسرة صرفت النظر إلى أمور أخرى، وأجّلت المواجهة إلى أجل غير مسمّى.

فإذا أتينا إلى حمدى وجدنا شخصية مجتهدة فى الدراسة، ولكنها منسحبة منطوية على ذاتها؛ فهو دائما منكبّ على الاستذكار، حريص على أن ينأى بنفسه بعيدا عن المناقشات الأسرية، سواء فى الشأن العام أو الخاص، لا يحب التصادم مع الآخرين.. فإذا شعر ببوادر نقاش يوشك على الاحتداد، نراه ينسحب بهدوء ويذهب إلى مكان آخر ليقرأ كتابا..

أما ماجد فلا يُقبل على قراءة الكتب، وقد تراه أحيانا يصلح راديو قديم.. وهوغير معنيّ بالأمور السياسية ، ولا بأى شأن جاد؛ فهو يرى الناس والأشياء والمواقف من منظور كاريكاتيريّ.. إنه لمّاح شديد الذكاء ترى ذلك فى لمعة عينيه .. يميل إلى التخابث، ولكن من يقترب منه يدرك أن له قلبا طيبا يكره إيذاء الآخرين أوالإضرار بهم ، وإنما هو يميل بطبيعته إلى التنكيت، ورسم المواقف المثيرة للضحك، ولديه قدرة عجيبة على صكّ الأسماء والصفات التى تلخّص شخصيات كل من حوله من الناس فى المنزل أو خارجه.. كأنه يرسم صورا كاريكاتيرية لهم .. فسى نادر مثلا بجلالة قدره هو "ختفس".. وعادة ما يحتفظ ماجد بهذه الأسماء الكاريكاتيرية لنفسه سرّا، فلا يُطْلع عليها إلا أقرب الأصدقاء .. وقد تتسرب هذه الأسماء بالصدفة أحيانا لتصل إلى أصحابها، ولكنهم لن يعرفوا مصدرها ولا من أطلقها عليهم أبدا ..

يقول المؤلف تفسيرا لهذا السلوك: لعل ماجد كانت تلح عليه رغبة قوية أن يلفت النظر إليه فى المدرسة وخارجها .. فقد كان هذا شيئًا يفتقده فى بيت الأسرة ...!

بين هؤلاء جميعا تبرز شخصية حسن متميزة بخصائصها؛ فهو طالب مجتهد قوى الإيمان بالله سمح الوجه لطيف الشمائل، على أهبة الاستعداد دائما لمساعدة الآخرين.. إنه ينتمى إلى جماعة الإخوان المسلمين، ويعتقد أن طريقة حسن البنا فى الإصلاح السياسي والاجتماعي هى أصوب طريقة لإنقاذ الأمة والدفاع عنها

فى مواجهة أعدائها بما فى ذلك الاحتلال البريطاني لمصر، والأطماع الصهيونية فى فلسطين..

فى سنة ١٩٤٧كانت الأحداث المأساوية تتسارع فى الأراضى الفلسطينية تمهيدا لتمكين اليهود فيها بمساعدة الانتداب البريطاني، فكان حسن من أوائل الشبان الذين لبّوا نداء الدفاع عن فلسطين، حيث تطوّع فى صفوف الفدائيين، وأبلى بلاء حسنا فى الحرب الفلسطينية. ذهبت الجيوش العربية إلى فلسطين وهى على غير استعداد للحرب؛ إذ كانت تعانى من قصور شديد فى التسليح والتدريب، وكان هذا من أبرز أسباب النكبة الفلسطينية الكبرى، ولولا بسالة الفدائيين الذين استطاعوا إحراز انتصارات مبهرة على القوات الإسرائيلية المتفوقة فى السلاح والتدريب والتنظيم، لتحولت الحرب إلى مجزرة للقوات العربية، ويعترف بهذه الحقيقة اللواء المواوى قائد الجبهة المصري فى حرب فلسطين..

من الأحداث الكبرى الأخرى التى تميزت بها تلك الفترة غير الحرب الفلسطينية حرب الفدائيين ضد قوات الاحتلال الإنجليزي فى قناة السويس، وقد إشترك فيها حسن أيضا فأبلى بلاء عظيما، مستفيدا فى ذلك بخبراته السابقة فى حرب فلسطين..

أما طارق فقد كان له مسلك آخر فى تعبيره عن حماسه الوطني، فقد كان يرى أن المهمة الأساسية لمصر هى التخلص أولا من الاحتلال البريطاني، والتخلص من الحكم الملكي الفاسد، وأنه لا سبيل لإصلاح مصر وتقدّمها إلا بتحقيق هذين الهدفين .. وكان طارق رغم حداثة سنة يرى فى نفسه زعيما وطنيا قادرا على حفز الجماهير وقيادتها نحو تحقيق هذه الأهداف.. فمن الناحية البدنية كان فارع الطول ممشوق القوام حسن المظهر... وكان نضجه المبكر ووسامة منظره وطلاقة لسانه مؤهلات قوية لأداء دور الزعامة، حتى وهو لا يزال طالبا فى المدرسة الثانوية .

وقد رأى فيه زملاؤه من الطلاب زعيما جريئا موثوقا فيه، فتبعوه وحملوه على أكتافهم فى المظاهرات.. وكانت المظاهرات العارمة، سمة يومية فى ذلك

الوقت تجتاح مدينة القاهرة، كما تجتاح جميع المدن المصرية الأخرى، تهتف بسقوط الاحتلال الانجليزى وسقوط الملك الفاسد.. كان الحماس الوطني للشعب المصري على أشده .. وكان دور الطلاب فيه هو الأبرز، والأكثر أثرا.. وقد استمر طارق يؤدى دوره القيادي هذا بحماس أشد ونضج أكثر بعد أن انتقل إلى الجامعة..

وما يصفه المؤلف من حراك سياسي وحرية فى التعبير عن الرأي، والتظاهرات الحاشدة فى تلك الفترة، يصور مجتمعا مصريا يقظا حيا فعالا، ممتلئا بالحماس والثقة بالنفس.. على عكس الصورة البائسة التى تحوّل إليها المجتمع المصري فى أيامنا هذه .. كانت الظروف الموضوعية أيضا لها تأثيرها الحاسم ايضا .. فقد لا حظتُ فى ثنايا الرواية أن تدخل الشرطة فى ذلك الوقت لِفَضّ المظاهرات كان محكوما بأوضاع وقوانين تمنع الإفراط فى استخدام العنف.. وتضع خطوطا حمراء أمام قوات الأمن لا ينبغى عليهم تجاوزها..! فقد ألمح المؤلف وهو فى سياق وصفه لمظاهرة قادها طارق فى الجامعة، أن أفراد الشرطة كانوا يراقبون المظاهرات الجامعية من خلف أسوار الجامعة ولا يجرؤون على دخولها .. لا خوفا ولكن لأن القانون فى ذلك الوقت كان يمنعهم من الدخول إلى حرم الجامعة كأنه حرم مقدس..

إن فتحى فارس لم يشهد الأوضاع التى تردت إليها الجامعة اليوم، فلم ينتهك رجال الأمن بأقدامهم الحرم الجامعى فحسب، بل أصبح تدخلهم، يشمل تعيين العمداء ورؤساء الجامعات، وإلقاء القبض على الأساتذة الناشطين فى الاتحادات الأكاديمية، والتدخل فى كل حركة لطلاب الجامعة وفى السكن الجامعى، و انتخابات الاتحادات الطلابية.. وأصبحت الحرية الأكاديمية مجرد أسطورة قديمة تُحكى فى القصص.. فلا غرابة أن ينتهى التعليم الجامعي إلى أوضاعه المزرية التى نشهدها اليوم...

تعكس هذه الرواية إذن صورة واقعية لمصر والمجتمع المصري، وما جرى فى مصر من أحداث جسام منذ الحرب الفلسطينية حتى انطلاق ثورة ١٩٥٢؛ فقد شهدت مصر فى هذه الفترة عنفوان حركة شعبية حاولت حكومة عميلة

للملك أن تشكمها، فتعمّدت فتح كبرى عباس الذى يربط الجيزة بمنيل الروضة، أثناء مرور مظاهرة طلابية عليه، متجهة إلى قصر عابدين، وكانت حادثة مروّعة قتل فيها وجرح مئات من الطلاب غدرا، وقد أصبحت كارثة كبرى عباس جزءا من تاريخ النضال الوطنى والتضحيات التى تكبّدها المصريون فى سبيل الحرية والاستقلال ...

تسارعت الأحداث فى مشاهد مروعة: بدأت بحل جماعة الإخوان المسلمين واعتقال الآلاف من قادتها وأعضائها والزّج بهم فى السجون.. ثم تلا ذلك مقتل النقراشى باشا، ولم تمض ثلاثة أشهر حتى تم اغتيال المرشد العام للإخوان الشيخ حسن البنا.. وعادت حكومة الشعب المنتخبة إلى السلطة مرة ثانية، يترأسها النحاس باشا زعيم حزب الوفد ليطلق سراح المعتقلين.. بعد تبرئة المحكمة لهم من التهم التى وُجّهت إليهم.. وعاد الاستقرار إلى البلاد، فقام النحاس باشا بإلغاء معاهدة الصداقة مع بريطانيا .. وكان هو نفسه الذى وقّع عليها سنة١٩٣٦، وتشتعل الحمى الوطنية ضد الاحتلال الإنجليزى، فتبدأ حركة المقاومة الشعبية ضد معسكراتهم على طول قناة السويس .

كان معظم الفدائيين من طلاب الجامعات، وكانت قصص عملياتهم الجريئة فى اقتحام معسكرات الجيش الانجليزى وتدميرها تجرى على كل لسان، وفى غضون ذلك تتصدى قوات الشرطة -بأسلحتها الخفيفة- للقوات البريطانية دفاعا عن مبنى محافظة الإسماعلية الذى استهدف الإنجليز احتلاله، فاستشهد العديد من رجال الشرطة والضباط، واعتصم رجال الشرطة المصرية فى كل موقع، احتجاجا على هذا المسلك الهمجي لقوات الاحتلال.. وفى اليوم التالى اندلع حريق القاهرة المروّع، الذى تحير الجميع فى أسبابه: فقد قيل إنه من تدبير الملك نفسه، وقيل أنه من تدبير الإنجليز، لوقف المقاومة الوطنية فى قناة السويس.. أخذ الملك زمام الأمر بيده فأسقط حكومة الوفد المنتخبة، وعين سلسلة من الحكومات الهزيلة الواحدة بعد الأخرى، فلم تستطع أى واحدة منها إعادة الاستقرار أواحتواء الاضطرابات .. ولم تستمر آخر هذه الحكومات فى السلطة أكثر من ثمانية عشر ساعة فقط، انتهت بقيام الثورة.

في أثناء ذلك كانت الفوضى مستشرية في البلاد .. وكان الجو كله معبأ بالغضب الشعبي، والتّرقّب لانطلاق حدثٍ جلَلٍ يقلب هذه الأوضاع المتردية كلها.. وفي أثناء الترقّب والانتظار، وبينما الناس يضربون أخماسا في أسداس، أعلن السادات من إذاعة القاهرة البيان الأول لانقلاب عسكري ضد النظام الملكي في صباح يوم ٢٣يولية سنة ١٩٥٢..

توالت الأحداث المثير بعد ذلك: حيث أُجبر الملك على التنازل عن العرش لابنه الطفل أحمد فؤاد .. ثم طُرد الملك من البلاد، وأُلغي النظام الملكي، حيث تولى محمد نجيب رئاسة الجمهورية، وتبع ذلك سلسلة من القرارات والقوانين الثورية من أهمها: تحديد الملكية الزراعية، والإصلاح الزراعي، ومجانية التعليم الجامعي، وكان التعليم في المراحل الأولى مجانيا في عهد وزير المعارف طه حسين في حكومة الوفد الأخيرة ..

كان التعاون بين الإخوان المسلمين ورجال الثورة واضحا منذ قيام الثورة.. حتى أن عبد الناصر ذهب إلى قبر حسن البنا وألقى عنده خطابا يعِدُ فيه بإعادة فتح ملفّ التحقيق في حادثة إغتياله، وإحضار الجناة للمحاكمة .. ولكن سرعان ما دب الخلاف بين الفريقين وأعلن جمال عبد الناصر في يناير ١٩٥٤ حل جماعة الإخوان المسلمين، واعتقال أعضائها، بتهمة التآمر على الثورة مع محمد نجيب رئيس الجمهورية، فتمت إزاحته ووضعه تحت الاعتقال المنزلي.. كان محمد نجيب رمزا شعبيا للثورة، محبوبا من الجماهير، ولم يكن أحد يعرف في ذلك الوقت شيئا عن جمال عبد الناصر، ولا حقيقة دوره في تدبير الثورة وقيادتها، سوى أنه أحد أبرز أعضاء مجلس قيادة الثورة ..

يصف المؤلف كل هذه الحقائق مفصلة تفصيلا دقيقا .. ويصف انطباعات الناس عنها .. وانعكاساتها أولا بأول خلال المناقشات الدائرة في إطار أسرة السيد المصري، وتأثيرها على طارق، الذي خيّبت الثورة رجاءه.. فذهب غاضبا إلى الجامعة ليلقى بخطبة ملتهبة، ويهتف بحياة محمد نجيب وسقوط الدكتاتور عبد الناصر .. وتوجه الطلاب المتظاهرون من جامعة القاهرة والجامعات الأخرى إلى قصر عابدين للانضمام إلى المظاهرات الشعبية العارمة

التى توجهت إلى القصر.. وهم يهتفون بحياة محمد نجيب ويطالبون بعودته الفورية إلى السلطة ..

يبدو أن مجلس قيادة الثورة كان -حتى تلك اللحظة- عازما على تبديد هذه الحركة الشعبية، ومصمما بصفة خاصة ألا يسمح بانضمام جموع الطلاب إلى الحشود المتوجهة إلى قصر عابدين، ومن ثَمّ حاصرتهم قوة عسكرة مدرعة بعد مرورهم من كبرى قصر النيل، وأمطرتهم بوابل من الرصاص الحي من مدافع لانكستر.. تفرقت المظاهرة فى كل اتجاه، ولكن بعد ساعة تجمع الطلاب مرة ثانية قرب قصر عابدين، ودخلوا الميدان فى عاصفة غاضبة وهم يرفعون بأيديهم مناديل مغموسة فى دماء إخوانهم الذين سقطوا صرعى وجرحى، من جراء القصف العشوائي بالرصاص الحي.. وتحت تأثير المفاجأة وأمام هذا الغضب العارم الذى تفجر بين الجماهير، أسرع رجال الثورة باستقدام محمد نجيب لتهدئة الحشود الغاضبة، وتطمينها على أن مطالبهم قد أُجيبت.. وأن الأمور قد عادت إلى سابق عهدها..

لم تكن قيادة الثورة لتستسلم لضغوط الجماهير بهذه السهولة، فسرعان ما أعيد اعتقال محمد نجيب، وتولى جمال عبد الناصر رئاسة الجمهورية.. وتم تدبير حادثة المنشية بالإسكندرية فى ٢٦ أكتوبر من نفس العام(١٩٥٤)، حيث أطلق أحدهم رصاص مسدسه تجاه عبد الناصر، وهو يلقى خطابا فى ميدان المنشية، ولكنه أخطأ هدفه.. واتُّهم الإخوان المسلمون بتدبير حادث الاغتيال، فحُلت جماعتهم وسيق الآلاف من أعضائها مرة أخرى إلى السجون، وحوكم قادتها أمام محاكم عسكرية، وتم إعدامهم، وكان على رأسهم المستشارعبد القادر عوده وكيل الجماعة، الذى قاد المظاهرات الشعبية الحاشدة أمام قصر عابدين...!

فإذا عدنا مع المؤلف إلى انعكاسات هذه الأحداث على أسرة السيد المصري لنشهد آثارا مروّعة على حياة هذه الأسرة الوطنية، التى لم يرتكب أى فردٍ فيها جريمة سوى أن ابنها حسن عضو فى جماعة الإخوان المسلمين.. وأن أخاه الأصغر عبّر عن رأيه وهو يخطب فى مظاهرة طلابية..! فى المحاولة الأولى للقضاء على الجماعة فى فبراير ١٩٥٤ اختفى حسن تحت الأرض لفترة من الوقت

حتى لا يقع فى يد السلطة الباطشة، فهاجمت الشرطة بيت الأسرة وأخذت طارق رهينة .. فلما سوّيت الأمور بين السلطة والإخوان وكفّت يدها عنهم -فى هدنة مؤقتة- أُطلق سراح طارق من السجن.. وظهر حسن ليمارس حياته المعتادة، ثم أعيدت الكرة مرة أخرى على نطاق أوسع وبوطأة أشد بعد حادث المنشية، فاختفى حسن مرة أخرى تحت الأرض فى مكان لا تعلم الأسرة عنه شيئا.. ولكنها تعرضت لأبشع أنواع التنكيل، فقد تم اعتقال طارق مرة أخرى، وأودع فى سجن القلعة .. ليبقى فيه عدة أشهر، أما رب الأسرة فقد أُجبر على الاستقالة من وظيفته، مصدر رزقه الوحيد.. أحيل إلى المعاش قهرا، ونُقل نادر إلى أسوان.. وبين الاعتقال الأول والثانى كانت الأسرة قد أصيبت بكارثة شخصية أخرى كادت أن تغطى على جميع الأحداث والمصائب التى تلتها:

ففى صباح أحد الأيام دق ضابط الشرطة باب مسكن السيد المصرى وقال له: "آسف لدينا أخبار سيئة لكم .. لقد توفيت ابنتكم الدكتورة فريدة فى حادثة صباح هذا اليوم.." شهق الأب من وقع الخبر وهو لا يكاد يصدق ما يسمع، وكادت الأم أن تفقد عقلها من هول االصدمة.. فأخذت تهرول .. وتفتح أبواب الغرف كلها.. لعلها ترى ابنتها نائمة هنا أو هناك.. ثم فتحت فمها لتطلق صرخة مدوّية ولكن خانها الصوت الذى احتبس فى حلقها، فأغمى عليها... وأطبق الحزن الكئيب على أسرة السيد المصري..!

فى هذه الأجواء المكفهرة عاشت أسرة السيد المصرى تجتر أحزانها ومآسيها المتلاحقة؛ ألقى القبض على إثنين من أبنائها هما حسن و طارق، وتعرضت بقية الأسرة لإقتحام قوات الشرطة.. ولزيارات الفجر التى أصبحت تقليدا راسخا لهذه القوات.. و هكذا تحوّلت حياة أسرة السيد المصري إلى جحيم من الرعب والتهديد والإضطهاد..

استقبل المصريون الثورة فى أول الأمر بالترحاب، وفرحوا بمقدمها وبقراراتها الإصلاحية فرحا غامرا، ولم يكن فرح أسرة السيد المصري بأقل من فرحة الآخرين، ولكن لم يمضِ أكثر من عامين حتي كشفت الثورة عن وجهها الآخر.. ابتدأ بتنحية محمد نجيب من رئاسة الجمهورية، والانقضاض على جماعة

الإخوان المسلمين .. حيث أصيبت الأسرة بتغييب اثنين من أبنائها فى أقبية السجون المصرية سيئة السمعة.. لقد تم الافراج عن طارق فى المرة الأولى بعد بضعة أشهر.. ثم أعيد إليه مرة أخرى..وفى كل مرة كانت تُوجّه إليه تهمة مختلفة: مرة بأنه من الإخوان المسلمين ومرة بأنه شيوعى، ولم ينقذه من الإستمرار فى السجن إلا الإشتباه فى الاسم و إضطراب تقارير الأمن حول التهم الموجهة إليه..

فلما تمّ تسريحه من السجن فى المرة الثانية بدأ يواجه ألوانا أخرى من الإضطهاد والمشكلات .. فقد إكتشف أنه مفصول من الجامعة.. و كان بالسنة الأولى فى كلية الهندسة، فبذل محاولات مستميتة للعودة إلى الدراسة، وكان بالجامعة أساتذة يتعاطفون معه، وقد أفهموه أن التقارير الأمنية ترفض عودته رفضا قاطعا.. شعر طارق بأن الأبواب أصبحت مغلقة فى وجه مستقبله التعليمي.. ولم يعد أمامه أمل سوى أن يرحل عن مصر..

إستطاع فى ستة أشهر أن يتقن اللغة الألمانية.. وأن يراسل بعض الجامعات فى ألمانيا حتى تمكن من الحصول على مقعد فى إحدى هذه الجامعات.. كما استطاع الحصول عى جواز سفر.. سحبته المباحث مرتين و كافح لاسترداده..

شرح ظروفه الخاصة للجامعة الألمانية التى تعاطفت معه وتآزرت مع السفارة الألمانية بالقاهرة فى الضغط على السلطات المصرية لتسمح له بالسفر.. وكانت مصر فى ذلك الوقت على علاقة وثيقة بألمانيا .. تحظى منها بمعاملات خاصة مالية وفنية متعددة الأشكال.. ومن ثم تجنبت تعكير صفو هذه العلاقة بالمعاندة فى موضوع طالب مصرى مقبول للدراسة فى جامعة ألمانية فأعتقته.

صعد طارق إلى السفينة من ميناء الأسكندرية قاصدا ألمانيا عبر ميناء نابلى بإيطاليا .. ودّعته أسرته بالدموع.. و لكنها لم تفقد الأمل فى عودته إليها يوما ما.. كانت لحظات الوداع المشحونة بمشاعرالألم ولوعة الفراق هى خاتمة الرواية .. انتهى الزمن عند نقطة رحيل طارق بإقلاع سفينته من ميناء الأسكندرية.. وعادت الأسرة إلى القاهرة تطوى فى جوانحها هما ثقيلا..

ولتجترّ مأساة ابنها الآخر الذى ابتلعته سجون مصر لخمسة عشرة سنة أخرى من حياته ..

رحل طارق الشاب المصرى الذى آثر الفرار بحريته والعيش بكرامة خارج وطنه، بدلا من البقاء مع المعاناة والإضطهاد وإمتهان الكرامة.. كان قلبه ساعة الرحيل ممزقا بين حبه لأسرته ووطنه وعلاقاته الحميمة بأهله وأصدقائه من ناحية، وبين رغبته فى الإنعتاق إلى الحرية و إستكمال دراسته الجامعية من ناحية أخرى.. إنه يمثل فى حقيقة الأمر نموذجا لآلاف الشبان المصريين الذين هاجروا من مصر ولايزالون يخاطرون إلى اليوم بحياتهم للهجرة إلى بلاد أخرى، قد يحظون فيها بالحرية وكرامة العيش الذى يفتقدونه فى وطنهم الأم.. فلنودع طارق عند هذه النقطة الفاصلة، لنتحول إلى فتحى فارس مؤلف الرواية فهو البطل الحقيقى لهذه الرواية..

نقول: لقد طالت رحلة فتحى فارس وتحولت إلى هجرة دائمة، بدأت فى ألمانيا حيث أتم تعليمه الجامعي، وتزوج من ألمانية أنجب منها أيمن أول أبنائه، ثم استقرت الأسرة فى ملبورن بأستراليا حيث أصبح أستاذا فى كلية الهندسة بجامعة "لاتروب" la Trobe University.. وزادت الأسرة ابنتين هما نادية وأميرة .. فكان حريصا على أن يتيح لهما فرص التعليم إلى أقصى المدى .. كأنه كان يعوّض فيهما حرمان عمّتهما سميحة قهرا من فرصة استكمال تعليمها كما رغبت ...!

قصة رائعة .. ممتعة وأصيلة .. مستوحاة من حياة حقيقية وتجارب واقعية عاشها المؤلف بنفسه وعاناها بحلوها ومرها.. ولأننى أعرف المؤلف وأسرته لسنوات طويلة أراه ماثلا أمامى منذ كنا فى المدرسة الإبتدائية بالزقازيق.. وقد ظلت علاقاتنا متصلة فى القاهرة حتى رحل إلى ألمانيا .. ثم استؤنفت مرة أخرى فى استراليا ولم تنقطع رغم انتقالى وأسرتى إلى كانبرا، وظل هو وأسرته فى ملبورن.. ثم فوجئت بعد ما يقرب من عشرين سنة بخطاب منه مرفقا به أصول رواية من تأليفه، طالبا منى كتابة تقرير عنها كشهادة يقدمها للناشر الأسترالى .. قرأت الرواية وأنا مذهول، فما كنت أتصور أن صديقى فتحى فارس أستاذ

الهندسة يمتلك هذه الموهبة الأدبية ليكتب رواية بديعة ومثيرة إلى هذا الحد..! كنت أعلم أنه خطيب مفوّه وناظم للشعر فى المناسبات.. يملك ناصية التعبير باللغة العربية.. ثم أتيحت له الفرصة لإجادة اللغتين الألمانية والإنجليزية حديثا وكتابة.. كما كنت أعلم أنه عضو فى إتحاد الكتاب بفكتوريا، وأنه يعكف منذ سنوات على تسجيل مذكرات حياته، ولكن أقصى ما كنت أتوقعه أن يكتب سيرة ذاتية ضافية وصادقة ولكنه فاجأنى بعمل درامى من طراز رفيع..!

تأخذ هذه الرواية قارءها أإلى أعماق القلب المصرى حيث تمتزج الحكمة بالجنون .. و ترتفع روح الفكاهة الأصيلة بالإنسان المصرى على أحزانه وآلامه.. فى أعماق هذا القلب المصري الزاخر بالمشاعر والأحاسيس المتضاربة ؛ من الأفراح والأتراح والآلام .. فالرواية تمثل مسرحا مفعما بالحياة والحيوية لأسرة مصرية ومجتمع مصرى ، تتفاعل فيه مختلف النزعات والعادات والتقاليد، مجتمع تسود فيه عناصر القلق والطموح والتعصبات اللامنطقية، والتدين الرشيد منه والمتشدد.. مع نزعات أخرى، من الرغبة فى الإنفلات من قيود الدين والتزاماته الجادة .. سترى الحياة فى المسجد وتفاصيل عن الصلاة والوضوء وتلاوة القرآن لأناس يعشقون الحياة الروحية التى يبعثها المسجد فى أرواحهم.. ويرطّب بها وجداناتهم.. وستجد وصفا مفصلا لمجموعة أخرى من البشر عاكفون على حلقات الذكر.. يهتزون على نغمة رتيبة، وآخرون يرقصون على الدف فى حلقة زار لإخراج الجن الذى استولى على أجسامهم.. وغيرهم.. وغيرهم من أنواع البشر.. يشاركون جميعا فى أنواع مختلفة من الأنشطة.. حياة خصبة ملوّنة بكل ألوان المشاعر، والأحاسيس والأفكار المتضاربة.. كأنك تشاهد خليطا من شعوب متباينة لا شعبا واحدا.. ولكنك لا تعدم مع هذا الخليط المائج نوعا من التمازج، تشده خيوط ثقافة واحدة مشتركة.. مغلفة بروح من النكتة والفكاهة، لا تعدمها فى كل موقع وفى كل موقف.. كأن المصريين قد اتخذوا من النكتة آلية من آليات الدفاع عن النفس، وتحصينا للذات من التّصدّع...!

إلى جانب ذلك كله يستشعر القارئ تيارا فكريا متغلغلا فى ثنايا الرواية، واضحا فى حواراتها، يؤكد على قيمة كونية جوهرية، قوامها التعارف والتسامح بين الناس، والتفاهم المتبادل بين الثقافات .. وهى قيمة يعتقد المؤلف أن إفتقادها يقف اليوم وراء معظم الإضطرابات والحروب والإرهاب وكل ما يزعزع الأمن والسلم فى المجتمعات الإنسانية..

(مجلة وجهات نظر يونية ٢٠١٠م)

****

هل يتحول العمل الأدبى إلي وثيقة تاريخية ..؟

خير تعبير عن قدرة الأدب العظيم على استشراف المستقبل تلك القدرة الفذة التى ترقى فى رائعة أندريتش العظيم إلى درجة النبوءة، بهذه العبارة يستهل فهمى عبد السلام عرضه لرواية إيفو أندريتش الأديب الصربى "جسر على نهر درينا" فى مقال له نشر بمجلة الهلال فى عددها الصادر فى أغسطس ١٩٩٩م.

ولا أستبعد أن كثيرًا من متذوقى الأدب الجيد ، يتّفقون مع هذا ، ولكن يبدأ الخلاف عندما يزعم الناقد أن عملًا أدبيًّا ما –هو صورة للحقيقة التاريخية أو بديل عنها– ثم يُدْخِلُ هذا فى اعتباره عند تقييمه لهذا العمل.

أطرح هذه القضية الخطيرة لأن عددًا من الكتاب المشهورين قد دأب فى الآونة الأخيرة على الاستشهاد بأعمال أدبية لتدعيم وجهة نظر سياسية معينة وكأن الرواية قد أصبحت وثيقة تاريخية أو بديلًا عنها.

إن رائعة تولستوى "الحرب والسلام" تعتبر واحدة من أعظم الروايات التى ظهرت فى تاريخ الأدب الإنسانى كله، ورغم أنها تتناول أحداثًا تاريخية معينة تتصل بغزو نابليون لروسيا، ولكن أحدًا لم يعتبرها وثيقة تاريخية.

فالرواية –بطبيعتها– لا تتحدث عن الحقيقة الموضوعية "البرانية"، وإنما تتحدث عن عَالَمٍ "جُوَّانِيٍّ" يتصل بالتركيبة النفسية الاجتماعية للأديب المبدع ففى هذا العالم الجُوانى يعاد تشكيل الأحداث وترتيب الأولويات، وتسقط تفاصيل لتحل محلها تفاصيل أخرى من اختيار الأديب، وتكتسب التفاصيل والوقائع دلالاتٍ تخيُّليّة، ذلك لأن هذا العالم بمنطقه الخاص ومدركاته الخاصة لا تتحكم فيه آليات الواقع البرانى وحقائقه الموضوعية.

وتُسلِّمنا هذه النقطة إلى إشكالية يتورط فيها بعض الأدباء عندما يحملهم الهوى على الإساءة إلى شخصية تاريخية معينة أو تحريف الوقائع التاريخية، متسترين بصناعة الفن الروائي ؛ حيث يقولون: نحن نكتب قصة فيها خيال وإبداع ، ولا نكتب تاريخًا ، حتى نُحاسب على الالتزام بالحقائق الموضوعية..!

العمل الأدبى إذن لا يمكن اعتباره وثيقة تاريخية ولا يصح الاستشهاد به فى تدعيم وجهة نظر سياسية أو تاريخية مهما ارتفع قدره ومهما ذاعت شهرة صاحبه.

ولكننا وجدنا فهمى عبد السلام يتخذ من رواية "جسر على نهر درينا" وثيقة تاريخية ويستخلص منها حقائق تؤكد وجهة نظره السياسية فى موضوع بالغ التعقيد شديد الحساسية هو الحرب اليوغسلافية ، كما وجدنا محمد حسنين هيكل يفعل نفس الشئ فى مقال له بعنوان "بقايا يوغسلافيا" نشرته مجلة "وجهات نظر" فى عددها الصادر أول أغسطس ١٩٩٩م.

أهى العبرة أم الأسطورة..؟

يلخص لنا فهمى عبد السلام فى آخر مقاله العبرة التاريخية من رواية إيفو أندريتش المذكورة حيث يقول: "والإمبراطوريات هى الظاهرة الأكثر شرًّا فى التاريخ، وهى خير شاهد على وحشية الإنسان واستبداده وغطرسته"، وهذا كلام عام ينتقل منه إلى الحكم على دولة بعينها فيقول: "وخطايا الإمبراطورية العثمانية غائرة فى الوجدان، وتمر القرون والجراح الغائرة لا تندمل.."، وفى إسقاط ظاهر على الواقع الراهن يقول: "والخروج التاريخى الأليم من كوسوفا سبقته طبقات متراكمة من العنف والخبث والشرور المتبادلة"، وهو هنا لا يحدد لنا "متبادلة بين من ومن؟" ولكنه يختم بعبارة أشد غموضًا عندما يقول: "فليس الصرب أو الأتراك أو الكروات ولكنها الحياة المعدومة الضمير"!

بهذه العبارات القصيرة السريعة يختم الكاتب مقاله، وهى عبارات تتغشاها غلالات من الغموض الشعرى وإن بدت على سطحها كلمات طافية توحى لخواطرنا بأنها لا تزال تعبر عن الواقع الذى نعرف بعض ملامحه.. فنحن لا نعرف من كلامه عن هذا "الخروج التراجيدى الأليم من كوسوفا" هل هو خروج ألبان كوسوفا من ديارهم وأرضهم وقد ساقتهم القوات الصربية فى عمليات تطهير عرقى وحشية كما شاهدنا..؟ أم هو خروج القوات الصربية بعد أن أجبرتهم قوات حلف الأطلسى، بالقصف الجوى، على العودة إلى صربيا..؟

لقد حدثت كارثة مروعة لشعب كوسوفا ، ولكننا لا نرى خلال هذه العبارات من هو المجرم ومن هو الضحية..؟ وإنما – يتحدث الكاتب عن "طبقات متراكمة من العنف والخبث والشرور المتبادلة" التى سبقت هذا الخروج . وهناك إيحاءات بأن الصرب ليسوا هم المذنبين ولكن هناك سبب خفيّ لهذا الخروج وهذه الجرائم وهو: "الحياة المعدومة الضمير" على حسب قوله .. فهل يراد لنا أن نفهم أن هذا السبب الخفى هو المسئول عن إخراج شعب كوسوفا من بلاده ..؟ ، وأن هذا السبب الخفى هو الذى قتل الناس ونهب المنازل ثم أحرقها ، وهو الذى دمر القرى ولم يُبْق على كائن حى فى طريق زحفه..؟ وبالتالى هل يراد لنا أن نفهم أنه ليس وراءَ كل هذه الجرائم تخطيط سياسى وتدبير عسكرى محكم استهدف إخلاء كوسوفا من سكانها ثم أحرقها..؟ وأن هذا التخطيط والتدبير لم تقم به قيادات عنصرية تصدر عن عقلية فاشية فى بلجراد..!؟

إن عبارة "الحياة معدومة الضمير" هذه قد تصلح شطرًا فى بيت شعرى أو تهويمة فى عقل فيلسوف مثل شبنجلر (وقد صدّر بها الكاتب مقاله) ولكنها لا تقنع أحدًا بشيء ولا تستطيع أن تغير الحقائق الموضوعية لحرب الإبادة الجماعية التى شنتها القوات الصربية النظامية والعصابات الصربية المدربة على شعب كوسوفا الأعزل.

وحتى لو صدقت تلك المزاعم التى ساقها إيفو أندريتش فى روايته عن مظالم وأهوال مروعة تعرض لها الشعب الصربى فى القرون الماضية على أيدى الأتراك العثمانيين، فإن شيئًا من كل هذا لا يمكن أن يكون مبرِّرًا أو ذريعة لإبادة شعب برئ واستئصاله من الوجود كما فعلت القوات الصربية بشعب كوسوفا.

مزاعم وافتراءات:

ومع ذلك فأود أن أؤكد هنا أن كثيرًا من المزاعم التى تتردد فى مقاليْ: فهمى وهيكل استنادًا إلى رواية إيفو أندريتش، مثل خطف الأطفال للتجنيد وقهر المسيحيين على أعمال السخرة وإجبارهم بقوة السيف على اعتناق الإسلام ، وغير ذلك من مزاعم منسوبة إلى النظام العثمانى فى أوروبا الشرقية .. كلها مجرد

افتراءات لا دليل عليها فى التاريخ، وقد بحثت هذه الموضوعات وكتبت عنها بتفصيل واستفاضة فى كتابين لى أحدهما عن البوسنة والآخر عن كوسوفا، وما حكاية ألبان كوسوفا الذين جلبهم العثمانيون أو جاءوا فى ركاب الجيش العثمانى كما يقول "محمد حسنين هيكل" إلا واحدة من هذه المزاعم التى تفيض بها الكتب التاريخية الصربية التى تقدس الأساطير وتستهين بالحقائق التاريخية.

إيفو أندريتش وثقافته العنصرية:

وقد تبين لى من دراستى لما كتبه إيفو أندريتش سواء فى روايته "جسر على نهر درينا" أو غيرها من المؤلفات أن أندريتش ابن شرعى للثقافة الصربية التقليدية ؛ وأن مؤلفاته تُعَبِّر عن شطحاتهم وأساطيرهم التاريخية الشائعة ، كما تعبِّر عن تعصباتهم العنصرية.

وإذا كان أندريتش يتستر فى حبكته الروائية أو تهويماته الإبداعية ليطلق أحكامًا غير مسئولة عن التاريخ العثمانى ، وعن الإسلام الذى يجهله تمام الجهل ، فإن هذه الغلالة الزائفة تنحسر عنه فى كتاباته الأخرى، وتبدو أهواؤه وتعصُّباته واضحة ضد الإسلام والمسلمين ؛ فقد ألّف كتابًا بعنوان "تطور الحياة الروحية فى البوسنة تحت سيطرة الحكم العثمانى" ، وهو فى الأصل بحث تقدم به للحصول على درجة الدكتوراه، زعم فيه أن العصر العثمانى فى البوسنة كان عصرًا قاحلًا مجدبًا ، افتقر إلى الحياة الروحية والأدبية ، حيث يقول: "لقد كان أثر الحكم العثمانى سلبًا مطلقًا فلم يستطع الترك أن يجلبوا معهم محتوى ثقافيًا ذا قيمة، وأن هذا الحكم ينطبق أيضًا على السُّلاف الجنوبيين الآخرين الذين اعتنقوا الإسلام" [وهو يقصد البسنويين].

هذا الكلام – على حد وصف المؤرخ البريطانى "نويل مالكم" مجرد تعبير عن التعصب الأعمى ؛ وهو عمى اختيارى أمام هذا الزَّخم من الآثار المعمارية البديعة التى بناها المهندسون والمعماريون العظام .. وأمام هذا الفيض الغزير من الأعمال الأدبية والفكرية المتنوعة التى كتبَها البشناق المسلمون فى ظل الحكم العثمانى ، ورغم التدمير الذى ألحقه الصرب فى مكتبات "غازى خسرو بك"

والمعهد الشرقي والمكتبة الوطنية والأرشيف التاريخي وغيرها من مكتبات سراييفو التى دكّها الصرب بالقذائف المدفعية، فإن بعض أبناء البوسنة استطاعوا أن ينقذوا بضعة آلاف من المخطوطات القيمة أخفوها فى خزائن البنك المركزى تحت الأرض .. ويسهر الآن على تسجيلها على أقراص ضوئية صديقى الدكتور كمال عرفات مدير مؤسسة الفرقان بلندن ليحتفظ بها بعيدا عن البوسنة حتى لا يتمكن الصرب فى جولة تترية أخرى من القضاء على هذا التراث العظيم.

هذه البقايا الثقافية التى أمكن إنقاذها من همجية أعداء الثقافة تدل على إسهام البشناق فى الحياة الروحية والأدبية فى يوغسلافيا على أوسع نطاق، بل إن كتابات البشناق وآثارهم الفكرية تعدت حدود يوغسلافيا ولا تزال محفوظة إلى اليوم فى مكتبات إسطنبول وفيينا والقاهرة وفى أماكن أخرى من العالم.

ولأن لغة البشناق ظلت وعاء حاملا للفكر والأدب حقبة طويلة من الزمن أصبحت أكثر حساسية ومرونة عن غيرها من اللغات الصربوكرواتية الأخرى، وفى هذا يقول "مورو أوربينى"(١٦٠١م): "من بين جميع المتحدثين باللغات الصربوكرواتية يملك البشناق أجمل وأرق لغة، وقد حق لهم أن يفخروا بأنهم يحتفظون بلسان سلافيٍّ نقيّ" ، وقد اعترف بهذه الحقيقة كاتب صربى مشهور فى القرن التاسع عشر هو "فوك كاراجيتش" حيث يقول: "إن لهجة وسط الهرسك (البشناقية) تمثل اللغة الشعبية فى أفضل وأنقى صورها".

لم تكن البوسنة العثمانية إذن مجدبة ثقافيًّا كما يزعم أندريتش ورفاقه وإنما يكمن الجدب والفقر فى ضمائر بعض الكتاب الصرب لأنهم مصابون بحساسية مَرَضيّة ضد كل ما هو إسلام ومسلم ؛ إنها كما يقول نويل مالكوم "فرية مردودة علىَ أصحابها".

محمد حسنين هيكل .. نظرة أحادية الجانب:

فى مقاله "بقايا يوغسلافيا" يثير محمد حسنين هيكل مشكلة أخرى تتعلق بالمصادر والاستشهاد المرجعى، فقد اعتمد فى استقاء معلوماته عن القضية

اليوغسلافية على أربع شخصيات أحدهم – كما سبق أن ذكرنا – هو إيفو أندريتش، ومن هنا جاء الخطأ.

وأغلب الظن أن مصدر هذا الخطأ يكمن فى عاملين:

يتمثل الأول فى الاختيار غير الموفق لشخصيات الشهود الأربعة الذين اعتمد عليهم فى استخلاص الحقائق ؛ وأعنى بهم على وجه التحديد: اللورد "دافيد أوين" David Owen الوسيط الأوروبى فى مفاوضات السلام البوسنوية، والكاتب الصربى "إيفو أندريتش" Ivo Andric .

أما المارشال تيتو فلم يكن له إسهام حقيقى فى الشهادة لأنه كان بين يدى خالقه ومولاه عندما تفجر الصراع الدموى فى يوغسلافيا، ولا أعوّل كثيرًا على "فيتزروى ماكلين" رجل المخابرات البريطانى القديم لأن تعليقاته لا تضيف شيئًا ذا قيمة حقيقية فى فهم الأوضاع الراهنة فى يوغسلافيا .. وإنما حشر هيكل اسميهما كشاهدين فى الموضوع ، ليدلّل –كعادته– على أنه مطّلع على خفايا الأمور ، وأن مصادره موصولة بالحُكّام الكبار، ورجال المخابرات الذين يملكون صناديق الأسرار.

ويتمثل العامل الثانى فى الثقة المطلقة التى مُنحت لكل من لورد أوين وإيفو أندريتش، وفى اعتبار كلامهما مرجعية لا معقب عليها وقضايا مسلمة ، والدليل على ذلك أننا لا نجد فى المقال أى تعقيب أو ظلال من شك، وفى هذا إهدار لجانب مهم من الحقيقة يلفتنا إليه ذلك القدر الكبير من النقد الذى وجه إليهما، وعلى الأخص إلى لورد أوين، سواء فى موقفه أو مسلكه فى المفاوضات ، أو فى كتاباته وتصريحاته حول قضية البوسنة.. وكان من بين ناقديه شخصيات سياسية مرموقة وعدد من الكتاب والصحفيين على مستوى عالٍ من المصداقية، ولا يمكن تجاهل رأى هؤلاء جميعًا فى قضية يعترف المقال بأنها قضية بالغة التعقيد فى منطقة بالغة الحساسية.

لورد أوين طبيب الموت:

رغم ما ينسبه المقال إليه من مواهب وقدرات ، وتأكيده على نجاحه فى أن يجعل من نفسه شخصية من نوع خاص فى السياسة البريطانية ، وهو كلام عام لا يوضح طبيعة هذه الخصوصية فى مجال الخبرة العملية ، إلا أن الذى نعرفه ويعرفه الكتاب والمعلقون السياسيون البريطانيون أن نجم الوزير اللامع لورد "دافيد أوِينْ" قد انطفأ فى مايو ١٩٧٩ بعد الانتخابات العامة فى بريطانيا وفوز حكومة المحافظين التى تربعت على السلطة بعد ذلك ردْحًا من الزمن، وكانت نتائج الانتخابات البائسة التى حصل عليها حزب العمال يرجع كثير من الفضل فيها إلى نصائح "دافيد أوين" ..

ولكى يثبت لناقديه أنه ليس سياسيًّا فاشلًا أنشأ حزبًا مستقلًّا ، سرعان ما تبدد فى غضون أربع سنوات ، ثم اعتزل السياسة وعكف على كتابة مذكراته ؛ فتاريخ "دافيد أوين" السياسى سلسلة من الاندفاعات وسوء التقدير كان وراءها طموحات مبالغ فيها أسلمته فى النهاية إلى الاعتزال المبكر فلم يكن قد بلغ سن الخمسين من عمره حينذاك.

ولكن بقيت فى أعماقه جذوة من الطموح تتلمظ فى انتظار دور سياسى يثبت فيه للعالم أنه ليس رجلًا فاشلًا ، وجاءته الفرصة عندما رشحه "لورد كارنجتون" ليحل محله كوسيط أوروبى لمفاوضات السلام فى يوغسلافيا بعد إخفاق هذا الأخير.

لقد بذلت بريطانيا أقصى جهودها لمعارضة أى تدخل عسكرى لردع العدوان الصربى على البوسنة ، وإجهاض أى محاولة لرفع الحصار عن تسليح شعب البوسنة ليمارس حقه الشرعى فى الدفاع عن نفسه ، ولورد أوين نفسه كان – قبل أن يتولى منصبه الجديد – يميل إلى موقف "مسز ثاتشر" رئيسة الوزراء السابقة فيما يتعلق بضرورة قصف الدبابات والمدافع الصربية لرفع الحصار عن مدينة سراييفو، ولكنه عندما بدأ يمارس مهام منصبه غيرَّ رأيه واتخذ موقفًا مختلفًا، ؛ فقد علم على وجه اليقين طبيعة الدور المطلوب منه إنجازه فى البوسنة.. ولذلك فهو لم يكتشف – كما يزعم هيكل – أن التسوية العادلة مستحيلة وإنما كان يعلم منذ البداية أن التسوية العادلة ليست مقصودة ولا

ينبغى له أن يلتمس سبيلها أو يقترب منها ، ومن ثم تركزت جهوده فى الوصول إلى أى تسوية ممكنة تتحقق بها إرادة الطرف الأقوى وترضى طموحاته فى إقامة صربيا الكبرى على أشلاء البوسنة.

لورد أوين إذن لم يكن محايدًا - كما يدعى - ولم يكن منصفًا وإنما كان متحيزًا للطرف المعتدى، وكان يتطلع بصبر نافد أن تأتى اللحظة الحاسمة ليعلن هزيمة المسلمين وانتصار الصرب بالضربة القاضية ؛ وهنا تتوقف الحرب ويتحقق نجاحه السياسى ويتسلم جائزته الكبرى كرجل سلام دولى.

وهو لم ينسحب من المشكلة اليوغسلافية لأنه حاول مخلصاً وفشل - كما يزعم هيكل- ولكن لأنه أمسك بالمفتاح الخاطئ وأصر على استخدامه طول الوقت، وحتى عندما تبين له أن مهمته قد انتهت بالفشل الذريع وأصبح موضع سخرية وانتقادات عارمة من الصحافة العالمية فى أوروبا والولايات المتحدة ظل متشبسًا بمنصبه مُصِرًّا على الاستمرار فى وظيفة لم يعد أحد يريدها، وبدأت الدول الأوروبية تبدى استياءها رسميًّا من إصراره على البقاء فى منصبه .

ولكن عندما انتقلت القيادة الغربية بصفة حاسمة إلى الجانب الأمريكى وشرع ريتشارد هولبروك فى جولاته المكوكية فى المفاوضات ، وتحولت الأضواء إلى بقعة أخرى على خشبة المسرح اضطر لورد أوين أخيرًا إلى الإنزواء فى ركن مظلم غير مأسوف عليه، وعاد مرة أخرى يكتب مذكراته عن البوسنة فى كتاب بعنوان "أوديسًّا البلقان" نشر فى لندن أولاً سنة ١٩٩٥م ثم فى نيويورك سنة ١٩٩٦م. ، وكان موضوعه المحورى هو تبرير فشل مهمته فى البوسنة ومحاولة تبرئة نفسه من التهم التى وُجِّهت إليه .

فى هذا الكتاب الذى يحتوى على ٤٣٦ صفحة نرى دافيد أوين يصب ما فى صدره من غيظ وغل فى محاولة يائسة لتبرير أخطائه وتبرئة نفسه، وليته سكت ولم يفعل لأنه كشف عن مكنون نفسه فى قصة زائفة مبنية على تجاوزات للحقيقة وإنكار للواقع ومنطق فاسد ، وكان من السهل على أى خبير فى تاريخ البوسنة الحديث والمعاصر أن يلاحظ الأخطاء الفاحشة والسقطات التى وقع فيها لورد أوين فى هذا الكتاب، ونشير فيما يلى إلى عينات من هذه الأخطاء:

١- يفترى القوميون الصرب على تيتو أنه هو الذى اخترع حدود البوسنة وكرواتيا بطريقة عشوائية، ليثبتوا أن لهم حقوقاً تاريخية فى أراضى البوسنة وكرواتيا، ومن العجب أن يتابع لورد أوين هذا الزعم الصربى دون تمحيص، بل يردده فى أول فصل من فصول كتابه فيقول: "طبقًا لما كتبه "ميلوفان ديلاس" كانت الحدود ترسم أحياناً بطريقة سريعة ونحن نتحرك أثناء الحرب العالمية الثانية، وكانت عشوائية فى الغالب".

ولقد اكتشفتُ أن اللورد أوين لم يكلِّف نفسه بالإطلاع على كتاب ديلاس وإنما اكتفى بروايات صربية كاذبة عنه، يستطيع أى قارئ لديه معلومات أولية بسيطة عن تاريخ يوغسلافيا أن يعرف أن الحدود وضعت بمعرفة لجنة كان يرأسها "ديلاس" ساعد تيتو الأيمن بعد الحرب، وأن هذه اللجنة أمضت شهورًا تنظر فى خرائط وتفاصيل دقيقة تتعلق بالحدود وانتهت إلى الاحتفاظ بحدود البوسنة التاريخية التى تقررت فى اتفاقيات دولية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

وإذا نظر القارئ إلى الفقرات الخاصة بالبوسنة فى كتاب ديلاس فسوف يعلم أن القرار الذى اتُّخذ أثناء المسيرة لا علاقة له برسم الحدود ولكن عن وضع البوسنة كوحدة سياسية فى إطار النظام الجمهورى ليوغسلافيا، وفى هذا لم يقل ديلاس أن القرار الذى اتُّخِذَ بشأن اعتبار البوسنة جمهورية كان قرارًا عشوائيًّا، ولكنه يقول إنه اتخذ لأسباب جوهرية، وكان لابد من اتخاذ هذا القرار على أى حال -يستوى فى هذا وضع المسيرة أو الوقوف أو الجلوس.

٢- ومن أحكامه الخاطئة تبريره لموقف الحكومة البريطانية فى معارضتها للتدخل العسكرى فى البوسنة حيث قال: "إن موقف الحكومة البريطانية مؤسس على الرأى العام البريطانى نفسه"، بينما تقرر صحيفة الديلى تلجراف فى أول صفحة بعددها الصادر فى ١٥ إبريل ١٩٩٣م أن ثلثى البريطانيين الذين أجابوا على أسئلة استطلاع للرأى بشأن البوسنة يعتقدون أن القوات الدولية ينبغى أن تتدخل لفرض السلام وأن القوات البريطانية ينبغى أن يكون لها دور فى هذا المجال، وهذا ما كانت بريطانيا ترفضه وتعارضه بكل قوتها ونفوذها.

ومع ذلك فإن كل من تابع تطورات الحرب فى البوسنة يعلم أن المسلمين وقّعوا بالموافقة على خطة أوين رغم بشاعتها، واضطر كراجيتش أن يوقع تحت كثير من الضغوط وتدخل ميلوسيفيتش نفسه فى مؤتمر للمفاوضات انعقد فى أثينا أول مايو ١٩٩٣، ولكنه التف حول هذه الموافقة بعرضها على برلمان "بالى" المزعوم الذى طرحها بدوره فى استفتاء عام عن حرب البوسنة فرفضها الصرب فى ٥ و ٦ مايو ١٩٩٣ بأغلبية ٩٦٪. وبذلك انتهت خطة أوين إلى طريق مسدود .. وذلك بسبب أصدقائه الصرب لا بسبب البشناق ولا الأمريكيين . ولكنك لن تجد أى ذكر لهذه الحقيقة فى كتاب لورد أوين؛ فقد كانت عين السخط مركزة على حكومة البوسنة التى حاول فى كل مناسبة وبغير مناسبة أن يلطخ وجهها بالسواد وينسب إليها أخطاء وجرائم لم ترتكبها، فعين السخط تبدى المساوئ فقط .. فإذا لم تجدها إخترعتها أو زوَّرتها.

عبثية المفاوض المنحاز:

لقد تعلم أوين فى بدء مهمته من الحكومة البريطانية أن يرفض ويستمر فى رفض استخدام عبارات مثل المعتدى والضحية، وكان إصراره هذا ضد اقتناع الرأى العام البريطانى والعالمى (أن حرب البوسنة كانت عملًا عدوانيًّا مخططًا من قَبل الحكومة الصربية) ، وبالتالى كان أوين يقاوم بكل ما أوتى من قوة أى دليلَ أوَ شاهد على أن حرب البوسنة كانت حربًا عدوانية مخططة ، ومن ثم لم يرد فى كتابه أى تفسير لاندلاع الحرب ؛ وكأنها صاعقة كونية انقضت من السماء، وبدلًا من أن يلجأ إلى التفسير الواقعى الوحيد ذهب يكرر عبارات بسُهاء.. مثل:

- لا أحد برئ فى حرب البوسنة فالجميع أيديهم ملطخة بالدماء.
- ليس هناك معتدٍ أو ضحية واضحان.
- الأحقاد التاريخية والصراعات العرقية والدينية تنبعث من جديد.

حتى فكرة أن أحد الأطراف ربما يكون هو المذنب لأنه هو الذى بدأ الحرب مثلًا، لم تكن واردة على فكر لورد أوين، ومن أجل هذا كان حريصًا على أن

يسكب اللون الأسود على حكومة البوسنة وأن يشير إلى عناد رئيسها بيجوفيتش وعدم واقعيته بينما يكيل الثناء على عبقرية ميلوسيفيتش وتعاونه، متجاهلًا بذلك الحقيقة التى يعلمها الجميع.

حسب رواية محمد حسنين هيكل ، يقول لورد أوين له : "لم يكن فى وسع أي وسيط دولى أن يعثر -فى كثير من الأحيان- على طرف إنسانى مسئول له شرعية التفاوض ويتحمل مسئوليته على المائدة وبعدها ..!

وأقول: هذا كلام "فضّ مجالس أو كلام ساكت" كما يقول إخواننا السودانيون، لأنه إذا كان صحيحاً فمن أين جاء الأمريكيون بالمسئولين الشرعيين الذين تفاوضوا فى "دايتون" ووقعوا اتفاق السلام ونفذوه..؟! لقد كان أوين يتفاوض مع كراجيتش وملاديتش بينما استبعدتهما مفاوضات دايتون باعتبارهما مجرمى حرب مطلوبين للعدالة .. واستهان بالممثل الشرعى ورئيس جمهورية البوسنة المنتخب وراح يبحث عن الصعاليك والمتمردين أمثال فكرت عبديتش ؛ ولذلك اتضح من البداية أنه كان يمسك بالمفتاح الخاطئ للمشكلة، وتبنّى وجهة نظر المعتدى من أول لحظة، وحاول أن يفرض حلًا قائمًا على التقسيم العرقى والطائفى رغم أنف الضحية، ففقد مصداقيته وفشل فى مهمته، وسماه مسلمو البوسنة بحق "طبيب الموت"..!

ولأن كتاب لورد أوين وكتاب إيفو أندريتش يمثلان وجهة النظر الصربية اسْتحقًا أن تضمهما قائمة اختيارات المكتبة الصربية فى شبكة "الإنترنت"، بل إن كتاب لورد أوين يأخذ مكانًا متميزًا ضمن أفضل ثمانية كتب فى هذه القائمة.

ولكن عالم الحقيقة عن البلقان أضْوَأ وأكثر رحابة من الجحور والأنفاق المظلمة التى تعشش فيها الخفافيش الصربية ، وإنما علينا أن نتخلى أولًا عن بعض أهوائنا وتعصباتنا الأيدويولوجية ، وأن نكف عن النظر تحت أقدامنا وأن نعتاد النظر إلى الآفاق الفسيحة من حولنا.

****

إعادة إكتشاف نجيب محفوظ

قُدِّر لى فى آخر العمر أن أستقر فى مسكن بعيد عن العمران فى مزرعة جبلية فى النصف الجنوبي من الكرة الأرضية .. فى أيام الجمعة فقط ألتمس مسجدًا على بعد ٤٠ كيلو مترا .. قد يعقبه أحيانا زيارة للمكتبة العامة .. تقع بعده بخمسة عشر كيلومترا أخرى.. أدهشنى أن أرى فى ركن بالمكتبة مجموعة من الكتب العربية مختلطة مع كتب أخري تركية وهندية وأرديّة .. هزنى الشوق أن أقرأ كتابا بالعربية فتصفحتها ، حتى وقع نظرى على إسم كاتب معروف لى ، طالما أعجبت به فى الأيام الخوالى .. إنه نجيب محفوظ فاستعرت كتابين له لم أكن سمعت بهما من قبل أحدهما مجموعة من القصص القصيرة بعنوان " حديث الصباح والمساء". قرأته بسرعة وشغف؛ فشعرت وكأنه يتحسس -فى لمحات خاطفة بين ثنايا حواراته- أوجاع المصريين الراهنة ..

ولكن تبقى ميزته الأساسية تطبع أسلوبه الفذ فى رسمه لشخصياته القصصية بكلمات قصيرة رشيقة مكثّفة ؛ هي فى الحقيقة سر من أسرار إبداعه الأدبي المتميز:

يصف شخصية "مطريَّة عمرو عزيز" وهي امرأة قليلة التعليم محدودة الثقافة ولكنها مستريحة البال، فى أسرة لا يعوزها المال ولا تعكر صفوها الأزمات .. يقول عنها:

"لقد اعْتَقَدَتْ أن حب الله ورسوله يعفيها من أداء الفرائض" بهذه العبارة القصيرة البسيطة يصف لنا نجيب محفوظ نمطًا كاملا من الشخصيات المصرية الذين تخففوا من عبء مسئولياتهم الدينية والاجتماعية،

وقد سيطرت على عقولهم فكرة ، لا يمكن تأسيس حياة حضارية جادة عليها ؛ أو إقامة مجتمع قوي ناهض متماسك .. لأنها فكرة ساذجة و بدائية مصدرها ثقافة شعبية هلامية القوام ، يردِّدها البعض وكأنها نصوص مقدّسة ، عندما يقولون بأفواههم " ربنا رب قلوب..!" وهم لا يقصدون الجانب الإيجابي من هذا المعتقد ، الذى يتمثل فى الرقابة والتقوي وإحسان التوجُّه وإتقان

العمل، وإنما يقصدون فقط طرح المسئولية والواجب العملي جانبًا .. وهذه ثقافة هابطة لا تنتج إلاّ شخصية بلهاء متواكلة معطّلة المواهب والقدرات..

وفى موقع آخر ترى مشهد قاضٍ هو "لبيب سرور عزيز" مفروس من الحكم العسكري الذى فرضه انقلاب جمال عبد الناصر على مصر .. ولا يجد فرصة للتنفيس عما يجول فى صدره .. حتى يلتقى بابن عمه "حامد" فيميل على أذنه ليهمس له بهذه العبارة القصيرة التى تلخص الموقف كله .. يقول: "ما الحيلة..؟ أمامنا رجل يدّعى الزعامة وبيده مسدّس..! ".

نشرت هذه الانطباعات عن " حديث الصباح والمساء" على صفحتى فى الفيس بوك ، فحَظِيَتْ بتعليقات كثيرة مختلفة . ولكن لفت نظرى تعليقًا على جانب كبير من الأهمية لأنه يشير إلى قضية أدبية ملتبسة ، يقول صاحبه بأن "حديث الصباح والمساء" ليس كتاب قصص قصيرة وإنما رواية .. لذلك رأيت أنه من الضروري أن أوضح هذه النقطة الغامضة فى ذهن القارئ .. فقد رأي فى الكتاب نصف الحقيقة ولكن غاب عنه النصف الآخر ..

وأنا أعلم من دراسة مقارنة سابقة لى أن نجيب محفوظ متأثّر فى صياغته لبعض أعماله الفنية بالأديب الأمريكي الأشهر "جون شْتايِنْبكْ" الذى قرأت له أعمالا كثيرة أعجبتنى .. وعندما قرأت كتاب نجيب محفوظ مؤخرا ؛ استدعى إلى ذاكرتي عملا فنيًّا مماثلا لشتاينبك قرأته فى ستينات القرن الماضى .. كان عنوانه "مراعي السماء" The Pastures of Heaven أحد أشهر مؤلفات جون شتاينبك، الأدبية ، التى مزج فيها الفن الروائيّ بفن القصة القصيرة .

فقد صاغها فى مجموعة من الوحدات القصصية المستقلّة .. بحيث تصلح كل واحدة منها لأن تكون قصة قصيرة كاملة ذات بداية ونهاية واضحتين .. لكنها ترتبط بعضها ببعض: بوحدة الشخصيات ، والوسط الذي تدور فيه الأحداث... ومن ثم تتوالى القصص في ترتيب محكم يجعل بعضها استئنافًا لبعض ، رغم استقلاليتها، ومن ثَمَّ تكتسب سمات الرواية التى تتشابك فيها الأحداث ، وتتطور حتى تصل إلى قِمَّتها الدرامية .. وقد طبق جون شتاينبك هذا التكنيك الفني المبتكر في روايته التالية "هضبة تورتيلا".

لذلك تستطيع أن تسمي هذا العمل بأنه رواية بالنظر إلى تلك السمات الروائية فيه ، كما تستطيع أن تسمي الوحدت المستقلة التى يتكوّن منها هذا العمل بأنها مجموعة من القصص القصيرة ؛ كل واحدة منها مستقلة بعنوانها، متميزة .. ذات بداية ونهاية واضحتين ..

ولكن نجيب محفوظ ذاد الوضع تعقيدًا .. إذ اختطَّ لنفسه اتجاهًا مستقلًّا ؛ وكأنه يقول لجون شْتاينبك: "أنا لا أحذو حذوك النعل بالنعل" وإنما أكتب مجموعة من القصص القصيرة توهم القارئ بأنها رواية.. هنا تخلى نجيب محفوظ عن قواعد أساسية فى صياغة الرواية عندما اخترع الترتيب الهجائى فى تقديم شخصياته ؛ بحيث تأخر ظهور الأجداد إلى آخر القصص وظهر الأحفاد والآباء فى القصص المتقدمة بلا ترتيب طبيعي على الإطلاق ، وبذلك نسف التسلسل الزمنى الذى يميز ظهور الأشخاص فى زمنها العُمري بحيث نتعرف على الأجداد والجذور فى بداية القصة وتتوالى الأجيال بعد ذلك بظهور الآباء والأحفاد ..

فى قصص "حديث الصباح والمساء" يستحيل أن تتابع هذا التسلسل الطبيعي، ومحاولته ضرب من الجنون .. فأنت تحتاج إلى خريطة علاقات أسرية بالغة التعقيد كما تحتاج إلى شجرة نسب بالأصول والفروع لعدد كبير من الأفراد و الأسر المتشابكة .. فإذا حاولت هذا قضيت تماما على هدف المتعة بهذا العمل الفنى الجديد ..

لا شك أن نجيب محفوظ: أعماله وتاريخ حياته مثيران للجدل .. وقد درست هذه الظاهرة وكانت لى متابعات واتصالات بشخصيات شديدة القرب منه .. وأدرك أنه كانت له سقطة شنيعة عندما دفعه غروره الفني ، ومجموعة من الشيوعيين العتاة الذين احتكروا أجهزة الدولة فى النشر و الصحافة والنقد والإعلام .. وأحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم .. فزينوا له أن يكتب روايته "أولاد حارتنا" .. وأنه سيفلت من عقوبة الضمير وسخط الجماهير بفضل سيطرتهم على أجهزة الدولة الفكرية والثقافية فى زمن عبد الناصر؛ فقد كانوا قادرين على تحسين القبيح ، وتقبيح الحسن فى عقول الناس..!

ولقد أفاق الرجل فى مرحلة لاحقة ، فحاول أن يصلح ما أفسده الدهر ولكن جهوده لم يساندها الإعلام المعاكس .. الذى أصر على أن يُبْقى على صورة نجيب محفوظ الملحد فى أذهان الناس وهذا ما سوف أعرضه وأناقشه فى مقالة لاحقة .. ضمّنتها نتيجة بحث جادّ أردت به وجه الله إنصافا للرجل وإنصافًا للحقيقة.. !

****

نجيب محفوظ: كلمة حق وإنصاف

فى مصر يتم تزييف التاريخ -بدمٍ بارد- فى كل مرّة يعتلى فيها عرش السلطة حاكم جديد ؛ إذ يصبح العهد السابقُ عهدًا بائدًا لا ينبغى أن يعرف الشعب عنه شيئًا ؛ إلا كل نقيصة ومذمَّة .. وما دُمْتَ تزيِّف التاريخ – وهذه جريمة كبرى- فأنت تزيِّف الحقائق وهذه جريمة ثانية ؛ يتولّد منها تلقائيًّا جريمة ثالثة أشد غِلظة وأبعد أثرا، ألا وهي جريمة تزييف الوعي وتضليل الأجيال . ومن تجلّيات هذه الجريمة حرق الكتب وحبس الوثائق أو فرْمها ، وإشاعة وقائع مناقضة عبر أجهزة الإعلام إمعانا فى التضليل .. أما فى هذا الزمن فنحن نشهد جريمة رابعة -مضافة- ألا وهي تزييف العقيدة؛ متمثّلة فى الجرأة على الله و رسوله .. وعلى الأحكام الشرعية الثابتة بالقرآن والسنة..

ولكن ليس هذا موضوعنا .. ربما تكون مقدمة ضرورية لكي نعيَ حقيقة أننا يمكن أن نعيش فى وهمٍ أعواما طويلة حتى يأتى من يكشف لنا الحقيقة ويرفع عن أعيننا الغطاء ..

لقد جذبنى أدب نجيب محفوظ فى وقت مبكر جدًّا وتابعته -مستمتعًا- بقراءة كل ما نُشر له حتى روايته "أولاد حارتنا" التى نشرتها صحيفة الأهرام فى حلقات سنة ١٩٥٩/ ١٩٦٠، ثم توقفت عن النشر لاعتراض الأزهر عليها، ولِمَا أحاط بها من لغط شديد واتهام مؤلفها بالزندقة . لقد كنت أشعر أن نجيب محفوظ بهذه الرواية كان يقتحم دروبا محظورة فى عقائد مقدسة عند الناس باستهانة غير معهودة فيه .. كانت -رغم الأسلوب الرمزي وعدم التصريح بالأسماء- تشفّ لى عن توجّه خاطئ وتورّطٍ فيما كان لا ينبغى له أن يتورّط فيه.. ولعل نجيب محفوظ قد أدرك خطأه فتعهّد ألا تُنشر هذه الرواية أبدًا إلا بإذن من الأزهر، وقد التزم بهذا الوعد حتى آخر حياته.. ولكن سُرقت الرواية من قِبل ناشرين لبنانيين اعتادوا على سرقة حقوق المؤلفين ، ثم تم تهريبها داخل مصر وبيعت سِرًّا بأسعار خيالية ..

أكاد أجزم بأن نجيب محفوظ كان صادقا فى موقفه من الرواية وفى رغبته أن يطوي صفحتها من حياته وإليك مسوّغات هذا الاعتقاد :

أولا- لقد تمت عدة محاولات لنشر الرواية ؛ فبعد فوزه بجائزة نوبل سنة ١٩٨٩م أعلنت صحيفة المساء الحكومية إعادة نشر الرواية مسلسلةً .. ولكن بعد أن نشرت الحلقة الأولى اعترض محفوظ عليها فتم ايقاف النشر .. ثم جرت محاولات أخرى بعد استهداف حياته بالاغتيال سنة ١٩٩٤م ، متّخِذةً من التعاطف الشعبي ستارا للترويج للرواية .. فتنافست عدة صحف على نشرها منها "الأهالي".. لكن نجيب محفوظ ظل على موقفه من معارضة النشر .. إلا أن "الأهالى" وهي صحيفة شيوعية لا يهمها الجانب الأدبي من الرواية بقدر ما يهمها الترويج لعمل أصبح رمزًا للتجديف على الإسلام .. لم تحترم إرادة نجيب محفوظ ونشرتها كاملة فى عدد خاص يوم الأحد ٣٠ أكتوبر ١٩٩٤م .. وقيل أن العدد نفد من السوق فى يوم واحد.. وهكذا ترى أن حربا أيديولوجية قُصد بها تحدِّى التيارات الإسلامية والفكر الإسلامي ، ولكنها أيضا كانت حربًا مغموسة بالمصالح التجارية والكسب غير المشروع تم فيها التلاعب بالرواية وبصاحبها على السواء..

ثانيا- فى غضون تلك الفترة بعث نجيب محفوظ بكلمة إلى ندوة أقامتها الأهرام تحت عنوان "نحو مشروع حضاري عربي" قال فيها بالنص: "إن أي مشروع حضاري عربي لابد أن يقوم علي الإسلام ، وعلي العلم كلاهما.." وشرح رأيه بالتفصيل فى مناسبة أخرى حضرها بعض المثقفين الشهود .. أذكر منهم الإعلامي المخضرم أحمد فراج صاحب البرامج الدينية الشهيرة.. قال نجيب محفوظ:

"إن أهل مصر الذين أدركناهم.. وعشنا معهم.. والذين تحدثت عنهم في كتاباتي كانوا يعيشون بالإسلام .. ويمارسون قيمه العليا .. دون ضجيج ولا كلام كثير.. وكانت أصالتهم تعني هذا كله.. ولقد كانت السماحة وصدق الكلمة وشجاعة الرأي وأمانة الموقف ودفء العلاقات بين الناس .. هي تعبير أهل مصر الواضح عن إسلامهم .. ولكني في كلمتي إلي الندوة أضفت ضرورة

الأخذ بالعلم .. لأن أي شعب لا يأخذ بالعلم ولايدير أموره علي أساسه لايمكن أن يكون له مستقبل بين الشعوب.. إن كتاباتي كلها؛ القديم منها والجديد، تتمسك بهذين المحورين: الإسلام الذي هو منبع قيم الخير في أمتنا.. والعلم الذي هو [أداة] التقدم والنهضة في حاضرنا ومستقبلنا.

ثالثا- صحيح أن نجيب محفوظ فى فترة من حياته الدراسية كان متأثرا بلأفكار الماركسية عن العدالة الإجتماعية والاشتراكية ولكن كثيرا من المفكرين الذين مروا بهذه المرحلة تجاوزوها وأصبحوا من المفكرين الإسلاميين المرموقين نذكر منهم: المستشار طارق البشري و محمد عمارة ومصطفى محمود .. بل إن علي عزت بيجوفيتش فيلسوف الإسلام فى القرن العشرين يعترف بلوثة ماركسية أصابته فى سنوات مراهقته ، سرعان ما انقشعت .

أنا لا أزعم أن نجيب محفوظ تحول إلى مفكر إسلامي .. وإنما فقط أحاول إنصاف الرجل من تهمة لصقت به نتيجة خطأ استهان به فى البداية ثم أفاق إلى نفسه .. ولكن استغله المتعصبون من الجانبين: الإسلامي والعلماني على السواء؛ ليبقى سيف "أولاد حارتنا" معلقًا فوق رقبته رغم إرادته .. وخصوصًا أن الجانب العلماني حرص على أن يحاصره ويفرض عليه صورة العلماني الذى لم يغادر حظيرتهم ؛ فقد تسلّط عليه محمد سلماوى ، فى آخر حياته وهو يعانى المرض والعجز عن الاتصال بالعالم الخارجي ؛ خصوصًا بعد تدهور شديد فى سمعه وبصره ، وعدم قدرته على الإمساك بالقلم ، فاستنطقه كلاما لم يقلْهُ ، ونقله إلى عموده الصغير فى الأهرام حتى يُبْقِى على صورته التى صنعوها له فى أذهان الجماهير..

من المصادفات الهامة أننى التقيت بالأستاذ جمال النهري إبن أخت نجيب محفوظ ، فى بيت قريب لى وصديق له فى نفس الوقت .. فسنحت لي الفرصة أن أناقش معه شكوكى حول "أولاد حارتنا" وأمورًا أخري عن موقف خاله ، وقد استطعت أن أعرف منه حقائق كثيرة عن حياته ، كما حصلت على نص كلمته التى أُلقيت بالنيابة عنه فى حفل تسليم جائزة نوبل بالسويد ، وكانت قبل نشرها

على شبكة الإنترنت سرًّا من الأسرار غطَّى عليها الإعلام المصري ، فلم ينشر منها إلا فقرات تمجد الحضارة الفرعونية..

قُدّم إلينا جمال النهري على أنه طبيب و كاتب ومفكر إسلامي وأحد قيادات الإخوان المسلمين الذين استضافتهم سجون مصر أكثر من مرة فى عهد عبد الناصر.. عرفت منه كيف تحايل على زيارة سيد قطب فى مستشفى السجن سنة ١٩٥٤م برشوة حارسه .. وقداستغربت أن أسمع منه أن سيد قطب ذكر نجيب محفوظ بخير إذ قال لجمال النهري وهو لا يعرف أنه ابن أخته: لو قُدِّر لك أن تخرجٍ سترى نجيب محفوظ أعظم أديب في مصر وربما في العالم"، ونصحه بلقائه والتعرُّف عليه عن قرب .. والتعلم منه" .. ودهشت أكثر من هذا أن سيد قطب هو الذى كشف عن عبقرية نجيب محفوظ فى وقت مبكر جدّا خلال الأربعينات من القرن العشرين ، عندما بدأ يكتب قصصه فلم يلتفت إليه أحد من النقاد سوى سيد قطب وكان أحد أبرز نقاد الأدب فى مصر.

عُنى سيد قطب بقراءة قصصه وكتب عنها وتنبأ له بمستقبل أدبي باهر، وكانت سعادة نجيب محفوظ بهذه الشهادة فوق الوصف ؛ فقد انطلقت شهرته وشاعت على كل لسان بعد هذه الشهادة التى كتبت بقلم أديب متميز كان يكتب بأفصح بيان وأجمله عن موضوعين أثيرين لدى المثقفين فى ذلك الوقت: العدالة الآجتماعية ، والتصوير الفني فى القرآن .. وكان مبدعًا ومقروءًا على أوسع نطاق من أنصار العدالة الاجتماعية والإسلاميين على السواء..

رابعا- عندما فاز نجيب محفوظ بجائزة نوبل فى الآداب لسنة ١٩٨٩م ورد فى قرار اللجنة إشارةٌ إلى روايته "أولاد حارتنا".. مما تسبب فى أثارة ردود أفعال سلبية فى العالم العربي .. واعتبر البعض أن سر فوز نجيب محفوظ هو هذه الرواية الموصومة بالمروق. ولكن أعمال الرجل الأخرى -وهي غزيرة ومبدعة- تؤهّله لجائزة نوبل .. بل أجرؤ على القول بأنه كان أحق بالجائزة من كثيرٍ ممن حصلوا عليها من أدباء العالم الثالث والمتقدّم على السواء.. بعضهم -فى اعتقادي- يعُتبرون أقزاما بالنسبة لنجيب محفوظ ..

فلما كثر الجدل وبولغ فى تقييم أثر هذه الرواية كسبب فى الجائزة .. كان على نجيب محفوظ أن يختار بين أمرين: رفْضُ الجائزة من الأساس .. وهذا لن يعفيه -على كل حال- من التهمة التى لصقت به، فالرواية لا تزال موجودة رغم أنه أصدر بشأنها قرارًا سابقًا والتزم به حتى آخر حياته، وهو ألا يعيد نشرها أبدًا إلا بإذن من الأزهر.

أما الاختيار الثانى الذى آثره نجيب محفوظ فهو ألا يُظهر اهتمامًا عمليًا بالجائزة فلا يسافر ولا يحضر احتفال مؤسسة نوبل عند تسلّم الجائزة .. فبعث من ينوب عنه هناك .. ولكن الأهم أنه ضمّن كلمته عبارات قوية وجريئة عن أكبر القضايا المؤرقة فى العالم العربي وهي القضية الفلسطينية .. وأبرز الانتهاكات والمظالم التى وقعت على الشعب الفلسطيني من جراء العنف الإسرائيلي .. وندّد بسكوت الغرب على هذه الانتهاكات ..

لقد أراد محفوظ أن يواجه الغرب فى عقر داره وفى أكبر مؤسساته الداعية إلى السلام فى العالم .. ويضعهم أمام المرآة ليروا حقيقة موقفهم المخزي ويحسّهم على تصحيحه وإعادة الحقوق المهدرة إلى أهلها .. ولكن الغريب فى الأمر أن الإعلام المصري هلّل للجوانب السطحية فى الموضوع .. وعلّل عدم سفر الرجل لاستلام الجائزة ، بعشقه الشديد لمصر وأنه يؤثر البقاء على أرضها فلا يفارقها لحظة من حياته .. وهو تهريج إعلامي لا يصدقه العقلاء..

هذا الإعلام -كعادته- أخفى الحقيقة عن أعين الجماهير .. بل تعمّد تشويهها عندما نشر فقرات منها تمجّد الحضارة الفرعونية باعتبارها حضارة وثنية على خلاف رؤية نجيب محفوظ .. لذلك لم تُنشر الكلمة كاملة أبدًا على مدى هذه السنين الطويلة .. فقد جرى التعتيم عليها تمامًا .. ولكنها كلمة تاريخية تستحق التأمل والتقدير .. خصوصًا ماورد فيها عن الحضارة الإسلامية.. وعن قضية الشعب الفلسطيني .. وهذا هو نصها بالكامل:

سيداتى، سادتى : فى البدء أشكر الأكاديمية السويدية ولجنة نوبل التابعة لها على التفاتها الكريم إلى اجتهادى المثابر الطويل وأرجو أن تتقبلوا بسعة صدر حديثى إليكم بلغة غير معروفة لدى الكثيرين منكم، ولكنها هى الفائز الحقيقى

بالجائزة، فمن الواجب أن تسبح أنغامها فى واحتكم الحضارية لأول مرة. وإنى كبير الأمل ألا تكون المرة الأخيرة، وأن يسعد الأدباء من قومى بالجلوس بكل جدارة بين أدبائكم العالميين الذين نشروا أريج البهجة والحكمة فى دنيانا المليئة بالشجن ..

سادتى: أخبرنى مندوب جريدة أجنبية فى القاهرة بأن لحظة إعلان اسمى مقرونا بالجائزة ساد الصمت وتساءل كثيرون عمَّن أكون..؟. فاسمحوا لى أن أقدم لكم نفسى بالموضوعية التى تتيحها الطبيعة البشرية. أنا ابن حضارتين تزوجتا فى عصرمن عصور التاريخ زواجا موفقا، أولاهما عمرها سبعة آلاف سنة وهى الحضارة الفرعونية، وثانيتهما عمرها ألف وأربعمائة سنة وهى الحضارة الإسلامية.. ولعلى لست فى حاجة إلى التعريف بأى من الحضارتين لأحد منكم ، وأنتم من أهل الصفوة والعلم، ولكن لا بأس من التذكير ونحن فى مقام النجوى والتعارف .

العجيب فى الأمر أنه عندما تحدث عن الحضارة الفرعونية أبرز أهم سماتها ومنها اهتداءها لأول مرة إلى الله سبحانه وتعالى وكشْفها عن فجر الضمير البشرى .. يقول:

عن الحضارة الفرعونية لن أتحدث عن الغزوات وبناء الإمبراطوريات فقد أصبح ذلك من المفاخر البالية التى لا ترتاح لذكرها الضمائر الحديثة والحمد لله.. ولن أتحدث عن اهتدائها لأول مرة إلى الله سبحانه وتعالى وكشفها عن فجر الضمير البشرى. فذلك مجال طويل .. فضلًا عن أنه لا يوجد بينكم من لم يُلمّ بسيرة الملك النبى أخناتون. بل لن أتحدث عن انجازاتها فى الفن والأدب ومعجزاتها الشهيرة : الأهرام وأبو الهول والكرنك .. فمن لم يسعده الحظ بمشاهدة تلك الآثار فقد قرأ عنها وتأمل صورها.

دعونى أقَدِّم الحضارة الفرعونية بما يشبه القصة طالما أنَ الظروف الخاصة بى قضت بأن أكون قصَّاصًا ؛ فتفضلوا بسماع هذه الواقعة التاريخية الموثّقة: تقول أوراق البردى أن أحد ملوك الفراعنة قد نما إليه أن علاقة آثمة نشأت بين بعض نساء القصر وبعض رجال الحاشية .. وكان المتوقع أن يجهز على الجميع

فلا يشذ فى تصرفه عن مناخ زمانه .. ولكنه دعا إلى حضرته نخبة من رجال القانون.. وطالبهم بالتحقيق فيما نما إلى علمه، وقال لهم إنه يريد الحقيقة ليحكم بالعدل .. ذلك السلوك فى رأيى أعظم من بناء إمبراطورية وتشييد الأهرامات.. وأدل على تفوق الحضارة من أى أبهة أو ثراء.. وقد زالت الإمبراطورية وأمست خبرا من أخبار الماضى .. وسوف يتلاشى الأهرام ذات يوم ولكن الحقيقة والعدل سيبقيان مادام فى البشرية عقل يتطلع أو ضمير ينبض.

ثم انتقل إلى الحضارة الإسلامية فقال:

وعن الحضارة الأسلامية فلن أحدثكم عن دعوتها إلى إقامة وحدة بشرية فى رحاب الخالق تنهض على الحرية والمساواة والتسامح، ولا عن عظمة رسولها .. فمن مفكريكم من كرّمه كأعظم رجل فى تاريخ البشرية .. ولا عن فتوحاتها التى غرست آلاف المآذن الداعية للعبادة والتقوى والخير على امتداد أرضٍ ، مترامية ما بين مشارف الهند والصين وحدود فرنسا. ولا عن المؤاخاة التى تحققت فى حضنها بين الأديان والعناصر .. فى تسامح لم تعرفه الانسانية من قبل ولا من بعد .. ولكنى سأقدمها فى موقف درامى . مؤثر . يلخص سمة من أبرز سماتها.

ففى إحدى معاركها الظافرة مع الدولة البيزنطية ردّت الأسرى فى مقابل عدد من كتب الفلسفة والطب والرياضة من التراث الإغريقى العتيد .. وهى شهادة قيّمة للروح الإنسانى فى طموحه إلى العلم والمعرفة .. رغم أن الطالب يعتنق دينا سماويا والمطلوب ثمرة حضارة وثنية ..

قدر لى يا سادة أن أولد فى حضن هاتين الحضارتين، وأن أرضع لبانهما واتغذى على أدابهما وفنونهما. ثم ارتويت من رحيق ثقافتكم الثرية الفاتنة . ومن وحى ذلك كله بالإضافة إلى شجونى الخاصة . ندّتْ عنى كلمات. أسعدها الحظ باستحقاق تقدير أكاديميتكم الموقرة فتوجت اجتهادى بجائزة نوبل الكبرى. فالشكر أقدمه لها باسمى وباسم البُناة العظام الراحلين من مؤسسى الحضارتين [الفرعونية والإسلامية].

سادتى: لعلكم تتساءلون: هذا الرجل القادم من العالم الثالث كيف وجد من فراغ البال ما أتاح له أن يكتب القصص ، وهو تساؤل فى محله .. فأنا قادم من عالم ينوء تحت أثقال الديون حتى ليهدده سدادها بالمجاعة أو ما يقاربها. يهلك منه أقوام فى أسيا من الفيضانات. ويهلك آخرون فى أفريقيا من المجاعات. وهناك فى جنوب أفريقيا ملايين المواطنين قُضى عليهم بالنبذ والحرمان من أى من حقوق الانسان فى عصر حقوق الإنسان وكأنهم غير معدودين من البشر.

وفى الضفة وغزة أقوام ضائعون رغم أنهم يعيشون فوق أرضهم وأرض آبائهم وأجدادهم وأجداد أجدادهم. هبّوا يطالبون بأول مطلب حققه الإنسان البدائى وهو أن يكون لهم موضع مناسب يعترف لهم به . فكان جزاء هبّتهم الباسلة النبيلة. رجالا ونساء وشبابا وأطفالا. تكسيرا للعظام ، وقتلا بالرصاص وهدما للمنازل وتعذيبا فى السجون والمعتقلات.. ومن حولهم مائة وخمسون مليونا من العرب. يتابعون ما يحدث بغضب وأسى مما يهدد المنطقة بكارثة إن لم تتداركها حكمة الراغبين فى السلام الشامل العادل ..

أجلْ .. كيف وجد الرجل القادم من العالم الثالث فراغ البال ليكتب قصصا..؟ ولكن من حسن الحظ أن الفن كريم عطوف.. وكما أنه يعايش السعداء فأنه لا يتخلى عن التعساء. ويَهَبُ كل فريق وسيلة مناسبة للتعبير عما يجيش به صدره .. وفى هذه اللحظة الحاسمة من تاريخ الحضارة لا يُعقل ولا يُقبل أن تتلاشى أنَّات البشر فى الفراغ..

لا شك أن الإنسانية قد بلغت على الأقل سن الرشد.. وزماننا يبشر بالوفاق بين العمالقة ويتصدى العقل للقضاء على جميع عوامل الفناء والخراب.. وكما ينشط العلماء لتطهير البيئة من التلوث الصناعى فعلى المثقفين أن ينشطوا لتطهير البشرية من التلوث الأخلاقى ؛ فمن حقنا وواجبنا أن نطالب القادة الكبار فى دول الحضارة كما نطالب رجال اقتصادها بوثبة حقيقية تضعهم فى بؤرة العصر .

قديما كان كل قائد يعمل لخير أمته وحدها معتبرا بقية الأمم خصوما أو مواقع للاستغلال .. دونما أى اكتراث لقيمة غير قيمة التفوق والمجد الذاتى ..

وفى سبيل ذلك أُهدرت أخلاق ومبادئ وقِيَمٌ .. وبرزت وسائل غير لائقة .. وأُزهقت أرواح لا تحصى. فكان الكذب والمكر والغدر والقسوة من آيات الفطنة، ودلائل العظمة.

اليوم يجب أن تتغير الرؤية من جذورها.. اليوم يجب أن تقاس عظمة القائد المتحضر بمقدار شمول نظرته وشعوره بمسئولية نحو البشرية جميعا.. وما العالم المتقدم والثالث إلا أسرة واحدة ، يتحمل كل إنسان مسئوليتة نحوها بنسبة ما حصل من علم وحكمة وحضارة .. ولعلى لا أتجاوز واجبى إذا قلت لكم باسم العالم الثالث: لا تكونوا متفرجين على مآسينا ولكن عليكم أن تلعبوا فيها دورا نبيلا يناسب أقداركم.

إنكم من موقع تفوقكم مسئولون عن أى انحراف يصيب أى نبات أو حيوان فضلا عن الإنسان فى أى ركن من أركان المعمورة .. وقد ضقنا بالكلام وآن أوان العمل. آن الأوان لإلغاء عصر قُطَّاع الطرق والمرابين .. نحن فى عصر القادة المسئولين عن الكرة الأرضية .. انقذوا المستبعدين فى الجنوب الإفريقى. انقذوا الجائعين فى إفريقيا .. انقذوا الفلسطينيين من الرصاص والعذاب.. انقذوا المديونين من قوانين الاقتصاد الجامدة. . والْفتوا أنظارهم إلى أن مسئوليتهم عن البشر يجب أن تُقَدَّم على التزامهم بقواعد علمٍ لعل الزمن قد تجاوزه..

سادتى: معذرة.. أشعر بأنى كدَّرت شيئا من صفْوكم ولكن ماذا تتوقعون من قادم من العالم الثالث.. أليس أن كل إناء بما فيه ينضَح..؟

ثم أين تجد أنَّات البشر مكانا تتردد فيه إذا لم تجده فى واحتكم الحضارية التى غرسها مؤسسها العظيم لخدمة العلم والأدب والقيم الإنسانية الرفيعة..؟ وكما فعل ذات يوم برصد ثروته للخير والعلم طلبا للمغفرة فنحن ـ أبناء العالم الثالث ـ نطالب القادرين المتحضرين باحتذاء مثاله واستيعاب سلوكه ورؤيته.

سادتى : رغم كل ما يجرى حولنا فإننى ملتزم بالتفاؤل حتى النهاية. لا أقول مع الفيلسوف "كانْت" إن الخير سينتصر فى العالم الآخر. فإنه يحرز نصرا

كل يوم [هنا على الأرض] .. بل لعل الشر أضعف مما نتصور بكثير. وأمامنا الدليل الذى لا يُجحد. . فلولا النصر الغالب للخير ما استطاعت شراذم من البشر الهائمة على وجهها عرضة للوحوش والحشرات والكوارث الطبيعية والأوبئة والخوف والأنانية. أقول لولا النصر الغالب للخير ما استطاعت البشرية أن تنمو وتتكاثر وتكوّن الأمم وتكتشف وتبدع وتخترع وتغزو الفضاء وتعلن حقوق الإنسان: غاية ما فى الأمر أن الشر عربيد ذو صخب مرتفع الصوت .. وأن الإنسان يتذكر ما يؤلمه أكثر مما يسرُّه. وقد صدق شاعرنا أبو العلاء عندما قال:

"إن حزنا ساعة الموت أضعاف سرور ساعة الميلاد.."

هذا الكلام الواضح المستقيم كالسيف ، الشفاف كالبلّور، لا يقوله ملحد ولا دعيّ أفّاق ولا منافق خسيس ولا انتهازي يبيع قيمه ومبادئه لمن منحوه أعظم جائزة فى الأدب ، ولديهم عشق خاص لسماع كل ما يُسيئ إلى الإسلام والفكر الإسلامي ، يطربون له وينفقون على أصحابه بسخاء عظيم .. كما فعلوا مع ملاحدة ومنافقين سابقين من أمثال: سلمان رشدى وغيره ، يُعدون بالعشرات بل بالمئات .. يعيشون اليوم فى الغرب عيشة الملوك ، ولكن لا ترتفع هاماتهم إلى مستوى نعل نجيب محفوظ..

****

البعث: مسرحية شعرية

تطرّقت فى مقال لى بصحيفة "المصريون" -بصفة عارضة وسريعة- لمسرحية شعرية.. نُشرت فى سنة ٢٠٠٩، ورغم أنها عمل درامي أخّاذ، إلا أنها سقطت فى بئر الظلمات، فلم تتحول إلى عمل مسرحيٍّ، ولم يجرؤ كاتبٌ أو ناقدٌ أو مُخْرجٌ واحد أن يعلّق عليها بكلمة، أو يشير -حتى- إلى وجودها؛ فقد تمّ التعتيم عليها تماما.. وُئِدَتْ فى مهْدها.. لأنها مسرحية ثورية المنزع، تبشّر بثورة شعبية فى مصر ضد القمع والاستبداد.. لم ينتفض أحد من أدعياء البطولة المدافعين عن حرية الفن والتعبير.. كما ينتفضون اليوم للدفاع عن تفاهات، وأعمال هابطة لا تساوى -بمقاييس الفن الحقيقي- قُلامةَ ظُفْر..

المسرحية المحظورة -رغم أن مؤلفها مسلم- إلا أنها لا تتناول موضوعا إسلاميا، فبطلتها قديسة مسيحية، ثارت على الوثنية الرومانية والقهر الروماني فى عصر الشهداء، فلقيت حتفها دفاعا عن عقيدتها.. كانت المسرحية بالتأكيد مصدر إزعاج للنظام القمعي فقرر حظرها؛ فهى تكشف عن زيف الادعاء بالعداء الطائفي المزمن بين المسلمين والمسيحيين، الذى أجّجه نظام مبارك لشغل الشعب بالصراع والتقاتل، عن محاربة الاستبداد.. وتؤكد من ناحية أخرى على أن بعث الأمة وصحوتها ليس له غير طريق واحد هو التَّوَحُّدُ والثورة.

لقد اكتفيت فى مقالي بإيراد فقرات من المسرحية، لتدعيم قضية كنت قد طرحتها فى المقال حيث كتبت: " نعمْ .. إنه دائما -عبرالتاريخ- يوجد واحد من بيننا هو الذى يخوننا ويسلّم رقابنا للأعداء والجلادين؛ بالأمس كان مبارك وعصابته، واليوم ساويرس وعصابته..." وكان المشهد الذى اقتبسته من المسرحية تعزيزا لوجهة نظرى هو مشهد بطلة المسرحية القديسة "دميانة" عندما سألها كورس من أتباعها يستلهمون رؤيتها للمسيح فى آخر أيامه إذ يسألون: "دميانة.. قولى أيتها القديسة.. ماذا قال لأصحابه فى آخر ليلة...؟".

وتردّ عليهم دميانه فى ذهول: " تَمْتَمَ المسيح فى عشائه الأخير: "أقولها لكم.. لسوف يجلدوننى.. وحين يصلبوننى.. ستنكروننى.. جميعكم .. جميعكم.. تصوّروا أيها الرفاق.. بأن واحدًا أراهُ بينكم.. يقودنى لهم...!"

وفى مشهد آخر من هذه المسرحية البديعة تُصَوِّر دميانة الشعب المقهور الذى انتفضت هي لتخرجه من كهف الرعب والصمت الذى هرب إليه خوفا من بطش دقيانوس.. تقول: لا خبز لكم فى هذا العصر .. حتى يخلع كلٌّ منكم ثوبه.. ويمدّ يده إلى الأفق ينزع فَجْرَهْ.. أَفِيقُوا يا أهل الكهف.. أخطأتم يا أهل الكهف.. حين هربتم من دقيانوس.." ويستفيق الكورس على حقيقة كانت غائبة عنهم فيهتفون: " كان علينا أن نهدم روما أو أن نُصلب..!

وتردّ دميانة: "كان علينا أن نبقى داخل أسوار مدينتنا .. لا أن نهْجُرَها .. أو نهرب منها للكهف .. كان علينا ألا نقتل هابيل .. ألَّا نهدم جدران مدينتنا.." ويسأل الكورس: " من هدّم جدران مدينتنا .. نحن أم الأعداء..؟" وتجيب دميانة: "نحن .. نحن الأعداء..!.. الذنب ليس ذنب دقيانوس.. العيب فى الذين طأطأوا الرءوس .. لم يرفعوا السكين والفئوس..!!"

وعلقتُ على المسرحية قائلا: "هذه ملحمة ثورية مصرية فى الصميم، تعبر عن روح النضال الكامنة فى هذا الشعب.. منذ أقدم العصور.. وتضيىء لنا مُنْعَرجات مظلمة فى طريق ثورتنا الحديثة حتى لا تتعثر أو تنتكس.." ثم اقتبست هذا المشهد الدرامي عندما جاء جنود دقيانوس للقبض على دميانة وأنصارها إن لم يرتدّوا عن دينهم..." ويسجدوا للطاغوت دقيانوس.. ولكن تتحدى دميانة مبعوث الإمبراطور إليها وتتحدى جنوده الذين هتفوا:

"المجد لقيصر والويل لمَن يعصاه".. فتزجرهم دميانة بقوة: "كلا.. فالعزة لله..؟" يعترض قِلِقْيانوس: "لكن القيصر يملك كل الدنيا.. القوة والجاه...!" فترد دميانة بإباء وشموخ: " لكن لا يملك روحى إلا الله..!"

كاتب هذه المسرحية الذى أودع فيها حرارة قلبه ونبض إبداعاته الشعرية هو الدكتور صلاح عدس: طبيب متخصص فى الصحة العُمّالية وكان مديرا فى وزارة العمل، ولكنه عشق الفكر والأدب منذ صباه؛ حتى أصبح أديبا شاعرا وكاتبا متعدد الاهتمامات.. أعرفه كما أعرف نفسى.. فقد شاهدته وهو ما يزال طفلا يحبو، وتعهّدته بالتعليم فى المدرسة الثانوية.. وأعرف كيف نشأ على حرية الفكر والإنصاف.. وقبول الآخر؛ فقد نشأ فى كَنَفِ أبيه -يرحمه الله- نشأة طبيعية لا محاذير فيها، بين أقران له مسلمين ومسيحيين على السواء؛ فقد عاشت فى جوار أبيه ثلاثةُ أُسَرٍ مسيحية .. كان أبوه -وهو شيخ حافظ للقرآن -شريكا لرجال منهم فى مشرعات تجارية.. وكان يتعاون معهم، ويشاطرهم الأفراح والأتراح.

نشأ الكاتب فى هذه الأجواء الوُدّية، ورأي المسيحيين يدخلون بيت الأسرة.. ويرحّبون بدعوة أبيه لهم على الإفطار فى رمضان.. وكان بعضهم لا يجد غضاضة من المشاركة فى الصوم، تأكيدا للصداقة وحسن الجوار.

عرف الكاتب فى صِباه أن الفلاحين كانوا ينظّمون مواعيد الزراعة والحصاد وِفقًا لشهور السنة القبطية.. يحفظونها عن ظهر قلب، وهى على كل حال شهور مصرية قديمة ترجع إلى ٤٢٤٠ سنة قبل ميلاد المسيح عليه السلام.. كما عاصر مناسبات شعبية كان الفلاحون المسلمون يشاركون المسيحيين فيها؛ إذ يحضرون الاحتفال السنوي بالقديسة دميانة، (يوم ١٣ من شهر طوبة).. و قد استمع إلى الفلاحين العائدين من الاحتفال يحكون قصصا ونوادر وقعت حول دير دميانة الأثري فى برارى بلقاس، غير بعيد عن قرية بهوت.. مسقط رأس الكاتب..

مثل هذه القصص والصور والأجواء الوُدِّية، تظل عالقة فى الذاكرة والوجدان، كبذور كامنة ، تؤثّر فى ثقافته وفى مزاجه الأدبي، مهما طال الزمن ومهما تعمّقت معارفه.. ومن هنا لا نشعر بالغرابة أن يجعل الكاتب الشهيدة دميانة شخصية بطلته فى المسرحية، وأن يرى فى عصر الشهداء حلقة من حلقات المقاومة ضد الظلم والطغيان، تُحسب فى سلسلة البطولات المصرية الأصيلة، من أجل الحرية والكرامة عبر التاريخ..

العمل الأدبى كما نراه هو منظومة تتألف من مجموعة عناصر تشكِّلُ معا وِحدةً من الشكل و المضمون؛ فيها ما هو برّانيٌّ ظاهر، و ما هو جوانيّ باطن.. والفكرة المركزية فى العمل الأدبى هى رؤية الكاتب، أو هى الرسالة التى يريد أن يُبَلِّغها إلى الناس.

أمّا وقد تحدثنا عن العمل الأدبي باعتباره "منظومة" فلا بد أن نتطرق إلى مُدخلات هذه المنظومة، التى من أبرزها: العوامل المؤثرة فى بيئة الكاتب و ثقافته، وقد تناولنا جذورها الأولى فى نشأة الأديب صلاح عدس.. ونستطيع أن نتصور مدى تأثيرها فى علاقته بمجتمعه وواقعه.. الذى هاله ما يعانيه من استبداد وظلم؛ ومن ثَمّ نراه رافضًا ثائرًا.. لأنه لو كان راضيا بواقعه لما كتب شيئا.. و من هنا جاء معنى ان الشعر ثورة و ان الشعر نبوءة؛ فالشاعر الحقيقي يريد تغيير الواقع، ويعمل على تثويره، و يستشرف آفاق المستقبل..

تتمثّل عناصر المنظومة الدرامية فى: الحَدَثِ، و البناء الدراميّ، و الشخصيات، والحوار، والصراع .. ووظيفة الناقد أن يقوم بتحليل هذه العناصر..

لقد عاصر صلاح عدس فى طفولته نكبة فلسطين سنة ١٩٤٨ .. ثم العدوان الثلاثى على مصر سنة١٩٥٦ ، ثم هزيمة عام ١٩٦٧ فى عهد عبد الناصر.. وعاصر الانفتاح الأقتصادي الاستهلاكي فى عهد السادات و مبارك، و ما نشأ عن هذا من فساد و رشوة و فقر و بطالة، و هيمنة السماسرة و اللصوص، و ديكتاتورية الحكم.. هذه العوامل كلها ولّدت مخزونًا هائلًا من الغضب المتراكم، فى عقول الأحرار من أبناء هذه الأمة.. ومن الطبيعي أن تتجلى آثار هذا الغضب الثوري فى مسرحية "البعث".

يعترف المؤلّف بأنه قد تصفّح الإنجيل بروح الأديب الشاعر، فلمس ما فى أسلوبه و عباراته من صور عاطفية و شاعرية.. كما يعترف بأنه تأثر بالمسرح الإغريقي، و مسرح شكسبير من حيث الالتزام بالصياغة الشعرية للدراما، و الالتزام بقواعد الكلاسيكية كما شرحها أرسطو فى كتابه "فن الشعر". كما تأثر أيضا بالمسرح التعبيري؛ حيث أخذ عن "سْترنْد بِرْج" المؤثراتِ الصوتية و

المرئية و الموسيقى كوسائل للكشف عما هو "جُوّانِيّ" كامنٌ فى أعماق النفس البشرية، و من أمثلة هذه المؤثرات الدرامية، كما شاهدناها فى مسرحية "البعث"، استخدام الكاتب لرمز الشبح، و صوت الغراب، لتصوير الإحساس الداخلي بالذنب و جلْد الذات، الذى سيطر على مشاعر الشعب المصري والشعوب العربية، بسبب النكبة الفلسطينية سنة ١٩٤٨م، وتمكّن من القلوب فى أعقاب هزيمة ١٩٦٧م.

إختار صلاح عدس فى مسرحيته "البعث" حكاية القديسة "دميانة" من عصر الشهداء.. عصر الاضطهاد الرومانيّ المروّع للمصريين على يد واحد من أكبر طغاة الإمبراطورية الرومانية هو "دِقْيانوس".. أما دميانة بطلة المسرحية فهى شخصية لها واقع تاريخي، ممزوج بالأسطورة فى التراث الشعبى المصري. ظهرت فى غضون القرن الربع الميلادي، ويبدو أنها الفترة المعاصرة لأهل الكهف، و التى ساد فيها اضطهاد المسيحية فى مصر.. و كان الرومان يضغطون عليها و على المصريين بصفة عامة أن يتخلّوْا عن الإيمان بالله والعودة للوثنية.. وقد نجحوا بالفعل فى إجبار والدها "مرقص"-وكان حاكما على إحدى الولايات فى دلتا مصر- على الارتداد إلى الوثنية، ولكن أصرّت دميانة و أتباعها على المقاومة رغم التعذيب الشديد.. الذى أفضى إلى موتها..

و هنا تقول الأسطورة: إنها حين استُشهدت بُعثت إلى الحياة من جديد.. وهذا هو لب الرسالة التى يحملها إلينا كاتب المسرحية: و هى أن بعث هذه الأمة لن يكون الا بالجهاد والتضحية والأستشهاد..أرسلها إلينا الكاتب سنة ٢٠٠٩م، وبالاسقاط على الواقع المعاصر، نستطيع أن نقول أن هذا هو ما حدث بالفعل فى ثورات الربيع العربى، و فى الثورة المصرية..

عالم المسرح فى فكر مؤلف مسرحية "البعث" تمتزج فيه عناصر عِدّة: هى الشعر و الدراما و الواقع و التاريخ والأسطورة و التراث الشعبى.. ويحرص المؤلف هنا على أن يوازن بين هذه العناصر؛ فلا يستهويه الشعر، فينساب فى صياغة قصائد غنائة طويلة فى الحوار، على طريقة أحمد شوقى فى مسرحياته؛ فهو على وعْي كامل بأنه يكتب دراما، ومن ثَمَ تجد حواره مكثّفًا.. لأن القصائد

الغنائية تتناسب مع تصوير الوجدان الذاتى، بينما الحوار الدرامى، المفروض فيه أن يعكس مشاعر شخصيات مختلفة فى المسرحية.. حيث تختفى شخصية الأديب ومشاعره الخاصة.. ومن هنا نفهم قول "ت. س. إليوت: "إن الأديب ينتحر داخل العمل الدرامى..." وهذا لا يتعارض مع يقيننا أن الرؤية الفنية و المضمون –فى النهاية– هى رؤية الكاتب و مضمونه بلا منازع..

نلاحظ كذلك أن صلاح عدس لا ينساق وراء تفاصيل التاريخ و الأسطورة ، و انما عينُه دائما على الواقع، بمعنى أنه يقوم بإسقاط التاريخ على الواقع الراهن؛ فما يهمه ليس إعادة سرد التاريخ ، أو سرد الأسطورة، و إنما همّه الأساسي هو الواقع السياسى و تثويره .. وإذا سألته ما الذى كان ماثلا فى خلفية فكرك وأنت تكتب هذه المسرحية..؟ فسيقول لك صادقا: "الدعوة الى الثورة ضد الظلم و القهر، و أستبداد الحكم فى الداخل، و ضد الهيمنة الصهيونية الأمريكية فى الخارج".

من أبرز سمات هذه المسرحية –إذا تأمّلتها بما تستحق من عمق– أن موضوعها موضوع مسيحى، و لكن مضمونها إسلامى.. وتفسير هذا اللّغز: أن الحدث على المستوى الظاهرى (البرّانيّ) يصور صراعا دينيا عقائديا: فـ"دميانة" القديسة المسيحية، تقاوم وترفض الإذعان لوثنية "دقيانوس".. و لكن المضمون (الجُوانيّ) للمسرحية هو قضية الحرية و الثورة ضد القهر و الظلم .. و المسيحية كما نعرف ، وكما صوّر لنا كُتّاب سيرة القديسة دميانة ، هى ديانة سلام و محبة، شعارها المتوارث: "من ضربك على خدك الأيسر فأدِرْ له خدك الأيمن".. فليس فى الإنجيل ثورة.. وليس فى سيرة الشهيدة دميانة ثورة بهذا المعنى السياسي، إنما فيها إصرار على الإيمان، و "الخلاص الروحيّ" بالعقيدة الدينية، لبلوغ ملكوت السماء، مهما تكّلف ذلك من تضحيات.. أشبه بموقف بلال وهو يُعذب ، ويُسحب بجسده العاري على الرمال، تحت أشعة الشمس الصحراوية الحارقة.. لكي يرتد إلى عبادة الأصنام.. ولكنه لا يكفّ عن تحدّي معذبيه، مردّدًا قولته التاريخية الشهيرة " أحَدٌ.. أحدْ.. "..

في الجانب السياسي؛ كان موقف المسيح عليه السلام واضحا: " دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله"، بينما النبى محمد صلى الله عليه و سلم جاء ليعلّم القيصر كيف يكون حكم الناس بالعدل.. فالإسلام مزيج من الدين والسياسة.. إنه منظومة متكاملة العناصر؛ فكرتها المركزية هى الوحدانية و العدل، و الجهاد ضد الظلم والبغي، وتحرير الناس من عبادة الطغاة..

قضية الحرية إذن هى قضية إسلامية بقدر ما هى قضية إنسانية عامة.. لذلك كان المضمون فى مسرحية البعث هو الحرية، والدعوة للمقاومة و المواجهة و الثورة على الظلم والقهر ..

وعبقرية مسرحية البعث هنا تكمن فى حقيقة لا بد من التنويه بها ؛ وهى أنه -فى عمل أدبي واحدٍ- يمكن أن تجمع بين سمات مسيحية عزيزة ومقدسة لدى المسيحيين المصريين، وبين سمات عزيزة ومقدسة عند المسلمين المصريين.. سمات تتكامل عناصرها، فى العقل والقلب.. لا تتنافر ولا تتضارب ، ولا تتصارع.. ولا تستنفر عوامل الفُرْقة والفتنة البغيضة.. بل تتجاوب مع القيم الإنسانية الخالدة.. وهو ما أرى أن صلاح عدس قد نجح فيه إلى أبعد الحدود.

شخصيات المسرحية: الشخصية الدرامية ليست شخصا و إنما هى رمز لفكرة عامة .. بهذا المفهوم اختار المؤلف دميانة كشخصية محورية فى مسرحيته "البعث" ، و هى بطلة دينية فى الأصل، ولكنها تحولت عند المؤلف الى بطلة وطنية سياسية ، تمثل صراع شعب مصر كله ضد قهر الرومان، و رمزه "دقيانوس" الطاغية، وهو الشخصية المضادة.. و يدور الصراع الدرامى بين الشخصيتين، أو بين تيارين يمثل أحدهما دميانة و أتباعها ، بينما يمثل التيار المضادّ دقيانوس و وزيره رومانوس و قائده قِلِقْيانوس و جنودهم..

يجسد هذا الصراع البرّانيّ الحبكة الرئيسية او التّيمة الرئيسية، بينما يدور صراع آخر بين دميانة و أتباعها من جهة، و بين والدها و أتباعه المرتدين من جهة أخرى ، و هذه هى الحبكة الثانوية، أو التيمة الثانوية فى المسرحية، و التى -من شأنها- أن تصب فى الحبكة الرئيسية..

نحن إذن بإزاء مستويين للصراع: المستوى الظاهريّ البرانيّ، و هو صراع بين ديانة الإله الواحد أو "الوحدانية"، و ديانة الأوثان المادية التعدّدية.. أما المستوى الباطنى الجُوّاني فهو مستوى سياسى.. لذلك نجد الشهيدة دميانة – وهى شخصية دينية ذات بعد ميتافيزيقي (غيبيّ)- لها صلة روحية خفية بالسماء.. حيث يتكشف لها المستقبل فترى ما سيحدث فى المستقبل البعيد، إلا أنها تكتسب فى المسرحية بُعدًا آخر؛ إذ تُجسّد رمزا لثورة سياسية ..

الحوار: هو النسيج الفنى الوحيد فى المسرح؛ بينما يشمل النسيج الفنى فى الرواية -إلى جانب الحوار- الوصفَ و السرد.. وهناك فرق آخر؛ فالحوار فى الرواية قد يكون تأمّليا أو فلسفيا، أما فى الدراما فهو جَدَلٌ "ديالكتيك" له عدة وظائف: فهو يكشف أبعاد الشخصيات، ويُنَمِّى الحدث، و به ينشأ الصراع. وعادة ما يأتى الحوار فى شكل ديالوج برّانيّ، أو يكون حوارًا داخليًّا (مونولوج جُوّانيّ).. ولكن الحوار فى مسرحية البعث -فى معظمه- ديالوج لأنه يهتم بالصراع البرّانيّ لا الصراع الجُوّاني.. وهو حوار ديناميكى حيّ يتميز بالتكثيف و التركيز.. كأنه طلقات بندقيّة، و بهذه الطريقة يحرك الحوار الحدث و ينمى الصراع الدراميّ ..

يقوم البناء الدرامى لهذه المسرحية على تيارين أحدهما تيار دينى برّانيّ، يصوره الحدث الدرامى حسبما ورد فى التاريخ و الأسطورة و التراث.. و الأخر تيار سياسى جُوّانيّ، فيه إسقاط على الواقع المعاصر .. يبدأ البناء الدرامى بما يسمونه "لحظة الهجوم" فعندما ينفتح الستار نشعر ان هناك مأساة أو مشكلة، وقوعها سابق على بداية الحدث.. ثم يبدأ البطل فى البحث عن سر هذه المأساة، و ذلك من خلال ما يسمونه "الطريقة التراجعية"..

وعلى سبيل المثال: ندرك فى بداية مسرحية "أُوديب" أن والد "أوديب" قد تم قتْله.. ثم يحاول أوديب البحث عن قَتَلَةَ أبيه.. لكنه فى نهاية البناء الدرامى يكتشف أنه هو نفسه قاتل أبيه .. وهذه هى لحظة "الكشف"، يتبعها لحظة "التحوّل" عند البطل، من السعادة الى الشقاء.. فيفقأ عينيه و ينفى نفسه خارج الوطن . و المأساة هنا سببها القدر.

وكذلك الحال بالنسبة للبناء الدرامى فى مسرحية "هامْلِتْ"؛ فهناك مأساة سبق وقوعها، هى مقتل والده الذى يظهر شبحه له، ثم يحاول هاملت البحث عن القتلة، فيكتشف أن أمه هى التى قتلته، و تزوجت عمه المتآمر معها فى جريمة القتل.. وتُوَلّد لحظة الكشف هذه، لحظة تحول "هامْلِتْ" من السعادة الى الشقاء ثم الموت.. والفرق هنا أن المأساة عند شيكسبير ليس القدر سببها، كما فى تراجيديا "أوديب" اليونانية، وإنما سببها "عُقدة نفسية".. نقطة ضعف فى شخصية "هامْلِتْ"..

وتطبيقًا على مسرحية "البعث": يبدأ البناء الدرامى بمأساة قد سبق وقوعها، و هى وجود جثة قتيل، ثم تبدأ دميانة و أتباعها فى تتبع أسباب هذه المأساة، فيكتشفون أن القاتل و القتيل واحد؛ و هو "نحن".. بما أرتكبناه من نهْبٍ لبلدنا، و خيانةٍ لأنفسنا.. لدرجة أننا قتلنا هابيل الأخ الطيب "رمز الخير".. و بما فينا من سلبية.. أدّت إلى هُروبنا للكهف. وبعد لحظة الكشف هذه، تأتى لحظة التحوّل.. و هى هنا -ليست كما فى الدراما الإغريقية أو الشكسبيرية- تحوّل من السعادة الى الشقاء المؤدّى إلى الموت.. وإنما تحوّلٌ من نوع جديد: إنه تحوُّلٌ بالثورة "من الموت الى البعث"...!

والمأساة هنا ليس سببها القدر، و ليس سببها ضعف فى سيكولوجية البطل، و إنما سببها سياسى: هو القهر السُّلطوي.. و ما يقابله فى العقل الجمعى من سلبية و قابلية للاستعمار على حد تعبير "مالك بن نبي".. ولكنه -مع ذلك- سبب يمكن التصدّى له وتحدّيه، كما فعلت الشهيدة دميانة؛ التى بدأت بتغيير ما فى الأنفس هى وأتباعها، فكسرت حاجز الخوف من الطاغية، واستطاعت أن تتصدّى له بالمقاومة والثورة.. حتى إذا وقعت لها الشهادة تحقّق لها بعث جديد..

يبدأ البناء الدرامى بين دميانة و كورس من أتباعها على هذا النحو:

كورس : جئنا نبكى و نعزّى يا دميانة ** ننشد للقلب خلاصه ** فلعل اليوم ** شبح الميت يتركنا نهنأ بالنوم ** و يطوف منازلنا فى كل مساء ..

(يُسمع صوت غراب.. فيلتفّون بعضهم على بعض فى خوف..) و الغراب هنا مثل الشبح يذكّرنا بـ"الذباب" فى مسرحية سارتر التى تحمل هذا العنوان، رمزا لما يُؤَرِّق أبطال المسرحية طول الوقت، و يبعث الشعور بالذنب وتأنيب الضمير...

دميانة : الميت ليس هنا فى المـأتم..

كورس : أين إذَن.. ؟!

دميانة : نحن وضعناه فى تابوت الغدر ** و بأيدينا مزّقناه ** و بيد قابيل الجثة بعثرناها ** فى انحاء الوطن المقطوع الأوصال ** جثة هابيل حملناها ** لا ندرى أين نواريها ** و ندور حيارى فى الأرض ..

(يدورون فى المسرح .. يتأوهون و هم يسمعون صوت الغراب)

كورس : و كلنا نسير فى الجنازة ** فكلنا مشيّعون حائرون ** يهدّنا الجنون ** هل نحن ميتون ؟! أم نحن قاتلون ؟!..

(هنا يظهر الشبح .. يقرّعهم ويؤنّبهم ويجادلهم -بحثا عن أسباب المأساة- و ما لازمها من أنهيار أخلاقى)...

الشبح : الثأر الثأر..

دميانة : الثأر لنا أم منا.. ؟!** أم من أعداء مدينتنا.. ؟!

كورس : من هدّم جدران مدينتنا.. ؟! ** نحن أم الأعداء.. ؟!

دميانة : نحن ** نحن الأعداء ..!

كورس : لم نعرف كيف نصون كنوزك يا بلدى ** و سرقناها ** ما قلناه كذب و رياء ** حتى غاصت أهرامك فى الصحراء ** و أنطفأت كل نجوم سمائك..

دميانة : لم نلمح غير لصوصك فى الطرقات ** وتركنا أعداءك حتى نبشوا قبر تحتمس ** صلبوا فى الشارع أحمس ** كسروا عجلة رمسيس ** لعنوا آمون..

الشبح : رأيتُ منزلا ينهار ** و قيل كان قائما بلا جدار ** و عندما وصلتُ أول الطريق ** سمعتُ أن جيش الروم قد سدّ آخر الطريق ** و أنه لم يبق غير الجرح ** و غير قبض الريح..

ثم ينمو البناء الدرامى بنموِّ الحدث، و يتأجج الصراع أكثر و أكثر، حين يحضر الى دميانة دقيانوس و وزيره و جنوده، يحاولون إخضاعها بالتعذيب فترفض بأصرار وإباء..

دقيانوس : إما ان تسجد دميانة للقيصر و زيوس الرب ** أو أن تُصلب..

دميانة : لا ربّ لنا غير الله..

كورس : و لئن متنا فوراء الموت حياة ** هذا زمن الإستشهاد..

دميانة : لن أحمل الرأس و لن أركع ** لن تبصر فى عينى الدمع..

دقيانوس : سأعذّبكم حتى الموت..

دميانة : إقذف بى من أعلى الأبراج ** إقذف بى فى لهب النار ** إقذف بى فى أعماق البحر ** فى ظلمات القبر ** فى حفرةٍ ** تملأها الحيَّات و أجساد الموتى ** و وحوش البر ** لكنْ لنْ أسجدْ ** لن أرْتدّ..

يتطوّر البناء الدرامى أكثر مع تطوّر الحدث، و يصل الصراع الى ذروته حين يربط الرومان دميانة و أتباعها فى الصلبان، و يجلدونها حتى تلفظ أنفاسها الأخيرة.. إستمع إليها وهى على الصليب فى شبه غيبوبة تقول:

هذه صلبان البعث...

كورس : ماذا تبصر روحك أيتها القديسة.. ؟!

دميانه : أبصرت بعيني فى القدس المذبوحة ** عيسى ينزل من فوق صليبه ** و يصيح فى وجه المخْذولين: لا يهرب أحد منكم خلف الجبل** و لا يتحسّس جرحه ** من كان يريد خلاصه ** فليرفع سيفه ** و ليحمل فوق الظهر صليبه ** و ليتبعنى ** و معى فلْيشرب كأس الموت ** كى نصنع دنيا لا تعرف معنى الموت..

هنا تحدث لحظة التحول و لحظة التنوير و يتم بعث دميانة بعد موتها..

كورس : الجثة ** الجثة يا قديسة ** الجثة بعثرناها فى أنحاء الوطن المقطوع الأوصال..

دميانة : فلنجمعها الآن ** و ليبحث كل منكم فى داره ** عن أشلائه ** و لْيكسر نعشه ** و لْيهدم قبره ..

كورس : لِيعازَرْ قام من الأموات ** ليعازر قام من الأموات..

دميانة : قابيل مصلوب معنا ** يتطهر فوق صليبه ** مسح خطيئاته ** و محَا من يده الدم..

كورس : و سيأت الرب** و الموتى سوف يقومون..

دميانة : و سيبصر كل العميان** نور الله ** فلْتنتظروه ** و لْنسهر فى أحضان خنادق ** و على الأكتاف بنادق..

كورس : فسيأتى الرب..

دميانة : سيهدّ الزلزال جدار الكهف ** و سنخرج منه بلا خوف ** فلْنفرش كل الطرقات ** طلقات ** طلقات رصاص ** ليكون طريق الرب طريق خلاص ** و إذا ما دق الباب ** فلنرفع صوت بنادقنا بالإنشاد .... (موسيقى.....) كورس : الوطن الضائع عاد ** الوطن الضائع عاد .. (ويُسدل الستار).

فى ثنايا هذه المسرحية من أولها إلى نهايتها لم تهدأ نار الثورة فى قلب دميانة المجروح.. تشعر بلهيب الثورة يتأجّجُ فى صدرها وهي تحاور الشعب حين يبرر صمته بقهر الطاغية له قائلا:

سيوفنا تحطّمت ** أسطولنا احترق ** ولم يعد لنا سوى الكلام والورق.. فتقول لهم دميانة:

كان علينا ألآ نخشى دقيانوس ** ألا نسجن فى الأفواه الكلمات ** أن ننزع عنّا أكفان الخوف ** عندئذٍ تتحرك فى البحر سفينتنا ** وتسير إلى شُطآن النصر..

إنها قائدة ثورة ملهمة، تدرك أبعاد ما تصبو إلى تحقيقه، وتعرف الطريق إليه، وتحثّ شعبها على مواصلة السير فيه، مهما كانت الصعاب والمشاق، ومهما كان الإغراء ومهما كان التهديد.. يقول لها رسول دقيانوس: " القيصر يعطيكم ** ذهبًا يملأ أيديكم ** لو يسجد كلٌّ منكم له ** لو يترك كلٌّ منكم دينه.. فتردّ عليه بإباء المؤمن الثائر: كلَّا.. كلّا.. كلّا ** فالربّ به نحيا ** ونداء الرب هو الثورة ..

وفى موقف آخر يحاول دقيانوس نفسه أن يزرع فى قلبها اليأس ويدعوها إلى السجود له.. يقول لها وهو يشير إلى أبيها وأتباعه: الكلّ سجد ** الكلّ ارْتد.. (فتردّ عليه دميانة): "لكنّي لن أسجد ** سأظل أقول أنا: لا ** حتى لو قال الكُلّ نعم ** سأظل أحطّم كل صنم.."

ثم انظر إليها وهى تعاتب أباها وأتباعه المرتدين ..إذ يقولون:

لم نبصر غير طريق مسدود ** أتعَبَنا السير ** كدنا نختنق فعدنا .. (تقول لهم دميانة).. تصف حقيقة موقفهم: "سجدتم للسَّوْطِ ** وسجدتم للدينار ** وعلى مائدة الملك نسيتم ** جوع الناس..".

وهكذا القائد الثائر -كما يعرف رسالته وطريقه- يعرف أيضا كيف يضرب المثل الأعلى لأتباعه فى الثبات والإصرار والصبر على الابتلاء.. تقول فى وجه دقيانوس المتألّه:

"لا ربّ لنا غير الله ** والثورة كلمات الله ** وسأحمل روحى فى كفّى ** والكلمة فى كفّى الأخرى ** سأظل أبشّر بالكلمة ** سأظل أكرّر وأعلّم ** فالكلمة أبدًا لن تُعْدمْ.."

يقول لها رومانوس: فى معرض الإغراء بالثروة والجاه:" فلْترتدّى ** ومُريهِمْ أن يرتدّوا ** نبنى لك قصرًا ** وتصيرين أميرة ** ونزيّن صدرك بالجوهرة الملكية.." وترفض دميانة كل هذه العروض الفانية مستمسكة بعقيدتها، مؤمنة بنصر الله .. تقول متحدِّية: "كلّا .. كلّا .. كلّا ** القيصر سوف يموت ** وستحرق روما النيران ** لكن الثورة باقية عبر الأزمان..."

كان قلب مؤلف مسرحية البعث وعقله منذ سنوات يتفجران بالغضب الثوريّ وقد رأى فى بطلة مسرحيته نموذجه الأمثل لكي يطلق على لسانها نبوءة الثورة المصرية، إذ ترى وهى تتطلّع بروحها من خلف ضباب الزمن، وليله المُدْلهِمّ الطويل، فجرا جديدا لثورة الحرية.. وتسمع دقّات أقدام الثوار على أرض مصر قادمة من بعيد.. تقول دميانة:

"أسمعُ خلف جدار الصمت نداء الثوار ** ألمح من يحمل قرص الشمس ** ليضيء ظلام الدنيا بالحرية ** ليحطم كل قلاع العملاء ** كى يعلن ميلاد الإنسان ** فى دنيا ليس بها أحزان ** ليس بها قيد أو سجّان ** دنيا من غير قياصرة وعبيد ... أرى هناك فجرنا البعيد..."

"الثورة قادمة.. الثورة باقية عبر الأزمان..." كانت هذه رسالة صلاح عدس، الذى جعل للخلاص معنى جديدا، فلم يعد قاصرا على الخلاص الروحيّ الفردي، وإنما أصبح يشمل خلاص الأمة بأسرها من ربقة العبودية، إلى أفق الحرية الرحيب...

(ملبورن – أستراليا، فى ١٠ سبتمبر ٢٠١٢م)

****

الوداع الأخير لشهداء الحرية

رائعة من روائع الشعر فى التضحية والوطنية.. كتبها باللغة الأسبانية فى ليلة واحدة.. سهر عليها حتى أتمّها قبل تنفيذ حكم الإعدام عليه فى الصباح ؛ إنه "هوسى ريسال" أمير شعراء الفلبين، وبطلها الأسطوري وأعظم ثوارها فى التاريخ .. يودّع فيها وطنه الذى كان يئنّ تحت الاحتلال الأسباني.

عندما تقرأ هذه القصيدة لا تقرأ كلمات وإنما تلمس نزيف قلب مجروح .. ترجمها إلى العربية شعرا واحدٌ من أرق الشعراء المصريين، بفيض من مشاعره المتدفقة ووجدانه المكلوم.. فكانت تحفة عربية بقدر ماكانت القصيدة الأصلية تحفة أسبانية..

بداية: أودّ أن أهدى هذه القصيدة إلى شهداء الحرية.. وإلى كل المصابين وأسرهم وأحبّائهم فى مصر والوطن العربي ..

إن عمق التجربة الوجدانية وصدقها فى هذه القصيدة تُذرى بكل عاطفة رخيصة زائفة ينتحلها أولئك الذين يتمسّحون بالثورية والوطنية وهم فى الحقيقة يتاجرون بدم الشهداء ويتكسّبون من بيع أوطانهم لكل أجنبي كاره خسيس..

هذه قصة من الواقع الحي الذى عاصرته وكنت طرفًا فيه ؛ ففى أوائل الستينات من القرن الماضى أبلغ صديقى الدكتور محمد إبراهيم كاظم الملحق الثقافى بسفارتنا فى مانيلا، وزارة الخارجية المصرية، رغبة الحكومة الفلبينية ترجمة قصيدة "هوسى ريسال" إلى اللغة العربية.. وكان يرأس لجنة الشعر فى المجلس الأعلى للفنون والآداب حينذاك عباس محمود العقاد، فكلّف الشاعر "العوضي الوكيل" بهذه المهمة.. وكان اختياره حصيفًا؛ فالقصيدة مكتوبة بالأسبانية التى يجيدها العوضى الوكيل، ولأنها مفعمة بالمشاعر المأساوية صادفت جرحا نازفا عنده لم يكن قد برئ منه، بعد وفاة زوجته [الأسبانية] .. وقد فرغ توّا من تأبينها فى قصيدة رائعة امتزجت فيها مشاعر الحب بلوعة الفراق..

وفى سنة ١٩٦٤عندما وصلتْ الترجمة العربية إلى مانيلا كان الدكتور كاظم قد أنهَى بعثته إلى الفلبين ، و بدأتُ عملى مديرًا للمركز الثقافي المصري هناك.. ومن ثَمَ أسندتْ إليَّ السفارة المصرية أمر هذه القصيدة مع السلطات المحليةّ.. حيث صحبنى أحدهم إلى النصب التذكارى لـ"هوسى ريسال" فى"لونيتا بارك" أكبر متنزّه بمدينة مانيلا، فى هذا المكان الرائع مساحات واسعة من الخضرة والزهور ونافورات المياه.. وفى منتصفه يرتفع النصب التذكارى فى وقار جليل، توحى به الوقفة العسكرية لعدد من الجنود يتناوبون على حراسته كل يوم على مدار ساعات الليل والنهار .. حول هذا النصب التذكارى سور على شكل نصف دائرة من الرخام الأبيض مثبت عليه لوحات نحاسية محفور عليها ترجمات قصيدة ريسال بكل لغات العالم الحية.. وكان آخرها الترجمة العربية...

جاءوا إليّ مرّة ببروفة لتصحيحها قبل حفرها على النحاس.. فلاحظت أن شطرات الأبيات الشعرية قد تبادلت وضعًا معكوسا؛ فما كان منها على اليمين إنتقل إلى الشمال وبالعكس.. فقلت لهم لن يستطيع أحد أن يقرأ هذه القصيدة.. وأوضحت لهم السبب.. فاستغرقوا فى الضحك.. كأنهم يستمعون إلى نكتة ؛ كان الفلبينيون قبل عهد الدكتاتور ماركوس يضحكون من قلوبهم على كل شيئ مهما كان بسيطا، ولكن ماركوس استطاع أن يكبت روح الفكاهة فى القلوب، ويقتل الابتسامة على الشفاة.. ويزرع مكانهما التعاسة والأحزان والجهامة.

فمن هو "هوسى ريسال" **José Rizal**؟:

إنهم يطلقون عليه إسم "أبُ الفلبين" وأعظم الشهداء من أبطال النضال الوطني.. كان سلاحه الأكبر هو فكره الذى عبّر عنه بقلمه ولسانه ضد الاحتلال الأسباني.. هذا الاحتلال الذى جسم على صدر الشعب الفلبيني ثلاثمائة عام أو تزيد.. وبسبب هذا الفكر وحده قُدّم ريسال لمحكمة عسكرية حكمت عليه بالإعدام رميا بالرصاص، ونُفّذ فيه الحكمُ صباح يوم ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٦٩، بينما كان يردد أبياتا من قصيدته الشعرية يودّع فيها شعبه ووطنه..

مات "هوسى ريسال" عن عمر يناهز الخامسة والثلاثين سنة.. عمر قصير، ولكن ما صنعه "ريسال" فى حياته القصيرة هو شيء أقرب إلى الخيال

الأسطوري.. يصعب تصديقه لولا أنه مسجل وموثّق وثابت فيما ترك من كتابات وأعمال ..

نشأ ريسال فى أسرة غنية كانت تملك أراضى زراعية شاسعة .. فكان هو السابع فى الترتيب بين إخوته الأحد عشر ، ولكنه كان منذ طفولته ظاهرة متميزة بين كل أقرانه ؛ أدخله أبوه مدرسة كاثوليكية .. ولكن لم تستطع المدرسة أن تتحمل جسارة هذا الطفل المعجزة.. أربكتها أسئلته الجريئة وتفكيره الناضج، فوسمته بالراديكالية، وطلبت من أبيه أن يبحث له عن مدرسة أخرى خوفا على بقية التلاميذ .. فألحقه أبوه بالتعليم العام حتى وصل إلى الجامعة ليدرس الآداب أولا ، ثم القانون.. ولكنه غيّر مسيرته التعليمية فاتّجه –فى نفس الوقت– ليدرس الطب بجامعة سانتو توماس بمانيلا.. ذلك لأن أمه كانت تعانى من مرض فى عينيها يهددها بالعمى.. فقرر أن يدرس الطب ويتخصص فى أمراض العيون فكان له ما أراد..

ولكنه لم يتوقف عند هذا الحد فقد كان طموحه أعظم، ومن ثَمّ رحل إلى أسبانيا بمفرده (وكان عمره آنذاك ٢١سنة فقط) لاستكمال دراساته العليا فى الجامعة المركزية بمدريد، ثم انتقل إلى فرنسا ليحصل على درجة الدكتوراة من جامعة باريس، ثم ليحصل على درجة ثانية للدكتوراة من جامعة هايدلبرج فى ألمانيا، وفى أثناء ذلك لم ينقطع عن الكتابة والمحاضرة فى أسبانيا وفرنسا وألمانيا وبريطانيا، داعيا إلى مساعدة الشعب الفلبّيني فى نضاله للتحرر من نير الاستعمار الأسباني ، ولم يكن يحتاج فى تواصله مع هذه الشعوب إلى مترجم فقد كان ريسال أعجوبة فى اكتساب اللغات الأجنبية.. كان يجيد ٢٢ لغة: كتابةً و قراءةً وحديثًا..

لم يكن ريسال فى ثورته على الاستعمار الأجنبي مُحبِّذًا للعنف.. بل كان من أكبر دُعاة الإصلاح، وقد بدأ بدعوة الأسبان لمنح الفلبين حكما ذاتيا، ولكنه لم يستبعد العنف كملجأ أخير إذا فشلت الحركة السلمية فى تحقيق الاستقلال.. وقد عبّر عن هذه الأفكار فى اثنين من أمتع و أشهر رواياته هما: "نولِى مى تَنْجِيرى" و "فِلِبُوسْتيرزْمو" .. وهما عملان أدبيان كتبهما ريسال باللّغة

الأسبانية.. حَفِلا بتحليلات ونقد عميقين للآثار المدمرة للاحتلال الأسباني على المجتمع الفلبيني.. ولتدعيم أفكاره التحررية أنشأ ريسال منظمتين: سياسية واجتماعية، أعتبرهما المؤرخون المصدر الأول والأصيل لحركة الإصلاح وحركة الثورة المسلحة فى نفس الوقت، ففيهما وُلدت وترعرعت القيادات الإصلاحية والثورية على السواء، وكان من أبرز رُوَّدها "أنْدِرِي بونافاشْيو" أول زعيم انتفاضة مسلحة ضد الاستعمار فى تاريخ آسَيا ..

عاش ريسال نائيا بنفسه عن الكنيسة فلم يكن يؤمن بعقائدها ولا بفكرتها الهزيلة عن الألوهية؛ فقد كان يؤمن بإله واحد خالق عظيم القدرة بالغ الرحمة محيط بكل شيء.. وأكثر ما كرهه فى الكنيسة أنها كانت تبرر للمحتل الغاصب قتل الأبرياء الرافضين لجبروته..! كان ريسال كاتبا آسِرًا وصحفيا لامعا ومتحدّثا لبقًا وفنانا يجيد الرسم . أما شعر ريسال فهو أعجوبة ثانية فى حياة هذا الطبيب الأديب المصلح الثائر الذى أحب وطنه وشعبه.. حبًّا سطّره ريسال بنبضات قلبه فى "الوداع الأخير" لا يطلب فيه لنفسه سوى أن تصلّى بلاده من أجله وتدعو الله له بالرحمة والغفران..

قصيدة "الوداع الأخير" لريسال تسيل رقّة وعذوبة وأسًى، وتنضح بصدق العاطفة، وتسمو بالحب الإنسانى إلى درجات عالية من الفداء والتضحية.. وتتدفق فيها مشاعر اللوعة للفراق .. تتجمّد الدموع فى عينيْ صاحبها وهو على شفا الموقف الرهيب.. ولكن تنهمر الدموع فى عيون قرّائه ومشاهديه.. لا على مصير فدائيٍّ جسور يواجه نهايته فحسب.. ولكن أيضا على وطن مكلوم لا يزال يرزح تحت القهر والطغيان الأجنبي.. إستمع إلى الشهيد وهو يغنّى مودِّعا وطنه.. فى قصيدة طويلة.. نجتزئ منها بهذه الأبيات:

وداعًا وداعًا يا بلادًا يحبها فؤادي وتهواها بعليائها الشمسُ
لأنْتِ ببحر الشرق أكرم دُرَّةٍ وأنت لنا في ذلك الكون فردوسُ
حياتي مضنّاةٌ فإما وهبتُها فداءَكِ لم تأسف على ذلك النفسُ
ولو أنها كانت صِبًا لوهبته ألَا كُلُّ بذْلٍ في سبيل الحِمَى بخسُ
فيا وطنى إن أعوزَ اللّونُ فليكن دمى صبغةً للفجرِ إنْ لاحَ فأتلقْ

يزيد دمى المسفوكُ بهجةَ لونه وقُرْمُزِه حتى يروقَ لدى الحدقْ
أمُوتُ لتَحْيَى إنّ مَوْتِي مُحَبَّبٌ بتلك الذُّرا الشَّمَّاء ما بين أَقْوامِى
فيغمضُ جفْنى المـوتُ في خيـر تربـةٍ وأرقـد مرتاحًـا وتخفـق أعلامـى

ثم يخاطب بلاده فيقول:

إذا نَجَمَتْ فـي تُـرْبِ قـبْرِيَ زهرةٌ بَدَتْ وحدها في الفَدْفَدِ المُوحِـشِ القفرِ
فلا تبخـلي أن تُـؤنسـيها بـزَوْرَةٍ ألا إنـها رُوحـى تـرفرف كـالزهـرِ
ولا تبـخلي يـومًا عـليـها بَـلثمة بـثغرك حيـث الدفء فـي ذلك الثغرِ
أحـسُّ هـواء القـبر حـوْلـيَ باردًا ألا فابـعثي الدفءَ المحبَّب فـي قبرى
وفِيَ مَضْجَعِى السَّاجِى البعيدِ دَعِى السَّنا من القمر السَّارِى يشعُّ لمضْجعي
دَعِى الريح تُزْجِى همْسها فوق تُرْبَتِى دَعِى الفجر يحْبُونِي بأنْوَارِهِ دَعِى
وإنْ مـرَّ يومًـا فـوق قبْرِيَ طائرٌ يرجِّعُ لحْنًـا مُبْدِعًـا أيَّ مُبْـدع
دعيهِ علـى هـامِ الضَّريـح مُغـرِّدًا وقُولى لـه : بالسّـلم غَنِّ ورَجِّع
ألا فدعــي مـنْ أهـل وُدِّيَ قائمـا علـى القبـر يبكي أَعْظُمِي المتبعثرة
ويـا بلــدي صلِّـى لربـِّى فإننـى لأرجـو قبـولا فـي حِمـاهُ ومغفـرة
لِأمٍّ غدت تذري الدموع وما شَفَتْ بأضلاعهـا نارًا من الشَّجَـنِ العـاتـى
لأجلِ اليتامَى والأيامَى ومَنْ غَـدَا أسيرًا شديدَ الكَرْبِ رَهْـنَ المُلِمَّـاتِ
ألَا يـا بـلادِى فانْهَضِي وتضَرَّعِى ليوم خـلاصٍ فـى غَـدٍ صُبْحُــهُ آتِ
إذا ما ظـلامُ الليـلِ غشَّـى المقابـرا فمـا بَـرِحَ الموتـى هنـاك سوَاهِـرَا
على السّلْمِ والأسرارِ تسهرُ روحُهم دعُوهـم وَمـا صانـوا وغُضّـوا النَّواظِـرَ
فإن تسمعـوا صوتًـا هنالـك شادِيًـا فذلـك صوتـي يُرسـل اللحـن زافـرا
أجلْ.. ذاك لحني يـا بلادي رفعتُــه أليـكِ فحيُّـوا فـي المقـابـر شـاعـرا
فـإن طالـت الأيـامُ بـي وتحوّلـت معـالـمُ قبـري كالطُّلـول بَوَاليـا
وأقــوَى ، فـلا رمـزٌ هنالك شاهدٌ علـيّ وأمسـى ذاكـرُ القـومِ ناسيا
إذن فدعــى المحراث يفـري أديمه فيحيـى مَـواتُ الأرضِ أخضـرَ زاهيـا
وهـذا رفاتـي يـا بـلادي فرشتـه مواطِئَ مـنْ عُشْـبٍ فمـا عـادَ ذاوِيـا

إذا أصبح النسيان للميْتِ هيِّنًا سألقاكِ في موتِي هُنالِكَ أو هُنَا
سألقاكِ لونًا زاهيا أو شذًى مُتَضوِّعًا وطوْرًا غناءً مُبْدِعًا مُتَفَنِّنَا
فما زال قلْبي يا بلاديَ هائمًا بحبِّك فيّاضَ المشاعرِ مؤمنَا
ألا فاسْمعي هذا النشيدَ نظمْتُهُ وِداعًا أخيرا فهْوَ آخِرُ أنْغامي
سأترك ما أهواه فيك وديعةً لديك فلا تنْسَيْ ودائعَ أحلامي
وأَمْضِي إلى لا ظُلْمَ ثمَّةَ نازلٌ بعبْدٍ ولا طغيانَ من بطْشِ ظلّامِ
إلى حيثُ لا رأيٌ يُصابُ صِحابُه بسوءٍ وحيثُ الله في حُكْمِهِ السامي

****

حكاية الفيل والعميان

يُحكى أن ثلاثةً من العُميان أُدخلوا في غرفة بها فيل.. وطُلِبَ منهم أن يتعرفوا عليه ليصفوه؛ فأخذوا يتحسَّسونه بأيديهم، ثم خرجوا يصفونه.. قال الأول : الفيل هو أربعة قوائم.. وقال الثاني : الفيل يشبه الثعبان .. أما الثالث فقال: بل يشبه المقشّة.. ومن هنا دب الخلاف وبدأ الشجار.. وتمسَّك كل واحد برأيه وراحوا يتجادلون ويتّهم بعضهم بعضًا بالكذب.. ويفسّر لنا الرجل الحكيم الأمر قائلًا: "لعلكم لاحظتم سر الخطأ الذى وقعوا فيه؛ فقد تحسس كل واحد منهم جزءًا من الفيل ووصفه من واقع خبراته السابقة: فالأول لم يعرف من الفيل إلا أرجله .. والثانى أمسك بخرطومه ، وأمسك الثالث بذيله .. ولم يكذب أحد منهم فى وصفه للجزء من الفيل الذى وقع فى خبرته.. ولكنه أخطأ فى إنكار ما تحسّسه الآخران وعرفاه.."

تساق هذه الحكاية للتدليل على أن النظر إلى الحقيقة الواحدة من زوايا مختلفة يؤدى إلى رؤى متعدِّدة تبعًا لاختلاف خبراتنا السابقة التى تؤثر على أحكامنا ووجهات نظرنا للأمور؛ ومن ثم فلا مبرر للجدل والتخاصم .. فقد تكون الرؤى متكاملة يصحح بعضها بعضًا.. ومن الأولى الاستماع إلى خبرات الآخرين وأخذها فى الاعتبار وعدم التعصب للرأي الشخصيّ.. وهذا كلام جميل ومفهوم..

ولكنك لو تأملت فى الأمر مليًّا لتبيَّن لك أن الحكاية نفسها تنطوى على تسطيح شديد للواقع .. ومبالغة فى افتراض حسن النوايا.. والاستناد إلى مجموعة من الفروض الخيالية التى لا تحدث في الواقع العملي المشهود.. وإليك هذه الملاحظات:

أولا– مالذى جعل كل واحد منهم يتوقف عند حدود العضو الذى تحسّسه ولم يستمر فى اللمس فيرتفع أعلى وأسفل ويلفّ يمينًا ويسارًا بيده على جسم متصلِ الأجزاءِ لا انفصال فيه..؟ وبذلك يكتشف أجزاءًا أخرى من الواقع ..

وقد يصل بذلك إلى أحكام أقرب إلى الحقيقة مما فعل؛ وإذن فقد كان هناك جُهدٌ فى وُسع كل منهم القيام به ولكنه ابتسر وقصّر..

ثانيا- تفترض الحكاية أن الثلاثة الذين جرى عليهم الاختبار عميان.. ولكنها لم تذكر شيئا عن حواسهم الأخرى فهل كانوا صُمًّا لا يسمعون .. محرومين من حاسة الشَّم أيضًا.. وحتى حاسة اللمس نفسها لا تُستخدم فقط فى تحديد الشكل الخارجي للأشياء وإنما تتحسس حرارة الأجسام .. ومِنْ تآزُرِ عمل هذه الحواس مجتمعةً يستطيع الإنسان أن يصل إلى تصوّرات أدق وأكثر تفصيلًا..

وبهذا كان من الممكن أن يعرفو أن ما يتحسّسونه هو جسم حيّ يتنفّس بصوت مسموع و تشِعُّ منه حرارة.. وإذا لم يكن الفيل أو الجمل قد وقع فى خبراتهم السابقة فسوف يحكمون أن ما تحسّسوه هو جسم حيوان ضخم وليس مجرد مقشّة أوثعبان أو أربعة قوائم..

ثالثا- التجربة مقطوعة الصلة ببيئتها الثقافية فلم نعرف فى أي بلد وقعت.. ولا الطبقة التى اختيرت منها العيّنة..؟ ولا الجنس ولا السن.. ولا مستوى التعليم ولا مستوى الأمانة العلمية والأخلاقية.. كل هذه الشروط والمُحَدِّدات تُركت بدون تحديد.. ومن ثم وصلنا إلى النتيجة التى صمّمها الباحث المجرِّب مسبَّقًا.. لإقناعنا بحكمته...

تقول: وما علاقة البيئة الثقافية بإدراك الناس للحقيقة..؟ أقول لك العلاقة أقوى بكثير مما تظن.. فهي المرجعية الأساس فى تفسير الخبرة الجديدة؛ وأبسط مثال على هذا: أن الطفل الريفي سوف يتعرف على سنبلة القمح من اللمس بينما طالب الجامعة فى القاهرة سيقول لك إنها أشواك أو إبر لأنها لم تقع فى خبرته العملية على الإطلاق.. حتى لو كانت موصوفة له فى جزء من دراسته .. حفظها لزوم الامتحان.. ثم أسقطها من ذاكرته، ليملأ فراغه العقليّ بأحداث المسلسلات المتلفزة التى استمع إليها وعاشها بوجدانه..

وهنا نصل إلى النقطة الهامة فى الموضوع فسوف يسأل القارئ الذكيّ ومن يصنع هذه البيئة الثقافية..؟ وأقول: من المفروض أنها صناعة تبدأ من الأسرة وتمتد إلى المدرسة.. فالمجتمع بمؤسساته: التعليمية والدينية وأنديته وإعلامه المكتوب والمسموع والمشاهد..

وفى مجتمعنا المصري للأسف الشديد كان هناك دائما على مدى ستين عاما من الزمن محاولة متنامية ممنهجة لتقليص دور الأسرة فى التربية والتثقيف.. ثم امتدّت هذه المحاولة إلى تقليص دور المسجد .. ثم المدرسة والمعاهد التعليمية.. لتتركز وظيفة التثقيف أو[التجهيل بتعبير أدقّ] فى يد السلطة الحاكمة، لتصنع رأيًا عامًّا يصفِّق لسياستها القمعية..

وفى الثلاثين عاما التى حكم فيها مبارك إنهارت تمامًا مؤسسات المجتمع الثقافية والتعليمية.. وأصبحت المساجد تابعة لوزارة الأوقاف فقط للتمويل وإدارة المبانى.. بينما هيمن جهاز أمن الدولة على اختيار وتعيين أئمة المساجد: حتى خطبة الجمعة هو الذى كان يختار موضوعاتها.. وله عيون مبثوثة لرصد كل نشاط فى المسجد.. لضمان السيطرة الكاملة عليه .. وهكذا ورثنا نظام مبارك الفاسد فى الثقافة والإعلام.. .. وكان الأمل فى إصلاح هذه المؤسسات بعد الثورة.. ولكن اصطدمت محاولة الإصلاح بثلاثة عوامل:

(١) جيش من العاملين فى الإعلام والثقافة ربّاَهم النظام السابق على عينيه واختارهم لمناهضة عقيدة الأمة وفكرها وهويَّتها وتطويعها للعبودية..

(٢) مجموعة من الصحف ومحطات التلفزة المستقلة أكثرها تابع لرجال المال والأعمال الذين توطدت مصالحهم وعلاقاتهم مع نظام مبارك..

(٣) تأكّد دور أجهزة الإعلام التابعة لأصحاب المال المنهوب وزادت فى أعدادها وخطرها بعد الثورة وصُبَّتَ فيها مليارات الدولارات من مصادر داخلية وخارجية.. بهدف واضح ومحدّد وهو إعاقة الثورة وإسقاط السلطة التى انتخبها الشعب.. وتحويل الشعب إلى قطعان من العبيد تمهيدا لإعادته إلى حظيرة الاستبداد والتبعية.. ولتحقيق هذ الغرض دخل فى مهنة الإعلام عناصر

إضافية من شخصيات معدومة المواهب؛ معدومة الضمير.. تحترف صناعة الأكاذيب والسباب وادعاء البطولات الزائفة..

بهذه التركيبة الجديدة حدث انشقاق عميق بين الدولة الوليدة التى لم تتمكن بعدُ من استكمال مؤسساتها الديمقراطية لأسباب طال شرحها.. وبين النخبة المسيطرة على الصحافة والإعلام.. وفى مناخ الحرية التى جاءت مع الثورة ضعفت قبضة السلطة حتى على المؤسسات والمنظومات التابعة لها فبدت معاندة لا مساندة للسلطة الجديدة.. وزاد الوضع سوءًا تدخل جهات أجنبية ذات مال وسطوة ومصالح غير خافية.. تتناقض مع الثورة المصرية وأهدافها فى تحقيق الأمن والإصلاح والاستقرار.. وهي العناصر الضرورية التى لا يمكن بدونها الانطلاق فى عملية التنمية والانتاج..

وعودة إلى تجربة الفيل والعميان، والحكمة التى أُرِيدَ لنا أن نستخلصها – فيما يتعلق باحترام الرأي الآخر– فإننى أقول إن ما يبثه الإعلام ويصرُّ عليه.. ويكرره ليل نهار ويحاول تثبيته فى العقول، ليس وجهات نظر ولا رأي ورأي آخر، وإنماهو يبثّ سلسلة من الأكاذيب ويختلق وقائع ولقاءات وتصريحات وأخبار مزيفة؛ بحيث أصبح الفضاء الإعلامي فقاعة هائلة من الأكاذيب والتلفيقات ضاعت معها الحقائق.. ليست مشكلتنا الإعلامية إذن فى الفيل والعميان واختلاف وجهات نظر من يتحسّسون الواقع ويصفونه بأمانة كما وقع فى خبرتهم .. فليس هناك عميان بل أناس يتمتعون بحواس كاملة ويعملون بحماس.. وبعيون مفتوحة فى خدمة من يدفع لهم بسخاء غير مسبوق فى التاريخ المصري الحديث.. وليس هناك فيل ولا أي حقيقة أو واقع ملموس تختلف عليه الآراء ..

فالواقع والحقيقة يجرى طمسهما بحِرَفِيَّةٍ منقطعة النظير.. ويتم عليهما التعتيم الكامل فى وسائل الإعلام.. فلا يصلان أبدا إلى وعى الجماهير.. نعم هناك أصوات متناثرة هنا وهناك تنطق بالحقيقة وتجتهد فى تبليغها للناس ولكنها أصوات غارقة فى محيط متدفِّق من الأكاذيب.. يُضَيَّق عليها الخناق.. وتوضع فى أركان معتمة من الصورة ؛ فلا تلفت نظر القراء أوالمشاهدين، الذين تتجه

أنظارهم حيث تُسلّط الأضواء ؛ فتشغلهم الفرقعات الإعلامية: "نحن نكشف عن الفضائح والمفاجآت..! ندخل فى الكواليس المخفيّة..! ونطّلع على لأسرار..! ونتسلل إلى القاعات المغلقة .. وننشر الحقائق المغيبة خلف الأبواب..!" إلى آخر هذه الفرقعات الإعلامية التى يُقصد بها إجهاد الذاكرة بالكم الهائل من الأخبار والبيانات والتصريحات المتضاربة.. والتعتيم على الحقائق.. وتغييب الوعي بين جماهير مضطربة حائرة..

لقد انحصرت وظيفة الإعلام فى تحويل الجماهير إلى قُطْعان من العبيد العميان فى محاولة مستميتة: لتشويشهم، وتجريدهم من قدراتهم الفكرية، واختزالهم إلى مستوى الحواس، والاحتياجات البدائية للحيوان الغُفل، والكراهية العمياء لما يحييهم وينفعهم على المدى البعيد، بحيث يسهل سوْقُهم بعيدا عن الحقيقة، فلا يرون منها إلا أجزاء مشوّهة.. ولا يدركون من الفيل إلا مُبْتَسَرات لا تجمعها وحدةٌ عضوية.. فهو فى روْعهم إما: أربعة أرجل قائمة فى فراغ.. أو ثعبان.. أو مجرد مقشّة .. أما الفيل الحقيقي رغم ضخامته فلن يصل إلى إدراكهم أبدًا..

****

القطار الذى ضلّ الطريق

فى الآونة الأخيرة يلازمنى حلم ملحّ هو أقرب إلى الكابوس المزعج فأنا دائما فى قطار مسافر أحاول العودة إلى بيتى أو إلى أى مكان آلَفَهُ فلا أتمكّن أبدا من الوصول إليه، وعادة ما أستيقظ وأنا أعانى مزيجا من مشاعر الحزن والغضب والحيرة.. إلا أن حلمى الأخير كان أكثر وضوحا وأطول زمنا وأغرب شأنا من سابق الأحلام.. رأيت أننى أركب قطارا كبيرا مع أمّة كثيرة من الناس.. كلهم يريد أن يصل إلى غايته ولكنهم متحيرون جميعا من أمر هذا القطار الغريب وأمر سائقه؛ فلا أحد يعرف وجهة القطار الحقيقية.. إلا سائق القطار وبطانته، هم وحدهم الذين يعلمون وجهة سفر القطار.. ويعلمون فى أى المحطات سيتوقّف.. إنهم يختارون لنا ما يشاءون من محطات للإنزال أو الركوب.. ولا يعبأون بمواعيد الوصول أو مواعيد الإقلاع.. ولا يعلنون عن نيتهم بهذا الخصوص أبدا.. فهم يعتبرون ذلك من أسرارهم الخاصة.. وتسرى شائعات بين الركاب أن عصابة من قطاع الطريق.. قفزوا إلى القطار واستولوا عليه.. هبطوا عليه من حيث لا نعلم كما يفعل "الكاوْبويِزْ" فى أفلام الغرب الأمريكية.

فى هذا القطار ليس كل الركاب من المسافرين.. فعدد كبير منهم من قُطّاع الطريق ، جيئ بهم ليعملوا بين الركاب فى خدمة سائق القطار وبطانته.. بعضهم رجال أشداء غلاظ الوجوه والأكباد.. يقومون كما يدّعون بحفظ الأمن والنظام فى القطار.. وهم مدربون على توقيع العقوبات التى يقررها سائق القطار بنفسه على المتمردين الذين يتجرأون على السؤال ؛ أى سؤال.. حتى ولو كان عن وجهة سفر القطار.. فسوف يتصدى له واحد من الحراس قائلا له: ليس هذا من شأنك.. وإذا كرر السؤال بعد ذلك يُحجز فى قاطرة المعاقبين بالحبس، أما الذين يبدون تذمّرهم من هذا الحال فعقوبتم الإقصاء الفوري، وذلك بسحلهم من أرجلهم وإلقائهم من نافذة القطار.. ليلقوا حتفهم.. وتأكل جثثهم الكلاب الضالة..

وإلى جانب الحراس يوجد فئة أفرادها مدربون على الكتابة والكلام، مَرَدُوا على النفاق.. يسمّيهم الناس كتبة السلطان، ويصفهم آخرون بالأبواق والإمّعات.. ويسمّون أنفسهم بالمفكرين والصحفيين والمثقفين، ويضْفُون على أنفسهم صفات: المدافعين عن اللبرالية والتقدمية ضد الرجعية والظلامية والتخلف الإسلامى.. من أكثرهم نفاقا وفجاجة واحد أعرفه، أصبح رئيس تحرير صحيفة كبرى..

عندما بدأ حياته الصحفية لم يكن يجيد كتابة جملة عربية واحدة صحيحة ذات معنى.. وكان يكتب له مقالاته زميل له سابق فى الدراسة.. وهو كاتب وصحفى.. ورئيس تحرير مجلة، كانت أنجح مجلة إقليمية فى مصر.. كتب عددا من المسرحيات.. و كتب أفضل سيرة للشيخ شعراوى.. ضمّنها بيئته التاريخية والفكرية فأبدع فى عرضه وأسلوبه، و جمال عباراته .. وكشف عن فهم عميق لتاريخ الفكر فى مصر.. وكان أصغر مدير ثقافة سنّا، وأكثرهم إبداعا.. رحمة الله عليه.. اختطفه الموت مبكرا .. إنه ابن أخى أدعو له بالرحمة والمغفرة.. وهكذا يمضى خيار الناس ليبقى على الساحة شرارهم.. والحثالة..

فهل هذه حالنا الآن..؟!: نشهد بلادنا تتردّى وتهبط كل يوم فى دركات الاستبداد والفساد، والانحطاط فى السياسة والاقتصاد والأخلاق، بينما نحن عاجزون عن أن نمدّ لها يد المساعدة؛ يرهبنا حراس القطار غلاظ الأكباد، ويشوّش علينا كتبة السلطان وأتباعه وأبواقه.. حتى وصلنا فى مسخرة الانتخابات الأخيرة سنة (٢٠١٠م) إلى قاع الانحطاط..

انتخابات تم تزييفها، وعرف الناس فى كل مكان بالعالم حقيقة هذا التزييف الفجّ، ولكننا مازلنا نسمع الأكاذيب من كبار المنافقين: أنها تمت بنزاهة وشفافية، وأنها عبّرت أصدق تعبير عن إرادة الناخبين.. الذين منحوا مرشحى الحزب الحاكم أصواتهم بحرية كاملة وحجبوها عن المعارضين بعد أن اكتشفوا عدم أهليّتهم للثقة...!

لا تعجب من هذا الإنكار المستميت للحقيقة من ديناصورات التزوير الذين لا يزالون يعيشون بعقولهم فى عصر متخلف.. بينما يعيش العالم من حولهم

عصر ثورة المعلومات وثورة الاتصالات.. و لا يدرون أن ما كان يجرى من عمليات تزوير خارج اللجان وداخلها قد أصبح مطروحا بالكلمة والصورة يشاهده الناس فى أنحاء الدنيا..

لن أتحدث عن شهادة شهود العيان الذين سجلوا شهاداتهم فى وسائل الإعلام المرئية والمقروءة؛ لن أتحدث عن شهادة المستشار وليد الشافعى رئيس محكمة استئناف القاهرة وعضو اللجنة العامة للانتخابات بالبدرشين.. الذى تجرأ عليه رجل المباحث فأمر باحتجازه فى اللجنة.. لأنه شاهد وكشف عمليات التزوير التى تتم تحت إشراف المباحث.. ولن أتحدث عن شهادة المستشار أيمن الورداني رئيس محكمة استئناف الاسماعلية والمشرف على الانتخابات، الذى تقدم بمذكرة تفصيلية رصد فيها ما شاهده من وقائع التزوير وتسويد بطاقات الانتخاب، وهى جرائم تستوجب وقف المهزلة وإبطال العملية الانتخابية.. ولكن مايسمونه باللجنة العليا للانتخابات تجاهلت مذكرة المستشار واعتمدت نتيجة الانتخابات المزورة، فتقدم بمذكرة أخرى لإعفائه من عمله فى الإشراف على الانتخابات.. وانسحب...

لن أفصّل فى هذه الأدلة فقد حظيت بالتغطية الإعلامية المناسبة وأصبحت على كل لسان.. ولكنى سأعرض لما ذكره لى شاهد عيان رأى بنفسه عمليات التزوير داخل إحدى اللجان الانتخابية.. ولم تتطرق إليه وسائل الإعلام بالنشر.. وأعتقد أن أمثال شهود العيان هؤلاء لا بد أن تهتم بهم الصحافة المستقلة وتنشر شهاداتهم ..

الشاهد أوبالأحرى الشاهدة، هى طبيبة.. وصلت إلى درجة عالية فى السلم الوظيفى، تتمتع بمصداقية رفيعة المستوى، وقوة أخلاقية ومنطقية مشهود لها، علاوة على إصرارها العنيد فى مناصرة الحق، قبلت أن تنوب عن أحد المرشحين تثق فيه، لمراقبة سير العملية الانتخابية فى لجان مخصصة للسيدات.. مقر اللجنة فى إحدى المدارس، بها لجان فرعية أخرى، مخصصة جميعا لحوالي ستة آلاف ناخبة.. كانت الخطة الأمنية من البداية تنطوى على خلق المشاكل والمضايقات للمراقبات حتى ييأسن وينصرفن من اللجان إلى بيوتهن.. ليخلو الجو لعملية

التزوير بهدوء.. ومن ثم بدأ ضابط المباحث في المخاشنة مع السيدات الحاضرات عن مرشحي المعارضة ، أمرهن بإبراز أوراق التوكيلات الرسمية.. فأخرجت السيدات توكيلاتهن موقعة ومختومة بخاتم النسر، ولكن ادعى ضابط المباحث أن التوقيع غير ظاهر وأن الأختام غير واضحة.. وطلب منهن العودة إلى أقسام الشرطة لاستخراج أوراق جديدة واضحة.. وإلا فلن يُسمح لهن بالدخول.. ولكن لم يستسلم أحد لهذا التهديد.. وأخرجت بعضهن توكيلات من الشهر العقاري تعزز موقفهن.. وجرى جدل كثير ومشادّات كلامية.. وإصرار من جانب السيدات أن الذي له الحق في النظر إلى هذه التوكيلات هو رئيس اللجنة وليس أحد آخر خارجها..

فلما رأى الضابط أن محاولاته باءت بالفشل، وأن التصعيد لن يجدي فتيلا، وقد يؤدي إلى مشكلات مشهودة ومصورة في وضح النهار، من جانب الجمهور الكبير المحتشد خارج اللجنة، سمح للمراقبات على مضدد بالدخول..

تقول الدكتورة بدا في أول الأمر أن عملية الانتخاب تسير بهدوء وفي طريقها الطبيعي حتى حان أذان المغرب.. وهنا حدث انقلاب كامل في الصورة، وظهر للمسرحية سناريو آخر لا بد أنه كان مُعدّا سلفًا.. فقد أُطفئت أنوار المدرسة في الفناء الداخلي وصدرت الأوامر بالإخلاء السريع للمكان من وكلاء المرشحين ليتدفق مكانهم عدد كبير من رجال الأمن داخل المدرسة.. ثم جاء دور المراقبات داخل اللجان، حيث أمرهن رجال الأمن بمغادرة المكان فورا.. فرفضن جميعا وأخرجت إحداهن هاتفها المحمول طلبا للنصرة من الخارج، فأسرع ضابط الأمن بلطم يدها بقوة، سقط على أثرها المحمول مكسورا على الأرض، فحاولت زميلتها نفس المحاولة فلقي هاتفها المحمول نفس المصير ..

عندئذ اشتد غضب السيدات وأخذت إحداهن ترفع صوتها عاليا ليكون مسموعا في أرجاء المدرسة وهي تنصح الضابط أو تعظه عسى أن يستيقظ ضميره.. قالت له : أن ما يفعله مخالف للقانون والدين، وأن الله سيحاسبه على أفعاله.. وأخذت تردد: ألا تخشى الله عندما تقف بين يديه ليحاسبك على هذا التزوير..؟!

ومرة أخرى ييأس الضابط من التصعيد غير المفيد، فيقرر أن يبدأ فى ممارسة مهمته التزويرية أمام شاهدات العيان ورغم أنْفِهِنّ.. وهكذا شرع ورفاقه، ومعهم رؤساء اللجان فى تسويد البطاقات ووضْعها فى الصناديق. وكانت آخر ورقة تحتفظ بها المراقبات لإعاقة عملية التزوير هى الامتناع عن التوقيع على محاضر تقفيل الصناديق، ولكن يفاجأن بأن المحاضر كانت جاهزة، وبدأ تشميع الصناديق بالفعل .. وتلحّ الدكتورة على رئيس اللجنة أن يثبت عدد البطاقات التى أودعتها الناخبات فى الصندوق قبل حضور رجال الأمن، ولكنه يجادل بأن هذا غير ممكن.. فهو لا يعرف عدد هذه الأوراق.. كانت الدكتورة متيقظة تماما لما يحدث وقدّرت أن عدد البطاقات المزوّرة التى تم حشوها فى الصندوق يربو على عدد البطاقات الأصلية.. كأن كل شيء كان محسوبًا ومرتّبًا سلفا بإحكام شديد..

ثم جاءت لحظة الحسم النهائية فأُطْفئ عدد آخر من الأنوار ليتشعر السيدات بالرعب ويغادرن المكان مذعورات والغضب يغلى فى صدورهن وهن يصحن: حسبنا الله ونعم الوكيل..! فى هذه الأثناء جاءت سيارة نزل منها عدد من البلطجية وفى سرعة خاطفة حملوا الصناديق تحت إشراف رجل المباحث الهمام وانطلقت السيارة إلى مكان مجهول ...

ثم تعلن اللجنة العليا للانتخابات الفوز الساحق لمرشحى الحزب الوطنى.. و تخرج قيادات الحزب لتعلن أن الانتخابات تمت بهدوء، ولم يشُبْها أى مخالفات أو انتهاكات.. فى أنزه وأنظف انتخابات شهدتها مصر..!!

تقول السيدة: من بين مجموع الأصوات الحقيقية التى كانت فى الصندوق قبل إدخال البطاقات المزوّرة، لم يكن هناك سوى صوتان اثنان لمرشح الحزب الوطنى، رصدتْهما مندوبة مرشح الحزب نفسها، وتحدثت بذلك من هاتفها المحمول إلى شخص ما ، بصوت مسموع وهى بادية اليأس، وبالفعل استأذنت وخرجت من اللجنة قبل وصول حملة التزوير الأمنية.. وكل عام وأنتم بخير...!

****

قصة الصعود والانهيار في الاتحاد السوفييتي

أصبح الاتحاد السوفييتي مجرد قصة تُروى وكان قبل عقدين من الزمان لا يزال أحد القوتين العظمين المتنافستين في السيطرة على الكرة الأرضية وشعوبها، بل والسيطرة على الفضاء الخارجي أيضا ... لعل الذين يتابعون ما أكتب منذ وقت غير بعيد قد لا حظوا أنني أشرت إلى شيء اسمه البريسترويكا وضرورة الرجوع إليها لا لفهم الانهيار المفاجئ الذى أصاب الاتحاد السوفييتي ، وإنما لفهم أسباب ومظاهر التفسّخ فى مجتمعاتنا –نحن– العربية.. وعن تدهور أوتفكك المنظومات التعليمية والصحية والإدارية و القانونية.. وانتشار الفساد السياسى والمالى والرشوة والمحسوبية والنفاق إلى آخر هذه القائمة ..

نعم .. كانت هناك صورة تلح على ذاكرتى بقوة عن أوضاع الإتحاد السوفيتي المتهرئة قبل أن يبدأ الإنهيار متدحرجا ككتلة الثلج من أعلى الجبل.. أو بتصوير أقوى وأدق كما فى شعر إمرئ القيس: " كجُلْمُودِ صَخْرٍ حطّهُ السّيْلُ من عَلِ " .. مصدر هذه الصورة هو كتاب ميخائيل جورباتشوف الذي نشره بعنوان البريسترويكا (Perestroika) ومعناها "إعادة البناء" .. ولا يهمنى العنوان إنما يهمنى محتوى هذا الكتاب.. ومحتواه أليم .. أليم لأن الوصف الذى وصف به جرباتشوف المجتمع السوفييتى وهو فى حالة احتضار ينطبق على حالة مجتمعنا الآن [عام ٢٠١٠م] .. إن مجتمعنا يمر بحالة أشبه ماتكون باحتضار حقيقي مثل حالة الإتحاد السوفييتى قبل انهياره.. مالم يتداركنا الله برحمة منه...!

بناء إمبراطورية كبرى:

كانت ثورة أكتوبر سنة ١٩١٧م هي الشرارة الأولى التي انطلقت إيذانا بمولد هذا العملاق، إنها الثورة البلشفية الشيوعية التي تحولت إلى زلزال بدأ من مركزه في روسيا ثم لم يلبث أن انساب في أرجاء الأرض غربا وجنوبا ليغطي مساحات شاسعة عبر آسيا حتى اليابان .. وتشكلت بذلك أكبر إمبراطورية برية على كوكب الأرض في العصور الحديثة، استوعبت سدس اليابسة وبلغ تعداد

سكانها ٢٨٠ مليون نسمة، تضم ما يزيد على مائة أمة وقومية.. وعشرات اللغات واللهجات.. بهذه الصورة اكتمل للنظام السوفييتي الشيوعي السيطرة المطلقة على كامل أراضي الإمبراطورية الروسية القيصيرة مضافاً إليها مناطق جديدة في آسيا وأوربا ليطل على بحر البلطيق في أقصى شمال القارة الأوروبية. ولكنه استحدث لهيمنته على هذه البقاع الشاسعة عنصرين جديدين هما الأيديولوجية الشيوعية والتكنولوجيا متمثلة في الكهرباء، فإذا كانت الأيديولوجية قد غيرت المناخ الفكري لشعوب الاتحاد السوفييتي فإن الكهرباء قد غيرت المناخ البيئي الذي كان باردا جامدا مظلما فأدخلت فيه الدفء والضوء والمرونة علاوة على أنها كانت الطاقة المحركة للآلة الصناعية.

بهذا الامتداد الأيديولوجي والأرضي الهائلين تحقق للاتحاد السوفييتي المقومات الأساسية للقوة في العصر الحديث: مساحة هائلة متصلة من الأرض، وموارد بشرية ضخمة، ومصادر للثروة الطبيعية وفيرة و متنوعة..

فى الإمبراطورية السوفييتية جاء الروس بأيديولوجية شمولية معادية للدين وللنزعات القومية وكانت هذه هي الفلسفة أو العقيدة الدينية الجديدة للشيوعية التي يُراد نشرها أو فرضها على البشرية بثورة عالمية لتحل محل الأديان التقليدية كلها ، ومحور هذه الأيديولوجية هو دكتاتورية البروليتاريا (أو الطبقة العمالية) التي من حقها أن تفرض سيطرتها بالعنف على سائر الطبقات الأخرى والعمل على تصفيتها تماما من الوجود.

بعد الحرب العالمية الثانية امتد نفوذ الاتحاد السوفييتي ليشمل منافذ البلطيق حيث تحولت دويلاته إلي سوفييتات بالإضافة إلى مساحة كبيرة من شرق بولندا وشطر من رومانيا. وامتدت الهيمنة السوفييتية لتشمل جميع الدول التي تحولت إلى النظام الشيوعي بواسطة الأحزاب الشيوعية المحلية مدعمة بالقوات المسلحة السوفييتية، وهكذا أصبحت أوروبا الشرقية كلها مشتملة على ألمانيا الشرقية والمجر وتشيكوسلوفاكيا وجميع دول البلقان، باستثناء اليونان، أصبحت كل هذه الدول تدور في فلك الاتحاد السوفييتي اقتصاديا وعسكريا

ومصيريا ؛ فقد ضمها سياسيا إلى حلف وارسو واقتصاديا إلى منظمة الكوميكون...

الصراع بين الكتلتين الشرقية والغربية:

انشطر العالم إلى كتلتين متنازعتين: الكتلة الشرقية الشيوعية بقيادة الاتحاد السوفيتي وتوابعه، والكتلة الغربية الرأسمالية بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية وتشمل دول أورُبا الغربية وكندا مجتمعة في حلف آخر مضاد لحلف وارسو هو حلف شمال الأطلسي الذي يطلق عليه اختصارا "الناتو". وخلال الحرب العالمية الثانية تمكنت الولايات المتحدة الأمريكية من صنع القنبلة الذرية بواسطة علماء وتكنولوجيا من ألمانيا .. وأسقطت قنبلتين على مدينتين يابانيتين هما هيروشيما ونجازاكي فدمرتهما وقتلت مئات الألوف من سكانهما ، وخرجت من الحرب أقوى قوة نووية في العالم، ولكن لم يلبث الاتحاد السوفييتي إلا قليلا ليطوّر قوته النووية الخاصة به مستعينا هو الآخر بالتكنولوجيا والخبرة الألمانية أيضا .. وكان امتلاك الصواريخ عابرة القارات في كل من الدولتين العُظميَيْن مصدر رعب هائل لكليهما، وأصبح معنى الحرب بينهما هو الدمار الشامل المطلق .. فقد كان كل منهما يملك مخزونا نوويا يكفي لتدمير الآخر لا مرة واحدة بل عدة مرات، بل يكفي لتدمير الكرة الأرضية كلها ويجعلها بإشعاعاته القاتلة غير صالحة للحياة بعد ذلك ...

لم يكن الاتحاد السوفييتي بمستطيع أن يواصل تحدياته في سباق التسلح النووي وغزو الفضاء وهو ينطوي على أيديولوجية مدمرة أفرغت الإنسان من محتواه الروحي والوجداني ولم يستطع النظام القائم عليها أن يقدم للإنسان كفايته المادية ناهيك عن الرخاء الذي كان يحلم به في ظل النظام الشيوعي.

كان الاتحاد السوفييتي أكبر دولة بوليسية في العالم يعمل شطر كبير من سكانه في التجسس على بقية السكان.. الذين كان من المفروض أن ينهضوا بعبء الإنتاج، وما كان في مقدورهم أن يحققوا معجزات في عملية الإنتاج هذه .. وقد خبت روح الثورة الأولى في أفئدتهم وانكشف الغطاء عن الآمال

المحبطة.. وفاحت رائحة الفساد السياسي وبدت الحياة كئيبة متردّية تحت وطأة أجهزة المخابرات وإرهاب أل "ك. جى. بي".

جورباتشوف والبريسترويكا:

فما الذي حدث على وجه التحديد في الإتحاد السوفييتي ابتداءً من السبعينات..؟ لندع العوامل الروحية والوجدانية التي نضب معينها في ضمير الإنسان السوفييتي جانبا لننظر بشيء من التأني في تشخيص أبرز مفكري الاتحاد السوفييتي وأبرز قادته في آخر محطة وصل إليها قطار الإمبراطورية، وأعني به الرئيس السابق ميخائيل جورباتشوف، فلنستعرض بعض ما كتب في مؤلفه الشهير "البريسترويكا" مشيرا إليه باعتباره ثورة التغيير الجديدة التي يجب أن تحدث في الاتحاد السوفييتي لمعالجة أمراضه المستحكمة، وهو تغيير إقتصادي في أساسه .. ولكن يرى جورباتشوف حتمية أن يلحق هذا الإصلاح بالأفكار والمواقف والممارسات جميعا.. مما سيترتب عليه انقلاب في السياسة الداخلية والخارجية معًا . وإذا كان جورباتشوف في كتابه يحاول أن يضع أصابعه على مكمن الداء الذي أصاب الاتحاد السوفييتي، إلا أنه لم يخرج في نهاية الأمر بمنهجه الفكري عن الإطار الماركسي الذي يرجع كل شيء إلى الاقتصاد وإلى التطور المادي.

ومهما يكن الأمر ففي تشخيص جورباتشوف نقاط على جانب كبير من الأهمية وفيه حقائق ينبغي الإمعان في تأمّلها بما تستحقه من عناية.. ذلك إذا أردنا أن نفهم لماذا انهار الاتحاد السوفييتي..!؟ أو أي دولة أخرى تنهج نهجه من حيث: الشمولية والإستبداد وتجفيف المنابع الروحية للشعب...!؟ والسؤال الآن هو ما الذي حدث إذن في الاتحاد السوفييتي لكي يجعل من البريسترويكا مسألة ضرورية.. وما الذى أدّى به إلى الإنهيار..؟

يقول جورباتشوف: "في مرحلة معينة –وقد أصبح واضحا على وجه الخصوص في النصف الأخير من السبعينات– حدث شئ لا تفسير له لأول وهلة؛ لقد بدأت البلاد تفقد اندفاعها، وتكرر الإخفاق الاقتصادي بدرجة

أكبر، وبدأت الصعوبات تتراكم والأمورتتدهور، وتتضاعف المشاكل التي لا تجد حلًّا، وبدأت تظهر في مجتمعاتنا عناصر ما نسميه بالركود.. تشكل نوعا من (التروس الكابحة) التي تعوق تنميتنا الاجتماعية والاقتصادية.

ثم يمضي جورباتشوف يشير بشيء من التفصيل إلى ما أسفرت عنه التحليلات في هذا المجال فيحصرها في العوامل التالية:

١. تدهور معدلات نمو الدخل القومي لأقل من النصف خلال السنوات الخمسة عشر الأخيرة، وبحلول الثمانينات انخفضت هذه المعدلات إلى مستوى الركود الاقتصادي.

٢. بدأ الاتحاد السوفييتي يفقد موقعه الاقتصادي بين الدول المتقدمة وأخذت الفجوة تتسع بينه وبينها بالنسبة لكفاءة الإنتاج ، فتدنّت جودة المنتجات كما تراجع التطور العلمي والتكنولوجي ، وبالذات إنتاج التكنولوجيا المتقدمة واستخدامها.

٣. أصبح معيار الأفضلية في المؤسسات هو إنفاق أكبر قدر من العمل والمواد والأموال، وجعل المديرون هذا مبررً لزيادة أسعار السلع بصرف النظر عن الجودة. وكانت الحصيلة إهْدارًا للموارد الطبيعية وقصورًا في الجودة مع زيادة مستمرة في الأسعار.

٤. في محاولة خرقاء لإصلاح هذه الأوضاع ، لجأت الإدارة العليا إلى منح مكافآت أكبر لمديرى الإدارات، وتنوعت لهم الحوافز بدون استحقاق، مما أدى إلى ظهور التقارير المنمّقة والإحصاءات المبالغ فيها لتبرير المكافآت والحوافز، وبذلك زادت المواقف الطفيلية وتراجعت مكانة الإتقان في العمل وتجويده.

٥. اختلال التوازن بين حجم العمل وحجم الاستهلاك.. الذي لم يؤدِّ فقط إلى إعاقة نمو إنتاجية العمل بل إلى تشويه مبدأ العدالة، الاجتماعية التى تعتبر العمود الفقري للنظام.

٦. اللجوء إلى بيع مزيد من البترول وغيره من موارد الطاقة والمواد الخام في السوق العالمية لم يؤد إلى تحسين الأوضاع بل أدى إلى تفاقمها، حيث استخدمت الدخول لحل المشاكل الآنية الجارية بدلا من استخدامها في تحديث الاقتصاد بهدف اللحاق بالتقدم التكنولوجي.

٧. ظهور ما يسمى بـ "مبدأ المتبقي" بمعنى أن تتلقى البرامج الاجتماعية والثقافية فقط ما يتبقى من ميزانيات الإنتاج، ومن ثم بدأ المجال الاجتماعي يتخلف، وتقع المشكلات الاجتماعية الملحّة على آذان صماء، مما عكس أثره السلبي على نوعية العمل وتراجع الأداء .

٨. لأن النظام الشيوعي يأخذ بمبدأ العمالة الكاملة وتوفير الضمانات الاجتماعية الأساسية، فقد أضاف هذا أعباء هائلة على عاتق الاقتصاد، ترتب عليه قصور في تلبية الاحتياجات المتنامية في الإسكان وفي نوعية وكمية المواد الغذائية، وقصور في المواصلات والنقل والخدمات الصحية والتعليمية.

٩. بسبب الاستخدام التبديدي للموارد وتخلف الإنتاج أصبح الإتحاد السوفييتي يواجه نقصا في المواد الخام والوقود والطاقة والحديد الصلب.. وكان قبل هذا أكبر منتج لهذه المواد، كما كان من أكبر منتجي الحبوب الغذائية ولكنه أصبح مضطرا لشراء ملايين الأطنان من البلاد الأخرى.

١٠. التدهور التدريجي في القيم الأيديولوجية والمعنوية للشعب، وتفشي المدح للكبار، وروح الخنوع في الجماهير، وتجاهل القادة احتياجات الناس وآرائهم، واستُبعد التفكير المبدع في العلوم الاجتماعية، وطغت على السطح أحكام وتقويمات عشوائية وسطحية اعتُبرت حقائق لا تقبل الجدل.

١١. أثّرت اتجاهات سلبية مماثلة على الثقافة والفنون والصحافة، وعلى التعليم والطب، فتدنى المستوى في هذه المجالات كلها إلى ما دون

المتوسط، وسادت الشكلية مع زيادة في المديح للكبار في قمة السلطة.. مع صخب إعلامي فارغ لا مبرر له عن إنجازات تافهة ومشروعات وهمية ...

١٢. كان الإصرار على تقديم الواقع في صورة خالية من المشاكل [كل شيئ على مايرام] له آثار عكسية فقد حدث انفصال بين القول والفعل، أدى إلى تقوية الاتجاهات السلبية في المجتمع وعدم تصديق الشعارات المعلنة وضعف المصداقية، وأصبح كل ما يعلن من فوق المنابر وينشر في الصحف والكتب الدراسية مثار شك وتساؤل عند الجماهير.

١٣. سرى الفساد في الأخلاقيات العامة وضعف الشعور بالتضامن الذي كان سائدا في فترة الثورة البطولية، وفي الخطط الخمسية وإعادة التعمير بعد الحرب.. وصاحب ذلك زيادة مضطردة في حالات إدمان الخمر والمخدرات والجرائم.

١٤. تغلغلت القوالب الجامدة في الثقافة الجماهيرية مما أدى إلى السوقية والإبتذال.. وهبوط في الأذواق.. مع زيادة في الجذب الأيديولوجي.

الحزب الشيوعي:

ينتقل جورباتشوف إلى الحديث عما لحق بالحزب الشيوعي والإدارات الحكومية من فساد وانحلال على كل المستويات، وما ترتب على هذا من فساد اجتماعي، فيقول: "حل العبث السياسي والتوسع في منح الجوائز والألقاب والمكافآت محل الاهتمام الحقيقي بجماهير الشعب وظروف معيشته وعمله.. ونشأ مناخ سادت فيه عبارة نمطية (كل شيء على ما يرام)، وفترت روح الانضباط والشعور بالمسئولية يوما بعد يوم، وبُذلت المحاولات لتغطية هذا الفساد بحملات إعلامية صاخبة والحديث عن مشروعات طنانة واحتفالات بذكرى مناسبات عديدة على شتى المستويات المركزية والمحلية.. وساد أسلوب تغطية البعض على البعض الآخر [شيّلني وأشيّلك..!!]، وأصبح العديد من أعضاء الحزب في المواقع القيادية فوق الرقابة والنقد، مما أدى إلى الفشل في

العمل وإلى تفشي ممارسات خاطئة بل خطيرة. وظهر في المستويات الإدارية عدم احترام للقانون، وساد الكلام المضلل والرشوة وانتشر الخنوع والتمجيد للكبار..

وفي انعكاس هذه الأوضاع على الحياة الاجتماعية للناس يقول جورباتشوف: "كانت الجماهير العاملة ساخطة بحق على سلوك القادة الذين يُفْترض فيهم أنهم موضع ثقة وأهل للمسئولية.. ولكنهم يسيئون استخدام السلطة ويقمعون النقد، ولا يهتمون إلا بجمع الثروات.. بل تحوّل بعضهم إلى شركاء في أعمال إجرامية [مثل التجارة فى المخدرات، وسرقت الأموال العامة، والتربّح بالمراكز، وفضائح الجنس..] .

ويدأ العمال والمثقفون وعدد من المسئولين في الحزب على كافة المستويات المركزية والمحلية يفكرون بقلق في الأوضاع المتردية، وتزايد الإدراك بأن الأمور لا يمكن أن تسير على ما هي عليه لوقت طويل، وتفجّر السخط والحيرة لأن القيم العظيمة التي ولدتها الثورة والنضال البطولي من أجل الاشتراكية قد داستها الأقدام، ورأى الشرفاء بمرارة أن الجماهير تفقد اهتمامها بالشئون العامة وأن العمل فقد مكانته المحترمة.. وأن الناس وبخاصة الشباب، لم يعد لهم همّ إلا الجري وراء المكاسب الفردية العاجلة بأي ثمن.

وظهرت فئات من المسئولين في كل موقع لا يلتزمون بأداء واجباتهم ويتكاسلون في العمل ويتهربون من المسئولية ويسرفون في تعاطي الكحول والمخدرات. واستطاع فريق منهم تكييف القوانين والسياسات القائمة لخدمة مصالحهم الشخصية الأنانية، فلا يقدمون للمجتمع سوى أقل القليل بينما يحصلون لأنفسهم على أقصى ما يمكن من المنفعة، ويعيشون على دخول كبيرة لم يبذلوا في سبيل كسبها أي عمل إيجابي .

[أعلّق من جانبى فأقول: ببساطة شديدة إرفعْ عن هذه الفقرة عنوان "الحزب الشيوعي" وضع مكانها عنوان "الحزب الوطني" وستجد أنك لم تغير شيئا من الحقيقة.. فالواقع هو هو صورة طبق الأصل..!]

أصل العلــة:

فى الجزء الأول من هذا المقال رأينا كيف استطاع جورباتشوف بتحليلاته الواسعة أن يشخص لنا الظواهر المرضية التى حلّت بالاتحاد السوفييتي، وأن يضع يده على أنواع من الأمراض وأعراضها التي تفشت في المؤسسات وبين القيادات على جميع المستويات، واستطاع في تحليلاته أن يبرز لنا كثيرًا من العلل الروحية التي أصابت القيم الأخلاقية في المجتمع، إلا أنه بحكم ثقافته وتأثره والتزامه بمنهج التفكير الماركسي (المادي) لم يستطع أن يتجاوز الأعراض والظواهر لينفذ إلى أصل الداء ومكمن العلة.

ومن ثم لم يستطع جورباتشوف أن يتبين أن أصل العلة وجذورها يكْمنان في أعماق الأيديولوجية الماركسية والنظام الشيوعي نفسه، فالفكر والنظام ينزعان من الإنسان خصوصيته الإنسانية، وينكران أصله الروحي وفطرته الأولى التي فطره الله عليها يوم خلق آدم.

النظام الشيوعي مثل أي نظام علماني آخر يفصل الدين عن الحياة العامة للناس فالدين والشريعة مكانها دور العبادة فقط، أما حياة الناس في المجتمع فتخضع للقوانين الوضعية أو قرارات الدكتاتور الأعظم والزعيم الأوحد.. ولكن الشيوعية ليست نظاما شموليا وديكتاتوريا فحسب.. شأنها فى ذلك شأن االنازية أوالفاشية مثلا.. فهى بالإضافة إلى ذلك عقيدة معادية للدين.. عقيدة تعتبر الدين أفيون الشعوب ومظهرَ تخلُّفٍ.. وعائقًا عن التقدم والإنتاج، لذلك أعلنت عليه الحرب بضراوة ورفعت راية الإلحاد وجعلت الله عدوها الأكبر..!

وربما لأول مرة في تاريخ البشرية تجعل الدولة الإلحاد والكفر بالله وبالأديان جميعاً محور نظامها التعليمي والثقافي، وتخصص لهذا الغرض موارد مالية وبشرية هائلة وتفتح معاهد متخصصة لتخريج دعاة لنشر الإلحاد وتمكينه بين الجماهير، وتبدأ نظامها التعليمي هذا من أول لحظة في ميلاد الطفل حتى يتوارى في قبره .

ولأن الشيوعية ترفض أي ولاء آخر لغير عقيدتها الخاصة قضت على قداسة الروابط الأسرية وأطلقت الحرية الجنسية بين الذكور والإناث ونزعت من الأم أطفالها لتربيتهم بطريقتها الخاصة، فقتلت بذلك عواطف الأمومة والأبوة والبنوة، وجعلت الرجال والنساء جميعا تروسا في عجلة الإنتاج.. وهكذا قضت الشيوعية على الأسرة والأخلاق وكل المقدسات التي يحرص الدين على بثها ويقوم على صيانتها ورعايتها في حياة الإنسان الفرد والمجتمع.

هذا الانحراف الخطير بالفطرة الإنسانية وإغلاق الطريق تماما أمام الأشواق الروحية نحو المقدس، وانتزاع الأمل في حياة أخرى خالدة بعد الموت تتحقق فيها العدالة الإلهية المطلقة.. ويحاسب الناس فيها على ما فعلوه في الدنيا من خير أو شر، والإنكار المطلق لحرية الإنسان في اختيار عقيدته الدينية والتعبير عن رأيه والدفاع عن موقفه.

كان هذا هو السر الذي غاب عن عقل جورباتشوف وهو يشخص أمراض المجتمع في الاتحاد السوفييتي ويصف له العلاج، حيث يدعو إلى العودة إلى مبادئ لينين الاشتراكية، وهو لا يدري أن الدواء الذي يوصي به هو أصل الداء ومصدره .. فما الذي دفع جورباتشوف إلى الاعتقاد بأن علاج الخلل في الاتحاد السوفييتي يكمن في العودة إلى مبادئ لينين الأولى..؟

لقد كان عهد لينين عهد ثورة شعبية كبرى، ثورة على مظالم الحكم القيصري الفاسد وعلى الإقطاع الجائر والاستبداد السياسي والفساد الكنسي وعلى أنانية الطبقة العليا التي احتكرت السلطة والثروة وعاملت الجماهير معاملة العبيد.

للثورات الكبرى خصائص مشتركة:

من خصائص الثورات الكبرى أنها تطلق القوى الإنسانية الكامنة في أعماق الناس فإذا بهم يخلعون أنانيتهم وينطلقون على أجنحة المحبة والإخاء والتضحية، وفي هذا المناخ الثوري الدافئ المحموم تسقط حسابات الزمن بإيقاعاته الرتيبة، وتسقط العوائق المادية والنفسية، ويحقق الأفراد والجماعات طفرات في العمل والإنجاز كانت تعتبر في الماضي من المستحيلات.. يفعل

الناس هذا في المناخ الثوري.. يحدوهم الأمل العارم في مستقبل أفضل يحققون فيه لأنفسهم وللأجيال من بعدهم حياة يسودها العدل والرخاء والسعادة، ومن ثم تهون التضحيات الفردية وتشيع الأعمال البطولية.. يستوي في هذا الوصف جميع الثورات التاريخية الكبرى سواء كانت ثورات دينية أو غير دينية، كلها تتطلّع إلى غاية واحدة هى تحرير الإنسان من العبودية وتحقيق العدالة.. ولها وسائل مشتركة هي التضحية والبطولة.. يسمي الإسلام هذا بالجهاد في سبيل الله وتسميه الشيوعية النضال من أجل الاشتراكية.

تتشابه الثورات كثيرا في مراحلها الأولى بصرف النظر عما يحدث بعد ذلك في المراحل التالية بعد انتصار الثورة، مثلا: كانت شعارات الثورة الفرنسية هي الحرية والإخاء والمساواة وكانت العدالة الاجتماعية من أبرز شعارات الثورة الشيوعية. ولو تأملنا قليلا في مصدر هذه الشعارات لتبين لنا أن مصدرها الأصلي هو الدين، فليس في الفكر المادي كله سواء كان شيوعيا أو علمانيا أي سند أو مبرر لهذه المبادئ العظيمة لأنها مبادئ إلهية لا يمكن فهمها أو استنباطها إلا من عقيدة دينية.

وإذن فقد كان جورباتشوف، وهو يدعو إلى العودة إلى مبادئ لينين الأصلية، كان ينظر إلى مرحلة الثورة العارمة وينفعل بها، ولكنه لم يستطع أن يرى الجانب الإلهي فيها، وإنما استنتج أن مبادئ لينين كانت هي السبب وراء هذه الروح الثورية التي حققت المعجزات والطفرات وأطلقت القوى الإنسانية المبدعة فأقامت التقدم الصناعي والزراعي الهائل في بضعة عقود، وأخرجت روسيا من التخلف المهين وجعلت الإتحاد السوفييتي في مركز الصدارة العالمية ليكون أحد القطبين منافسا الند للند مع الولايات المتحدة الأمريكية.

المؤسسات الثورية التي قتلت روح الثورة:

المؤسسات التي صنعتها الثورة البلشفية لتحافظ على مكاسبها ومبادئها ومنجزاتها وتنفذ بها برامجها السياسية والاقتصادية والاجتماعية هي نفسها المؤسسات التي أثمرت قيادات دكتاتورية ديناصورية مروعة مثل ستالين الذي

قتل في عهده أكثر من خمسة عشر مليون إنسان من أبناء الاتحاد السوفييتي وتصل بعض التقديرات إلى ثلاثين مليون ضحية..!، وهي نفسها المؤسسات التي قضت على روح الثورة وانتزعت من الجماهير روح المبادرة وزرعت الخوف والجبن والنفاق والسلبية في نفوسهم وهي التي أطفأت شعلة الإبداع عند فئات المفكرين والمثقفين والأدباء، فاندثر المبدعون العظام الذين ملأوا الدنيا أدبا راقيا وفنًّا رفيعا من أمثال تولستوى وديستويفسكي وتشيكوف وبوشكين وتشايكوفسكي واختفت أعمالهم الأدبية والفنية فقد أصبح تداولها محرما في الإتحاد السوفييتي، وبدلا من ذلك ظهرت طبقة من الإمّعات والنّكرات والمنافقين يكتبون قصصا تافهة بأمر الدكتاتور ستالين وتحت اسم الواقعية الاشتراكية، هو الذي روّج لها وهو الذي حدد موضوعات الكتابة فحصرها في تمجيد المصانع الكبرى وبطولات الإنتاج، وفي هذا السياق جرى تيار تأليه الطاغية والتسبيح بحمده.

انتهت الحياة في الاتحاد السوفييتي إلى شلل عام ووراءه ركام هائل من عمليات القمع والإرهاب والتصفية الجسدية والروحية ، اتخذت أبعادا مأساوية مروعة لشعوب وقوميات بأكملها تتواضع أمامها وتتوارى خجلا مظالم روسيا القيصرية التي ثار الشعب الروسي ضدها بقيادة لينين.

الزلزال وآثاره:

لما بلغت حالة الغليان الإنساني ذروتها وأقصى عنفوانها تفجرت براكين الثورة واجتاحت الزلازل الاتحاد السوفييتي من أدناه إلى أقصاه، وثارت الجماهير الغاضبة ضد النظم الجائرة وخرجت تحطم رؤوسها ورموزها، وهكذا سقطت تماثيل ستالين ولينين التي كانت تُعبد بالأمس فإذا هي اليوم تداس بالأقدام.

وتواصلت الهزات الزلزالية نحو أوروبا الشرقية لتفجّر ثورات الشعوب ضد الحكومات الدكتاتورية وطغيان الأحزاب الشيوعية والنظم البوليسية الإرهابية.

وترددت أصداء هذا الاكتساح الهائل للأحزاب والنظم الشيوعية في أنحاء أوروبا والعالم، فأسرعت الأحزاب الشيوعية بتغيير أسمائها وجلودها.. وهي تتنصل من ارتباطاتها السابقة وأوهامها الأيديولوجية الفارغة، بعد أن صدّعت بها رؤوس الناس زمنا طويلا.

صدى الزلزال فى العالم العربي:

في عالمنا العربي حدثت أمور عجيبة؛ فعلى مستوى الجماهير ظن الناس في أول الأمر أن تيار الحرية الجارف سرعان ما سيصل إليهم ليخلصهم من سلطان الحاكم الفرد والزعيم الأوحد المستبد، وينشر العدل والديمقراطية، ولم يحدث.. إذ يبدو أن قلاع الاستبداد فى بلادنا محصنة كالجبال ضد الزلازل..

وعلى مستوى الدول ومصر على رأسها بقيت بعض الدساتير تنص على أن نظام الدولة اشتراكي.. ومع ذلك انهارت الضمانات والخدمات الاجتماعية وتآكل نظام دعم السلع الأساسية، وجرت خصخصة القطاع العام على أوسع نطاق .. وظهرت أنياب نوع من الرأسمالية الطفيلية المفترسة.. تنتج القليل وتهدر الثروات في تجارة الأراضي والعقارات بلا كوابح.. وداست بأقدامها كل ما أنجزته الأمة من تقدمات فى مجالات الصناعة المختلفة بل فى المجال الزراعى أيضا...

وعلى مستوى الأحزاب الماركسية والفكر الماركسي حدثت ظواهر تدعو إلى الكثير من التأمل والتفكير..! فقد رأينا فريقا منهم ينتقل فجأة من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين بدون مقدمات، فبعد أن كانوا يسبحون بحمد موسكو إذا بهم اليوم يسبحون بحمد أمريكا، ويناضلون في سبيل التطبيع مع إسرائيل بعد أن كانت عقيدتهم أن أمريكا هي العدو الإمبريالي الأكبر، وأن الصهيونية هي أعلى مراحل الاستعمار.. ورأينا فريقا آخر يؤكد أن ما حدث للإتحاد السوفييتي وتوابعه إنما هو نكسة للشيوعية سوف تبرأ منها عما قريب لتعود إلى سيرتها الأولى، وأن الشيوعية لم تمت بعد فهي لا تزال حية في كوبا وفي الصين..

اختلفت الأفكار والتوجهات ولكنها اتفقت على شيء واحد هو العداء للإسلام ومحاربة عقيدة الأمة وتشويه تاريخها وفكرها ورموزها.. وتحريض السلطات على قمع الحركات الإسلامية وإستئصال رُوَّادها.. ووضع الإسلام برمَّته في دائرة الإرهاب والتخلف. و لم تتوقف عند حد فى هذه الخصومة الشرسة بل ذهبت شوطا بعيدا فى ممالأة الأقليات الدينية .. وتضخيم مشكلاتها والتحالف معها ضد الأغلبية المسلمة...

إندسرت الشيوعية فى بلادنا وتمزق شمل أنصارها ولكنهم عادوا يتجمعون مرة أخرى تحت راية العلمانية واكتسبت بذلك العلمانية أنصارا جُدُدًا.. وضعوا أنفسهم فى خدمة السلطات الحاكمة المانحة المانعة.. وجدوا لهم وظائفَ جاهزة فى الإعلام.. ومنحا في مجالس الشورى وغيرها من المنابر.. واستمروا يرتزقون من عدائهم للإسلام وللتوجّهات الإسلامية والرموز الإسلامية .. وقد وعت السلطات الحاكمة.. (لا بذكاء فى طبيعتها ولكن بتخطيط وإشراف من أولياء أمورها ومن مستشاريهم المبثوثين فى كل مكان) .. وعت دروس إخفاقاتها فى معارك إلغاء الحجاب فى المدارس مع الهجمات والضجيج الإعلامي منذ عقدين سابقين فعادت تنفذه بدون ضجيج أو إثارة إعلامية.. بادئة بضغوط على شرائح ضعيفة من المجتمع مثل الممرضات.. إستجلبت لهن مدربين أجانب بحجة تحسين الأداء فى المستشفيات.. فإذا بالمدرب الغبي يفضح نفسه بنفسه عندما يحاول إقناع الممرضات بنزع حجابهن.. ويزيد على ذلك من غبائه وجهله بثقافة المجتمع الذى جاء يدرّب فيه.. فسخر من الممرضات المحجبات. وأوحى إليهن إنه مما يساعد المرضى الرجال على الشفاء إحتضان الممرضة له..!! ولا تتدخل المديرة المشرفة المحترمة لتوقفه عن إشاعة الفحشاء بل تشجعه على التمادى فى إفساد عقول الممرضات.. ثم نسمع بعد ذلك تهديد وزارة الصحة بتسريح جميع الممرضات المحجبات والمنقبات من وظائفهن.. ولست أدرى تحت أي بند من بنود القانون تستند الوزارة فى هذا التهديد..!؟ وإلى أى مدي يمكن أن تنجح هذه المحاولات لإفساد المرأة المسلمة..!!؟

إننا نشهد منذ فترة من الزمن عندنا زحفا علمانيا خفيا يتقدم ببطء ولكن بإصرار وثبات ويكسب كل يوم نقطة جديدة يضيفها إلى رصيده.. وقد سمعنا بأن الوزيرة الشابة فى جعبتها مشروع قانون للأحوال الشخصية سوف ينسف البقية الباقية من احكام الشريعة الإسلامية فى العلاقات الزوجية.. ومجالات الإفساد الخفية والعلنية كثيرة متعددة. وبمقدار ما يقترب النظام من تحقيق أهدافه بمقدار ما ينزلق إلى الهاوية التى يخشاها ويعمل على إغلاق كل الثغرات التى يتوجّس أن يأتيه الخطر من ناحيتها.. هذا الحرص نفسه وهذا الجهد نفسه الذى يحاول به أن يمنع الخطر هو بعينه الذى سيقوده إلى حتفه. هذه سنة كونية، و قانون إلهي يعمل أيضا فى الخفاء بلا ضجيج إعلامي.. الأمر إذن يدعو إلى كثير من التفكير وكثير من التأمل.. وكثير من الرجاء فى رحمة الله ولطفه...!.

****

وليمة لحثالة البشر:

سخام على وجه الثقافة أم جنون البقر..؟!

عندما هبت عاصفة الوليمة الملعونة على مصر لم أشعر بها في حينها لأني كنت على بعد آلاف الأميال في زيارة لاستراليا، ولم تكن المسافة الشاسعة وحدها هي التي حجبت عني آثار هذه العاصفة وغيبت أخبارها في زحام اهتمامات إعلامية أخرى تغص بها أستراليا فعندما تهبط في أرض هذه البلاد تشعر وكأنك قد انتقلت من كوكب الأرض إلى كوكب آخر، ففي النصف الجنوبي من الكرة الأرضية كل شئ معكوس أو مقلوب، الصيف هنا شتاء هناك، والليل نهار ، والقبلة (بكسر القاف) تتوجّه إليها نحو الشمال بدلًا من الجنوب ، والشمس والقمر والنجوم تطل عليك من مواقع مختلفة، ناهيك عن اختلافات هائلة في الطبيعة والمناخ وأنماط الحياة واهتمامات الناس والصحافة والثقافة ، حتى مذاق الأطعمة. وتحتاج ساعة الجسم البيولوجية كما يحتاج المزاج العقلي والنفسي فترة من الوقت لاستيعاب كل هذه المتغيرات.

عدت إلى مصر بعد ثلاثة أشهر وكانت عاصفة الوليمة المجنونة قد هدأت، وتلاشى الرعد والبرق والضجيج ولم يبق إلا الصدى، وكلمات هادئة تشق طريقها في مقالين نشرتها مجلة "الكتب وجهات نظر" في شهرين متتابعين: مقال شهر يونيه لمحمد حسنين هيكل والثاني في يوليه للدكتور محمد سليم العوا، ؛ كلاهما أشار إلى بيان الأزهر في قضية الوليمة المنكودة. وكانت هذه الشهادات الثلاث هي المدخل الذي بدأت به مرحلة طويلة في أعماق حرب شرسة أحرقت الأخضر واليابس وتعالت فيها صيحات القتال في هجوم بربري لا على الرواية ومؤلفها بل ضد ناقدها وكاشف عوراتها وأعني به الدكتور محمد عباس.

في هذه الحرب القذرة تم انتهاك سافر لأقدس مقدسات هذه الأمة تحت شعارات زائفة عن حق المبدعين والأدباء في التعبير عن آرائهم ومشاعرهم.

والحقيقة أن رواية الوليمة التي هبوا للدفاع عنها بحماس مشبوه ليس فيها أدب ولا إبداع ولا فكر، ولا علاقة لها بالحرية الحقيقية اللّهم إلا أن تكون عبادة الفروج والعبودية للجنس والشهوة المنحرفة هي الحرية التي يقصدونها.

الرواية المنكودة نتاج عقل مريض صرعه الإدمان واستحلال الرذيلة واعتياد الفسق .. اختلطت فيها الهلاوس والتهويمات بمعطيات حواس مضطربة زائغة، والتقت فيها شخصيات مزجتها نزعات سادية وماسوكية، تفوح في أرجائها رائحة عفنة لأوضاع جنسية داعرة منحرفة، وتتناثر على صفحاتها إفرازات أجساد لحيوانات نهمة لا تميز فيها بين الدم واللعاب، بين المنيّ والبول أو البُراز..!

تختلط في هذه الرواية الرؤى المريضة تحت وطأة الإدمان وجنون الشهوة الجامحة ؛ فيرى الرجل الفاسق إلهه بين فخذي عاهرة ، ولا يدرى -وهو مخدر العقل- إذا كان يرتفع صاعدا في ملكوت السماء أم تهوى به الشياطين في قاع الجحيم.

كل شيء عنده فقد وزنه ومعناه وقيمته ؛ فالرذيلة هي الفضيلة، والقذارة هي القداسة، والخطأ هو الصواب، والشر هو الخير، والزواج هو الدعارة .. ولا يهمه بعد ذلك إن كان يمارس الجنس بين جدران ماخور أو على قارعة الطريق ، وحده أو في جماعة من الفساق أمثاله . هذا هو المضمون النهائي، والرسالة الشيطانية التي تسكن الرواية من أولها إلى آخرها.

أما الصياغة اللغوية البذيئة والأسلوب المستهتر المنحط الذي كتبت به الرواية فلا يمت إلى الفن أو الأدب، إلا أن يكون هذا هو أدب المراحيض الذي هو أقرب إلى القيء والبراز حيث يصدق على صاحبه قول الشاعر:

فإذا تمعَّر أو تكشّر ضاحكًا ::: فكأنه من وجهه يتغوَّط

أفضل تصنيف يمكن أن ترقى إليه هذه الرواية أنها من الكتابات السرية التي تنمو في كل المجتمعات (تحت الأرض)، يتداولها المنحرفون والجانحون،

ويقتبس منها المراهقون غير الأسوياء عبارات يسطرونها على جدران المراحيض في المدارس.

فهي غير صالحة للنشر أصلًا، فلما نشرت لم يكن يصح الدفاع عنها هذا الدفاع المحموم تحت أي شعار، وإنني لأرثى بل أتحسر كثيرا على عشرات الكُتَّاب وأدعياء الثقافة الذين دافعوا عن هذه الرواية الوضيعة وهاجموا ناقدها بلا منطق ولا رحمة ، وبذلك كشفوا عن حقيقة موقفهم في مواجهة جماهير الأمة فعزلوا أنفسهم عن اختيار أو تهور غبي أو غواية شديدة ، الله وحده يعلم بما في نفوسهم..! لم أجد من الحكمة أن أعيد إلى ذاكرة القارئ نماذج من الألفاظ البذيئة والعبارات المنحطة التي انتهك بها مؤلف الرواية أقدس مقدسات هذه الأمة ومن الأفضل للناس أن يحاولوا نسيان هذا كله فلا تتعلق أفئدتهم إلا بالعبرة والموعظة.

فقارئ هذه الرواية بضمير ديني يقظ يشعر أنه يغوص في الجحيم وأن روحه تخوض مستنقعا من الوحل الدنس يحتاج إلى زمن طويل لكي يطهر نفسه منه.

يكفي النماذج والتفاصيل التي أبرزها الدكتور محمد عباس في مقالاته الأربعة المنشورة بصحيفة الشعب والنماذج التي تعرض لها الدكتورمحمد سليم العوا في مقاله بمجلة "الكتب وجهات نظر" ورصده لخمسة وستين موضعا في الرواية تعزز رأيه فيها.

وقد جاء بيان الأزهر مختصرًا وحاسمًا في صفحة واحدة مستندًا إلى تقريرين من مجمع البحوث الإسلامية في تقويم الرواية الملعونة، أثبت فيه أن وزارة الثقافة لم تستطلع رأى الأزهر في نشر كتاب يتعرض فيه للإسلام والعقيدة والشريعة مخالفة بذلك للقانون.

وأن الرواية مليئة بألفاظ وعبارات تحقِّر وتهين جميع المقدسات الدينية بما في ذلك ذات الله سبحانه وتعالى والرسول صلى الله عليه وسلم، والقرآن الكريم واليوم الآخر والقيم الدينية، وافتراءات على الرسول وتحريف لآيات القرآن

وتنسب الرواية إلى القرآن آيات ليست فيه، وبها دعوة إلى الانفصال عن دين الله والأخلاق والتقاليد، واعتبرت الجنة والنار خرافات...!

ويخلص البيان إلى أن ما ورد في هذه الرواية خروج على ما هو معلوم من الدين بالضرورة وانتهاك للمقدسات الدينية والشرائع السماوية والآداب العامة، ويثير الفتن ويزعزع تماسك وحدة الأمة، ويضع على عاتق من نشروا هذه الرواية المسئولية الكاملة عن التجاوز والآثار المترتبة عليه دينيا واجتماعيا.

وهذا بالضبط ما أثار الغضب العارم في صدر الدكتور محمد عباس، ليست الرواية الساقطة فحسب بل عناية المؤسسة الرسمية المسئولة عن الثقافة بنشرها.. وما جاء في مقالاته لا يخرج في مضمونه عما جاء في بيان الأزهر، كما أن النماذج التي استشهد بها من نصوص الرواية هي نفسها النماذج التي وردت في تقريري مجمع البحوث الإسلامية وفي مقال الدكتور محمد سليم العوا، ففيم إذن كانت الحرب على الرجل..!!.

ما فجّر ثورة الدكتور محمد عباس ، هو انفعال تلقائي وليس "افتعال انفعال" ربما كانت النبرة حادة والعبارات ملتهبة بنار الغضب الذي يتأجج في صدره، ولكن يبرره أن مقاله حول هذه القضية كان ذروة انفعال طال أمده وسكن في صدره على امتداد خمسين مقال سابق نشرتها صحيفة الشعب تحت عنوان "الوعي ينزف من ثقوب الذاكرة" يدافع فيه عن هوية الأمة ومقدساتها التاريخية والثقافية ويكشف عن زيف الأوضاع الثقافية وانحراف النخب المثقفة، لا أرى وصفًا لهم أصدق من وصف صديقي الراحل الدكتور/ محمد على العريان في كتابه "العريان والزمان" حين يقول: "يسيرون في الحياة بإرادات زائفة ولديهم مناعة مذهلة ضد إدراك البديهيات" ويقول في موضع آخر من كتابه: "عرفت صنوفا من الكذابين لديهم مقدرة غريبة على أن يكذبوا حتى على أنفسهم ويستشهد بأبيات من الشعر:

ألف وجه له فإن مات وجه   نشر اللؤم أوجها كالجراد

يغضب الكذوب لو أقول كذوب   رب كذب يجيء دون اجتهاد

ويصف العقاد نماذج من بلطجية السياسة والثقافة تشبه مؤلف الرواية الملعونة والمدافعين عنها فيقول: "إنهم كالمخاط إن أزحته تقززت وإن تركته تقززت فهو مقزز على الحالين"

وفلسفة النفعيين كما يراها العريان: "نجاح وحيازة وغلبة بأسلحة مشحوذة بحوافر لا تبالي إلا بمبدأ أنا آخذ.. أغلب .. أخْلب.. أخْدع.. أنا أمثل الدور.. أنا أبيع نفسي طبقا للمواصفات للمطلوبة.. وأصحاب الأرْيحية والمبادئ الأخلاقية سيجدون أنفسهم -لا مناص- في صدام مع نَذْل من هؤلاء الأنذال..".

يصف لنا على عزت بيجوفيتش في كتابه "الإعلان الإسلامي" حقيقة النخبة من دعاة التقدمية والعصرية الذين يهيمنون على السلطة والتعليم والثقافة بأنهم يمثلون سوء حظ الأمة المسلمة، هؤلاء هم أدعياء الحداثة الذين استطاعوا أن ينشئوا جبهة ضد كل ما تمثله الفكرة الإسلامية. يقول على عزت:

"تستطيع التعرف على هؤلاء الذين أقاموا اليوم من أنفسهم مصلحين في البلاد المسلمة من خلال فخرهم بما كان يجب أن يخجلوا منه، وخجلهم مما كان يجب أن يفخروا به" .. إنهم يعانون من شعور عميق بالدُّونية تجاه العالم الغربي الغني المتقدم، وشعور بالاستعلاء على مجتمعاتهم التي خرجوا منها وقد أحاط بها الفقر والتخلف، لقد حُرموا من التربية الإسلامية الصحيحة وفقدوا كل صلة روحية أو أخلاقية بشعوبهم ومن ثم فقدوا معاييرهم الأولى، وأصبحوا يتخيلون أنهم بتخريب الأفكار والتقاليد والمعتقدات في مجتمعهم، وبتقديم أفكار غربية سيقيمون أمريكا – التي يكنون لها إعجابا مبالغا فيه – على أرض بلادهم في يوم وليلة..

إنهم بدلا من العمل على تطوير إمكانات بلادهم الخاصة ذهبوا ينفخون في شهوات الناس ويضخمون رغباتهم المادية، فأفسحوا بذلك الطريق أمام الفساد والفوضى الأخلاقية.. إنهم لم يستطيعوا أن يفهموا أن قوة العالم الغربي لا تكمن في طريقته في الحياة، وإنما في طريقته في العمل وأن قوته ليست في الموضة

والإلحاد وأوكار الليل وتمرد الشباب على التقاليد، وإنما تكمن في الكدح الذي لا مثيل له وفي المثابرة والعلم والشعور بالمسئولية التي تتميز بها شعوبهم.

المشكلة عند على عزت ليست في أن أدعياء الحداثة قد استخدموا أساليب أجنبية وإنما في أنهم لم يعرفوا طريقة استخدامها أو وضعها في الموضع الصحيح ، وأنهم لم يفلحوا في تنمية حس قوى للتمييز بين ما هو صحيح وما هو خاطئ، ومن ثم أخفقوا في اختيار المنتج الحضاري المفيد واستعاروا لمجتمعاتهم – بدلا من ذلك – عرضا مَرَضيًا من أعراض الحضارة فكان منتجا ضارا بل قاتلا ، لم تكن دعوتهم دعوة إنقَاذ كما يزعمون وإنما هي دعوة إلى الانتحار العام ، إن أمة لا تعرف هويتها الحقيقية ولا تعرف أين تمتد جذورها الروحية والحضارية والأخلاقية لا يمكن أن تكوّن لنفسها صورة واضحة عن الموقع الذي تنتمي إليه ولا الأهداف التي يجب أن تسعى لتحقيقها..

في إطار هذا المفهوم ينبغي أن ننظر إلى الرواية الملعونة وإلى حقيقة الحرب التي دارت حولها بين الذين نقدوها بحق والذين دافعوا عنها وروجوا لها بالباطل.

****

المختار من الأغاني للأصفهاني

" يسرُّ مكتبة الأسرة أن تقدِّم من كتاب الأغانى هذه المقتطفات من حياة هذا الشاعر وشعره، فهي النموذج الصادق لما سبقْنا فيه العالم بقرون عديدة..." هذه عبارة مقتبسة من السطور الأخيرة فى مقدمةٍ كتبها الدكتوران سمير سرحان و محمد عنانى، لأحد الكتب المنشورة فى مكتبة الأسرة من سلسلة [التراث] بعنوان "المختار من الأغاني للأصفهاني ".. فمن هو يا ترى هذا الشاعر العظيم والنموذج الصادق..؟ وما هذا الذى سبقْنا فيه [نحن العرب] العالمَ بعدّة قرون..؟!

سأدعك لحظات قلية تخمّن الإجابة.. حتى أستكمل الإطار الذى تُنشر فيه هذه الكتب، وأتطرق بإيجاز لأهداف نشرها المعلنة:

أولا- الهدف المعلن تقرأه تحت لافتة: "مهرجان القراءة للجميع .. للطفل .. للشباب.. للأسرة ..." وهى كتب رخيصة الثمن لتكون فى متناول الطبقات المتوسطة من الناس.. والغرض منها هو إشاعة الثقافة بين الأطفال والشباب وجميع أفراد الأسرة لترقية مداركهم وتنمية عقولهم...!

فمن ينفق ويحتضن هذا المشروع القومي الهام..؟ إقرأ هذا معى فى آخر صفحة بالكتاب تحت عنوان الجهات المشاركة كالآتى: "جمعية الرعاية المتكاملة المركزية ، وزارة الثقافة ، وزارة الإعلام، وزارة التعليم، وزارة التنمية الريفية، المجلس الأعلى للشباب والرياضة.. ويقوم بالتنفيذ: هيئة الكتاب.. ".

وهكذا.. كما ترى كيف تُعنى الدولة بهذا المشروع، وتُسخّر فى خدمته والإنفاق عليه كل هذه الهيئات والوزارات المحترمة، وتخصص له ميزانيات كبيرة من أموال الشعب..! فالحكومة ليست معنيّة فقط بتوفير الطماطم والكوسة والأطعمة فى الأسواق لتغذية أجسام المواطنين، ولكنها معنيّة أيضا بغذاء العقل والروح، فهى توفر الفيتامينات للجسم، كما توفر البِبْليومِينات للعقل، حتى يتكامل النمو الإنساني وتتوازن فيه صحة البدن مع صحة العقل.. هذه إطلالة سريعة على الإطار العام للموضوع.

ولنعد الآن للإجابة على السؤالين المطروحين فى صدر هذا المقال: من هو هذا الشاعر...؟ وما هذا الذى سَبَقْنا فيه العالم بعدة قرون..؟!

- أما الشاعر فهو حمَّاد عجْرَدْ.. نعرف من تقديمه فى الكتاب نفسه أنه لم يتكسب بصناعة غير الشعر..[يعنى كان صايعًا وعالة على الآخرين] وأنه من مُخَضْرَمى الدولتين الأموية والعباسية..[أى أنه عاصر فترة اضطراب عارم فى الدولة التى شهدت انحلال سلطة الأمويين واسْتيلاء العبّاسيين على الحكم بقوة السلاح.. ومن شأن هذه التحوّلات الثورية أن تأتى معها بعناصر من الفوضى والخلل فى القيم التى ثبتت واستقرّت فى عهود سابقة.. وعندما تنشغل قوى السلطة الجديدة بتثبيت أركانها تنطلق قوى التحلل لتملك زمام الفكر والثقافة فى المجتمع]. ومن أبطال هذه الفترة ثلاثة شعراء يمكن أن نطلق عليهم مثلث الشر وهم: حّماد عجْرَد وأبو نوّاس وبشّار بن بُرْد..

يصف الكتاب حماد عجرد فى صفحة رقم ٢٠ بصريح العبارة: "كان خليعًا ماجنًا مُتّهما فى دينه، مرْميّا بالزندقة..." هجَا محمد بن سليمان أمير البصرة هجاء مقذعا فقال فيه:

له حَزْمُ برغوثٍ وعقل مُكاتِبٍ ::: وغُلْمـة سِـنّورٍ بِليْـلٍ تُوَلْـوِلُ

ويشرح الكتاب معنى البيت هكذا: " والمُكاتَبُ هو العبد الذى كاتبَ سيده على إطلاق صراحِه لقاء مبلغ من المال، والغُلْمة هى الشّهوة، والسِنّورُ بكسر السين وتشديد النون وفتحها هو القِطّ، والمقصود صوت القطّة حين تعوى [الصحيح تموء] ليلًا فى طلب الذَّكَر، بأصوات حَلْقِيّة.. صوّرها يوسف إدريس فى قّصته الشهيرة"داوُدة".. ثم يعقّب المقدّم مُعجَبًا حيث يقول: "فانظر دِقّةَ الصورة وقُبْحِها..!".. ويمضى الكتاب فى تقديمه فيقول: "لما بلغ محمد بن سليمان هذا الهجاء وأمثاله استشاط غيْظًا فأهدر دم حماد عجْرد.. وقيل بل قتله لزندقته...!"

وتمضى حياة الشاعر على هذا النحو كما يعرضها الكتاب بإسهاب نقتطف منه بعض سطور ذات دلالة على شخصيته وأسباب اختياره: " وما تزال قصة

حياة حمّاد عجْرد نموذجا لحياة الشاعر الخارج على الأعراف والممعِنُ فى فسوقه والمعلن لموبقاته..." [يا لها من مؤهّلات مشرّفة...!].

ثم نعرف طرفا من قصة صداقته لاثنين من المُجَّان المشهورين بالخلاعة والمجون والزندقة، هما: " مطيع بن إياس ويحيى بن زياد، ولكن يحيى بن إياد تاب آخر الأمر فإذا ذُكِرَ أمامه إسم حماد عجرد شتمه وتحدّث عن تهتّكه ومجونه، فكتب إليه حمّاد قصيدة قال فيها:

إن كــان نُســكُكَ لا يتـــمّ ::: بغــير شـــتْمى وانْتقاصـــى
فعليـــك فاشْتِـــمْ آمِنًـــا ::: كـلّ الأمـــانِ مـن القصـاصِ
فلَطـــالما زكّيْتَنـــى وأنـــا ::: المَقيـــمُ عـــلى المعـــاصى
أيـــام أنـــتَ إذا ذُكِـــرْتُ ::: مناضـــلٌ عنّـــى مُناصـــى
وأنـــا وأنـــت عـــلى ارتكـــاب ::: المَوبِقَـــاتِ مـــن الحِـــراصِ

يقول (سرحان وعنانى): "لا يسَع القارئ إلا أن يعجب لبراعة الصياغة عند هذا الشاعر الذى ينفرد بالإعلان عن الموبقات والمعاصى...!".. وأنت لا تعرف من هذا الكلام، هل هو مدح أم ذمّ..؟ وهل يقصدان بالعجب من الإعجاب والانبهار، أم من الاستغراب والاستنكار..؟!.. إنهما يدَعَانِكَ حائرا ليواصلا الشرح: " ومعنى المُناصى هو المُدافِع، ويقال ناوَصَه إذا جاذبه ومارسه).. إنه أقرب شيء لما نسميه فى الأدب الحديث بالبطل الضد Anti-hero، وهو الذى لم يكن معروفا فى الآداب الأوربية قبل العصر الحديث، ونحن نجد فى بعض كُتّاب القرن العشرين من الأوربيين والأمريكيين من ذكّروننا بحماد عجرد، ونجد فى لغتهم من (الخروج) على الأعراف والتقاليد ما يذكّرنا بذلك الشاعر الماجن، ولكننا يندر أن نذكر فى تراثنا من سبقهم بأكثر من ألف عام؛ سواء كان الفرنسي جان جينيه أم الأمريكي هنرى ميلر أو نورمان ميلر!"

[أرأيت أننا كنا سبّاقين حتى فى الانحلال والمجون..؟ يالها من مفخرة...!].

من يقرأ هذا الجزء من التقديم يجده غامضا ملتبسا فى أسلوبه وتعبيراته، ومن شأن هذا أن يوقع القارئ فى حيرة.. فنحن لا نعرف حكاية "البطل الضد" المحشورة فى السياق بدون توضيح لمعناها، حيث يبدو أنها الفكرة المحورية التى أُقيم عليها الزعم بأسبقيتنا وتقدّمنا على الأدب الغربي، أما عبارة "ونجد فى لغتهم من الخروج على الأعراف والتقاليد...إلى آخره.." فقد زادت الأمر إلتباسا.. فنحن لانعرف هل المقصود من هذا الكلام هو المدح أم الذمّ..؟ وهل هو حكم على اللغة المستخدمة نفسها من حيث قواعدها وأصولها..؟ أم أن المقصود هو الجهر بالسوء من القول والجرأة على استخدام التعبيرات الفاجرة البذيئة التى تصدم الذوق العام وتتجافى مع أخلاقيات المجتمع وقِيمه.. فهل هذا مما يستحق أن يعجب به إنسان عاقل أو يفخر به.. وينشره على الناس..؟!

أما مصطلح "البطل الضد" فقد آثر المقدّمان أن يتركاه غامضا غائما، كأنهما يتحدثان إلى أدباء ونُقاد أدب كبار، لا إلى الشباب والأسر التى تُنشر هذه الكتب من أجل تثقيفهم.. فيما يزعمون.. !

وعلى كل حال "البطل الضد" فى الأفلام والمسرحيات ليس هو عكس البطل أو غريمه، ولكنه نوع خاص من الأبطال، قد يكون شريرا أو خارجا عن القانون في نظر المجتمع، ولكن الجمهور يتعاطف معه .. ويعجب بأعماله وتدابيره الجهنمية .. وكان يمكن لسرحان وعنانى بدل التعالى على القارئ أن يضربا مثلا بشخصية مشهورة فى الأدب الشعبي المصري مثل: دليلة المحتالة وألاعيبها الماكرة مع على الزيبق .. أو أدهم الشرقاوى الذى كان يسطو على الأغنياء ليعطى الفقراء، أو اللص الشريف (فيلم من تمثيل إسماعيل ياسين وشادية ولُولا صدقى..) وسيفْهم العِيال كلهم حينذاك معنى البطل الضد.. أو الشرير معشوق الجماهير...!

فماذا يقول الدكتور شوقى ضيف عن حماد عجرد هذا، وقد كان شوقى ضيف رحمه الله أستاذا للأدب ورئيس قسم اللغة العربية فى كلية الآداب بجامعة القاهرة فى خمسينات القرن الماضى، ثم رئيسا لمجمع اللغة العربية، وهو مؤلّف لعشرات الكتب التى ما تزال تُدرّس فى جامعات العالم العربي إلى اليوم، إنه

يقول: " كان حماد عجرد ينكر التوحيد ومن ثم كان خارجا عن الإسلام، وكان يعيش معيشة مجون وفُجور وفسوق ، لا يرعوى ولا يزدجر منذ كان من ندماء الوليد بن يزيد..."

فهل أدركت الآن سر اختيار شخصية حماد عجرد..؟ هذا الزنديق الفاسق.. المجاهر بفسقه وإلحاده..؟! وهل عرفت ما هو التقدّم الذى سبقنا فيه العالم الغربى عدة قرون..؟! وهل تبيّن لك سرّ محاولة وزارة الثقافة تعريف الشباب بحياته وشعره..؟! فى هذا الإطار الفخيم والاحتفالية السنوية.. لمهرجان القراءة للجميع: الأطفال والشباب والأسر المصرية..؟ للتثقيف والتهذيب وتنمية عقول أجيال المستقبل ليقوموا بعبء النهضة و البناء فى بلادهم...!

آخر ملاحظة لى أن سرحان وعنانى قد ختما مقدمتهما للكتاب بهذه العبارة: "والله من وراء القصد..." وهى العبارة الوحيدة التى أوافق عليها بدون تحفّظ..! ولكنى أعرف أيضا أن تزييف الوعى وتزييف الثقافة شأنه كتزييف النقود أو السطو عليها.. كما أعرف من أدبيات اللصوص ومهرّبى المخدرات أن بعضهم يبدأ عمليته بالتوكّل على الله وطلب مساعدته بالستر والتوفيق.. والله أعلم بنوايا عباده وهو من وراء القصد حقا وصدقا...

****

ثورة فى الثقافة

بدأت الثورات العربية فجأة وتسارعت خطواتها بشكل مكثّف غير مسبوق فى التاريخ، واستطاعت فى فترات قصيرة أن تلحق الهزائم ببعض أعتى الدكتاتوريات فى العالم العربى...

ويستطيع المراقب للشأن الثقافي أن يقرر مطمئننا أن مصر قبل الثورة مباشرة قد نما فيها خط ثقافي مستقل عن التيار الثقافي العام الذى ساد فى أروقة السلطة وفى أجهزتها الإعلامية.. وأن قوى المعارضة الجديدة هى التى تبنّت ورعت هذا الخط المستقل.. الذى عبّر فى مضمونه بقوة وصراحة عن الرغبة فى الحرية والتغيير وانهاء القمع والفساد، وتحدّدَت أداةُ تحقيق ذلك فى: نظام ديموقراطي حقيقى، ودولة قانون، ومجتمع مدني، وتداول سلمي للسلطة.. وعلى أساس من هذه الأفكار تشكلت حركة كفاية، وحركات أخرى بدأت تتبلور على شكل احتجاجات وانبعاثات ومظاهرات هنا وهناك..

وكان هذا تعبيرا عن مشاعر غضب واستياء شعبي أخذ يتنامى ويشتد، كرد فعل على تمادى السلطة االدكتاتورية فى ممارساتها القمعية، ومحاولاتها تهيئة الأرض لتوريث السلطة، عبر سلسلة من الترقيعات الدستورية الفجّة، وعمليّات تزوير واسعة فى الانتخابات المحلية وانتخابات مجلس الشورى.. ثم جاءت القشّة التى كسرت ظهر البعير، وعرّت النظام تماما أمام الشعب والعالم، لتتمثّل فى التزوير المروّع لانتخابات آخر مجلس نيابى فى ٢٨ نوفمبر ٢٠١٠.

ولكن إذا كان المثقفون المتمرّدون قد اتفقوا على الجوهر والمضمون وعلى الأهداف والمطالب المشتركة إلا أنهم أبقوا على انتماءاتهم الأيديولوجية: الناصرية والليبرالية ، والماركسية بأطيافها المختلفة، وبقى الإسلاميون فى موقفهم التقليدي المتميز. وقد رأى بعض الكتاب والمراقبين أن هذه الأنماط التقليدية كلها قد أصبحت جزءًا من الماضى وأن الثورة قد تجاوزت هذه الأنماط لتشق طريقا جديدا لفكر ثوري لا ينتمى إلى هذه الأيديولوجيات أو متجاوزا

لها.. وهذا كلام فيه جانب كبير من الحقيقة ولكنه - فيما نرى- لا يصوّر الحقيقة كاملة..

فلا شك أن الثورة المصرية قد شقت طريقا جديدا لفكر ثوري وثقافة ثورية جديدة، نستطيع أن نرصد أبرز ملامحها فيما يلي:

١- أن الشعب ليس بالضعف والهوان الذى انطبعت صورته فى عقول أصحاب السلطة، كما انطبعت فى أذهان المراقبين الأجانب وشاعت فى كتاباتهم ووسائل إعلامهم كصورة نمطية مُقَوْلَبَة عن الشعب المصري، الذى استمرأ الهوان والخنوع تحت سطوة الاستبداد، وكأن الخنوع جزء من خريطته الجينية الموروثة..

٢- أن الشعب يملك طاقات ابداعية خلاقة، وقدرة على التصرف الإيجابي السريع فى المآزق والمواقف المفاجئة والحرجة، مع قدرة على التنظيم الفعال ، وقد تجلى هذا واضحا عندما اختفت قوات الأمن من الشوارع فى تكتيك أراد به مخططوه إشاعة الفوضى فى البلاد ونشر الرعب بين الأهالى لينصرفوا عن الثورة.

لقد أفشل الشعب الثائر هذا المخطط الجهنمي ، واستطاع أن يستنفر رصيده الثقافي المختزن فى العقل الجمعي، وقام أفرادُه العاديون فورا بتشكيل فرق لحراسة المنازل وتأمين المنشئات العامة.. وتنظيم المرور فى الشوارع أفضل مما فعلت الشرطة فى الماضى.

٣- استعاد الشعب الثائر الثقة بنفسه وبقدراته الكامنة وأدرك أنه ليس من الهُزال الذى وصمه به أعداؤه المتسلطون عليه، وأنه قادر على حشد الملايين من أبنائه ، للتظاهر فى الشوارع ، والاعتصام فى الميادين تحت أسوأ الظروف الأمنية والمناخية لتدعيم انطلاقته الثورية ، وتأكيد مطالبه فى إسقاط النظام والتحرر والكرامة الإنسانية.. وقد استمرّ فى إصراره أسابيع بلا كلل ولا ملل، وكلما احتاج إلى حشد أكبر تدفقت إليه ملايين أخرى لتعزيز موقفه..

٤- اكتشف الشعب واكتشف معه العالم أن الروح الدينية تجرى فى عروقه مجري الدم، وأنه فى أشد الظروف وطأة يمارس صلواته فى صفوف منتظمة بقوة وإصرار وإيمان ، تحت طلقات الرصاص ، و زخّات الغاز وخراطيم المياه.

٥- اكتشف الشعب ومعه العالم الخارجي أيضا أن العداء الطائفي والاضطرابات الطائفية بين المسلمين وبين المسيحيين كانت عناصر دخيلة، تلاعبت بها السلطة البائدة وروجت لها ، بل دبّرت لأحداثها وصنعتها صناعةً، لتشغل طوائف الشعب بصراعات غير أصيلة فى بنيته الاجتماعية. لقد أثبتت الثورة أن المسلمين والمسيحيين يمكن أن يتعايشوا معا بسلام وأن يحيوا معا بحرية فى وطن واحد متعاونين لا متخاصمين.

٦- اكتشف الشعب أنه رغم تعدد الأحزاب والتوجّهات السياسية والفكرية يمكن أن يجتمع على أمور ومبادئ وطنية مشتركة، وأن يناضل الجميع من أجل تحقيقها..

هذه إذن تحوّلات جذرية كبرى فى فكر الشعب الثائر .. استطاع من خلالها أن يكتشف نفسه ، ويجرّب قدراته ومواهبه، وأن يعرف على وجه التحديد من هم أصدقاؤه الحقيقيون الذين دعّموه وواجهوا معه الأخطار وضحّوْا بحياتهم فى سبيل ثورته ، ومن هم أعداؤ ه، ومن هم المنافقون..

أما كيف ستنعكس هذه الأفكار المختزنة فى وعيه، وكيف ستتبلور فى سلوك وثقافة مُعَبّر عنها تعبيرا واضحا، فهذا ما سوف نراه فى قادم الأيام.. ولعل بعض إرهاصات هذا التحول الأوّليّ قد برزت فى نتيجة الاستفتاء الشعبى على التعديلات الدستورية...!

عندئذ يمكننا أن نتحدث باطمئنان عن ثقافة ثورية جديدة قادرة على التحدى والبقاء.. ثقافة تعكس هذه القيم والخصائص التى كشفت عنها الثورة وأزاحت عنها الصدأ الذى علق بها خلال عقود طويلة من المعاناة والاستنزاف..

وكان من الممكن أن تبنى النخبة المثقفة على هذه القيم الجديدة التى اكتشفها الشعب وبلورها فى ثورته.. ثقافة جديدة تعبرُ به المرحلة الانتقالية بقوة ووعي، وتقوده فى مرحلة التطور الديمقراطى إلى مستقبل أفضل يستطيع فيه أن يحقق طموحاته وتقدمه ورخاءه..

ولكن الذى حدث كان عكس ذلك تماما فقد انحازت النخب المثقفة فى أول ممارسة ديمقراطية حقيقية إلى القوى الرافضة لاستفتاء الشعب على التعديلات الدستورية.. وعادت بكل شراستها التقليدية لتطلق نيرانها على معسكر التيار الإسلامي وتعتبره المسئول عن كل ما أصاب ويصيب مصر من كوارث ..

لقد اكتشفنا من هذا الموقف المخزى للنخبة المثقفة أنها جزء لايتجزّأ من القوى المعادية للثورة، المعادية للديمقراطية ولحرية الشعب فى تقرير مستقبله.. وهى تحاول بدهاء شديد أن تحرف الثورة عن مسارها الأصيل.. وأن تلتف على منجزاتها تحت شعارات وطنية مصطنعة من الديمقراطية والليبرالية..

خطورة هذه القوى أنها متمرّسة بالتعامل مع الصحافة والكتابة وأجهزة الإعلام .. وقد شكّلت غالبية منها كيانات ونخب اعتادت على احتكار العمل الثقافي فى ركاب السلطة البائدة، وكانت المهيمنة على المشهد الثقافى، المروّجة لتوجهات السلطة المدافعة عن أخطائها، وتضليل الجماهير بأكاذيبها وافتراءاتها ونفاقها.. فى غيبة شبه تامة من المعارضة الإسلامية المقموعة والمحظورة ..

كانت نتيجة الاستفتاء على التعديلات الدستورية، بمثابة الشرارة التى أشعلت النار فى المشهد الفكري والثقافي بأكمله ؛ ذلك لأن هذه النتائج لم تكن مفاجئة فحسب بل كانت صدمة قاسية لكل من راهن على رفض الشعب لهذه التعديلات.. فى أعقاب ذلك بدأت عملية فرز شاملة واستقطاب ، وعودة إلى الصراع والهجوم على التيارات الإسلامية ، التى اتُّهمت بجريمة تضليل الشعب وتوجيهه ضد مصلحته، على افتراض أن من يفهم مصلحة الشعب ويعمل على صيانتها هم وحدهم النخب الثقافية والإعلامية التى قادته وهيمنت على الرأي العام عقودا طويلة فى ظل نظام دكتاتوري مستبد تسلطت على الشعب فيه

أجهزة الأمن لتحمى عصابة من أصحاب رأس المال اللصوص.. وتعززه نفس أجهزة الثقافة والصحافة والإعلام التى لم تتغيرحتى هذه اللحظة فى جوهرها عما كانت عليه فى الماضى..

عُدنا إذن إلى الموقف التقليدي الذى اتخذته النخب المثقفة العلمانية دائما من التوجّهات الإسلامية، ولكن هذه المرة بأسلوب أشد شراسة وأكثر حدة.. ربما لأن هذه النخب فقدت مظلة السلطة السياسية التى كانت تحتمى بها، ويئست من أن تحظى بأغلبية شعبية عبر صناديق الأقتراع، ولخوفها من أن تأتى الانتخابات بحكومة ذات توجّهات اسلامية، ومن ثَمَّ لا تفقد امتيازاتها الموروثة فحسب، ولكن أيضا وبصفة خاصة لهاجس مُلِحٍّ: أن تتعرض لانتقام من التيارات الإسلامية التى افترت عليها وحرّضت عليها السلطات القمعية البائدة..

ولكى تكتمل صورة الصراع الثقافي لا بد من الإشارة إلى عنصر أجنبي قد هبّ لدعم صفوف النخب العلمانية الثقافية والسياسية، مستغلا أزمة مصر المالية إذ طرح ملياريْ دولارمساعدات يخصص منها مئات من الملايين لتدعيم الديمقراطية فى مصر حسب زعمه، يقدمها مباشرة لجمعيات أهلية يختارها بنفسه من خلف ظهر الحكومة المصرية ودون إشرافها .. حتى لا يعرف أحد من هم المستفيدون من هذه الأموال.. وما هو المقابل الذى يُتَوَقّع منهم دفعه ...؟!

أرجو أن أكون قد استطعت عرض أهم عناصر صورة الصراع الفكري والثقافي الذى تشنه القوى العلمانية على التيارات الإسلامية فى مصر... وبهذا يمكننى أن أنتقل إلى النقطة المنطقية التالية:

إذا كانت النخب الثقافية فى وادٍ وكانت الجماهير بعقيدتها وطموحاتها فى وادٍ آخر فماذا تكون النتيجة...؟ والإجابة الفورية المباشرة: النتيجة -بغير تفصيل- كارثة..؟

وكما أشرنا من قبل: لقد لاحظ المفكر الإسلامي على عزت بيجوفيتش هذه الفجوة، وأدهشه أنها تنطبق على جميع البلاد المسلمة فأطلق هذه العبارة:

"هذه الفجوة المأساوية بين النخبة وبين الشعوب في البلاد المسلمة هي أحد أسوأ الملامح في وضعنا العام ..."

ونحن نرى مع بيجوفيتش أنه لا أمل فى نهضة المجتمعات المسلمة، طالما بقيت هذه الفجوة بين نخبة مثقفة تحاول القفز على عقيدة الأمة، وبين الأغلبية العظمى من الجماهير الرافضة لبرامج إصلاحية تتصادم مع عقيدتهم وطموحاتهم الحقيقية..

يرى بيجوفيتش ونرى معه أن ما جاء به دعاة الحداثة فى الثقافة والحكم إلى عدد من البلاد المسلمة يعتبر -كقاعدة عامة- اتجاهاً لا دينيا يعزِّزونه بشعارات تنادى بفصل الدين عن الحياة السياسية والاجتماعية، وهذا مايثير شكوك الجماهير المسلمة فى صدق انتمائهم لأمتهم، ويدفعها إلى السلبية وعدم المبالاة؛ وهنا تكمن مأساة العالم المسلم..

هذه حقيقة لا يمكن أن تعترف بها النخبة الحاكمة، أو النخبة الفكرية التى تدعّمها لأنها نخب طفيلية متعالية لا يمكن أن تفهم أو تعترف بقيمة الجماهير وأهميتها فى نجاح أى برنامج أو مشروع، بل تنظر إلى الجماهير نظرة دونية وتعتبرها مجرد كتلة من العضلات لا فكر لها ولا رأي، قاصرة عن أن تدرك حقيقة مصالحها، بل يمكن أن تصيب نفسها بالأذى إذا ما تُركت تتصرف على حريتها، كطفل قاصر يصر على اللعب بالأدوات الضارة..

ولو ذهبت أعمق قليلا فى تحليلك لموقف النخب المصرية من الاستفتاء على التعديلات الدستورية لرأيت بوضوح أنهم يعتبرون صناديق الاقتراع من اللعب الخطيرة التى لا يصح أن يقترب منها الشعب إلا تحت وصايتهم، وإرشاداتهم، فإذا أصر الشعب المشاغب على استخدام حريته فى التعامل مع هذه الصناديق فمن حق النخبة ان تزيح هذه اللعب الخطيرة من أمامه...!

إنهم لم يدركوا ولم يستوعبوا بعدُ سر النفور الجماهيري منهم.. لأنهم لم يستوعبوا حتى الآن أبعاد الجريمة المزدوجة التى ارتكبوها فى حق هذا الشعب المسلم: جريمة احتقاره والتهوين من شأنه والتشكيك فى أهليته، وجريمة

الهجوم على عقيدته والسخرية من رموزها، وتشويه تاريخ الإسلام والحط من مثله العُلْيَا وقِيَمِهِ التى يعتز بها المسلمون.

لا أحد ينكر أن الدولة الإسلامية والحضارة الإسلامية قد مرّتا بفترات ازدهار وفترات ضعف وهزائم.. و لكن الذى يفحص الواقع الإسلامي بدقة وإخلاص سوف يتبين له حقيقة مذهلة مقادها: أن ضعف تأثير الإسلام في الحياة العملية للمسلمين كان مصحوبا دائما بانحطاطهم وانحطاط مؤسساتهم السياسية والاجتماعية.. و كان هو سبب هزائمهم المروّعة على يد المغول والصليبيين.. ثم الاستعمار الغربي.. وعلى العكس من ذلك: كان حضور الإسلام القوي والفعال فى المجتمعات المسلمة يصحبه دائما الخروج من العثرات والهزائم والعودة مرة ثانية إلى طريق القوة والازدهار..

إن الشعوب المسلمة لن ترضى بأي شئ يخالف الإسلام، لأن الإسلام ليس مجرد مجموعة من الأفكار والقواعد والقوانين، وإنما هو أيضا إيمان روحي يتغلغل فى المسلم إلى مكامن حبه وعميق مشاعره، وكل من ينهض ضد هذا الدين لن يجنى من عمله سوى الكراهية والمقاومة...

ولسنا نرى في الأوضاع الراهنة إمكانية حدوث أي توافق بين الجماهير المسلمة وبين المثقفين والمفكرين والسياسيين المستغربين ؛ فلا أحد من الجانبين لديه الاستعداد لكي يتخلى عن موقفه مهما طالت حالة التوقع والحيرة . ولكن هناك طريقا واحدا للخروج من الأزمة وهو تكوين نخبة جديدة تفكر إسلاميا وتشعر إسلاميا .. هذه النخبة سترفع راية النظام الإسلامي مع الجماهير المسلمة وتتخذ الخطوات العملية لتطبيقه..

دعنى فى ختام هذه المقالة ألقي بعض الضوء على ما أقصده بالتحديد:

أولا: النخب المثقفة التى تسيطرعلى شبكة الصحافة والإعلام والتوجيه لا أمل فى أن تتغير أو أن تقترب من روح الجماهير المسلمة وتطلعاتها، وهى عاجزة بطبيعتها عن أن تقود أو أن تشارك هذه الجماهير فى بناء مستقبلها.

ثانيا: سوف تتجاوز الجماهير هذه النخب لا محالة بإصرارها على التطور الديمقراطي والاحتكام إلى صناديق الاقتراع الحر النزيه.. ولكن ستبقى مشكلتها التقليدية: البحث عن نخبة مثقفة ذات ضمير إسلامي حي تتفاعل معها بإخلاص، وتمنحها ثقتها وطاقتها لبناء مستقبل مصر الجديد..

ثالثا: على القوى الإسلامية أن تخرج من قوقعتها التقليدية لتنطلق طاقات شبابها الابداعية الكامنة، فى كل المجالات الثقافية والأدبية والمسرحية.. وأقصد بالقوقعة التقليدية للشباب أنهم لا يرون لتصريف طاقاتهم التعبيرية إلا فى مجال واحد، هو أن يكونوا دعاةً واعظين، ومن ثم يبذلون كل جهدهم بعد التخرج من الجامعة فى تحصيل العلم الشرعي بكلية الشريعة، أو فى الالتحاق بمعاهد الدعاة، وأقصى حلم الشاب هنا أن يكون واعظا فى مسجد.. وليس لى أي اعتراض على هذا الاتجاه من الشباب أو غيرهم..

ولكنى أريد أن أرى عددا من الشباب المسلم الموهوب يُقبلون على دراسة الإبداع الأدبي والدراما والمسرح والصحافة والإعلام، وغير ذلك من فنون الثقافة.. أريد منهم أن يقتحموا هذه المجالات بقوة وبروح إسلامية لا تقنع بالقشور ولا تخشى المنافسة بل تطمح إلى اللباب والتفوق فى هذه المجالات..

لا ينبغى أن يتقاعس الشباب المسلم عن اقتحام هذه المجالات، حتى نرى أدباء مجيدين، يكتبون لنا الشعر والقصة القصيرة والرواية والمسرحية، ويكتبون سناريوهات لأعمال درامية متلفزة تجتذب الجماهير بدلا من حثالة المسلسلات التى تُعرض على الناس صباح مساء، نريد نخبة جديدة من المثقفين أصحاب الضمائر الحية تعرض القيم الإيجابية فى هذا المجتمع العظيم بأسلوب فني متميّز، لا تتصادم مع روحه ولا تخدش حياءه. نريد متخصصين فى كتابة قصص أطفال متميّزة.. تجتذب اهتمام أطفال المسلمين والاطفال المصريين بصفة عامة.. قصص تعزز الانتماء للقيم الروحية والوطنية..

إن تاريخ العروبة والإسلام حافل بالشخصيات العظيمة، وحافل بالأحداث الكبرى، التي يمكن أن تنعكس فى أفلام وروايات ومسلسلات وأعمال غنائية جماعية رائعة؛ تهز المسارح.. وتهز القلوب والعقول.. وتبعث

العزة والحماسة، وتلهج بها أَلْسِنَة الجماهير.. أعمال فنية ترقق المشاعرالإنسانية، وتحفز الناس على الاقتداء بالنماذج رفيعة المستوى فى تاريخهم العربي والإسلامي .. نريد فضائيات جديدة لا تقتصر على الوعظ والسرد المملّ، فضائيات تجيد عرض الأعمال الفنية والدرامية النظيفة..

لا تتركوا هذه الساحة الخطيرة أبدا، ليحتكرها السُّكارى والشواذ والعابثون والتافهون والسفهاء: من الشعراء والأدباء والصحفيين والإعلاميين، الذين لا ينتمون لروح هذه الأمة، ولا يقدّرون قيمتها الحضارية ومكانتها الحقيقية فى هذا العالم.. واجعلوا روح ثورة ٢٥يناير بداية لانطلاقة التغيير فى هذا المجال المهجور من فرسانه الحقيقيين...

****

تأملات في الهجرة النبوية

مقال بعنوان " تأمّلات في الهجرة النبوية" سطّره فيلسوف الإسلام المجاهد رئيس البوسنة الأسبق على عزت بيجوفيتش .. وكتب تحته بقلمه: "انتهيت من كتابة هذا المقال في شهر مارس ١٩٧٨م" ، لم يعْتد الرجل أن يفعل هذا مع مقالاته الكثيرة الأخرى، وهذا دليل على أنه يعلّق أهمية خاصة على موضوع هذا المقال .. يقول:

"الحقائق التاريخية التى عادةً ما نسميها بالهجرة معروفة لجميع المسلمين، وخلاصتها: أن جماعة من المسلمين بقيادة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم أُجبروا على ترك ديارهم في مكة وهاجروا إلى يثرب .. تركوا وراءهم كل ما كانوا يملكون، ولم يحملوا معهم سوى إيمانهم بالله الواحد الأحد .. وقع ذلك في السنة الثالثة عشرة من البعثة النبوية، أي فى شهر سبتمبر ٦٢٢ ميلادية ..

هذه الواقعة التي كانت ومازال مصدر إلهام لخيال البشرية، تم تدوينها فى روايات مفصّلة تتضمّن كثيرا من الأحداث المثيرة ، فلا شك أن قصة الغار كانت أكثر هذه الأحداث إثارة لخيال المسلمين عبر التاريخ ؛ وقد حملت إلينا كتب التراث قصصا تداولتها الأجيال عن الغار الذى أوى إليه النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبو بكر.. مثل قصة العنكبوت الذي نسج بيته ، وقصة الحمامة التى وضعت عشها وبيضها على باب الغار .. وكيف وصل الكفار إلى الغار ولكنهم ضلّوا عن هدفهم ..

إلا أن حقيقة ما حدث فى الغار كانت أعجب وأرسخ فى ذاكرة التاريخ الإنساني ؛ ففي تلك اللحظات المصيرية الفارقة بين الموت وانتهاء الرسالة، وبين الحياة واستمرارها قال النبى (صلى الله عليه وسلم) عبارته الشهيرة لرفيقه وصاحبه أبي بكر ليهدّئ من روعه "لا تحزن إن الله معنا".. وهي العبارة الخالدة التى سجلها القرآن العظيم فى آية يتعبّد بها المسلمون إلى يوم القيامة: { إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ

لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }.

تتملكنا اليوم حيرة شديدة -ونحن نتفيّأ ظلال الهجرة النبوية - أيّ معنًى من معاني الهجرة الخالدة ، مما يجب أن نبرزه بصورة خاصة عندما نتأمل هذه الواقعة وآثارها الفذّة في تاريخ الدعوة الإسلامية ..!؟، أي معنًى من معاني هذه الهجرة يجب أن نستدعي إلى ذاكرتنا، ونحن نتأمل الأحداث الفارقة [عبر أربعة عشر قرنًا من الزمان] .. فنتساءل: في أي حدثٍ من أحداثِ الهجرة تكمن الأهمية الكبرى..؟ هنا تتفرع بنا احتمالات كثيرة ؛ حيث يمكننا الحديث على سبيل المثال: عما كانت تعنيه الهجرة النبوية لتقدم الفكر الإسلامي باعتباره منهج حياة .. والاحتمالات كثيرة يصعب حصرها.. وفي كل منها سنتيقن من جديد أن الهجرة كانت نقطة فاصلة في التاريخ الإسلامي كله، يقول بيجوفيتش:

هنا ينبغي أن نتذكر دائما أن أهم لحظة -على مدى ثلاثة وعشرين سنة من بدء نزول الوحي بالقرآن الكريم- كانت هي اللحظة التى أذن الله فيها بالهجرة النبوية ، فهي تعني لتاريخ الإسلام ما يعنيه شروق الشمس على الكون الفسيح كله ؛ فعلى الرغم من أن فجر الإسلام كان قد أسفر فى مكّة مع نزول الوحي الأول، ولكن لم تشرق الشمس بكل ضيائها إلا فى المدينة، فمع الهجرة تحول الإسلام من حركة روحية محضة إلى جماعة إسلامية .. لتتحول منها إلى بدايات لتشكيل المجتمع والنظام والدولة .. لذلك إذا أردتم الوقوف وجها لوجه مع أسرار الإيمان بالله ، وأن تغوصوا في البحر 'اللّجي للإيمان، فعليكم بقراءة بعض السور القرآنية المنزّلة فى مكة المكرمة، ولكن إذا أردتم معرفة الإسلام باعتباره مجموعة القوانين أو نظام الدولة فلا يمكنكم الوصول إلى ما تريدون إلا إذا بدأتم تتأملون بإمعان فى السور المدنية."

"أما واقعة الهجرة النبوية في حد ذاتها فهي حلقة الوصل بين مرحلتي مكة والمدينة، وهي مَعْلَمٌ في هذه الطريق .. وجبل مشرف ترون منه المرحلة التي قبله والمرحلة التي بعده .. هاتان المرحلتان المتميّزتان تكوّنان معًا ما نسميه

بالإسلام، لذلك تظل واقعة الهجرة هي المرحلة الحقيقية الأولى لعصر جديد .. عصر الإسلام الكامل المتكامل .."

هذه بعض أهم التأملات الواقعية فى الهجرة النبوية .. ولكن يمكن أن نلاحظ هنا شيئا آخر على نفس الدرجة من الحقيقة والواقعية، لنتخذ منه العبرة فى حياتنا الراهنة .. نعم لقد هاجر المسلمون من مكة ولكنهم عادوا إليها ...!! عادوا إليها بعد ثمانيةِ أعوام فقط، ولكن أي عودة ..!؟ لقد عادوا فاتحين منتصرين .. عادوا ليحوّلوا قبلة الشرك والخرافة إلى القبلة العالمية لدين الله الحق .. فعندما خرجوا من مكّة أول مرة تحت إرهاب المشركين كانوا أقوياء روحيا ولكن ضعفاء ماديا .. فلما عادوا إلى مكة كانوا أقوياء روحيا وماديا معًا..

هنا إذن وبهذا المعنى تبدو رسالة الهجرة واضحة جليّة: لقد هاجر المسلمون لا فرارًا من الموت كما تهرب الفرائس مذعورة من الصيادين .. ولكنهم هاجروا ليستعدوا للعودة .. هذه هي الهجرة الحقيقية..! و كلّما أمعنّا النظر في الهجرة النبوية استأثر بمجامع أفئدتنا جانبها الجُوّاني .. الجانب الإنساني للهجرة، لا الجانب البرّانيّ، وذلك لأن المعالم التاريخية لهذا الجانب الإنساني بدأت تضعف فى ذاكرتنا وتتلاشى مع مرور الزمن .. وبدأنا نبذل جهودا مضنية لنميز بين وجوه أولئك الصحابة الذين شاركوا فى هذه الرحلة الشهيرة .

يقول على عزت بيجوفيتش: " إن أسمى وأعظم حقيقة في هذه الهجرة هي هؤلاء الرجال و إخلاصهم لله وتضحياتهم من أجل الإسلام ...! ولا يسع الإنسان إلا أن يتحسّر على كونه لا يملك حِسًّا شاعرِّيًا مرهفًا؛ ليرطّب هذا الوصف الجاف بقصيدة معبّرة حافلة بأعمق مشاعر القلب والوجدان؛ عن جيل من الشجعان الأفذاذ الذين عاشوا بالإسلام وللإسلام، ولكن حتى من غير هذه المَلَكة الشاعرية تتوارد الأسئلة من تلقاء نفسها : من كان هؤلاء الرجال الذين تركوا ديارهم لمجرد أن دعاهم النبي – صلى الله عليه وسلم- إلى ذلك..!؟ وراحوا يبحثون عن ديار جديدة للإسلام قبل أن يبحثوا عنها لأنفسهم ..!؟ ماذا كانت حقيقة أولئك الرجال..!؟ لماذا يختلفون عنا كل هذا

الاختلاف...!؟ وخاصة هذا السؤال: من نكون نحن عند مقارنة أنفسنا بهم...!؟"

قد نجيب عن أكثر هذه الأسئلة بمشقةٍ ، وعلى الأخص السؤال الأخير ، لأن الأجوبة ستكشف أمام وعينا عن هزيمة شخصية مطلقة لنا .. فإذا كانوا هم المسلمون الحقيقيون ، فهل نحن اليوم مسلمون حقًا ..!؟ وهل من حقّنا الادّعاء بأننا نتتمي إلي شجرة هذه الدوحة الإسلامية العظيمة الرائعة .. ؟

لقد كانوا مثلنا: نطقوا بشهادة الإسلام : "أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله !!" و لكن بينما نحن نردد الشهادة مجرد ترديد باللسان كانوا هم يعتقدون فيها ويوقنون بها يقينا لا شبهة فيه، وقد أكدوا انتماءهم لهذه الشهادة في حياتهم بتضحياتهم الرائعة .. وبهِجْرتهم من أرضهم .. وبكل ما ترتّب على تلك الهجرة من مشقّات وتضحيات .. أما نحن فعلي نقيض ذلك ، نؤكد كل يوم (بتخاذلنا وسلبيتنا وسعينا وراء النجاح المادّي، وراء المنصب والمال والسمعة) نؤكد بأننا لا نصدّق إلا بما نراه بأعيننا وتلمسه أيدينا ..

لقد ضحوا هم بحياتهم من أجل الإسلام ونصرته ورفع شأنه ، وعاشوا حياتهم كلها للإسلام ، بينما نحن نموت من الخوف ومن السكتة القلبية، ومن حوادث المرور، ومن السمنة والترهل والأزمات العصبية ، ونعيش من اليوم للغد ..! وبعبارة موجزة ، كان الصحابة لا يخشون إلا الله ، وأما نحن فلا نخشى إلا الناس..!؟ وهكذا ترى الفرق بيننا وبينهم شاسعا مذهلا .. كالفرق بين السماء والأرض ، والنتائج المترتبة على هذين الموقفين كذلك شاسعة ومذهلة ..!.

عندما نتأمل ابتلاء الجيل المسلم الأولي ومحنه -وكانت الهجرة واحدة من تلك المحن- قد يتساءل كثير منا : ما السّر في ابتلاء الله لهذه العصبة من المؤمنين مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ... ؟ وقد تحملوا قبلها صنوفًا من الأذى والبلاء .. خُتمت بثلاث سنوات كاملة من الحصار والمقاطعة والجوع ، ثم أُجبروا أخيرًا على ترك ديارهم ومدينتهم ..؟ إن الله عز وجل -وهو العزيز القادر- يستطيع بكلمة واحدة أن يهلك المشركين ويدمّر قوتهم، أو يرسل عليهم

المرض أو يقذف في قلوبهم الرعب والوهن إن شاء، أو يزيل بطريقة أو بأخرى جميع العوائق عن طريق هذه العصبة المؤمنة التي كانت تسبّح باسمه -جل شأنه- بكل هذا الحب العظيم ، ليكون طريق رسالتهم سهلًا مُيسّرًا ..!؟ ولكن الله لم يشأ أن يقضي بذلك ، بل ابتلى هذه الجماعة الصغيرة بكل هذه المحن القاسية التي سمعنا عنها كثيرًا .. لماذا ..!؟

يجيب علي عزت بيجوفيتش قائلا: يبدو أنّنا لا نملك إلا تفسيرًا واحدًا وهو: أن الله -وهو رحيم قادر- أراد التمييز بين الصادقين وغيرهم، بين المخلصين والمنافقين ، بين الثابتين والمتذبذبين .. وذلك لأن الوضع العالمي العام كان يتطلب تطهير العالم وتغييره وتنظيمه على أسس جديدة .. لقد وصلت الإنسانية وحضارتها في ذلك الوقت إلى أقصى نقطة من الانحراف والتّردّي؛ وكان لابد من مرور المحراث الحديدي ليطهّر كل هذا العفن و يزيل المستنقعات وينظّف التربة .. لتنبت بذرة حضارة جديدة في أرض صالحة. فمن الذى كان فى مقدوره أن يحمل هذه الرسالة..؟ لم يكن ذلك في مقدور أي جيل عادي ، بل كان لابد من جيل يستحق شرف هذه الرسالة .. وقد اختار الله لذلك الشرف جيل الهجرة دون سواهم .. إنهم أكدوا استحقاق ذلك الشرف التاريخي الفريد ؛ لإخلاصهم لدين الله واستعدادهم للتضحية فى سبيله .

لا يتسع المجال هنا لذكر كل التحولات العظيمة التي حدثت بعد ذلك على مسرح التاريخ في العالم وقتئذ: فقد انهارت إلى الأبد أكبر دولتين عُظميين في العالم ، ونشأت مدن جديدة، واجتاحت العالم نهضة أخلاقية هائلة، واكتشف الإنسان مجالات جديدة في عالم العلم والمعرفة ؛ بإيجاز شديد نشأت حضارة جديدة .. وأشرقت على الدنيا شمس جديدة، حضارة الإسلام وشمس الإسلام..

يقول علي عزت بيجوفيتش: " لعلنا هنا نستطيع أن نؤكد بأن بذرة هذه الحضارة الجديدة كانت هى العصبة القليلة من المسلمين ، التي هاجرت سنة ٦٢٢م إلي المدينة ، وأنه لم تكن في العالم كله آنذاك جماعة تتساوى معها أوترقى

إلي مستواها .. لقد كانت تحمل في قلوبها الإيمان الخالص بالله ، وكانت كل قوتها متمركزة في هذا الإيمان، و في هذا الإيمان وحده ... !!"

ويتابع بيجوفيتش متسائلا: " هل علينا أن نطرح من جديد ذلك السؤال التقليدي : ما العبر والدروس المستفادة من الهجرة النبوية ...؟ وتلك كانت إجابته .. وهي إجابة تتردد بين الحقيقة والتساؤل .. ذلك لأننا إذا أخذنا بلُبّ هذه الواقعة (واقعة الهجرة) فلابد أن يتحول هذا السؤال إلى أمر واقعي .. اليوم مثلما كان بالأمس: هل سأجاهد من أجل الإسلام، أم سأكتفي بالتفكير في أموري الشخصية فقط ...!؟ لقد حسم المسلمون الأوائل موقفهم بكل حزم ووضوح، وتصرفوا على هذا الأساس .. أما بالنسبة لنا اليوم فإن السؤال يطرح نفسه من جديد ربما بلغة عصرنا:

هل سأعمل للخير العام ولمستقبل الإسلام ، أم سأعمل فقط لمنفعتي الخاصة ..!؟ هل سأعمل لخير أبنائي أنا فقط أم سأعمل لمستقبل أطفال العالم بأسره؛ في هذا المناخ المتعفّن الملوّث بثقافات منحطة .. المتعطّش في نفس الوقت لثقافة الإسلام وروحه العالية المتسامية ...؟ هذا هو السؤال ...! إننا في هذا العصر نقف جميعًا كل يوم أمام تساؤلات كثيرة عن معنى الهجرة ودروس الهجرة .. ويبقى السؤال الأساسي هو هو في الماضي وفي الحاضر على السواء ، ولكن الإجابات تختلف فيما بيننا كأفراد ومجتمعات .. وعلى كل واحد منا أن يجيب على هذا السؤال .. أن يجيب أمام نفسه وأمام الله: هل أنا مسلم حقاً..!؟".

****

تأبط شرًا: لا مرحبا بك..!

"تأبَّطَ شرًّا" تبدو لك: جملة فعلية مفيدة؛ فيها الفعل والمفعول به، والفاعل (ضمير مستتر تقديره هو)، فلا يمكن أن تفكر بأن هذا إسم لشخص، ولكن عبقرية العقل العربي -وهي ترصد فى مجتمعاتها الظواهر الإنسانية بالغة الشذوذ- تقدّم لك الشخص فى كبسولة مختومة باسم يحمل أخص خصائصه.. تلتصق به أينما ذهب فلا يستطيع أن يتخلص منها.. وكأنها تقول لك: إحذر هنا خطر فلا تقترب منه..

هى إذن قصة واقعية لشخص حقيقى سجلها تاريخ الأدب العربي: الإسم الذى اشتهر به هو "تأبَّط شرًّا".. وكان واحدا من أبرز شعراء الصعاليك؛ له ديوان شعر وله مغامرات وغزوات بين قبائل العرب فى عصر الجاهلية ؛ كان اسمه عند مولده (ثابت بن جابر الْفَهْميّ) توفي نحوسنة ٥٣٠ م .. لقبيلته كما ترى إسم غريب؛ هو (قبيلة فَهْم) وكأنه يتحدّى الواقع السائد هذا الزمن الذى أصبح فيه الفهم أندر من الكبريت الأحمر.. ولأنه صعلوك لا مهنة له يتكسّب منها كان يسطو على جيرانه من قبيلتي هُذيل وكنانة..

ربما تكون هذه القصة رغم سوء ما تنطوى عليه أهون كثيرا من الاصطخاب السياسي الدائر فى مستنقع الصحافة والإعلام.. بغير عقل وبغير منطق إلا الادعاء والافتعال والكذب.. بل ربما تكون أدعى إلى الترويح عن النفس من الخوض فى هذا المستنقع..

قبيلة [فَهْم] العدنانية لاتزال موجودة الى الآن بأرض الحجاز.. أما "ثابت" فكانت أمه امرأة يقال لها: أُمَيْمَة .. ويقال أيضا أن "ثابت" هذا لم يحتفظ باسمه طويلا فقد حدثت له حادثة أفقدته هذا الإسم: ذكر الرواة أنه رأى كبشًا في الصحراء فحمله تحت إبطه.. فجعل يبول عليه طول طريقه.. فلما اقترب من الحيِّ ثقل عليه الكبش فَرَمى به.. فإذا هو الغول.. فقال له قومه: ما تأبّطْتَ يا ثابت..؟ قال: الغول، قالوا: لقد تأبّطْتَ شرّاً.. فسُمّيَ بذلك..

وفى رواية أخرى أن أمّهُ قالت له: "كل واحد من إخوتك إذا راح يأتيني بشيء إلا أنت.." فقال لها: "سآتيك الليلة بشيء"، ومضى فصاد أفاعي كثيرة..

من أكبر ما قَدَرَ عليه.. ثم أتى بهنّ في جراب متأبّطًا له [يعني حمله تحت إبطه].. فألقاه بين يديها ففتحته لتفاجأ بمنظر الأفاعى وهى تسعى فى بيتها... فزعت المرأة من الأفاعي وخرجت تُوَلْول.. فقل لها نساء الحيّ: ماذا أتاك به ثابت..؟ فقالت: أتاني بأفاعٍ في جراب .. قلن: وكيف حملها..؟ قالت: تأبّطها.. قلن: لقد تأبط شرًّا .. فلزمه هذا الوصف وأصبح له لقبا لا يفارقه...

عاش تأبّط شرًّا حياته شاعرا صعلوكا لا تنتهى شروره ؛ فقد كان يعيش من السطو على الخيام والبيوت.. ولم يتورّع فى ذلك عن قتل من يلقاه فى طريقه ولو كانوا نساءً أوأطفالًا.. ولم يسلم من خيانته وغدْره حتى الذين أكرموه وأحسنوا إليه.. ولقد لقي مصيره العادل ؛ إذْ قُتل أثناء إغارته على هُذيل.. ثم وُجِدَت جثته مُلْقاةً فى مغارة مهجورة بالصحراء.. والعجيب أنه كان ينكر عن نفسه الشر وينسبه دائما إلى الآخرين .. استمِعْ إليه وهو يقول:

ولا أَتَمَنّـى الشّرَّ والشَّرُّ تاركـي ::: ولكنْ متَى أُحْمَل على الشّر أرْكَبُ

بمعنى أنه لا يسعى إلى الشر بنفسه.. إلا إذا حمله أو دفعه إليه آخرون.. هو كذَّاب طبعًا لم يصّدِّقه أحد فى الماضى ولا نصدّقه نحن الآن.. فهو نفسه شر لايسعى إلا لشر ولا يأتى منه إلا الشر.. وأينما تُوَجِّهُهُ لا يأتِ بخير ..

لا بد أن نستكمل الجانب الأسطوري الذى لحق بهذه القصة؛ فلقد قيل إن تأبط شرًّا كانت له زوجات فى السِّر لا يعرفهن إلا القليل من الناس.. وأن من سلالته أناس لا يزالون أحياءً: منهم واحد فى الخليج إسمه خلفان، وآخرون هاجروا إلى أوربا: منهم اثنان من قبيلة تسمَّى "قُضاة" [لا تخلط بينها وبين قُضاعة] اكتشف الزند حديثا أحدهم فى النمسا وعرضه فى الإعلام كواحد من مناصريه ضد الأعداء.. وسار على نهجه سامح عاشور؛ إذ يقال أيضا إنه اكتشف واحدا آخر من القبيلة نفسها فى محكمة دولية..

فى الحقيقة "تأبّط شرًّا" لم يفارقنا؛ فهو لايزال إلى اليوم موجودًا بيننا.. قد يتخفَّى تحت أسماء مختلفة.. وقد يخرج علينا كل يوم وعلى وجهه قناع جديد.. لرجل أو امرأة.. ودائما ما ينتحل وظيفة مهمة: فهو إعلامي مرة وسياسي أو

ناشط سياسي مرة أخرى.. وهو محامى شهير أو قاضي كبير أو رئيس نادى القضاة..أو فقيه قانوني أو خبير استراتيجى.. أو أكاديمى أستاذ فى السياسة فريد فى نوعه.. أو زعيم شباب الثوار.. أو زعيم حزب جبهة إنقاذ.. أو حتى شمشون الجبار الذى سيهدم المعبد حتما ليلا أو فى عزّ النهار..

ولكن مهما تخفّى عنك "تأبط شرًّا" فلن يخدعك.. ولسوف تتعرَّف عليه حتما من كلامه ومن سلوكه النمطيّ الذى لا يتغير: إذا تحدَّث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤْتُمِنَ خان. وتراه إذا جلس أمام الكاميرا كشَّر عن أنيابه وارتفع صوته ولعبت حواجبه استنكارًا.. وتشنجت أسارير وجهه.. يتوعّد دائما ويهدّد بالويل والثبور وعظائم الأمور..

لم يعد "تأبّط شرًّا" فردًا واحدًا ، بل أصبح فى زماننا جبهة عريضة ؛ و "جبهة تأبط شرا" لا تيأس أبدًا ولا تهدأ أبدا ؛ بضاعتها الكذب والتضليل وتشويه الحقائق وتشويه الأبرياء وإلصاق التهم الزائفة بهم.. ولها خبرة وباعٌ طويل فى شلّ حركة المرور.. وتعطيل القطارات.. وإيقاف عجلة الإنتاج فى المصانع.. وكل يوم يخترعون سببا جديدا لمواصلة التخريب والعصيان وتعزيز الثورة المضادة..

فإذا أعوزتهم الحيلة وتخلَّت عنهم جماهير الأمة وشعروا بالخُذْلان لجأوا إلى القوى الخارجية الكارهة لثورة الشعب.. الكارهة لاستكمال مؤسساته الدستورية؛ يستنجدون بأمريكا والاتحاد الأوربي لحصار مصر اقتصاديا تارة، ويحرِّضون الجيش للانقلاب على السلطة الشرعية المنتخبة تارة أخرى ..

لم ينشغلوا أبدا بهموم هذا الوطن الحقيقية، ولا بمساعدته على تحقيق استقلاله.. أوعلى الوصول إلى الاكتفاء الذاتي فى إنتاج غذائه.. ولا قدّموا مشروعًا مفيدا، ولا مجرد اقتراح لإصلاح هذا الوطن المنكوب بهم.. وإنما شغلوا الناس طول الوقت بعمليات عجيبة ومشروعات أعجب: جمع توقيعات تحض الجيش للانقلاب على السلطة المنتخبة.. فإذا فشل المشروع انتقلوا إلى مشروع آخر من نوعه: جمع توقيعات لإسقاط الرئيس فى حركة جديدة تسمى تمرد.. أو الدعوة لعقد محكمة هزلية ينظمها الفلول مع المعارضة لمحاكمة رئيس الجمهورية المنتخب الذى جاءت به الثورة.. وليس الرئيس المجرم الذى قامت

الثورة لخلعه .. ويسْتَبِقُون الزمن بتشكيل حكومة موازية استعدادا للاستيلاء على السلطة عندما تسقط الحكومة الحالية..

يهدّدون دائما بحرب أهلية وشيكة أوثورة جياع.. أوانهيار اقتصادي على الأبواب.. ويعملون دائما فى هذا الاتجاه؛ بتغذية أعمال التخريب والدفع بالبلاد نحو حرب أهلية.. وإضعاف الدولة وتحريض القوى الأجنبية على حصارها اقتصاديًا.. ليكون هذا مبررا لتدخل الجيش واستيلائه على السلطة..!

وتسأل مندهشًا: أين الشعب من هذا كله..؟! هل تحسب هذه الديناصرات المتخلّفة أي حساب للشعب..؟! هل يحترمون إختياراته ..؟! إنهم يقولون أن الرئيس فقد شرعيته والإخوان فقدوا تأييد الشعب لهم ويسقط يسقط حكم المرشد.. ويؤكّدون أن أحزاب المعارضة سوف يفوزون بالانتخابات القادمة؛ خصوصًا بعد انتقال بكّار وبرهامي ومخيون وحزبهم السلفي الجديد إلى صفوفهم .. حسنًا...! والله إننى لأرجو أن أصدِّق هذا الكلام .. وأتطلّع بشغف إلى اليوم الذى تجرى فيه انتخابات مجلس الشعب.. وأتمنى من صميم قلبى أن أرى –فى حياتى– انتقال السلطة من حزب إلى حزب آخر سلميًّا؛ عن الطريق الديمقراطي المشروع: الانتخابات وصناديق الانتخابات .. بعيدا عن العنف والملوتوف والفوضى..

ولكن هؤلاء الناس غير جادين أبدا فى تحقيق الديمقراطية.. ولا يقبلون أبدا بشرعية صناديق الانتخابات .. وهم يائسون من تأييد الجماهير لهم ولذلك تراهم منخرطين طول الوقت فى المؤامرات والمساخر.. فى مسلسل هزلي متعدِّد الحلقات.. لا يقلُّ سماجةً ولا سفاهةً عن برنامج المهرّج المتأمْرِك باسم يوسف.. ولكن يلعب دور المهرّج فيه شخصيات سياسية وقضاة ، وكتبة من كبار القوم..! .. جميعهم بلا استثناء قد تشرَّب روح "تأبّط شرا" الذى لا يمكن أنْ يأتى بخير لأمّه المنكوبة به: فليس فى جعبة "تأبّط شرًّا" إلا الغول والثعابين .. وخراب مصر..

* * * * * * *

رجال فى حياتى

موضوع طالما راودتنى الرغبة للكتابة فيه، ولكن كان يحول دون ذلك شعور بأن الظروف لم تسنح بعد بالتّفرّغ المناسب، لإنجاز هذا العمل، رغم أهميته كواجب من واجبات المفكر تجاه الأجيال الجديدة: أن ينقل إليهم خلاصة تجاربه مع الفكر والناس والحياة.. حفزنى على البدء فى هذا العمل ما جدَّ من تطورات سريعة شهدتها مصر بعد الثورة، كشفت عن معادن الرجال.

بعضهم كان يبدو لى على شيء من القيمة والقدْر فإذا به يترنَّح كالخُشُب المسندة .. ومع تدفّق المال الحرام فى ساحتيْ السياسة والإعلام رأيت أناسًا يتساقطون متهافتين؛ يبيعون أنفسهم وضمائرهم وأقلامهم لمن يدفع أكثر.. وتبين لى أن مقولة المفكر الإسلامي "مالك بن نبي" كانت صحيحة عندما وصف هذا النوع من الناس بأن ضمائرهم قد تشكّلت على هيئة "أكياس نقود"..

ولكن تبقى دائما –تحت أسوأ الظروف– قلَّة قليلة صامدة تضرب المثل الأعلى فى قوة الأخلاق والإيمان والثبات والصبر على المكاره.. من هؤلاء رجل لا يكاد يذكره الناس فهو قليل الكلام.. حجبتْه عن الأنظار فى السنوات الأخيرة معاناته لأمراض تقلّبت عليه فألزمته القعود فى البيت.. كلما هاتفتُه لأطمئنّ عليه وأعرف أخبار مجلته أسمع صوته قويًّا خاليًا من الضعف والشكوى يحمد الله على كل شيئ.. ويطمئننى أن المجلة ماضية تؤدى رسالتها فى سبيل الله ونصرة الحقيقة، وأنه يعتبرها حجته يوم يلقى الله..

إنه الصديق العزيز الحاج حسين عاشور صاحب مجلة "المختار الإسلامي".. التى جمع حولها نخبة من المفكرين والكتاب الإسلاميين المخلصين المتميزين.. وتخرَّج فى مدرسته نخبة من الكتاب والإعلاميين المتميزين أيضا؛ باجتهادهم فى العمل وإحسانهم، وشعورهم بأنهم يؤدون رسالة قد تخلّى عنها أكثر العاملين فى حقل الصحافة والإعلام.. ولكي تتعرف على نسيج هذه الشخصية الصامدة المتفرِّدة، أحكى لك طرفًا من سيرتها الحافلة:

فقد مكث فى أقبية سجون عبد الناصر سنوات شبابه وجزءًا من كهولته.. وفى عهد السادات وجد الفرصة لانطلاق مواهبه -الموروثة من عائلة عريقة فى النشر والصحافة وخدمة الإسلام- فأنشأ دارًا لنشر الكتب.. صدر منها المئات من المؤلفات القيِّمة، للعديد من المفكرين الإسلاميين المعاصرين، اكتسبت شهرة فى العالم العربي والاسلامي، وكانت توزّع منها طبعات متوالية نظرا للإقبال الشديد عليها، فاقْتنى مطبعة حديثة لطباعة كتبه ومجلته.. فلما حلَّ عهد مبارك تقلّص نشاطه، وأغلقت مباحث أمن الدولة مطبعته حتى صدأت معداتها وسلمتها له ليبيعها "حديد خردة" بملاليم.. ولكنه ظل يقاوم وينشر الكتب فى حدودٍ ضيِّقة..

تعرفتُ عليه فى أوائل التسعينات من القرن الماضي أثناء زيارتى لصديق مشترك، وعرف أننى مشغول بتأليف بعض الكتب عن قضايا المسلمين فى البوسنة وكوسوفا والشيشان، فرحّب بنشرها، وشجّعنى على الكتابة فى مجلته، فبدأت أكتب للمختار الإسلامي مقالة شهرية لم تنقطع ..

كانت مباحث الدولة له بالمرصاد تتربَّص به وتصادر كتبه وتسعى لتصفية نشاطه و تهدِّدُه بإغلاق المجلة تحت ذرائع متجدّدة دائما، ولكنه صمد وتذرَّع بصبر أيوب.. كان لسان حاله يقول: كل شيء يهون إلا إغلاق هذه المجلة.. فدونها رقبتى..! وقد عبّر عن استغرابه مرة لضابط كبير دأب على مهاتفته لإشعاره بأنه تحت الرقابة والتهديد الناعم المستمر.. ساله: إذا لم تكونوا تطيقون هذه المجلة فلماذا لا تغلقونها وتستريحوا..؟ فأجابه: نتركها فقط حفاظًا على المظهر الديمقراطيّ..!

مع هذا التضييق المتواصل والحرب الخفية على المجلة انْحسر توزيعها فى عدة آلاف نسخة لا تكاد تفى بتكاليفها الفعلية.. وهنا يظهر له الشيطان فى ثوب المنقذ؛ الذى يملك المال الوفير والحلول السحرية لكل المشكلات.. قدّم نفسه إليه كوسيط لمنظمة أمريكية تدافع عن الحرية وتدعِّم الديمقراطية فى مصر.. سأله الحاج حسين: ولماذا تهتمون بهذه المجلة وأنتم تعرفون أن توجّهها

إسلامي..؟ قال نعرف توجُّهها، ونعرف أنها تعانى مشكلات مالية وجئنا لك بالحل..؟ سأله: فى مقابل ماذا..؟! قال: بدون مقابل..؟

لم يكن الحاج حسين عاشور -وهو صاحب الخبرة بوسائل الأعداء فى استهداف الإسلام والكيد له .. ولإدراكه ضرورة الحفاظ على نقاء العمل الإسلامي- لم يكن ليستسلم للفخ المنصوب له، فرفض المال رغم حاجته الماسة إليه .. رفض أن يشوب العمل الإسلاميّ الخالص لوجه الله شائبة من مال مشبوه .. فقد كان واضحا لديه أن من يمد يده لمالٍ مشبوه، يفقد استقلاله ويفقد حريته ويخضع راغمًا لأهواء صاحب المال وإملاءاته..

الآن.. لم تعد أمريكا وحدها هى مصدر الأموال المشبوهة فقد تعدّدت المصادر؛ وأصبحت لها وجوه عربيّة مألوفة وصديقة، تبذل المال علانية أو من وراء حجاب.. وظيفة هذه الوجوه الصديقة أنها تكسر الحواجز القائمة بين طوفان المال المشبوه وبين الضمائر الواهية لأصحاب الحاجات والطموحات؛ الذين لايزالون يتشبثون ببقايا من إرادة المقاومة الأخلاقية، يتمسّكون بها على مضض.. فى أجواء إعلامية مسمومة وصراع محموم ، ولكن ليست لديهم وسائل أخرى لتحقيق طموحاتهم سوى هذا المال السهل.. فلْيغترفوا منه الآن قبل أن ينضب معينه.. ثم يبحثون فى عقولهم عن ذرائع لإخماد همسات الضمير الواهنة التى تؤرِّقهم .. حتى تنطفئ جذوتها إلى الأبد، وينعمون براحة النسيان..!

إلا الحاج حسين عاشور؛ فقد بقي وحده صامِدًا شامخًا كشجرة السنديان ، فى غابة من حُطام الأشجار.. بعد ليلة من العواصف الهوجاء ..!

بينما تساوى الآخرون فى نهاية المشوار: الذين سعدوا من بداية الشوط ببيع أنفسهم للشيطان عن رضًا واقتناع ؛ لخواءٍ روحيٍّ متأصِّلٍ فيهم ، والذين لحقوا بهم بعد صراع قصير مع النفس اللوامة ، قبل أن تتحول إلى نفسٍ أمّارةٍ بالسوء..! .

"اللّهم إنى أعوذ بك من شرِّ نفسى ومن شرِّ كل دابَّةٍ أنت آخِذٌ بناصيتها إن ربِّى على صراط مستقيم".

****

إبن تيمة المفترى عليه

الصراع بين العلماء والفقهاء الأحرار المجاهدين من ناحية ، وبين فقهاء السلاطين والمتفيهقين من ناحية أخرى ، صراع قديم : أما فقهاء السلاطين فقد ارتضوا لأنفسهم أن يكونوا خدّامًا عند أسيادهم .. اصطنعوا الفقه بضاعة يتقربون بها إلى الحكام الجبابرة و الطغاة ؛ زينوا لهم طغيانهم ومباذلهم .. وبرّروا لهم جرائمهم ؛ فما تورّعوا فى هذا عن استخدام أحاديث ضعيفة أو مكذوبة على النبي ، وأوّلوا لهم آيات القرآن لتُجَاري أهواءَهم ، وتسوّغ لهم قتل معارضيهم..

أما علماء الإسلام الحقيقيون فقد حملوا أرواحهم على أكفّهم دفاعًا عن العقيدة والعدالة ضد انحراف السلاطين وظلم الطغاة المستبدين ؛ فتعرضوا بسبب ذلك للتكفير والاعتقال والتعذيب وأحكام الإعدام ..

من مدرسة فقهاء السلاطين تخرجت مجموعات من المتفيهقين الجهلاء .. كلامهم ينضح بالكراهية واحتقار أهل العلم وأهل الجهاد والاجتهاد والتجديد ؛ فهم أقرب إلى السفاهة والسفهاء منهم إلى الفقه والفقهاء .. لا علم عندهم ولا فقه ولا فكر ينفع الناس .. ومع ذلك يتعالون على الناس ويتعالمون عليهم بشقشقات لفظية ومصطلحات نمطيّة ، ويظهرون الحماس المصطنع غيرةً على الإسلام..

ولأنهم فى الفكر أصحاب عاهات ، لا يلفت أنظارهم إلا الترّهات وسفاسف الأمور، أما عظائم الأمور والنوازل والكوارث التى أصابت الأمة ، أما المجازر الوحشية وقتل الأبرياء واغتيال أنقى وأشرف عناصر الأمة ، واعتقال الحرائر والأطفال، والتعذيب ، وانتهاك الأعراض فى المعتقلات فلا تهز شعرة فى أبدانهم..

تحت أنظمة الحكم الاستبدادية ، كان العلماء و الفقهاء الأحرار هدفًا للاضطهاد: فقد سُجنَ الإمام ابن حنبل .. وسجن ابن تيمية عدة مرات فى دمشق والقاهرة .. وسجن سيد قطب وتم إعدامه .. واغتيل الإمام حسن البنا بأيدى الشرطة السرية لوزارة الداخلية .. وأهدرت الإمارات دم الشيخ الجليل

يوسف القرضاوى .. وبعث الطغاة يستعْدُون الإنتربول للقبض عليه ، وتسليمه إليهم ليحاكمه قُطّاع الطريق فى محاكمهم الهازلة ..

من أبرز سمات المتفيْهقين أنهم لا يخجلون من عارهم وجهلهم : يصدّعون رؤوسنا بفتاوي متشدّدة فى سفاسف الأمور ويحتجون بكلام لابن تيمية.. وهم فى الحقيقة يجهلون عنه كل شيء ، ولا يذكرون عنه إلا ما ينفّر الناس منه ؛ حتى ليبدو وكأنه الفقيه المنغلق على نفسه المتشدد فى الأحكام المضيّق على عباد الله المسلمين ، لقد احتكروه لأنفسهم ليشوهوا صورته الحقيقية المشرقة ..

فاقرأ معى طرفًا من السيرة المبهرة لهذا الإمام ، فى المراجع الموثّقة ، واعجب بعد ذلك ما شئت من العجب: كيف أهال عليها التراب من يزعمون الانتماء إليه ويظهرون الحماس له ، وهم أبعد الناس عن فكره وشمائله.. وأعجز من أن يفهموا قيمته الحقيقية فى العلم والجهاد والريادة والقيادة.. ؟:

إبن تيمية لم يكن فقيهًا فحسب ولكنه كان موسوعة فكرية وعلمية رائعة: أجاد علوم الحديث والعقيدة وأصول الفقه والفلسفة والمنطق وعلم الفلك ، واشتهر عنه البراعة فى شرح الجبر والرياضيات .. وأعلى من شأن العلوم الطبيعية "كالفزياء" التى انحط بها بعض فلاسفة المسلمين المنبهرين بفكرالفيلسوف اليوناني أرسطو..

من أبرز مؤلفات ابن تيمية كتابه " نقض المنطق".. نسف فيه قداسة منطق أرسطو وأعلى قيمة المنطق الإسلامي الذى بُنيت عليه قواعد الفقه وأصوله .. وقد اشتهر هذا الكتاب فى بلاد الغرب وتُرجِم إلى اللغة الإنجليزية وغيرها من اللغات الأوروبية الحية..

لن تجد أحدًا من صغار المتفيهقين المحدثين ، يتطرّق إلى هذه الجوانب المشرقة لابن تيمية .. لأنهم يجهلونها ، ولا تعنيهم فى شيء .. ولن يذكروا لك أبدا صراع ابن تيمية مع السلطات المستبدّة فى عصره ولا عن ثورته على الحكام الظلمة .. ولا عن تحريضه للأمة وأمرائها على قتال المغول الذين غزوا الشام

رغم أن قائدهم كان مسلمًا.. وتعالى معى نطلّ على هذا المشهد التاريخى العظيم لابن تيمية:

دعا ابن تيمية أعيان دمشق للاجتماع به يوم الإثنين ٢٨ ديسمبر ١٢٩٩ م واتفقوا على السير إلى السلطان غازان الموجود في بلدة النبك المجاورة، ونُصْحِهِ باعتباره حاكمًا مسلمًا ..

تقدّم ابن تيمة وفد دمشق ليتحدث بالنيابة عنهم ؛ فدخل على غازان.. لم يعبأ بهيبته ولاحرسه ولامظاهر الأبّهة والسلطان من حوله، خاطبه بجرأة الحق الذى يستند إليه ؛ فأسمعه قول الله ورسوله فى إقامة العدل .. وأخذ يرفع صوته ويقترب منه شيئًا فشيئًا حتى أوشكت رُكبته ان تلاصق ركبة السلطان، والسلطان مع ذلك مقبل عليه ومُصْغٍ إليه باحترام ..

قال ابن تيمية للمترجم : "قل لغازان أنك تزعم أنك مسلم ومعك قاضٍ وإمام وشيخ ومؤذّنون .. فغزوتنا وأنت مسلم .. وكان أبوك وجدّك كافرين .. وماعملا الذي عملتَ ؛ فقد عاهدا فوفَّيا .. وأنت عاهدت فغدرت .. وقلتَ فما وفَّيْت، وعلينا جُرْتَ وظلمت"..

إستطاع ابن تيمية أن يحصل على وثيقة أمان من غازان .. إلا أن جنوده نقضوها واستمروا في نهب المدينة .. ولم يسلم من النهب إلا القلعة فقد رفض حاكمها أن يسلمها إلى التتار.. وصمم أن يدافع عنها، مهما كلفه ذلك من تضحيات، ملتزما فى هذا بنصيحة الشيخ تقي الدين بن تيمية الذى بعث إليه برسالة يقول فيها: "لو لم يبق في قلعتك إلا حجر واحد، فلا تسلمه إليهم إن استطعت"..

كانت صورة ابن تيمه الثائر المجاهد مسيطرة على أفئدة الجماهير المسلمة، لا فى دمشق وحدها ولكن فى القاهرة أيضا .. وبدت أمامها صورة فقهاء السلاطين أقزاما متّضعين، فامتلأت قلوبهم بالحقد عليه والغيرة من شهرته التى طبّقت الآفاق ..

والحمد لله .. لم تكن توجد وقتها فضائيات وصحف داعرة وإعلاميون فجرة أنذال ليشوّهوا صورة القائد العظيم ويتهموه بالإرهاب وإخفاء السلاح .. ولم يكن أمام الفقهاء الأنذال إلا الدس على الرجل وتحريض الأمراء عليه لإزاحته من الساحة ؛ فجمعوا له بعضا من آرائه وفتاويه التي خرج فيها -كما يزعمون- على علماء عصره.

ابن تيمة رفض غلق باب الاجتهاد ؛ وكان يرى أنه لا حق لأحد مهما بلغت مكانته أن يغلق باب الاجتهاد .. هذا الإغلاق الذى أمات الأمة وجمّدها .. وكان سببا فى هزيمتها أمام أعدائها .. لذلك مارس الاجتهاد ضد التيار السائد فأنكروا عليه هذه الحرية وأرادوا إعادته إلى طريق الجمود والتحجر على القوالب المحنّطة؛ فحرضوا عليه السلطان ، الذى طلبه فى مصر وعقد له مجلسًا لمحاسبته أمام قضاة من عيّنة ناجى شحاتة ، وفقهاء من فصيلة الهلالى وجمعة ، والأعيان من طراز الفلول ولصوص الثروة ، فحكموا عليه بالحبس فى سجن قلعة الجبل سنة ونصف.

وإمعانًا فى التنكيل به- جاؤوا بأخوين له من دمشق فوضعوهما معه فى السجن بدون تهمة ولا محاكمة .. تماما كما يحدث الآن على نطاق أوْسع وبصورة انتقامية أبشع..

عاد إلى دمشق بعد انتهاء مدة السجن ولكنه طُلب مرة أخري بإيعاز من بطانة الشيطان فحُبس فى برج الإسكندرية لمدة ثمانية أشهر ليتوب عن ثورته وييأس من تحريك الجماهير ضد الظلم والاستبداد. ثم رأوا أن يبقوه فى مصر تحت أعين العسس الأكثر خبرة وتدريبا ؛ فأطلقوا سراحه بعد جلسة مصالحة تقررت فيها براءته ؛ فأقام بعدها فى القاهرة مدة من الزمن .. ولكن اشتاق إلى دمشق فرحل إليها ليجد فى انتظاره مفاجأة غير سارة ؛ إذ طلبه فقهاء السلطان هناك فى مجلس مناظرة لمحاكمته على ما اختلف فيه معهم .. وانتهي المجلس بحبسه فى قلعة دمشق ليقضى ماتبقى من عمره فى السجن حتى توفّاه الله سنة ١٣٢٨م عن عمرٍ قدّروه بين ٦٥ و٦٧ سنة ..

العجيب أنه قضى حياته فى السجن وخارجه ، لم ينقطع لحظة عن الجهاد والاجتهاد والتدريس والتأليف والحضّ على محاربة الغزاة المغول.. وكان له دور مشهود فى انتصار المسلمين فى معركة شقحب .. أراه كما يراه معي لفيف من المؤرخين أنه كان أحد المجددين الإسلاميين فى زمانه ، وأنه كان يفهم الإسلام فى شموله وثنائيته التكاملية كما صورها لنا المفكرون الإسلاميون أمثال الشيخين محمد الغزالي والقرضاوي ، والفيلسوف الإسلامي على عزت بيجوفيتش .. هذه الثنائية الخالدة التى تجمع بين: الدنيا والآخرة العلم والدين ..الروح والجسد .. الدين والسياسة .. فى بوتقة واحدة، قاتل معاركه كلها لتثبيت هذه العقيدة فى أذهان المسلمين..

فى سيرة عظيمة كسيرة ابن تيمية لا أستطيع أن أمُرَّ على معركة "شقحب" مشيرا إليها فى نصف سطر ؛ فإنها تستحق كتابا كاملا يبرز حقيقة هذا النوع من الشخصيات الفذّة فى تاريخ الإسلام .. شخصية طُمست معالمها بفعل فاعل؛ قدّمها المتفيهقون الصغار فى أسوأ صورةٍ .. حتى بدا "ابن تيمة" رمزًا على انغلاق الفكر وضيق الأفق، من كثرة ما ذُكر اسمه مصحوبا بأكثر الأراء والفتاوى تشدُّدًا وتضييقًا وتعسيرًا على المسلمين .. أقول:

اعتزم المغول غزو دمشق من جديد سنة ١٣٠٣م خلال عهد المماليك ، فبدأ ابن تيمية بتحريض أهل الشام في دمشق وحلب على المقاومة .. وانتدبه الناس للسفر إلى مصر لملاقاة سلطانها الناصر محمد بن قلاوون، ليحُثَّه على الجهاد ، فأعاد نشر فتاويه في حكم جهاد الدفع ورد الصائل .. ثم سافر إلى أمير العرب "مهنّا بن عيسى الطائي" فلبى دعوة ابن تيمية لملاقاة التتار.

وبعد استكمال الاستعدادات اجتمعت جيوش المسلمين من الشام ومصر وبادية العرب في "شقحب" أو (مرج الصفر) جنوبي دمشق.. وكان ذلك في شهر رمضان، فدار ابن تيمية على الجنود يقوّى عزائمهم .. واندلعت الحرب بقيادة السلطان الناصر والخليفة المستكفي بالله الذي كان يقيم في القاهرة أنذاك ؛ فدامت يومين انتهت بانتصار المسلمين.

تراجع التتار عن خططهم فلم يدخلوا الشام ولا العراق ولا مصر أو الحجاز، ولذلك تعتبر معركة شقحب من المعارك الفاصلة في التاريخ الإسلامي ضد المغول بعد "عين جالوت" ..

وكان لمشاركة ابن تيمة فى هذه المعركة السبب الأبرز فى الانتصار على التتار فقد كان يعمل فى وسط الجنود ويشاركهم فى القتال .. وهو الذى ثبّت عزائم الحكام والأمراء على مواصلة القتال .. وهو الذى جمع الأموال من التجار وأصحاب المال فى دمشق لتمويل جيش الدفاع ..

وكان ابن تيمية على رأس جيش دمشق الذي حارب وهزم المغول وطاردهم شرقًا حتى نهر الفرات .. وكان أول من عاد إلى دمشق يبشر الناس بنصر المسلمين.. فلما أحس بشكوك تُساوِرُ السلطان من جهته ؛ أن يستغل حب الناس له فيثوروا عليه ، طمأنه إبن تيمية .. فقال: "أنا رجل ملّة لا رجل دولة.. فليطمئن قلبك".

لم يعلم أكثر الناس بمرضه الأخير وهو فى السجن حتى فوجئوا بموته.. بعد أن أذاع خبر وفاته مؤذن القلعة من فوق مئذنة الجامع .. ومن حديث حراس الأسوار إلى المارة .. فتسامع الناس بذلك واجتمعوا من كل حدب وصوب حول القلعة .. فلما فُتحت أبوابها امتلأت بالرجال والنساء ، وصُلِّيَ عليه بعد صلاة الظهر .. وكانت جنازته عظيمة هائلة .. أقل تقدير ذُكر عنها أن عدد الحضور كان خمسين ألفا .. والأكثر أنهم زادوا على خمسمائة ألف ..

بعد أن عرفتم هذا عن سيرة ابن تيمية ، هل تعلمون أن السفلة الأوغاد من الذين نصّبوا من أنفسهم خصومًا له -دون ذنب جناه- اتهموه بالكفر فى كتاباتهم وأشاعوا مقولتهم بين العوام ..؟! حتى ليحتاج إلى أن يؤلف فيه ابن ناصر الدمشقي كتابًا يبرّئه من تهمة الكفر بعنوان " الرد الوافر على من زعم أن شيخ الإسلام ابن تيمية كافر".

ربما كان زمن الغزو المغولي أشبه بزمننا هذا الذى شاع فيه الظلم والكآبة ؛ ويبدو هذا واضحًا من حقيقة أن المؤلف نفسه وضع كتابين أحدهما بعنوان "سلوة الكئيب بوفاة الحبيب" .. والثاني بعنوان "برد الأكباد عن فقد الأولاد".

******

فى وداع صديق حبيب

يسيطرعلى الإنسان وهم أن الموت لا يأتى، حتى عندما يشاهد جنازة مارة فى الطريق، أو عندما يسمع بوفاة شخص ما لا معرفة له به، بل حتى وهو يمرّ بعينية على صفحة الوفيات فى الجريدة، فهو يفعل ذلك ليعرف ما إذا كانت هناك حالة وفاة تستلزم منه أداء واجب العزاء ، ويكره أن يفوته هذا الواجب. فى كل هذه المواقف تقع حالة موت الآخرين فى هامش دائرة الشعور لا فى مركز الشعور ؛ ولعل هذا من رحمة الله بالإنسان، ذلك لأنه إذا وقعت كل حالات الموت التى تمر بوعى الإنسان، كل يوم وكل لحظة ، فى مركز شعوره لاحترق، ولأصيب عقله ووجدانه بالشلل، أو التّلف بحيث يتوقف الإنسان عن مواصلة فاعليته في الحياة، ولانْتهت حياته هو نفسه إلى موت سريع.

فى مقابل هذه الصورة توجد صورة أخرى شديدة الاختلاف، عندما يكون شخص المتوفي صديقا حميا أو حبيبا لصيقا بشغاف القلب، هنا لا تتسلل واقعة الموت إلى الوعى أو تنتقل من هامش الدائرة الشعورية إلى مركزها تدريجيا، وإنما تنقض على وعى الإنسان كله انقضاض الصاعقة.. يأخذه خبر الموت على غرّة فيشل مراكز تفكيره ومشاعره لحظات تطول أوتقصر، يرتبك فيها ارتباكا عظيما فلا يدرى ماذا يفعل أو ماذا يقول، قد تتفجر الدموع من عينيه دون إرادة منه، وقد يبكى بكاء حارقا، حتى يثوب إلى رشده قليلا.. فإذا أدرك طرفا من حقيقة الفاجعة التى ألمّت به.. يبدأ الألم يعتصر قلبه اعتصارا.. يغمره شعور غريب من الألم والحزن الهائل يتصاعد إليه من كل خلية فى كيانه ، حتى يصل إلى حلقه فيشعر كأن غُصّةً فيه تكاد تخنقه.. يهبط صدره ويعلو يلتمس نفسا لا يوجد ؛ لأن الهواء قد تسرّب خارج المكان إلى الأبد..

تتسارع ضربات قلبه.. يسمعها وكأنها تدقّ فى رأسه وتزلزل كيانه بأسره.. عيناه زائغتان لا يكاد يرى أمامه.. هنا ينحصر الوجود كله فى نقطة سوداء كالحة السواد.. يشعر الإنسان معها أن الحياة على وشك الأفول وأن الموت أقرب إليه من حبل الوريد..

هل أستعيد هنا إلى الذاكرة خبرة خاصة بى..؟ ربما ..!

ولكنى لا أزال حين أتأملها مكتوبة بكلمات اللغة أشعر أن خبرتى الحقيقية التى عانيتها كانت أشد وطأة و أهول وقعا مما لا تستطيع كلمات اللغة أن تعبر عنه.. لقد عانيت هذه التجربة عدة مرات خلال ثلاثين سنة فتماسكت فى المرات الأولى حتى خفّت حدّتها فى عدة أيام أو أسابيع، ولكن قصمت ظهرى الأخيرة.. ربما لأنها جاءت فى سن الشيخوخة وقد استنفد الزمن والأحداث ماتبقّى فى طاقتى العصبية من رصيد.. خلال هذه التجارب بدأت وجدانيّا استوعب موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم.. وسَرَتْ صورته فى سويداء قلبى وهو يحتضن رفات ابنه الوحيد إبراهيم حزينا علي فراقه.. يذرف الدموع وهو يقول: "يا إبراهيم إنّا لا نُغنى عنك من الله شيئا، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون، تبكى العين ويحزن القلب ولا نقول مايُسْخط الربّ " ..

بين أجواء مأساوية محزنة تمرّ بها أمتنا فوجئت بنبأ وفاة واحد من أعز أصدقائى هو الدكتور عبد العظيم الديب..

لم تكن علاقتى به مجرد زمالة جمعتنا لعشر سنوات بجامعة قطر فى الفترة من سنة ١٩٨٠ إلى سنة ١٩٩٠ولكنها علاقة إنسانية وصداقة حميمة بدأت فى الخمسينات من القرن الماضى واستمرت بعد جامعة قطر إلى يوم وفاته .. نعم .. لقد سافرت كثيرا وتغيبت طويلا عن مصر والعالم العربي سنوات عديدة ولكن ما أن أعود وألتقى به حتى نستعيد معا ذلك الدِّفء العاطفى الأخوي وتلك الصلات الروحية والفكرية المتبادلة التى لم تستمر فحسب وإنما ازدادت ثراء وتدفّقا مع مرور الأيام ونُضج الخبرة واتساع آفاق المعرفة..

أول لقاء لنا:

أذكر أن أول لقاء لى به كان فى مسكنى بمنيل الروضة فى القاهرة.. كان هو طالبا فى كلية دار العلوم وكنت طالباً فى كلية الآداب بنفس الجامعة .. وتصادف أن سكن على مقربة منى بشارع المنيل .. كنا فى شهر رمضان فدعوته لتناول الإفطار فاستجاب.. ثم امتد الحديث بنا فى تلك الليلة إلى قرب وقت السحور،

فطلبت منه البقاء لنتناول السحور معًا.. ولكنه اعتذر لتوقّعه ضيوفا من بلدته سيصلون إليه فى ذلك الموعد .. وبينما نحن واقفيْن خارج الشقة نودّعه هبّ هواء من الداخل فأغلق الباب ومفتاح الشقة بداخلها.. وحاولنا فتح الباب فاستعصى .. وأُسْقط فى يديْ.. فقد كان الوقت متأخرا ولا أمل فى الحصول على مساعدة من أحد ..

ولكن الدكتور عبد العظيم هوّن الأمر عليّ .. قال: لا تيأس سنجد حلا إن شاء الله وإن لم نجد فستقضى الليلة عندى حتى الصباح.. لم نجد فى الحي كله ساهرا سوى صاحب مخبز قريب فاتجهنا إليه وسألناه أن يقرضنا مفكّ لمعالجة باب شقتنا الذى أغلقه الهواء علينا .. ولكن الرجل تشكك فى هذا السلوك وسألنا بخبث: شقة منْ ياترى تريدون سرقتها..؟

وهممت أن أعنّفه على سوء ظنه.. ولكن صديقى عبد العظيم تدارك الموقف ودخل فى حوار هادئ مع الرجل حتى أقنعه بمساعدتنا فقام بنفسه وجاء معه بأدواته.. ولم يتركنى الدكتور عبد العظيم حتى أطمأن عليّ ثم استأنف رحلة العودة إلى مسكنه.. كان الدكتور عبد العظيم يكبرني سنا ببضع سنوات قليلة ولكنّ هذه الواقعة كشفت لى فيه عن روح أبوّة رحيمة ، وشعور ناضج بالمسئولية تجاه أصدقائه.. وصبر عجيب على مواجهة المصاعب.. وقدرة على الاحتمال وعلى الإقناع والتفاهم حتى مع البسطاء من الناس.. ومع أكثر الأيديولوجيين المخالفين شراسة وتعصّبا.. وهى خصال لم تكن متوفّرة عندى.. إنما اكتسبتها منه.. فيسّرت عليّ كثيرا من الصعوبات فى مستقبل حياتى.. منذ تلك الواقعة لم تنقطع صلتى بالدكتور عبد العظيم الديب ..

* أعلم أننى لا أستطيع أن أنافس إخوانه وأصدقاءه ومريديه ومحبّيه –وما أكثرهم– فى إحصاء أعماله وإنجازاته العلمية وعشقه للمعرفة.. ولكنى اطلعت على بعض جوانب من شخصيته الإنسانية ربما لم يطّلع عليها أحد غيرى.. وهى ما أريد الإشارة إليها هنا لتجلية جوانب من هذه الشخصية الفذة التى لم تجد ما كانت تستحقه من تكريم فى وطنه الأم مصر .

* فقدت ابنى "باسم" سنة ١٩٨٣ فى حادث أليم أثناء وجودى فى قطر فى بعثة مع اليونسكو.. وكان فى السنة الأولى بالجامعة فى كانبرا.. فسافرت مسرعا إلى استراليا حيث حضرت إجراءات دفنه وعدت بعد عشرة أيام إلى عملى فى الدوحة ولكن أي عودة..! لقد شعرت أن عشر سنوات قد انسلخت من عمرى لا عشرة أيام فحسب.. عدت شبح إنسان.. وأدرك الدكتور عبد العظيم هول ما تحوّل إليه حالى فلازمنى بالزيارة اليومية فى منزلى على مدى شهر كامل بانتظام .. دون ملل .. كان يقضى معى يواسينى ساعة أو ساعتين كل يوم .. أستمع إلى حديثه طول الوقت وهو يمدّنى بحكمه وقصص من مخزونه الثقافيّ الواسع .. ويغوص بى فى أعماق تراث النبوّة والصالحين من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين .. ويستدل فى أحاديثه بالآيات المناسبة من القرآن الكريم.. وفى كل هذا كنت أشعر منه بفيض من الرحمة والحب والصبر لم أجد مثله عند أحد غيره.. وكان هذا أكبر عون لى على التعافي من هذه الأزمة النفسية التى ألمّت بى فى فترة عصيبة من حياتى ..

* أدركت منذ وقت مبكر نعمة وجود صديق مخلص على مستوى فكرى رفيع مثل الدكتور عبد العظيم.. واسع الثقافة .. ليس منغلقا على تخصصه الضيق.. أن أشاطره همومي واهتماماتى الفكرية.. وأناقشه بحرية تامة فيما يعنّ لى من أفكار وانتقادات.. بل وشكوك أيضا قد أتحرّج من ذكرها أمام الآخرين.. فأجده واسع الصدر عميق النظرة.. لا فى الفقه فحسب ، وإنما فى التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية.. ووجدت لدهشتى أننا نتفق فى وجهات نظر كثيرة رغم الاختلاف الظاهر في خلفياتنا التعليمية .. لقد كشف لى عن أهمية فكر أستاذه محمود محمد شاكر، واهدانى كتابه "أباطيل وأسمار" مع كتب أخرى له..

كان يعرف مدى حبى واهتمامى بشخصية على عزت بيجوفيتش وفكره.. ويعلم أننى قد جمعت كتبه كلّها ولكنى لم أستطع الحصول على مقالاته المبعثرة.. فسعى صامتا لدى معارفه وأصدقائه للحصول على ماينقصنى، حتى فوجئت به

يوما يقول لى: " لك عندى هدية قيّمة ".. فإذا بها كتاب جامع لكل مقالات على عزت القديمة.. ولم تكن فرحته بالحصول عليه بأقل من فرحتى.

الفتنة الكبرى:

تناقشنا طويلا فى موضوع الفتنة الكبرى التى شقّت الصف الاسلامي فى أحرج مرحلة من مراحل تطوّر الدولة الاسلامية.. وكنا نقرأ فى ذلك الوقت آراء مالك بن نبى فى تقييم هذه المرحلة.. كانت للدكتور عبد العظيم بعض أفكار مبدئية فى هذا الموضوع .. ولكنى فوجئت خلال عامين أنه كان عاكفا على الدراسة والبحث حتى خرج بأفكار ونتائج موثّقة تدحض ما شاع فى كتب التاريخ الاسلامى الدارجة.. لقد تبين له مثلا أن قصة التحكيم الشهيرة التى تُحكى عن أبى موسى الأشعرى وعمرو بن العاص هى مجرد قصة خرافية.. وأن أبا موسى الأشعري لم يخلع خاتمه ويقول: لقد خلعت عليّا كما أخلع خاتمى هذا، ثم جاء عمرو بن العاص وقال إننى أثبّت معاوية فى الخلافة كما أثبت خاتمى هذا.. فلم يكن التحكيم أصلا عن أحقية عليّ أو معاوية بالخلافة.. ولم يكن من صلاحياتهما خلع أو تثبيت أحد.. وإنما القضية كما عرضها الدكتور عبد العظيم موثّقة هى محاكمة قتلة سيدنا عثمان: هل كان من الضروري أن تبدأعلى الفور كما أراد معاوية..؟ أم أنه كان ينبغى الانتظار حتى تتم المبايعة للخليفة الجديد على ابن أبى طالب رضى الله عنه ، وتستقر أوضاع الخلافة الوليدة فى أجواء بالغة الأضطراب..؟؟

لقد أخذ رجل يدّعى العلم هو جمال البنا قصة التحكيم كما شاعت دون تحقيق أو تمحيص ورتّب عليها حُكما أطلقه باستخفاف على صحابيّ جليل فى برنامج متلفز قال: "لقد كان "أبو موسى الأشعرى" رجلا ساذجا مغفلا.." والله أعلم من هو الساذج الحقيقى ومن هو المغفل .. المارق جمال البنا ، أم الصحابي الفاضل أبو موسى الأشعري..؟!

كذلك رأى الدكتور عبد العظيم من دراسته أن الفتنة الكبرى كان يغذيها من وراء ستار أفراد من اليهود المنافقين .. اخترقوا صفوف المسلمين من

الجانبين وقاموا بتزوير رسائل وتوقيعات لشخصيات قيادية من الصحابة وتناقلوها فيما بينهم لتزداد الفتنة اشتعالا.. وقد نجحوا بهذه الحيلة الماكرة نجاحا شيطانيا كبيرا.. ويخلص الدكتور عبد العظيم إلى نتيجة بالغة الأهمية وهي أن التاريخ الإسلامي فى تلك الفترة المضطربة لم يُكتب كتابة صحيحة ولا بد من إعادة النظر في كتابته من جديد..

صلاح قنصوه وشُبْهة النسخ:

منذ بضعة أعوام كتب الدكتور صلاح قنصوه مقالا فى مجلة الهلال عن النسْخ فى القرآن بطريقة ساخرة.. أنا أعرف صلاح قنصوه منذ كنا طُلاّبا فى قسم الدراسات الفلسفية.. لم نكن أصدقاء.. وكنت أستخف سلوكه وكلامه.. وأعتقد أنه لم يأخذ شيئا مأخذ الجد فى حياته أبدا.. وقد بدا لى شابا مستهترا وأظنه لم يتغير كثيرا بعد أن أصبح عميدا لأكاديمية الفنون..! وظهر استهتاره واضحا فى عبارات مقاله المذكور عندما كان يشير إلى آية معينة بأنها منسوخة ثم يضيف بين قوسين (يعنى قرآن ملْغى..!) كتبت ردّا عليه.. ولكنى تريثت فى نشره حتى أناقش الموضوع مع الدكتور عبد العظيم.. اتصلت به هاتفيا وظللنا ساعة نقلب الرأى فيما بيننا.. وكان رأيه أنه من الأفضل تجاهل الكاتب فهو ليس مشهورا ولا مقروءًا.. وأن ردّى عليه قد يمنحه الشهرة التى يتطلع إليها.. وترْكه سوف ينتهى بموت مقالته .. وقد عملت بنصيحة أخى ومزقت الرد.. وماتت مقالة صلاح قنصوه كما توقع الدكتور عبد العظيم..!

كان الدكتور عبد العظيم الديب شديد الإخلاص لأساتذته.. وكان محبا عاشقا لإمام الحرمين (الجويني) عمدة الشافعية ومرجعهم الأكبر.. وقد خصص الدكتور عبد العظيم رسالتيه فى الماجستير والدكتوراه فى تحقيق ودراسة آثاره.. ولم ينقطع عن الاهتمام بفكر هذا الإمام والفقيه الجليل فانكب على تحقيق و دراسة آخر أعمال إمام الحرمين " نهاية المطلب..." حيث جمع عشرين نسخة من هذا المخطوط النادر وقد كانت مبعثرة فى أنحاء شتّى من العالم.. سافر إليها حيث مظانها وصوّر نسخها فى عدد كبير من الجامعات.. حتى خرج الكتاب فى

دراسة موسوعية تتألّف من أربعة وأربعين مجلّدا .. قضى فى دراستها وتحقيقها وإخراجها عشرين سنة من عمره..

يصف أستاذنا العلامة الدكتور يوسف القرضاوى دقته وقدرته فى البحث فيقول أن الدكتور عبد العظيم الديب: "قد عُرف بقدْره فى الفقه ومنزلته فى التأصيل والاستنباط..." ويلفت نظرنا إلى حقيقة هامة يُرجع فيها حب الدكتور عبد العظيم لإمام الحرمين إلى مابين الرجلين من نسب جامع وصفات مشتركة جعلته ينجذب إليه..." ويفصّل سرّ هذه العلاقة الروحية فيقول: "كان الإمام الجويني على رسوخ قدمه فى الفقه من أصحاب القلوب... فرجال الفقه لاستغراقهم فى القضايا العقلية والمجادلات الكلامية .. قد يصابون بجفاف الروح وقسوة القلوب .. أما الجويني فكان من الفقهاء القلائل الذين احتفظوا بقلوبهم حية لم تمت..."

وكذلك كان الدكتور عبد العظيم الديب -كما عرفته- رحيم القلب رقيقا باش الوجه.. صاحب فكاهة رصينة تأتى فى وقتها ومكانها فتلطّف النفوس وتشيع البهجة فى المواقف المتجهّمة ...

رحم الله الدكتور عبد العظيم الديب العلّامة الجليل وجزاه الله عن أمته خير الجزاء...

****

الرجل الذى صنع المعجزة الماليزية

أتحدّث عن "مهاتير محمد" رئيس الوزراء السابق لدولة ماليزيا، أو الرجل الذى استطاع فى سنوات قليلة أن يحوّل (ماليزيا) من مستعمرة بريطانية فقيرة مُهلْهَلة إلى رابع أقوى دولة بين نمور آسيا، بعد الصين واليابان والهند.. أنقذها عند الأزمة من الانهيار الاقتصادى بحكمته وإخلاصه ، ووضعها فى مصافّ أقوى الدول إقتصاديا وأكثرها احتراما.. كان شديد الإيمان بمصر وبقدرتها على التقدم والنهوض بمواردها البشرية والطبيعية.. جاء إلى مصر مرتين وحاضر فى مكتبة الإسكندرية، وأدلى بتصريحات صحفية عن تجربته فى نهضة ماليزيا.. وحذّرنا من الانصياع لإملاءات البنك الدوليّ، لأنها لا تحقق نهضة ولا تنمية، وأن ماليزيا نجحت وتقدّمت، لأنها خالفت البنك وقاومت نصائحه، واعتمدت على مواردها الخاصة وسواعد شعبها.. كان يظن أن تجربته ونصائحه يمكن أن تفيد نظيره المصري، ولكنه لم ينتبه، أنه كان يخاطب أعمى وأصمّ، لا يأبه بمصالح بلاده ولا بنهضتها؛ فقد كان مشغولا بنهبها وتوريثها لابنه من بعده كما تُوَرّث قطعان الماشية..

لم يتوقف مهاتير محمد عن الاهتمام بالشأن المصري، منذ ترك السلطة.. وقد لاحظ أن اللبراليين فى مصر سقطوا فى أنظار العالم، وأثبتوا فشلهم فى تحدّيات البناء والتنمية والديمقراطية ، فحقَّ له أن يُقرّر ماانتهت إليه تحليلاته: أنه لم يعد بين القوى السياسية فى مصر من يحوز على ثقة العالم الخارجي ومن يُستمع إليه سوى الإسلاميين المستنيرين .. ولكنه -وقد هالَهُ بشاعة الجريمة التى ارتكبها نظام مبارك فى حق مصر- كتب فى صفحته على الفيس بوك: "أنا حزين على مصر وعلى شعبها، فقد تعرضتم لما يفوق الخيال فى الاحتيال والسرقات وتجريف الثروات.. حتى أن «الفَايْكنْج» وهم أشرس الغزاة الذين شهدهم التاريخ البشرى فى أوروبا، ما كانوا ليتمكّنوا من سرقة مواردكم مثلما فعل بكم نظام مبارك"..!

مجموع سكان ماليزيا لا يزيد عن ثلث عدد السكان فى مصر.. ويعتبرالإسلام هو الدين الرسمي للبلاد: حيث تبلغ نسبة المسلمين ٦٠٪، ونسبة البوذيين ٢٠٪، والمسيحيين ٩٪، بينما الهندوسية مع ديانات أخرى تبلغ نسبتها ١١٪.. ومن الناحية العرقية: يتشكل المجتمع من ثلاثة مجموعات أساسية هم: المالاويّون والصينيون والهنود..

بعد الاستقلال (سنة ١٩٥٧م) تبلورت إفرازات الوضع الاستعماري على هذا النحو: استحوذ الصينيون على النشاط المالي والاقتصادي بحكم الخبرة السابقة، وظل الهنود مسيطرين على النشاط التجارى والحرف، وبقى الملاويون المسلمون -وهم الأغلبية- مهمَّشين. هذا الخلل المجتمعِيّ -بين أقلية تتمتع بالقوة الاقتصادية وأغلبية ترزح في الحرمان والتخلف- أدَّى إلى اضطرابات وقلاقل بين الطائفتين في نهاية العقد السادس من القرن الماضي، كادت أن تتحول إلى حرب أهلية، لولا حكمة القيادات الوطنية..

من هذه الطبقة الفقيرة المُهمّشة برز مهاتير محمد، يبيع فطائر الموز صبيًّا، ليكفل أسرته وينفق على تعليمه فى المدرسة، حتى تخرّج من كلية الطب.. ولكنه كان واعيًا بحقيقة التركيبة الطبقية العرقية، التى جمّدها الاستعمار البريطاني لتأبيد سيطرته على ماليزيا.. تخمّرت فى عقله مبكرا صورة مجتمع متوازنٍ، يسود فيه التسامح، و تتمتع كل فئاته بحرية العقيدة ، وبحقوقٍ وواجباتٍ وفرصٍ متساوية.. فبدون هذا يستحيل بناء نهضة حقيقية.. ولذلك -عندما تولى السلطة- كان أول اهتماماته هو: إتاحة التعليم -مجّانًا- على أوسع نطاق، ابتداء من التعليم الابتدائي حتى الجامعة.. كان يهدف بذلك إلى فتح الطريق واسعا أمام الطبقات الفقيرة للحراك الاجتماعي، وتفعيل أكبرعدد من أبناء المجتمع المُهمَّشين، وتهيئتهم للمشاركة فى بناء النهضة الماليزية، واضعا فى الاعتبار رفع مستوى الأداء الوطنى من خلال التعليم والتدريب واكتساب التكنولوجيا والاطلاع على ثقافات العالم؛ لدرجة أنه كان يبعث بثلاثمائة طالب كل أسبوع للتعليم فى الجامعات الأجنبية..

تبنَّى مهاتير محمد خطة عشرية لتطوير ماليزيا، تحددت فيها الأولويات والأهداف المطلوب تحقيقها خلال ١٠ سنوات.. أتْبعها بخطة مكمِّلة لعشر سنوات أخرى؛ كان التعليم والبحث العلمي لهما الأولوية فى خطّته، من ثَمَّ خصصت الدولة أكبر جزء من ميزانيتها للتربية والتعليم ومحو الأمية.. وللتدريب والتأهيل المهنيّ والحِرَفِيّ.. وأعلن عن تفاصيل خطته إلى الشعب بوضوح كامل، وعزَّزَ هذا بمنظومة إدارية لمعاقبة المقصِّرين ومكافأة المجتهدين، وصولًا إلى النهضة الشاملة؛ فوثق به الناس وساروا خلفه.. ليبدأوا بقطاع الزراعة.. فغرسوا مليون شتلة "نخيل زيت" فى أول عامين من حكمه لتصبح ماليزيا أولى دول العالم فى إنتاج وتصدير زيت النخيل..

بتنفيذ هذه الخطة تحولت ماليزيا من دولة زراعية، كانت تعتمد على إنتاج وتصدير المواد الأولية، إلى دولة صناعية متقدمة: ساهمت فيها الصناعة بنحو ٩٠٪ من الناتج المحلي الاجمالي، و بلغت نسبة صادرات السلع المصنعة ٨٥٪ من إجمالي الصادرات.. وتمكّنت ماليزيا فى سنوات قليلة أن تصنع سياراتها الخاصة، وأصبحت تصدر فائضا من هذا المنتج إلى الدول الأخرى، لتنافس به السيارات اليابانية والأوربية والاسترالية.. فقد اكتسبت السيارات الماليزية سمعة عالمية لبساطتها وأناقتها واقتصادها فى استهلاك البترول.. وكانت النتيجة الطبيعية لهذا التطور أن انخفضت نسبة الذين يعيشون تحت خط الفقر من ٥٢٪ سنة ١٩٧٠، إلى ٥٪ فقط سنة٢٠٠٢، وارتفع متوسط دخل المواطن الماليزي من ١٢٤٧ دولارا في سنة١٩٧٠ إلى ٨٨٦٢ دولارا في عام ٢٠٠٢، وانخفضت نسبة البطالة إلى ٣٪...

فى تلك الفترة الزمنية نفسها كانت معاول الهدم تعمل فى تخريب مصر وتدمير مؤسساتها ونهب مواردها وإخضاعها للقوى الأجنبية، حتى وصلت إلى الحال الذى انتهينا إليه يوم انطلاق الثورة.. حدث هذا بفعل عصابة من قُطّاع الطريق، سطت على السلطة والثروة، ولا تزال تتشبث بأظافرها فى كل موقع.. تحاول جرَّ مصر ستين عاما إلى الوراء..

رفض مهاتير العولمة لانها وُجدت لإجبار الدول النامية على فتح أسواقها نهبًا لاحتكارات الشركات الامريكية العملاقة .. ورفض فكرة الخصخصة نهائيا، ورأى أنه لا يجوز أن نتقبّل اي افكار او سياسات لمجرد انها صادرة من الغرب، و رفض تطبيق السياسات التي اوصى بها صندوق النقد الدولي اثناء الأزمة المالية التى اجتاحت دول النمور الآسيوية؛ فقد تعرضت العملة الماليزية، الى مضاربات واسعة بهدف تخفيض قيمتها، وظهرت عمليات تحويل واسعة للنقد الأجنبيّ الى خارج ماليزيا، وبدا أن النجاح الذي حققته على وشك التحول الى فشل. . ومن ثم أصدرت حكومته مجموعة قرارات تهدف الى فرض قيود على التحويلات النقدية، خاصةً الحسابات التي يملكها غير المقيمين، وفرض اسعار صرف محددة لبعض المعاملات، ورفض نصائح البنك الدوليّ، الذى انتقد ماليزيا بعنف، وتابعته فى هذا وسائل الإعلام الأمريكية..

كان الأميركيون يرون الحل فى أن تقوم ماليزيا ببيع شركاتها وبنوكها بأرخص الأثمان للمستثمرين الأجانب (كما فعلت مصر)، تجنُّبًا للخسائر والإفلاس الموهوم ، ولكن مهاتير محمد صمد فى وجه العاصفة، وأثبت أن خطته أنجح، وأن أمريكا نفسها فشلت فشلا ذريعًا فى مواجهة الأزمة المالية المشهورة باسم "أزمة الرهن العقاريّ"..لم تبع بنوكها الخاسرة، ولكنها أفلست وكان إغلاق بنك "ليمان براذر" مؤشّرًا على ذلك...!

حول هذه الوقائع جرت مُلاسنات حادة بين مهاتير محمد وبين الصحفي الأمريكي توماس فريدمان ، فلما انتصرت سياسة مهاتير، وفشلت أمريكا، كتب يَتَهَكّم عليه: "عذرا أيها الأبْله.. فمقولتكم عن انحسار دور الدولة فى إدارة الاقتصاد -التي روّجْتَ لها فى كتاباتك- ما هي إلا خرافة، والقطيع الالكتروني من المتاجرين المجهولين بالعملات والأسهم والسندات، الذين تحدثتْ عنهم أدى إلى انهياركم، وإلى تكبيد دول العالم التى وثِقَتْ فيكم- تريليونات الدولارات من الخسائر... [دول الخليج وحدها خسرت ٦٠مليار دولار فى أزمة الرهن العقاري، وتداعياتها فى سنتى ٢٠٠٧/٢٠٠٨ التى أجبرت البنوك الأمريكية على خفض قيمة الدولار].

كان لمهاتير محمد آراء جريئة فى السياسات الدولية.. هاجم فيها أمريكا وإسرائيل، -فى مؤتمرات دولية- على جرائم الإبادة التى تقع على الفلسطينيين، وكانت له أفكار صائبة بشأن الإصلاح المالي؛ فاقترح على الدول الإسلامية أن تُنْشِئَ عملةً جديدة للتعامل بها -وهى الدينار الذهبي- بدلا من الدولار الأمريكي.. فكرة صائبة فى الصميم، ولكنها سبقت عصرها بعشرين سنة على الأقل...!

أَعْلَمُ أن إنهاض مصر من كبوتها وتحقيق نهضتها لن يسير بنفس السلاسة التى سارت بها ماليزيا، وذلك راجع إلى سببين أساسيّين: الأول- هو أن الميراث الاستعماري فى ماليزيا كان أهون وأخفَّ وطأة من ميراث مبارك وعصابته، الذين لا يزالون يخرّبون، ويضعون العراقيل أمام كل خطوة نخطوها نحو التطهير والإصلاح، وقد انضم إليهم جبهة التخريب.. والسبب الثانى هو أن نجاح مصر ونهضتها يعتبرهما العدوّ الأمريكي الصهيونيّ خطرا يجب القضاء عليه .. ولذلك تتآزر جهود الجميع فى الداخل والخارج لتكبيل المارد المصري حتى لا ينطلق من عِقاله.. فهل ينجحون..؟! أنا واثق أنّ تَعَافِي مصر وانطلاقها -رغم كل العوائق- واقع لا محالة.. ولكنِّى أعتقد أيضا أن خطواتنا ستكون أبطأ، وأن معاناتنا ستكون أطول، وذلك لعمق الفساد وتجذُّره، ومن ثَمَّ نحتاج إلى مزيد من الصبر والتكاتف، حتى تزول الغُمَّة بقدرة الله ومشيئته، وبوعي المخلصين من أبناء هذه الأمة.

******

درس من تركيا

أسوقه للعقلاء ردًّا على أكاذيب الإعلام الفاجر وردْعًا للأقزام المتطاولين على القامات العالية .. وعلى الأخص ذلك الشيخ القزم الذى سب رجب طيّب أردوغان سبّا مقذعًا وافترى عليه افتراءات فاجرة .

المشهد فى تركيا ونقطة الزمن هي سنة ١٩٩٦ خلال حكومة أرْبكان .. هنا : بدأت إرهاصات التغيير على الساحة السياسية فى تركيا ؛ وقد شاع أن حزب أربكان المسمّى (حزب الرفاه) كان حزبا إسلاميا .. و تلك ظاهرة شديدة الغرابة فى محيط سياسي واجتماعى ترسّخت فيه لعقود طويلة علمانية غليظة الرقبة منذ كمال أتاتورك ؛ حيث توالت على السلطة فى تركيا أحزاب سياسية ذات توجهات قومية وعلمانية شرسة .. تنهض ضد كل ماهو إسلامي أو عربي .. ومع أمريكا وإسرائيل فى كل سياساتها المعادية للعرب والمسلمين .. وهى توجهات كان يدعمها الجيش التركى ، و على وجه الدقة والتحديد جنرالات الجيش التركي ، الذى كان بحكم الدستور صاحب اليد العليا فى المشهد السياسي ، وحامى حمى العلمانية ، والأمين على تراث أتاتورك الإلحادي ..

هذه التركيبة من قيادات الأحزاب والجنرالات و كبار رجال المال والأعمال كانت تمثّل فى تركيا طبقة المترفين الفاسدين ، الذين احتكروا السلطة والثروة وأفسدوا كل شيء فى تركيا على مدى ما يقرب من ثمانين عاما .. وقد ظلت تركيا تتدهور وتنحط حتى بلغت الحضيض .. انهار إقتصادها .. وانهارت عُملتها وسُمْعَتُها فى العالم .. حتى جاء أربكان وأخذ يعيد بعض التوازن إلى الحياة السياسية والاقتصادية .. واستطاع فى فترة قصيرة أن يحقق إصلاحات ملموسة فى الداخل وفى سياسة تركيا الخارجية ..

وكانت له طموحات كبيرة فى التنسيق والتعاون مع الدول المسلمة .. وقد خطا فى هذا السبيل خطوات جريئة .. وكان هو نفسه رجلا جريئا وصريحا ، ربما أكثر مما تحتمله تلك المرحلة .. فلم يكن يعمل حسابا لشراسة الطبقة التى اعتادت السيطرة على الحكم ، ولم يقدّر سطوة جنرالات الجيش حق قدرها ،

فأطاحوا به، واستصدروا حكما قضائيًّا بحرمانه من مزاولة أى نشاط سياسي .. ولم يكن قد تجاوز العامين فى الحكم .. ولكنه على أى حال كان أوفر حظا من رؤساء سابقين ثار عليهم الجيش وقتلهم ..

يلاحظ المراقب للساحة السياسية فى عهد أربكان ظاهرة شديدة البروز والغرابة أيضا .. خصوصا فى قلب نظام فاسد اعتاد على السلب والنهب وإهدار المال العام وإهمال مصالح جماهير الشعب الحيوية ، حتى أصبحت اسطنبول وهى أكبر مدن تركيا مدينة معوّقة .. يعانى سكانها من سوء الخدمات والانقطاع المتكرّر للمياه والكهرباء ، ومن غلاء المعيشة .. والتّسيّب وضعف سلطة القانون وانتشار الجرائم والدعارة .. أما الظاهرة العجيبة التى أشرت إليها فكان يمثّلها شخصية رجب طيب أردوغان محافظ أسطنبول فى عهد أربكان .. فما الذى فعله هذا الرجل فى هذه المدينة وفى غضون فترة قصيرة من الزمن ..؟

لقد أعاد أردوغان الحياة إلى مدينة كبرى -كنتُ شاهدًا على احتضارها عندما قمت بزيارتها فى سنة ١٩٨١م ؛ وتحسّرت على مدينة عالمية كبرى تشهد آثارها ومآذنها السامقة بأنها كانت عاصمة لإمبراطورية عظمى ودولة كانت -لعدة قرون- هي العالم الأول المزدهر بينما كانت مدن أوربا كلها تعيش فى مستنقعات الجهل والتخلف والقذارة..

أصلح أردوغان مرافقها فعادت إلى بيوتها المياه والكهرباء بلا انقطاع .. وانتهت مشاكل نقص الخبز ومواد الغذاء الشعبي .. وانفرجت أمام المواطنين العاديين فرص العمل والزواج والسكن والتعليم .. حتى الدعارة كانت له فيها حلول عبقرية؛ فلم يلجأ إلى إصدار القوانين القهرية التى عادةً ما تفشل .

كان أردوغان بحكم تربيته الأسرية وتعليمه الإسلامي ، ولعمق فهمه للفطرة الإنسانية ، مؤمنا بأن فى الإنسان مهما تورّط فى الآثام بذرة خير مطمورة فى أعماقه .. قد تكون مهملة أو نائمة ؛ ومن ثَمّ تحتاج إلى من يوقظها ويقوّيها ويحسن التعامل معها ، باللين وتوفير القدوة الحسنة .. وفتح أبواب كسب الرزق الحلال .. وهذا ما حاوله أردوغان لمحاربة الرذيلة والفسق فى اسطنبول..

وعندما سأله الصحفيون الغربيون : كيف استطعت أن تصنع هذه المعجزات ، فى وقت قصير ، وقد كانت الحكومات السابقة تتذرّع لعجزها عن الاصلاح بنقص الاعتمادات المالية .. فمن أين جئت بكل هذه الأموال ..؟! ترى ماذا كان جواب الطيب أردوغان ..؟

قال الرجل العظيم ببساطة وتواضع: كل ما فعلناه أننا أغلقنا أبواب الفساد فى الإدارة الحكومية ، وضربنا على أيدى الناهبين لمنعهم من نهب المال العام .. فتوفّرت لدينا أموال كثيرة ، كانت كافية للأنفاق على كل هذه الاصلاحات .. وبدأنا نحسّن حياة الناس ونساعد الشباب الراغبين فى الزواج على تحقيق أحلامهم فى الزواج والاستقرار والعمل .

لم يكن الأمر إذن كما وصفه –شيخ الضلال والإفك– ذا علاقة بدعاية انتخابية أو تشكيل أنصار سياسيين من المومسات وروّاد بيوت الدعارة كما يقول الشيخ الفاجر.. وإنما جهاد مخلص لوجه الله فى إصلاح مجتمع مريض تكالبت عليه –عقودًا من الزمن– قوى الفساد والافساد: من سياسيين زنادقة كَذَبَة وشيوخ منافقين أفّاقين من أمثال هذا الشيخ ، وإعلام فاجر ليس له صناعة إلا الترويج للأكاذيب ونشر الرذيلة والفسق وإشاعة الفحشاء بين الناس.

لقد استطاع أردوغان وصحبه بالقدوة الصالحة وبدأبهم فى السعى على مصالح الناس ورعاية شئونهم ، وبسياساتهم الرشيدة أن يبثّوا الأمل فى نفوس الناس ، وأن يحرّكوا المجتمع كله .. وأن يساعدوا الشباب على إبراز أقصى طاقاتهم فى العمل والانتاج والخدمة العامة .. لا بالأناشيد الوطنية الغبية ولكن بالعمل والانجاز وإتاحة التمتع بثمرات هذا الانجاز لكل العاملين المجتهدين..

وكانت هذه التجربة العبقرية هى التى لفتت أنظار الشعب التركي إلى قيمة هذا الرجل وصحبه .. وإلى أن الأمل فى التغيير و الإصلاح ممكن إذا طرح الشعب جانبا طبقة الحكام المفسدين المترفين ، واختار لحكمه وإدارة شئونه هذه النخبة من الرجال الأتقياء الأنقياء .. وقد فعل .. أما بقية القصة فنحن نعلمها ، ونعرف ماذا يفعل أردوغان وصحبه الآن فى تركيا .. إنهم رجال عقلاء استطاعوا باللين والحكمة أن يقلّموا أظافر الدكتاتورية العسكرية والسياسية،

وأن يحجّموا دور الجيش فى السياسة والحياة العامة ، دون تصادم أو تناطح مع هذه القوى الباطشة، وأن يهذّبوا العلمانية البشعة ..

وقد استطاعوا أن يقنعوا الشعب التركيّ بتفسيرهم الخاص للعلمانية .. وأن ينهضوا باقتصاد بلادهم .. ويحققوا كرامة شعبهم .. ويضعوا تركيا على خريطة القيادة والريادة على المستويين الإقليمي والدوليّ .. (لمزيد من التفاصيل إقرأ إن شئت مقالتين لى فى مجلّة المختار الإسلامي ومواقع أخرى إلكترونية .. إحداهما عن تجربة حزب العدالة والتنمية ، والثانية بعنوان: تركيا على أبواب الاتحاد الأوربي).

أصبحت أخبار أردوغان تملأ الصحافة والإعلام العالميّ ، بمزيد من الاحترام والاعجاب الشعبيّ والرسميّ: رأينا موقفه الإنساني الشجاع من قضية العدوان الإسرائيلي على غزة ، ورأيناه يذرف الدموع وهو يزور جرحى الحرب الفلسطينيين فى المستشفيات، ورأيناه يدافع عن قضيتهم فى المحافل الدولية .. ورأيناه يلقّن بيريز رئيس الكيان الصهيونى درسا فى منتدى دافوس العالمي .. ورأيناه ينفتح على جيرانه ويمد يده للتعاون والتنسيق بين القوى السياسية الفاعلة فى المنطقة ، ورأينا موقفه الإنساني من احتضان اللاجئين السوريين ، وإيوائهم ، ومعارضته القوية لطغيان بشار الأسد وجرائمه ضد شعبه .. لم يهادن ولم يتخلّ عن مبادئه الأخلاقية تحت أي ذريعة أو فلسفة سياسية مارقة.

يسانده فى سياساته الرشيدة شعب قويّ استعاد وعيه ورشده ، وتدعّمه قوة فكرية جديدة متفتحة ، يمثلها وزير خارجيته [رئيس وزرائه الحالي] ونخبة من المفكرين الاستراتيجين العظام من حزب العدالة والتنمية .. بينما تعاني دول عربية كبرى من العقم الفكرى والضلال والاضطراب .. ولا تفرز إلا شخصيات قميئة وسياسات غبية ، لا تأتى إلا بالفضائح والخزى، ولا تجلب إلا الخراب .. ولا تنتج إلا الشقاق .. ولو ذهبت تحلل مواقفها وسياساتها تحليلا نفسيا واجتماعيا لوجدت نفسك أمام كيانات تسعى إلى الانتحار باندفاع أعمى.

لو رجعنا إلى المشهد التركي لتحققنا أن عهد حزب العدالة والتنمية فى تركيا هو صفحة جديدة غير مسبوقة فى التطور التاريخي لهذا البلد .. لقد انطوت

صفحة دكتاتورية الجنرالات، و انهارت العلمانية البشعة بسقوط "بولانت أجاويد" آخر ممثليها .. لقد آذنت منظومة المترفين الفاسدين المفسدين فى السلطة والمجتمع على الزوال ، وانبثق في تركيا فجر جديد .. أعتقد أن أصحابه يتمتعون بقدر كاف من الحكمة والحنكة والرؤية الواضحة ما يؤهلهم لقيادة بلادهم فى أشد الظروف قسوة واضطرابا .. فهؤلاء الناس لا تُعمي بصائرَهم الأهواء أوالمطامع الشخصية عن المصالح الحقيقية لبلادهم وشعبهم ، ولا تستبد بهم هواجس التوريث والرغبة العارمة للانفراد بالسلطة، ويستخدمون التغييرات الدستورية والقانونونية لا لتأبيد احتكار السلطة ، وإنما لتكبيل القوى المعادية للديمقراطية والحرية ، التى دأبت على احتقار القانون وتجاوزه والاستهانة بالشعب ومصالحه وكرامته .

أحسب أن قادة حزب العدالة والتنمية قد وعَوْا حكمة "محمد إقبال" أحد فلاسفة الإسلام العظام فى العصر الحديث حيث قال: " هناك طريقان ممكنان لتوجيه البشر إلى الرُّقيّ : العمل من خلال التنظيم ، والعمل فى الضمائر الفردية ، وكان فوز الدين فى الماضى ناتجا عن جمعه بين هذين النمطين من العمل " .

و أحسب أنهم قد تمثّلوا حكمة منسوبةً لعليّ بن أبى طالب رضى الله عنه تقول: " إن الأرض لا تخلو من قائم لله بالحُجّة ... وإن حجج الله تعالى هم أعلام الحق والفضيلة ومُثل العدل والخير ، فمنهم العالِم المستقلّ بالدليل وإن سخط المقلّدون ، والحاكم المُقيم للعدل وإن كثر حوله الجائرون ، والمصلح لما فسد من الأخلاق والآداب وإن غَلَب المفسدون ، والباذل لروحه حتى يُقتل فى سبيل الحق وإن أحجم الجبناء والمُراءون ... ".

******

الطاعة في الإيذاء والتعذيب

تبدو بعض الأسئلة مربكة فلا تجد لها إجابة فورية حاضرة فى ذهنك لأنك لم تتوقّع أسئلة عن أشياء تبدو الإجابة عنها بديهية باتفاق كل الناس .. خذ على ذلك مثالين:

-لماذا تفتح عينيك وأنت سائر في الطريق..؟.. أو: لماذا ينبغي أن تهتم بنظافتك الشخصية وبنظافة المكان الذي تعيش فيه..؟.. العقل يتوقع بدلا من ذلك أن يكون السؤال استنكاريًّا على هذا النحو: لماذ تغلق عينيك وأنت سائر..؟ إنك تعرِّض نفسك لخطر أكيد..! .. ولماذا لاتهتم بنظافتك الشخصية، ونظافة المكان الذى تعيش فيه..؟ ألا تخشى مخاطر التلوّث والأمراض..؟! هكذا...

ولكن هناك أسئلة أخرى معقدة تحتاج الإجابة عليها إلى قدر كبير من إعمال العقل، وقد تحتاج إلى تجربة حياة بأكملها، من هذه الأسئلة: كيف يتسنى لأناس من البشر أن يطيعوا أوامر آخرين لإيذاء أو تعذيب أو قتل أناس لم يسيئوا إليهم قط..؟..

ويرتبط بهذا سؤال آخر وهو: كيف يواصل من يقوم بالتعذيب عمله الوحشي وهو يشاهد بعينيه أثر التعذيب على ضحيته ويسمع أنينه واسترحامه..؟..

ربما كانت الإجابة السهلة التى ترد على الذهن أن الشخص الذي يقوم بتعذيب إنسان آخر استجابةً لأوامر رئيسه ، هو شخص شاذ ؛ به خلل فى عقله أو شرير بطبعه..!..

ولكن العلماء لا يكتفون عادة بمثل هذه الإجابات البسيطة دون تمحيص، فهي إجابات غامضة وساذجة وقد تكون خاطئة أيضًا.

وكما يحاول المفكرون والأدباء الإجابة على مثل هذه الأسئلة بالغوص في أعماق النفوس وطبائع البشر ، ويخلعون على العلاقات الإنسانية دلالات

مأساوية وقِيَمٌ أخلاقية ، فإن للعلماء مناهجهم الخاصة في الوصول إلى الحقائق؛ وذلك بطرح الفروض وتحقيقها، ومن هؤلاء "ستانلي ميلْجرام" ، وهو من علماء النفس الأمريكيين الذي نشر دراستين متكاملتين في هذا الموضوع ؛ نُشرت الدراسة الأولى سنة ١٩٦٣م بمجلة "علم النفس الاجتماعي والمرضى" بعنوان: "دراسة لسلوك الطاعة"، ونشرت الثانية سنة ١٩٧٤م ، خصَّصَ لها كتابًا كاملًا بعنوان: "طاعة السلطة .. نظرةٌ تجريبية".

في الدراسة الأولى وجد "ستانلي ميلْجرام" أن الأشخاص الذين ينحدرون من أسر تؤكد في تنشئتها للأطفال على الطاعة المطلقة سوف يميلون في – سن النضج – إلى إطاعة أوامر السلطة في إيذاء أشخاص آخرين دون تردد أو نقاش، ذلك بشرط أن تكون الجائزة التي تلوّح بها السلطة في حالة الطاعة تربو على التوتر النفسي الناتج من هذه الطاعة ؛ كأن الشخص المكلف بالتعذيب يقوم بعملية موازنة بين الحوافز التي تشتمل على الاستحسان الاجتماعي من الرؤساء ، وعلى العائد المادي والمركز الوظيفي ، إلى غير ذلك من مكاسب موعودة ، وبين التوترات النفسية التي قد تصيبه بسبب قيامه بتعذيب إنسان آخر لم يوجه إليه شخصيًا أي أذى، خصوصًا إذا كان التعذيب مباشرًا وجهًا لوجه.

أما الدراسة الثانية فكان موضوعها: أثر العقوبات في عملية التعليم الإنساني، وقد صمّم لهذه الدراسة مجموعة من التجارب أصبحت تعرف باسمه ؛ استدعى فيها ميلْجرام أشخاصًا متطوعين لتجاربه من خلال إعلانات صحفية .. وكان يقوم بالتجربة اثنان: واحد يقوم بدور المعلِّم والآخر دور المتعلم، وحقيقة الأمر أنه أسند دور المعلم أو الوسيط إلى المتطوعين أما المتعلم فكان ممثلًا محترفًا استأجره ميلجرام ليؤدى هذا الدور؛ حيث قدمه ميلجرام إلى المتطوعين باعتباره رجلًا في السابعة والأربعين من عمره يعمل في وظيفة محاسب وله تاريخ سابق في الإصابة بأزمات قلبية.

كانت التعليمات تقتضي أن يعاقب الوسيطُ الشخصَ المتعلم بالصدمة الكهربائية على كل إجابة خاطئة للأسئلة المعدّة سابقًا لهذا الاختبار .. ومن حق

الوسطاء أن يرفعوا جرعة الصدمة الكهربائية تدريجيًا من ١٠٠ فولت إلى ٤٥٠ فولت كلما كرر المتعلم أخطاءه.

في أثناء التجربة كان الشخص المتعلم يجلس بعيدًا في غرفة زجاجية مغلقة حيث يتم التخاطب من خلال ميكروفونات. وكان في التجربة خدعة لا يعرفها الوسطاء وهي أنه لم يكن هناك صدمات كهربائية حقيقية، ولكن ميلجرام كان قد جهز شريط تسجيل بصوت الممثل، بحيث إذا ضغط الوسيط على المفتاح الذى يشير إلى ١٢٠ فولت يصيح المتعلم: آه .. الصدمة مؤلمة .. فإذا ضغط الوسيط مفتاح ١٥٠ فولت سمع صوت المتعلم يقول: أريد أن أخرج من التجربة فإذا وصلت العقوبة إلى ١٨٠ فولت سمع صياحه يقول: لم أعد احتمل الألم ..!، فإذا وصلت إلى ٣٠٠ فولت صاح "كفى .. كَفَى..!

أما إذا تجاوزت العقوبة ٣٠٠ فولت فإن المتعلم يفقد الوعي فلا يستجيب ولا يُسمع له صوت.. [تذكَّر أن الوسطاء يعرفون مسبقًا أن الرجل مريض بالقلب]، ولكن التعليمات لديهم كانت تقول: إن عدم الاستجابة معناها إجابة خاطئة تستحق العقوبة ومعنى هذا أن عليهم القيام بضغط المفاتيح حتى تصل الصدمة الكهربائية إلى ذروتها، وهي ٤٥٠ فولت، وقد فعلوا.. رغم علمهم بخطورة فعلهم على حياة الرجل...!

قبل أن يبدأ ميلجرام تجاربه قام بدراسة لمجموعة من المعالجين النفسيين بكليات الطب في جامعات أمريكية كبرى، قدم إليهم استبيانًا سألهم فيه أن يتنبأوا بتصرف البشر في هذه التجربة فكانت إجاباتهم كالآتى: إن الوسيط سيرفض الاستمرار في إيقاع العقوبات بعد صدمة ١٢٠ فولت، ولكنهم اعترفوا بأن قلة من السيكوباتيين والساديِّين (من أصحاب العاهات النفسية) قد تذهب أبعد من هذه النقطة .. وأن قلةً قليلة جدًّا هي التي يمكن أن تصل إلي ٤٥٠ فولت في عقوبةٍ لأخٍ لهم في الإنسانية..!

فماذا كانت النتيجة الواقعية التي حصل عليها ميلجرام من تجاربه..؟ -لقد وصل ٦٥٪ من الوسطاء في توقيع العقوبة إلى ٤٥٠ فولت، وهي الحد الأقصى للعقوبة.

نلاحظ في هذه التجارب الكاشفة أن أفراد العينة من الوسطاء لم يتم تهديدهم، ولا كان هناك أي معقِّبات سلبية يمكن أن تترتب علي عصيانهم للأوامر .. ومع ذلك مضوْا في الطاعة وتنفيذ التعليمات إلى أقصي المدى .. حتى عندما تبين لهم أن هناك إشارات واضحة من الألم الشديد عبّر عنها الشخص موضوع التجربة (الذي يقوم بدور المتعلم) .

لقد لاحظ ميلْجرام أن الوسطاء كانوا يتصببون عرقًا وأن بعضهم كان يقضم شفتيه بأسنانه، وكان البعض الآخر يضرب كفًّا بكفّ .. ولكنهم جميعًا استمروا ينفذون التعليمات في طاعة كاملة وهم يدركون أو يتصورون أنهم يوقعون الألم الشديد بهذا المسكين الذي لا حول له ولا قوة..!

وهنا يتبادر إلي أذهاننا هذا السؤال: لماذا؟ لماذا يطيع بعض الناس الأوامر الصادرة إليهم لإيذاء الآخرين؟.

يحاول ستانلي ميلجرام أن يقدم إجابة لهذا السؤال حيث ، يناقش عددًا من العوامل النفسية والاجتماعية والتربوية التي تدعم هذا الاتجاه عند بعض الناس دون البعض الآخر.. وقد وجد أن من أبرز هذه العوامل أن تصدر التعليمات من شخصية تمثل السلطة أو تكون رمزا لسلطة ما ..

ولا يُشترط هنا أن يكون رمز السلطة ضابطًا في الشرطة ، بل يمكن أن يكون أكاديميًّا أو أي شخص يرتدى مِعْطَفًا أبيض اللون علامة على الاشتغال بالعلم والأبحاث..

ولكن الأهمية الكبرى لهذه الدراسات أنها كشفت لنا إلي أي مدي يمكن أن يذهب أناس في إيذاء وتعذيب أناس آخرين لم يُؤْذوهم من قبل ، بل لم يسبق لهم رؤيتهم ، فقط لتنفيذ تعليمات صاحب سلطة..! كما أظهرت الدراسة أنه ليس من الضروري وجود أي عقوبة أو جائزة تترتب علي الطاعة في تنفيذ التعليمات أو عدم الطاعة ، فما بالك لو كان هناك عقوبات رادعة لعدم الطاعة وجوائز علي تنفيذ التعليمات..؟!.

هنا أودُّ أن أسجل ملاحظة هامة:

لقد طُبِّقَتْ تجارب ميلْجرام هذه في عدد من البلاد خارج الولايات المتحدة ووصلت إلي نفس النتائج .. من هذه البلاد: ألمانيا وإيطاليا وأسبانيا والأردن؛ وقد تبين أنه في بعض الحالات عندما رفض شخص واحد من المجموعة تنفيذ الأوامر مبديًا عدم اقتناعه ، انخفضت استجابة الطاعة بدرجة ملحوظة عند بقية أفراد المجموعة. ولهذا الموقف معنى خطير لابد أن يستوقف العقل للتفكير والتأمُّل .. شخص واحد فقط يقول: لا..! يمكن أن يشجع عددًا آخر من الناس على الرفض أو التمرد.

جرت العادة فى أوساط الباحثين والمعنيِّين بهذه الدراسات أن يأخذوا النتائج التي توصل إليها ميلْجرام علي أنها تُثْبِتُ: "أنه تحت ظروف معينة سوف نجد أن كثرة من البشر يتبعون الأوامر المدمرة دون تردد ولا مناقشة، وأن هناك أناس أكثر قابلية واستجابة للضغوط من آخرين .. ولكن موقف الرفض -على ندرته- له أهميته القصوى في نشوء المقاومة وثقافة المقاومة".

ولقد حسم الإسلام هذه القضية حسمًا نهائيًا بقاعدته الأساسية أنه "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق" .. والمهم أن يكون الإسلام النقيّ حاضرًا في الأنفس حضورًا قويًا واضحًا لا لبس فيه..!

لفيلسوف الإسلام علي عزت بيجوفيتش لمحة دقيقة فى أغوار النفس الإنسانية يقول فيها: "المساحة الجوانية للإنسان مساحة شاسعة تكاد تكون لانهائية .. فالإنسان قادر علي أبشع أنواع الجرائم ، وعلى أنبل التضحيات وأسمى الأعمال"..!

ويقول الفيلسوف اليوناني أفلاطون: "إذا لم يُعْنَ الأبرار بالشئون العامة فإنهم يُعاقَبون علي هذا الإهمال بخضوعهم لحُكَّامٍ أشرار".

والمهم .. أنه فى ضوء ما عرفنا من تجارب "ستانلى ميلْجرام" لا نستغرب هذا السلوك الإجرامي الذى ينطوى على رغبة عارمة فى الإيذاء والتعذيب ، من أناس عاديين ..فقد تبيّن لنا أنه من المـمكن أن يتحوّلوا إلى كائنات شرسة

مفترسة، عندما يرون السلطة التى يُفترض فيها أنها تنفذ القانون فى المجتمع وتحمى أفراده من عدوان الآخرين ؛ هى التى تشجع وتأمر بارتكاب الجرائم ضد المواطنين .. خصوصًا إذا لم يترتب على ذلك تحقيق ولا مساءلة ولا عقوبة، وإنما التشجيع والاستحسان والمكافأة ..

هنا يشعر الممارس للتعذيب أن جميع القيم الأخلاقية والإجتماعية التى نشأ عليها فى أسرته وتربّى عليها فى المدرسة والمجتمع قد إنهارت تماما .. وحل مكانها أوامر السلطة التى تدعّم سلوكه .. لقد أصبحت سلطة الإرهاب والعنف والاستبداد هى مرجعيته العُليا ..

ولعل هذا يفسر لنا إنتشار ظواهر العنف ، والقتل البطئ ، وأعمال التعذيب الوحشية ، التى تجرى فى المعتقلات والسجون وأقسام الشرطة ...! كما يفسر لنا -أيضًا- أنه رغم كل شيء ستكون هناك فئة من الناس يرفضون هذه الوحشية اللامعقولة واللاإنسانية؛ سيقولون: لا .. للقمع ولإرهاب الدولة .. وتلك هي بذرة المقاومة التى تتحول إلى ثقافة متنامية للمقاومة .. تشكم ضراوة السلطة المستبدة..! ، لتضع نهاية محتومة لظاهرة القمع والاستبداد فى المجتمع..!

****

تفكيك الشخصية

لماذا يستلذّ البعض بتعذيب الآخرين..؟

ما هى أسباب شهوة المارينز للعنف والتدمير..؟

كنت أطالع صحيفة التايمز اللندنية يوم ٢ أغسطس ٢٠٠٢م عندما وقع بصري على عنوان بالبنط الكبير: ما الذي لا يقدرون عليه؟ يليه عنوان فرعي: أربعة من القوات الخاصة الأمريكية قتلوا زوجاتهم الشهر الماضي.

مثل هذه الخواطر كانت تدور في عقلي وأنا أبحث عن إجابة لسؤال ملحّ: من أي نسيج بشري صنع هؤلاء الناس ..!؟، لذلك استوقفني عنوان التحقيق الصحفي الذي أشرت إليه آنفا ... غير أننى قبل أن أخوض فى تفاصيل الإجابة على هذا السؤال أود أن أُعرّج على ظاهرة أخرى متصلة بموضوع التعذيب وأعنى بذلك ظاهرة إبادة البشر .. وهى بلاشك أخطر وأبشع من التعذيب إلا إذا كان المقصود بالتعذيب أن يؤدّى بالضحية فى النهاية إلى الموت أو الجنون أو العجز الكلّي مدى الحياة .

لست من هواة قراءة حوادث القتل المثيرة ولكن موضوع القوات الخاصة وجنود المارينز الأمريكيين كان هو الذي يشغل ذهني منذ فترة، وربما يرجع سرهذا الاهتمام إلى الغزو الأمريكي للصومال الذي سُمي حينذاك "بعثة الأمل".. فقد تسمَّر في ذاكرتي ليلة الغزو مشهد تلفازي لم يفارقني: حذاء جندي من المارينز هبط لتوّه على الشاطئ الصومالي تضرب رأس صبي صومالي كان يزحف فى غبشة مابعد الغروب .. لعله كان يتطلع إلى طعام يسد به رمقه .. فذهب إلى الميناء ليحظى بهدية من القادمين في بعثة الأمل فكانت هديته ركْلة بالحذاء فى رأسه..!

لم يكن في جعبة المارينز سوى القتل والقصف والتدمير .. وكانت هذه هديتهم في بعثة الأمل إلى الصوماليين ، وهي نفس الهدية التي حملوها معهم إلى

أفغانستان ولكن على نطاق أوسع وأشد فتكًا ، ثم زادوا عليها من أحدث مخترعاتهم في الغزوة العراقية ...

ولعل أبشع مافى التعذيب [كما يقع بالفطرة فى إدراك الإنسان السّوِيّ] هو التلاقى المباشر بين القائم بعملية التعذيب وبين الضحية وجها لوجه] وهو على يقين بأن من يعذبه لم يقترف ضده إساءة مطلقا .. وليس بينهما عداوة شخصية ولا حتى معرفة سابقة .. فمن أين يأتى بكل هذه الكراهية والعداوة واالقسوة ضد ضحيتة البريئة ..!؟ هذا السؤال طالما أرّقنى طويلا و من ثم بدأت أبحث له عن أساس فى علم النفس وفى كثير من السير الذاتية التى صدرت بأقلام الذين تعرضوا للتعذيب فى أقبية السجون وفى أماكن أخرى من العالم .. ربما من أبرزها مراكز الإعتقال الصربية للمسلمين فى البوسنة .. وكذلك فى بعض الأعمال الأدبية التى لم تفقد صلتها بالتجربة الواقعية ؛ من هذه مثلا قصة "العسكرى الأسود" للأديب الراحل يوسف إدريس ..

ولكن خبراء الإبادة البشرية [مع التقدّم التكنولوجيّ] قد إستطاعوا أن يصمّموا عمليات إبادة جماعية للبشر بطريقة بالغة الذكاء بحيث تتجنب المواجهة الشخصية بين مرتكب الجريمة وبين ضحيته .. فلا تقع الرؤية قبل القتل ولا بعده، أكثر من هذا أن إدارة العملية تحرص على أن تكلّف المجرم بعمل روتينيّ صرف لايمكن أن يرفضه أو يتشكك فيه .. وبذلك تضمن ألا يستيقظ ضميره الشخصي لينغّص عليه الحياة .. وتحافظ فى نفس الوقت على سرية العمليات إلى الأبد .. فكيف نفّذت النازية الهتلرية هذا المخطط الجهنميّ..؟؟

-كانت الأوامر تصدر لمجموعة من الناس بتخصيص عدد من المبانى للإيواء البدائيّ .. ثم توجه لمجموعة أخرى الأمر بتوصيل الغاز الى هذه المبانى وتجعل مفاتيح الغاز فى مكان معين خارجها .. وبعد أن قامت الشرطة بتجميع الضحايا من اليهود والغجر ومن الأعداء الآخرين المتّهمين بمقاومة الزحف النازي المقدّس فى دول أوربا الشرقية .. يأتى دور من يحملهم فى سيارات و يضعهم فى مراكز الإيواء .. ثم يأتى من يأمرهم بخلع ملابسهم ودخول غرف

المعسكر .. ويأتى آخرون كل مهمتهم إغلاق النوافذ والأبواب .. فإذا اطمأنّت إدارة العمليات من تقارير المنفذين أن كل شيئ يسير وفق الخطة تماما .. تبعث بشخص واحد ليس لديه علم بشيئ ليفتح مجمّع صنابير الغاز وهو لايعلم أين يصل هذا الغاز ولا ماذا سيترتّب على عمله ..

الحقيقة أن كل المنفّذين لم يكونوا يعلمون ماسيترتب على أعمالهم ولم يكن هناك أى مبرر حتى للتساؤل لأنها كلها (بالنسبة لمنفّذيها عمليات روتينة عادية).. وهكذا تم تنفيذ واحدة من أبشع عمليات الإبادة الجماعية فى التاريخ الحديث .. فيما اشتهر بإسم الهولوكوست ، الذى خصّصه اليهود لأنفسهم وأقامو عليه أكبر عملية إبتزاز فى العالم .. وهم فى الحقيقة لم يكونوا وحدهم ضحاياه .. ولم يأخذوا هم أنفسهم الموعظة الواجبة منها بل نسجوا على منوالها محرقة جديدة لجيرانهم الفلسطينيين فى غزة المنكوبة .. !!

هذه إذن محرقة بشرية وعملية إبادة جماعية عُذّب فيها الضحايا عذابا أليما وحدهم فى غرف مغلقة ومظلمة .. لم يشهد عذابهم أحد من العالمين .. ولا يستطيع أحد أن يصف لنا عذابهم إلاّ تخيّلا وظنّا وإن الظن لا يغنى عن الحقيقة شيئا ..! والذين قاموا بهذه العملية الرهيبة لم يشاهدوا الضحايا .. ولم يلتقوا بهم وجها لوجه .. كل واحد منهم قام بواجبه وانصرف مستريح الضمير.. ولذلك لا يمكن أن نسال فى هذه الحالة : كيف تسنّى لهؤلاء المجرمين أن يفتكوا بضحايا أبرياء ...؟ فالذين أصدروا قرار الإبادة والذين خططوا لها والمسئولون عنها أناس آخرون لم يبرحوا مكاتبهم .. ولم يروا شيئا مما حدث .. وربما هم أيضا كانو يذهبون إلى مضاجعهم فى كل ليلة بضمائر مستريحة ..!

إنما تنشأ المشكلة الإنسانية حقّا عندما يكون التعذيب وجها لوجه بين المجرم والضحية .. هنا يرتفع السؤال هل الشخص القائم بالتعذيب إنسان سويّ مثلنا ..؟؟ هل به خلل فى عقله بحيث لا يدرك أثر سلوكه الإجرامي المتوحّش على ضحيته البريئة ..؟؟ .. الحقيقة أن الدراسات النفسية والإجتماعية الكثيرة التى أُجريت فى هذا المجال وفى أماكن مختلفة من العالم تؤكد أن الذين قاموابعمليات التعذيب كانوا من بين الأشخاص العاديين الذين لم يُعرف عنهم

(قبل الإنخراط فى التعذيب) أيّ إضطرابات نفسية أو خلل عقلي .. ولكن هذا لم يمنع أن السلطات التى قامت بعمليات تعذيب على نطاق واسع قد لجأت بالفعل إلى شخصيات بالغة الشذوذ لتنفيذ عمليات نوعية ذات خصائص مروَّعة .. أُريد بها أن تحقق أهدافا إرهابية ترويعية بين فئة معينة من الناس .. كما حدث فى عمليات التطهير العرقي التى قام بها الصرب ضد مسلمى البوسنة [بين سنة ١٩٩٢وسنة ١٩٩٤] ... لقد كتبت عن عمليات التطهير العرقي بإسهاب فى كتاب خصصته لحرب البوسنة تحت عنوان "البوسنة فى قلب إعصار" ..

ولكن لم تطاوعنى نفسى أن أتطرّق إلى وقائع تعذيب بالغة الوحشية ولا وقائع إغتصاب لنساء مسلمات وبنات فى سن الطفولة أقدمن على الانتحار لهول الصدمة والبشاعة التى أُنتهكت بها أعراضهن أمام ذويهم .. لم أكن أستطيع أن أكتب عن هذه البشاعات والفظائع .. ولا أستطيع حتى هذه اللحظة أن أكتب عنها رغم مرور خمسة عشرة سنة أو أكثر على هذه الوقائع .. وأكره أن أعود لقراءة الكتب والوثائق التى تحدّثت عنها ...!

ولكنى سوف أتعرض لحالة واحدة من وقائع التعذيب إختير للقيام بها شخص مختلّ العقلية وكنت قد حجبت هذه الحالة عن كتابى المذكور خشية إيلام القارئ بأكثر مما ينبغى .. وسأحجب عن القارئ فقط الصور الفوتوغرافية الأربعة التى أُلتقطت أثناء التعذيب لأن النظر إليها فوق طاقة الإنسان واحتماله..

كتب عن هذه الواقعة الصحفى البريطانى جون مولين فى (الجارديان) أغسطس ١٩٩٢ تحت عنوان " أبشع أنواع التعذيب تمارسها فتاة وهي تضحك " يقول : " إنها فتاة صربية جميلة الوجه فى سن الثامنة عشرة .. من ينظر إليها لا يصدق أنها يمكن أن تقتل فأرًا .. ولكنها فعلت بالبشر أسوأ من القتل .. كانت تستخدم زجاجات مكسورة تفقأ بها عيون أبناء البوسنة الأبرياء المحتجزين فى معسكرات الإبادة بمدينة (برْتشكو).. وقد ذكر أحد البوسنويين الذين تمكّنوا من الهرب من هذا المعسكر بعد أن ألقى بنفسه من فوق السجن فى نهر سا فا

سابحا حتى وصل إلى كرواتيا " أن مونيكا لاتفقأ العيون فقط ولكنها تقطع الأنوف والآذان .. وقد مارست هوايتها البشعة هذه على خمسمائة شاب بسنويّ مكتّفين فى المعسكر ..

مونيكا هذه هى إبنة إمرأة مشهورة بالفجور تدير بيتًا للدعارة فى المدينة .. ويصف ضحايا التعذيب فى المعسكر مونيكا بأنها أكثر المجرمين قسوة فى ممارسة التعذيب ضد الشبان المسلمين .. وأداتها المفضلة فى التعذيب كما أشرنا زجاجة مكسورة تقطع بها فى وجوه ضحاياها وتبقر بطونهم .. تفعل كل هذا وهي تضحك كأنها تستمتع بهذه الأعمال الوحشية ..

هذان إذن نموذجان من القائمين بعمليات التعذيب البشري : النموذج النازي الهتلري ونموذج مونيكا الصربية .. كلاهما لايدخل فى إطار بحثنا .. لأن النموذج الأول لا يدرك فيه أصحابه حقيقة أنهم يساهمون بأعمالهم فى إرتكاب جريمة بالغة البشاعة .. فقد نجح مخططوها فى تفتيت الجريمة إلى عمليات ومهمات صغيرة منفصلة بعضها عن بعض بحيث تبدو كل عملية وكأنها مهمة عادية بريئة لاغبار عليها يقوم بها صاحبها وهو خالى الذهن .. أما النموذج الصربي فمونيكا تعلم حقيقة ماتفعل وتستعذبه لأنها مضطربة العقل .. وقد تكون من النوع الذى لا يعانى من أي إضطرابات عقلية أو نفسية .. مما يصنّفه العلماء تحت إسم "السلوك السيكوباتيّ " وهو نوع من الإضطرابات العميقة فى الشخصية .. يصفونها ولكنهم لا يعرفون لها علاجا .. وهو ما أرجّحه فى حالة مونيكا الصربية ..

ربما لو تأمّلنا فى نموذج صربي آخر نقترب من فهم كيفية تحويل أناس عاديين أسوياء إلى مجرمين وقتلة تحت تأثير ظروف معينة .. وأقتبس هذه الواقعة من كتابى سابق الذكر: فى القرى والبلدات التى كان يعيش فيها الصرب الأرثوذكس والبشناق المسلمون جنبا إلى جنب فى وُدّ وسلام جيرانا متعارفين ومتعاونين كان الصرب يستنكرون ما تقوم به المليشيات الصربية المسلحة من أعمال عنف وإرهاب ضد السكان المسلمين .. فلما دخلت المليشيات بلدتهم إنقلبت الأمور رأسا على عقب .. فما الذى حدث..؟! -لما رفض السكان

الصرب الإنضمام إلى فرق المليشيات اقتحم بعض أفراد من قادتها بيوتهم عُنوة فكانوا يخرجون رجلا من الأسرة ويقدّمون إليه سلاحا .. قد تكون بندقية أو مجرد سكّين حادّ .. ثم يأمرونه بالذهاب فورا إلى منزل جاره ليقتله فإذا إمتنع الرجل قتلوه بالرصاص أمام أسرته ..

ويعترف جنود المليشيات الصربية للصحفيين الأجانب باستهانة واستخفاف شديدين بأن قتل إثنين أو ثلاثة من الصرب الرافضين كفيل بجعل الرابع والخامس يُذعن للأوامر بلا مناقشة .. بل يأتي الواحد منهم إلينا بعد أن قتل جاره ليسألنا : من تريدونني قتله من المسلمين ..؟؟ .. وهكذا بمجرد أن يمارس الشخص العادى عملية القتل مرة أو مرتين حتى يدخل فى دائرة العنف التى لاتنتهى عند حدّ... [إنتهى الإقتباس] ..

فقط لى هنا ملاحظة فى تفسير هذه الظاهرة الصادمة .. وهى أن الإنسان العادي يمكن تحت ظروف معينة أن يتحول إلى كائن شرس مفترس حتى لجيرانه .. تتميّز هذه الظروف بانهيار الضبط الإجتماعى عندما يرى السلطة التى يفترض فيها أنها تنفذ القانون وتحمى أفراده من عدوان الآخرين ، هى التى تشجع وتأمر بارتكاب الجرائم ضد المواطنين الآخرين .. ثم ياتى شعوره بعد إرتكاب جريمته الشنعاء وممارسته العملية الجنائية دون أن يترتب عليها أى عقاب أو مساءلة بل يلقى التشجيع والاستحسان .. هنا تكون كل القيم الأخلاقية والإجتماعية التى نشأ عليها فى أسرته وتربّى عليها فى المدرسة والمجتمع قد إنهارت تماما .. وحل مكانها أوامر السلطة الجديدة التى تدعّم سلوكه الجديد لقد أصبحت سلطة الإرهاب والعنف والاستبداد هى مرجعيته المقدّسة ... لعل هذا يفسر لنا الكثير من ظاهرة الخلل وأعمال التعذيب التى تجرى فى المعتقلات العربية وأقسام الشرطة..! ولنعد مع هذه الإضاءة إلى الإجابة عن السؤال الذى طرحناه فى صدر هذه المقالة ...

المارينز وقتل الزوجات:

يتناول التحقيق الصحفى الذى أشرنا إليه (فى صحيفة التايمز اللندنية) قصة عدد من جنود المارينز الذين أقدموا على قتل زوجاتهم بشكل مفاجئ ولأسباب غير مفهومة ... خذ مثلا حالة "براندون فوليد" وهو أحد أفراد [مجموعة الصفوة] في القوات الخاصة تسمى "قوة دلتا" إشتهرت بأنها تحيط أعمالها بدرجة عالية من السرية .. وقد عُرف براندون فلويد بين أصدقائه بأنه شخصية قتالية متميزة ، يصفه زملاؤه بأنه النموذج الأمثل لآلة القتل ، ويسمونه "السيد U.S.A الكامل". يتمتع ببناء جسدي متين وهيأة جميلة وله زوجة على قسط وافر من الجمال... أنجب منها ثلاثة أطفال خلال تسع سنوات من الزواج المستقر، مما جعله في أعين الجميع أسعد رجل في فرقته فكانوا ينظرون إليه بمزيج من الإعجاب والحسد ..

ولكن في ظهيرة يوم قائظ "١٩ من يولية" وكان في مسكنه بمعسكر القوات الخاصة في "فورت براج" تفجّر شئ في رأس براندون بعد مناقشة حادة بينه وبين زوجته "أندريان" فاندفع إلى حقيبته وأخرج مسدسه الأوتوماتيكي وأطلق الرصاص على زوجته فصرعها ثم وضع المسدس في فمه وأطلق الرصاص على جمجمته ففجّرها...

وقع هذا الحادث فور عودة براندون من رحلة عمل طويلة شملت هاييتي والبوسنة وحرب الخليج ، والصومال وكان آخرها في أفغانستان ..

وهكذا يمضى التحقيق الصحفي يحكي لنا تفاصيل جرائم قتل الزوجات التي ارتكبها "وليام رايت" و "ديفيد شانون" (٤٠ سنة وقائد عمليات) و "ريجو برتو"... ثم "سيدريك جريفين" الذي طعن زوجته خمسين طعنة بالسكين... وآخرون.

بعضهم إنتحر بعد قتل زوجته.. ولكنهم (فيما يذكر التحقيق) يشتركون جميعا في كونهم من القوات الخاصة وأنهم عائدون من مهمات قتالية في

أفغانستان، وأن جميع هذه الحوادث كانت مسبوقة بمشاحنات بين الزوجين سمعها الجيران وشاهدها بعض الأصدقاء.

اللافت للنظر هنا هو أن بعض الشهود في تحقيقات الشرطة من الخبراء ومن أقارب الضحايا نبّهوا إلى جوانب أخرى ذات أهمية بالغة، حيث قالت أم "أندريا" زوجة الضابط "براندون فلوريد": "أعتقد أن أسلوب تدريبه وطبيعة هذا التدريب هما السبب الذي أدى إلى هذه الجريمة .. فقد تدرب براندون على فكرة (إذا لم تستطع السيطرة على شخص ما فأقتله) .. وكان براندون يتمتع بسيطرة كاملة على حياته الزوجية .."

آلات قتل:

تقول الخبيرة "دورثى ماكاى" وكانت كابتن سابق في القوات الجوية: "إن القوات المسلحة الأمريكية تدرّب قواتها الخاصة ليتحوّل أفرادها إلى آلات قتل Killing Machines غير عابئة بآثار مثل هذه العقلية على تدمير الحياة الزوجية" وتؤكد الشاهدة أن هذه الحوادث لم تثر دهشتها وإنما كانت متوقّعة.. فقد شهدت السنوات الأربعة الماضية تصعيدا غير مسبوق بين أفراد القوات المسلحة في الإساءة إلى زوجاتهم .. "ولا أظن أن تتحسن هذه الحالة في المستقبل طالما أن القيادات العسكرية تتجاهل إشارات الخطر هذه .. إنهم يدرّبون الأفراد على ممارسة العنف المفرط دون أن يجعلوا له صمام أمان للتنفيث.

وقد كشفت دراسة أجريت سنة ١٩٩٩ إلى أن العنف الأُسريّ بين القوات المسلحة ارتفع بنسبة أكثر من الثلث مقارنة بحالة العنف الأُسريّ بين المدنيين.. وأن تسارع هذه الحالة كان ملحوظا بوضوح منذ واقعة ١١ سبتمبر ٢٠٠١م.

قالت إحدى الزوجات التي عاشت مع زوجها أربعة عشر عاما في حالة من الرضا والسكينة: "عاد زوجي من أفغانستان منسحبا من الحياة الاجتماعية منعزلا بنفسه عن الجميع .. لا يتحدث عن خبراته في أفغانستان لأنه غير مسموح لأحد بالحديث عن ذلك ..! ولكني عرفت من زملائه العائدين أنه قتل أناساً كثيرين هناك .. وقد أصبح مزاجه متقلبا سيئا بدرجة مخيفة"...

هنا يتبادر إلى أذهاننا هذا السؤال كيف يتحول شخص عادي سعيد في أسرته إلى مجرم يمارس أبشع أنواع القتل بلا رحمة ...؟

تعليم التعذيب (النموذج اليوناني):

في دراسة كاشفة حول موضوع "تعليم التعذيب" قام بها باحثان هما "جانيس جيبسون" و "ميكا هاريتوس فاتيوراس" ربما نجد إجابة تتصل بهذا السؤال.

العيّنة التي أجرت عليها الباحثتان دراستهما كانت تتألف من ٢١ جنديا من قوات الشرطة العسكرية اليونانية حوكموا سنة ١٩٧٥ بعد إسقاط النظام العسكري الذي كان يحكم اليونان ، وكانت تهمتهم أنهم انخرطوا في عمليات تعذيب وحشي لمدة سبع سنوات من (١٩٦٧ –١٩٧٤).

إعتمدت الباحثتان على إعترافات المتهمين أمام المحكمة ثم على سلسلة من المقابلات الشخصية معهم.. ولم تجدا في الحياة السابقة للمجرمين أي نزوع أو اتجاه للعنف ولا إضطرابات نفسية ولا جنوح في السلوك.

وتبيّن لهما أن اختيار هؤلاء الأشخاص للقيام بالتعذيب قد تم بناء على عنصرين: أنهم جميعا كانوا يتمتعون ببنية جسدية قوية.. وأنهم نشأوا في أسر تكنّ للشيوعية كراهية ملحوظة .. فيما عدا هذا فقد تمثّلت فيهم القيم العسكرية السائدة في الجيش: الكتمان والطاعة العمياء لرؤسائهم .. بعد ذلك يأتي دور التدريب الذي يعزّز هذه الاستعدادات ويؤكد على الحوافز لتعذيب المعتقلين..

خلال برنامج التدريب الأساسي كان المتدربون يتعرضون لمعاملات قاسية فيُركلون بالأقدام ، وتُصوَّب إليهم اللكمات الموجعة بمناسبة وبغير مناسبة وتُصبّ عليهم اللعنات والإهانات بلا حساب، ويُجبرون على الجري ساعات طويلة حتى تنهار قواهم فيسقطون على الأرض.

فإذا إنتهى برنامج التدريب الأساسي كان عليهم أن يقسموا يمينَ الولاء المطلق لرؤسائهم وهم راكعون على ركبهم ، ولتشجيعهم على ممارسة التعذيب

عمليا كان يُسمح لهم بمشاهدة عمليات التعذيب والمشاركة في توجيه بعض اللكمات إلى المعذّبين كنوع من التدريب العملي .. وفي نهاية الجولة تشترك مجموعة المتدربين في حلقة تعذيب جماعي للمعتقلين تحت إشراف الضابط المدرَّب...

العصي والجزرة:

كانت هناك عقوبات رادعة لمن يتردد في إطاعة الأوامر أو التراخي في تعذيب المعتقلين.. وكان التهديد مستمرا: "أن كل من يخفق أو يتوانى في إيقاع أشد الآلام بالمعذَّبين سوف يتعرض هو نفسه للتعذيب الأليم" – كذلك كان الضباط يحرّضون كلا منهم على أن يكون جاسوسا على الآخرين.. ويشجعونه على تقديم تقارير عن كل بادرة يتراخى فيها أحدهم عن تعذيب السجناء..

من ناحية أخرى كان هناك إلى جانب العصي جزرة مؤكدة، فقد كان القادة يفاخرون بالمبتدئين ويقولون لهم: كم أنتم محظوظون لأنكم أصبحتم أعضاء في مجموعة الأقوياء المهمين الذين يدافعون عن النظام .. ويوحي إليهم القادة بأنهم قد أصبحوا من صنف آخر من الناس مستثنون من الأخلاقيات والفضائل الشائعة بين العوام.. وأن لديهم – بحكم وضعهم الجديد – حصانة أن يتصرفوا بجرأة ضد أي شخص ولو كان من الضباط الأعلى رتبة إذا تشككوا في ولائهم للنظام...

كان شعورهم بالانتماء إلى مجموعة خاصة من النخبة المتميزة يتأكد من خلال اللغة الخاصة المتداولة حولهم والمحاضرات اليومية التي يجرى فيها التأكيد على خطورة الأعداء الذين يحاربهم النظام .. وأنهم ليسوا إلا ديدان وحشرات ينبغي سحقها بالأقدام.

أساليب التعذيب البغيضة كان يطلق عليها أسماء لطيفة تجعلها محبّبة إلى قلوب القائمين بالتعذيب: فالضرب العادي لأحد المعتقلين باللكمات الجماعية هو "حفلة شاي". أما إذا كان الضرب المطلوب بالعصي الغليظة فهذه "حفلة شاي بالجاتوه"!..

والطاعة التامة والإخلاص في تنفيذ أوامر الضابط المختص هما المعيار الذي توزن به كفاءة القائمين بالتعذيب، فالذين يثبتون طاعتهم وإخلاصهم على طول الخط يُعفون من قواعد النظام الصارم الذي تخضع له حياة الجنود العاديين، حيث يُسمح لهم بإطالة شعر الرأس كما يحلو لهم ، وأن يغادروا المعسكر حين يرغبون دون استئذان أو تصريح .. وأن يستخدموا سيارات الجيش الرسمية لقضاء شئونهم الخاصة ، ويستطيعون الحصول على وجبات غذائية متميزة بالمجان من المطاعم .. وكانوا يحصلون على وعود مؤكدة بمنحهم وظائف مدنية محترمة بعد إنتهاء مدة الخدمة العسكرية.

منظومة متكاملة :

هكذا نجد أنفسنا أمام منظومة حياة كاملة مقطوعة الصلة تماماً عن سياق الحياة العامة .. منظومة لها أسرارها وقوانينها الخاصة ولها لغتها ومصطلحاتها الخاصة .. ولها قيمها ومعاييرها وأساليبها في العمل مختلفة عما تعارف عليه الناس في المجتمع العام.

الوظيفة الوحيدة لهذه المنظومة هي القمع والتعذيب، فيها تتم صناعة فئة من البشر ليكونوا أدوات تعذيب وحشي إلى حد القتل .. أدوات تجرّدت من العقل والشعور والضمير، ثم أُطلقت على طائفة أخرى من البشر قُدّر لهم – بلا ذنب ولا جريرة – أن يخضعوا لأهوال من التعذيب والآلام البدنية والنفسية المروعة .. لا حدود لها ولا أمل في توقّفها .. لا شاهد هناك يشهد ولا قانون يردع .. فالقانون الوحيد السائد هو قانون زبانية الجحيم ..

إستطاعت جانيس وميكا شرح قدرة هؤلاء الرجال على تعذيب كائنات بشرية كل يوم على مدى سبعة أعوام كاملة، في ضوء عاملين: الأول أن هؤلاء الرجال تم إدخالهم في عالم التعذيب الرهيب بالتدريج خلال برنامج ذي مراحل، والثاني أن قادتهم قد اتخذوا من الإجراءات ما يكفل ترجيح كفّة المكافآت المصاحبة للطاعة .. على كفّة التوتر النفسي الذي قد ينتج من ممارسة تعذيب الآخرين ..

المارينز (النموذج الأمريكي):

تنتقل "جانيس" و "ميكا" إلى موضوعنا الأساسي وهو "المجندون في البحرية الأمريكية"، فقد وجدتا تشابها ملحوظا بين برامج التدريب التي يمارسونها وبرامج التدريب التي سجلتاها في دراستهما لجنود الشرطة العسكرية اليونانية ، فكلها برامج مبنية على العنف والإرهاق المفرطين .. فالمارينز الجدد يتم عزلهم عزلاً تامّا عن أسرهم وأصدقائهم وعن المجتمع الخارجي بأثره أثناء فترة التدريب ، وذلك لتمكين مجموعة من القواعد والقيم الجديدة في نفوسهم .. فهم معّرضون لعمليات إنهاك مستمر.. واضطهاد وإهانات لفظية وشتائم .. لإشعارهم بأنهم لا قيمة لهم .. لا شئ ..! ويخضعون لتدريبات بدنية بالغة القسوة مشتملة على الجري الإجباري إلى حد الإنهاك مع الحرمان من النوم .. إنهم دائما مرهقون بدرجة لا تسمح لهم بالتفكير الواضح في القيم الجديدة التي يتم غرسها في عقولهم ..

أبسط المخالفات يترتب عليها عقوبات قاسية تتمثل في ساعات إضافية من التدريبات البدنية الشاقة وفقدان الامتيازات المتعلقة بالطعام والنوم .. وهم يتعلمون الإشارة إلى العدو بأسماء إزدرائية، ويحثهم المدربون على الصياح بأعلى أصواتهم أثناء طوابير السير أو الجري بأناشيد وعبارات تمّجد القتل ..

وعندما ينجح المجّندون المتدربون يتم الترحيب بهم أعضاءً في مجموعة النخبة المتميزة، وتتغير أساليب المعاملة ، فبعد أن كان يقال لهم أنكم لا قيمة لكم يبدأ ضباطهم في تمجيد المارينز ويشعرونهم بانتمائهم إلى الفئة الممتازة.. لأنهم استطاعوا أن (يفعلوها..!) كأنهم قد حققوا المعجزة.. لقد استطاعوا تحقيق ذواتهم "الجديدة" بصبرهم على المعاناة وتحمّلهم الإهانات وبصرامتهم وخشونتهم ..

نلاحظ أن العنصر الأساسي أو (المفتاح) لخلق [شخصية آلة التعذيب أو آلة القتل البشرية..] كما في النموذجين اليوناني والأمريكي هو [التدمير المنظم للهوية الشخصية والاحترام الذاتي عند الفرد المتدرّب] . وإحلال بديل عنهما

يتمثل في الشعور المتعالي وتقدير الذات على أساس من العنف . بمعنى آخر: أن هؤلاء الأفراد يتم تفكيكهم بواسطة التدريب المنظم ثم يعاد تركيبهم في شخصية أخرى مختلفة ، يعتقدون أنها أفضل من شخصيتهم السابقة، لمجرد أنهم استطاعوا تحمل وحشية التدريب وعنفه ، ومن ثم يشعرون بأنهم قد أصبحوا مقبولين في مجتمع النخبة المتميزة ..

إنها نفس العملية التي أنتجت من قبل ضباط الرايخ الثالث في عهد النازية الهتلرية، الذين ارتكبوا عمليات قتل وإبادة جماعية بدم بارد. وقد سجل الأطباء النفسيون الذين أجروا دراسات على هؤلاء الضباط بعد الحرب العالمية الثانية أنهم لم يجدوا لديهم أي علامة تشير إلى إضطرابات عقلية ، ومرجع الأمر كله هو عملية التفكيك والتركيب التي أشرنا إليها.

لعل من المفيد هنا أن نشير إلى أهم نظرية في تفسير الإبادة الجماعية التي إرتكبها النازيون والستالينيون ثم الأمريكيون في الوقت الراهن : وهي نظرية عالم النفس المشهور "بوبرت جاى ليفتون" وسوف نجد أنه يؤكد على أن الإبادة الجماعية تستند دائما إلى أيديولوجيات شمولية تقوم على أساس فكر متصلب مطلق .. قد يتغير محتوى هذه الأيديولوجيات ولكنها تنطوي على ملامح مشتركة للسيطرة على الآخرين وتجيز القضاء على غير الأنقياء .. وأزعم أن هذا ليس بعيدا عن الفكر الإمبريالي الأمريكي الجديد ، ولقد عالجت هذه النقطة في عدد من المقالات المنشورة ...

الإرهاب – حسب المفهوم الأمريكي – هو المرض الذي يلوّث العالم ولابد من القضاء عليه، وهم يزعمون أنه إذا تم القضاء على هذا المرض الذي تفشى تعود الأساليب التقليدية للتفاهم العالمي ويسود الشعور بالأمن والعافية ..!

ولكن يحذر علماء النفس من أن عملية التنقية هذه لن تكتمل أبدا وستظل حملات القتل والإبادة تتفجر في كل مكان حيث يسقط مزيد من الضحايا والأبرياء ، فالقضاء التام على هذا المرض عملية مستحيلة طالما أن المرض حالة جوَّانية، ومن ثم تظل التعاسة مسيطرة والرغبة في القتل والإبادة متزايدة ، وتصبح عملية تطهير العالم نوعا من تدمير الذات أو الانتحار الجماعي .. فهذا

الجحيم الذى تصنعه آلات التعذيب البشرية لبعض الضحايا من البشر الآخرين هو سلاح ذو حدين يصيب الضحية أولا ولكنه يرتد إلى صدر الجانى فى مرحلة لاحقة..

فما معنى هذا من الناحية العملية ..؟ معناه أن التوسع الهائل فى عمليات التعذيب والعنف الذى تمارسه الولايات المتحدة الأمريكية فى سجن (أبو غريب العراق) وفى سجن بجرام الأفغانيّ وفى كل سجونها السرية فى أنحاء مختلفة من العالم والسجون المحمولة على سفن فى عرض البحار .. كل هذه السجون ومايجرى فيها الآن .. وأثر آلات القتل البشرية التى تم تدريبها وتفكيك شخصياتها الإنسانية لن تذهب مع قبض الريح بل ستبقى .. وسترتد بأسوأ النتائج على الولايات المتحدة الأمريكية نفسها فى المستقبل القريب ... إننى أعتقد أن مجمل العمليات الإرهابية والإجرامية التى صاحبت التوسع الإمبريالى الأمريكى منذ بداية هذا القرن قد قصّرت عشر سنوات على الأقل من عمر السيطرة الأمريكية على العالم .. كما قدّرها بعض كبار المفكرين المرموقين .. الذين قدّروا أن إنهيار هذه السيطرة الأمريكية قد أصبح وشيكا .. ولهم فى ذلك مبررات وتحليلات بعيدة الأغوار وقد ألمحت إلى هذه الحقيقة فى مقالات سابقة.

أود أن أنبّه مسبّقا أنهم لم يتحدّثوا عن إنهيارالقوة العسكرية الأمريكية .. وإنما يؤكدون أنه حتى برغم استمرار هذه القوة فسوف تفقد أمريكا سيطرتها على العالم .. وأول علامات هذا الإنهيار هو سقوطها الأخلاقى أما العلامة الثانية فهو إنهيار سيطرتها الإقتصادية العالمية .. وهذا مانشهده اليوم فى رائعة النهار..!

****

الديموقراطية البريطانية

كيف تم بناؤها وكيف بدأ تفكيكها

" توماس بنْ " الكاتب البريطاني كان واحدا من أعظم الكُتّاب الثوريين فى القرن الثامن عَشر .. لم يقتصر تأثيره على بريطانيا فقط بل إمتدّ تأثيره إلى الثورة الفرنسية التى انطلقت فى صيف عام ١٧٨٩ وإلى الثورة الأمريكية ضد الإحتلال البريطاني (١٧٧٦-١٧٨٣) رحل إلى باريس ليغذّى لهيب الثورة هناك كما لحق بصديقه جورج واشنطون لينخرط معه فى العمل الثوري بقلمه ونفسه..

كان له أصدقاء آخرون فى كل من بريطانيا وفرنسا، ظن فى مرحلة مبكّرة أنهم يشاركونه فكره الإصلاحيّ الديمقراطيّ ولكن وجد نفسه فى تصادم مباشر معهم عندما اكتشف حقيقة توجّهاتم العنصرية وعدائهم للحرية والديمقراطية.. من أشهر هؤلاء "المركيز دى لافايت" الفرنسيّ و "إدموند بروك" عضو البرلمان البريطانيّ.. نشر الأخير كتابا بعنوان:

"تأملات في الثورة الفرنسية" عبّر فيه عن مدى كراهيته للانتخابات العامة وعمق انتمائه الطبقي وغطرسته واحتقاره (للعوَام) الذين أدْلوْا بأصواتهم لأول مرة في انتخابات البرلمان الفرنسي إذ وصفهم بأنهم مجرد فلاحين (جرابيع) لا يتمتعون بالحكمة التي تتمتع بها الصفوة وفي هذا يقول:

"المثقّفون وحدهم هم الذين يمكنهم اكتساب الحكمة .. فهؤلاء لديهم متسع من الوقت ويتمتعون بالاسترخاء والتأمل .. فكيف يكسب الحكمة من يسير خلف المحراث وهو مشغول بالعمل اليدوي طول الوقت .. وكل حديثه لا يدور إلا حول الثيران والأبقار...!؟" .. كان إدموند بيرك يسخر من مطالبة الفقرَاء والبُسطاء باتخاذ القرارات السياسية والمشاركة فى اقتسام الثروة الوطنية .. فمن رأيه أن هذه أمور تخص الفئة المالكة فالملكية عنده هي معيار القيمة الأعلى للإنسان (قل لي كم تملك أقول لك كم تساوى) وبناءً على هذه النظرية المادية الخالصة يعتبر أن الغنيّ العاطل هو النموذج الأعلى للإنسان.

ردّاً على هذا الموقف العنصري المفرط في غلوائه ألّف "توماس بنْ" كتابا نُشر في فبراير سنة ١٧٩١ "بعنوان حقوق الإنسان" يعتبر من أشهر الكُتب التى ظهرت في تاريخ بريطانيا كله.. إفتتح الكتاب بهجوم كاسح على صديقه السابق بيرك واتهمه بأنه مُنوّم تنويها مغناطيسيا .. فهو عاجز عن أن تمتد رؤيته الطبقية خارج النظام الملكي السابق في فرنسا.. ولا يستطيع أن ينتزع خياله المتسمّر في النظام البرلماني العفن في بريطانيا وليس عنده ذرّة من (الإحساس) بالمجتمع الحقيقي في بريطانيا أو فرنسا .. طُبع هذا الكتاب في سنة واحدة ستُّ طبعات وبيع منه خمسين ألف نسخة وقد شجع هذا الإقبال الشديد على الكتاب على نشر الجزء الثاني منه سنة ١٧٩٢ تعميقا للموضوع الأصلي ولكن بلهجة أقوى وأكثر ثقة وثباتا.. يقول فيه توماس بنْ:

"إن كل الحكومات الوراثية بطبيعتها لا يمكن إلا أن تكون حكومة إستبدادية.. فالتاج الموروث أو العرش الموروث ليس له إلا معنى واحدا وهو أن الإنسان مجرد مِلكية يمكن توريثها .. أن تورّث الحكم لشخص ما فكأنك تورّثه شعبا كما يُورّثُ قطيع من الأغنام أو البقر .. يَخلُف الحكام الواحد منهم تلو الآخر فتنتقل الشعوب إرثا مملوكا .. لا ككائنات عاقلة ولكن كحيوانات مملوكة...!".

في تاريخ الشعوب الحية نقاط انطلاق محورية تبدأ بعدها عملية تغيير كبرى وتحولات مشهودة في بعض تجلّياتها، وتحوّلات أخرى ربما أكثر أهمية تجرى في العقول والأنفس .. ولا شك أن ظهور مفكرين وكُتّاب ثوريين من دعاة الحرية والنضال الشعبيّ من أمثال "توماس بنْ" و"شيلى" وغيرهما كان يمثل نقطة انطلاق هامة في مسيرة النضال من أجلّ الديمقراطية في بريطانيا .. هذه المسيرة التي صبغت حياة الشعب البريطاني على مدى قرن من الزمن حتى برزت الديمقراطية بالصورة التي انبهر بها العالم ..

ولكن تمكّن أعداء الديمقراطية من استخدام أساليب ماكرة في الصراع حتى استطاعوا مؤخرا من القفز إلى عربتها ليقبضوا على زمامها وتوجيهها لخدمة

مصالحهم الإمبريالية الفاشية .. فاشية حقيقية رصدُت بعض ملامحها الأساسية في أمريكا وكتبت عنها مقالاً بعنوان " الفاشية الناعمة "..

كنت أظن أن الديمقراطية البريطانية ربما تكون محصّنة ضد هذا التطور المأساوي.. ولكني (للأسف) لاحظت شواهد دالّة على عكس هذا الظن عززته دراسة متأنية ومتابعة للحياة السياسية من موقع إقامتي في لندن قرابة عقدين من الزمن..

وقد هالني أن بريطانيا في عهد رئيس الوزراء السابق "تونى بلير" قد تحولت إلى النموذج الأمريكي حيث تسيطر على اتخاذ القرارات المصيرية قوى من خارج البرلمان ؛ [يعنى] قوى غير منتخبة من قِبل الشعب .. وبدا نواب الشعب المنتخبين في حالة من العجز المزري والإرتباك المهين .. وهذا ما يعكسه كتاب بالغ الأهمية بعنوان: The Vote "الصوت الانتخابي: كيف اكتسيناه ، وكيف بدّدْناه ..؟" لمؤلفه " بول فوت " Paul Foot..

إستغرق بحث موضوع هذا الكتاب وتأليفه تسع سنواتٍ أو تزيد قليلا .. فترة فاقت كل توقعات المؤلّف ، فقد ظن بعد ثلاث سنوات من القراءات الواسعة أنه قد حصّل من المعرفة في موضوع بحثه ما يكفي لتأليف الكتاب ولكنه اكتشف كما يقول: "أنني مازلت أجهل الكثير مما ينبغي عليّ أن أعرفه.." فعاد إلى إستئناف بحثه للموضوع وتحمل فى ذلك الكثير من العناء والتضحيات .. وفي حالة بول فوت بلغت تضحياته حد المرض والإعاقة البدنية التي تحدّاها بروح قوية .. ولكن أسلمه المرض في النهاية إلى الموت ..

إنها قصة مأساوية لكاتب وصحفي مقتدر آلمه أشد الإيلام أن يشهد بداية عصر إحتضار الديمقراطية البريطانية ويشعر بأن قرنا كاملا من النضال والتضحيات في سبيل الحرية والديمقراطية يتبدّد أمام ناظريه ..

الإصلاحيون ومحنتهم:

كان كتاب حقوق الإنسان لـ "توماس بنْ" جزءا من موجة عارمة تدعو إلى الإصلاح في بريطانيا، ومع انتشار هذه الموَجة في الأوساط الشعبية زادت حدة

القمع في كل أنحاء بريطانيا .. فلما أعلنت فرنسا الحرب على بريطانيا سنة ١٧٩٣ اتخذت الحكومة البريطانية هذا الإعلان ذريعة لمزيد من القمع الذي شمل كل من يشيد بالثورة الفرنسية من الكُتّاب ودعاة التغيير السياسي باعتباره خائنا للوطن .. وفى تلك الفترة سادت مقولة على الألسنة في الأوساط الشعبية مؤدّاها: أن حكومة هذه البلاد تحتكرها عصابة من أصحاب الأملاك لهم وحدهم حق التمثيل في البرلمان وحق التصويت .. وعلى هذه العصابة المتميّزة أن تحمل ممتلكاتها على كتفها وترحل عن هذه البلاد.

قامت الحكومة باعتقال عدد من قادة الإصلاح وحكمت عليهم بالنفي في مستعمرتها الأُسترالية لمدة أربعة عشرة سنة .. وقد إستطاع عدد منهم الهرب من قبضة الشرطة وظل متخفّيا حتى استقر في فرنسا ليعيش في منفاه الإختياري بعيدا عن وطنه .. وكان هؤلاء أسعد حظا من الذين أُرسلوا إلى أستراليا .. فمات بعضهم هناك وعاد بعضهم إلى بريطانيا سنة ١٨٠٩ وقد تحطمت عقولهم وأجسامهم تحت وطأة القهر والإذلال والأشغال الشاقة ..

وفي عام ١٧٧٤ أسس أربعة من الإصلاحيين الإنجليز على رأسهم الكاتب الإنجليزي الشهير "توماس هاردى" جمعية للترويج لأفكارهم التحررية فاعتقلتهم السلطات وقُدموا إلى المحاكمة بتهمة الخيانة العظمى .. وقد اشتمل قرار المحكمة بالإدانة على الفقرة التالية: "إن من يروّج لفكرة الإصلاح البرلماني يساوى المتآمر لاغتيال جلالة الملك...!"

وخلال فترة الحرب النابليونية إشتدت الهجمة على الإصلاحيين وكثرت القيود والإجراءات القمعية بدعوى (أن الأمة تحتاج إلى توحيد الصفوف خلف جيشها لهزيمة نابليون)، وعندما انتهت حرب نابليون إعتقد الناس أن حجة الحكومة قد انتهت بعد هزيمة فرنسا وعودة السلام إلى انجلترا .. ولكن مع السلام جاءت أزمات اقتصادية أشد وانتشر الجوع والفقر في أنحاء البلاد .. وعادت حركة الإصلاح البرلماني أقوى مما كانت عليه من قبل .. ومرة أخرى تهبّ السلطات متذرعة بحجة جديدة فتخفّض أجور العمال لمواجهة الأزمة الاقتصادية .. و كانت الاستجابة الفورية من الشعب الذي استيقظ :

إضطرابات واحتجاجات انطلقت في طول البلاد وعرضها اعتراضا على تقليص الأجور .. واستمرت الاضطرابات مشتعلة لأكثر من ثلاثة أعوام اعتبارا من سنة ١٨١٥ .. حيث تركزت الثورة في مناجم الفحم . من أغرب الملابسات في تاريخ هذه الفترة أن الشعب سجّل أسماء جميع الذين قادوا حملات القمع ولا تزال مسجّلة حتى اليوم لتعتبر بها الأجيال ولا تنسى أسماء الذين كانوا أسواطا وجلادين في يد الطاغية المستبد...!

ففي منشستر سنة ١٨١٩ قرّر العمال الإضراب عن العمل معبرين عن احتقانات متراكمة في صراعهم مع أصحاب الشركات المدعّمين بقوّة السلطة الحاكمة .. إحتشد في إحدى هذه المظاهرات ستين ألفا في مسيرة سلمية فإذا بقوات عسكرية من سلاح الفرسان تقتحم المظاهرة وتقتل أحد عشر شخصا من المتظاهرين .. فاشتعل الصدام بين الجماهير الغاضبة وبين القوات العسكرية.. وانتشر التمرد في كل مكان .. كانت الجماهير تنشد فى حشودها ومسيراتها نشيدا من كلمات الشاعر الإنجليزى شيلى قمتُ بترجمَته إلى العربية نثرا هو أقرب إلى الشعر .. ولكن تفضل صديقى الدكتور عاصمَ نبوى فجعله نظما .. يقول فيه:

تـراكَمَ الغبـارُ فوقـكَ تَـلاً ::: لِطـولِ ما غِبْتَ غارقا في خيالِـك
فحَطِّـم القيْـدَ وانفضْـهُ أرْضًـا ::: كـما تـنفُضُ الثّرَى عـن ثِيابـك
وانتفضْ مـارِدًا فالحَشْدُ يرْبُـو ::: ويـزدادُ قـوةً بانضـمامِك
والعِـدَا فئرانُ جُحْرٍ مذعـورةٌ ::: تـأوِي إلى حصـونِ المَعَـارك
قلـةٌ تُظْهِـرُ البـأسَ زيفًـا ومَيْنًـا ::: لا يقيها الـرَّدَى والجمـعُ هَالِـك

توالت الكوارث الاقتصادية بعد الحرب العالمية الثانية فمات في أيرلندة من الجوع أكثر من مليون شخص فيما بين سنة ١٩٤٥ وسنة ١٩٥١ .. وجاء خبراء السياسة والاقتصاد ليغسلوا أيديهم من تبعاتهم ومسئولياتهم (كالعادة دائمًا) فنسبوا المجاعة إلى سوء المناخ .. ووضعوا اللوم على الضحايا أنفسهم ..

يقول بول فوت: "لم تكن التصريحات الرسمية لتتطرّق إلى الأسباب الحقيقية لنقص مواد الغذاء وغلاء المعيشة التي ترجع إلى أساليب الاستغلال والاستبعاد والقهر التي تمارسها على الشعب حكومات تنفّذ سياسة "السوق الحرة" بحذافيرها دون مراعاة لحاجة المستضعفين والفقراء ...!!

كانت تحركات الجماهير تجرى في إطار سلمي وتلتزم بالقوانين وتعلن عن مطالبها بأساليب مشروعة منها مثلا: تقديم الشكاوي إلى البرلمان وقد جُمعت فى ذلك ملايين التوقيعات كما حدث سنة ١٨٣٩ إذ بلغ عدد هذه التوقيعات ثلاثة ونصف مليون توقيع .. وكانت استجابة البرلمان بالمماطلة ثم الإهمال ..

وهنا يتبادر إلى الذهن هذا السؤال: لماذا الاحتقار والإهمال لمطالب الجماهير؟ أليس من المفروض أن البرلمان يعبر عن مصالح الشعب ويلبّي مطالبه..؟ والإجابة المباشرة هي أن هذا البرلمان في ذلك الوقت كانت عضويته قاصرة على النخبة الغنية .. وكان حق التصويت احتكارا مقصورا على المالكين وليس حقّا لكل أبناء الشعب .. ومن ثم استمرت القوانين تصدر من البرلمان لصالح القلّة الثريّة من أصحاب الأملاك وضد مصالح الأغلبية المحرومة من حق التصويت .. وفي هذا يعلّق بول فوت قائلا: "لقد تم كل هذا تحت سقف البرلمان ببجاحة شديدة وتحدّ سافر لمشاعر الجماهير الشعبية...!"

كان شعار الحركة الإصلاحية حتى هذه النقطة من التطور التاريخي للديمقراطية البريطانية هو (رجل واحد صوت واحد) ولم يكن هناك إشارة أو ذكر لحق النساء في التصويت فلم تكن الحركة النسائية قد تبلورت بعد في بريطانيا ..

الحركة النسائية نحو الديمقراطية :

كان الشاعر شيلي يتساءل في استنكار: "هل يمكن للرجل أن يكون حرًّا إذا كانت المرأة رقيقًا ..!؟" وجدير بالذكر أن سنة ١٨٨٤ شهدت انفراجا كبيرا حيث قُدم إلى البرلمان مشروع بقانون للإصلاح السياسي تحول إلى قانون أصبحت فيه الانتخابات العامة متاحة لـ ٦٠٪ من الرجال البالغين .. بمعنى أن

هؤلاء الرجال من حقهم التصويت لاختيار نُوّابهم وحكومتهم .. أما المرأة فقد استمرت محجوبة عن صندوق الانتخابات لمدة ٣٤ سنة أخرى.. ففي سنة ١٩١٨ قدّم الفيلسوف (عضو البرلمان) "جون استيوارت مِلْ" مشروعا لمنح المرأة حق التصويت .. ونلاحظ هنا أن عوامل اجتماعية أخرى معقدة كانت تسيطر على علاقة الرجل بالمرأة بعيدا عن معايير العنصرية البريطانية المتمثلة في الأرستقراطية البريطانية .. بعيدا عن صراع الأغنياء مع الفقراء؛ صراع المالكين مع المعدمين .. فقد ساد خوف الرجال من أن إعطاء المرأة حق التصويت قد يؤدّى إلى أن يفقد الرجال سيطرتهم على ممتلكات زوجاتهم.

كان الاعتقاد السائد بين الرجال في ذلك الوقت لا يزال متأثرا بأفكار طرحها عضو برلمان سابق سنة ١٨٦٧ قال: "ينبغي على المرأة المتزوجة أن تمنح زوجها كل ما تملك بها في ذلك نفسها في السراء والضرّاء على السواء .. وينبغي عليها أن تكون تحت سيطرة زوجها بصفة كلّية ومُطْلقة .. ليس فقط فيما يتعلق بممتلكاتها ولكن في كل ما يتصل بحركتها الشخصية .. فإذا تمرّدت عليه فإن من حق زوجها أن يحبسها ..." ثم يتابع قائلا: "ويرى بعضهم ضربها .. إلا أنني لا أنصح بذلك .. وإذا سألني أحدهم باعتباري محاميا قانونيا فلن أنصحه بالضرب .. ولكن لا شك عندي أن الزوج له حق الهيمنة الكاملة على شخص زوجته وعلى ممتلكاتها ..."

ويحاجج "هنرى آيرتون" عضو البرلمان البريطاني لا ضد حق النساء فقط بل يلحقه بحق الفقراء أيضا فيقول: "لو أن كل إنسان حصل على حق التصويت فإن الأغلبية الفقيرة ستلجأ إلى مصادرة ممتلكات الأغنياء"، وعلى هذا المنوال احتجّ عضو آخر بقوله: "إذا نالت النسوة حق التصويت فسوف تسحب الزوجات ملكيّاتهن من الأزواج .. وأسوأ من هذا أن يتشبّثن بحقّهن أن يكون لهن رأى خاص مستقل عن أزواجهن..." ثم يستنكر مُتعجّبا: "ماذا يحدث لو أن المرأة خالفت رأى زوجها .. إنها لمصيبة..؟! والأسوأ من كل هذا أن تنتخب الزوجة ضد رغبة زوجها ..." ويخلص الرجل إلى النتيجة المنطقية فيقول: "وعلى ذلك لابد من منع المرأة من التصويت في الانتخابات؛ وإلا فستفقد

النساء حياءهن ورقّتهن وعواطفهنّ وكذا مؤهلاتهن المنزلية" .. وهكذا هُزم مشروع الفيلسوف جون إستيوارت مل...!

حظيت بعض النساء من صاحبات الأملاك على حق التصويت سنة ١٨٦٩ لا في البرلمان ولكن فقط في المجالس المحلية .. ومع قانون التعليم الصادر سنة ١٨٧٠ حصلت النساء على حق التصويت في انتخابات مجالس الآباء المدرسية والترشيح لعضوية هذه المجالس .. وكان طابع الحركة النسائية في هذه المرحلة يغلب عليه سمات نساء الطبقة الغنية، لذلك اقتصرت على الاجتماعات والندوات والخطب .. وتقديم الشكاوى من وقت لآخر لأعضاء البرلمان والحكومة ..

ظهور الطبقة العاملة النسائية:

ظهرت الطبقة العاملة النسائية في بريطانيا في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين .. ووجدنا نساء يقتحمن البرلمان والاجتماعات الحزبية العامة ويطالبن بالكلمة .. أو يصحْن في وجه أعضاء البرلمان: "لم لا تمنحون المرأة حق التصويت .." وهنا تتدخل الشرطة لتخرج النساء من قاعة البرلمان ويقبضن عليهن ثم تقدمهن إلى المحكمة بتهمة (تعكير صفو السلم الاجتماعي) فتحكم المحكمة عليهن بالسجن أو الغرامة .. وغالبا ما كُنّ يرفضن دفع الغرامة فيودعن في السجن ..

تطورت حركة النساء السياسية لتبلغ قمة اشتعالها في عامي ١٩٠٨ و١٩٠٩م .. وفي هذا كتبت واحدة من رائدات الحركة النسائية في بريطانيا تصف هذه الحالة من تأجّج الحماس:

"شعرنا في ذلك الوقت بأننا جزء من حركة الحياة المتدفقة فأصبح لنا هدف ومعنى نسعى لتحقيقهما .. كنا نتحرك في كل مكان ونوزع منشورات ونتحدث إلى الناس لنشرح قضيتنا .." وفي ٢١ يونيه سنة ١٩٠٨ دعا الاتحاد النسائي إلى اجتماع في ميدان "هايد بارك" وُصف بأنه أكبر اجتماع نسائي حدث في تاريخ بريطانيا .. إحتشد فيه مئتان وخمسون ألف متظاهرة، وبرزت هنالك متحدثات

جماهيريات يمتلكن قوة البيان وسحره مما جعل أعداء الحركة ينصتون إلى قوّة المنطق ويتعاطفون مع أهداف الحركة النسائية ..

ومما هو جدير بالذكر كدليل على الإصرار والاستعداد للتضحية أن النساء كن إذا قُبض عليهن لا يستسلمن ولا يخضعن لقهر الشرطة بل كنّ يتحدّيْن السلطات ويرفضْن دفع الغرامات ويؤثرن على ذلك الاعتقال وهذا ما زاد من تأجّج الحركة النسائية بالغضب والثورة ضد الأوضاع القائمة ..

إستمر الصدام واستمر إيداع النساء في المعتقلات والسجون حيث كثر عددهن فبدأت حركة إضرابات نسائية داخل السجون لسوء المعاملة .. وشمل هذا التمرد الإضراب عن الطعام مما اضطر سلطات السجون إلى اللجوء لقهر النساء على تناول الطعام بالقوة ولكن دون جدوى ..

ولمعالجة هذه الحالة صدر في سنة ١٩١٣ واحد من أغرب القوانين في تاريخ بريطانيا سمى "قانون التسريح المؤقت" بمقتضاه يتم تسريح النساء اللائي أشرفن على الهلاك ، ثم إعادتهن مرة أخرى إلى السجن بعد أن يسترددن عافيتهن في منازلهن .. ولذلك أطلق عليه الناس "قانون القط والفأر".

من أبرز الحالات التي تم تسجيلها في تاريخ الحركة النسائية حالة "مارى ريتشاردسون" التي احتجّت على هذا القانون بإلقاء زجاجة حبر في نافذة قسم الشرطة ..فحُبست وأضربت عن الطعام فأفرج عنها لمدة خمسة أيام ثم أعيدت إلى السجن فاستأنفت الصيام مرة أخرى حتى أوشكت على الهلاك فأُخرِجت لخمسة أيام أخرى ثم أُعيدت إلى السجن .. واستمر الحال على هذه الوتيرة لمدة عام كامل .. إلى ما قبل نشوب الحرب العالمية الأولى ببضعة أيام حيث سُرّحت من السجن لإصابتها بالتهاب حاد في الزائدة الدودية (وقد ظهر على جسدها كدمات وعلى فمها تمزّقات بأظافر بشرية من آثار التعذيب ومحاولة إجبارها على تناول الطعام قصرا .. كان إصرار مئات النساء على الإضراب رغم ما أصابهن من جراء التعذيب يتصاعد متحديا إصرار ووحشية السلطات الأمنية .. واعتبر هؤلاء النسوة في تاريخ بريطانيا أبطال حقوق النساء في التصويت ..

ضغط العوامل الاقتصادية:

أثناء الحرب العالمية الأولى قفزت أعداد النساء العاملات في المصانع البريطانية خصوصًا في الصناعات الحربية والهندسية وذلك لتجنيد أعداد كبيرة من الرجال في الحرب، والمهم أن بول فوت يستخلص من التجربة الديمقراطية البريطانية أن اقتصار حركة الإصلاح على العمل من خلال الدستور فقط ، والمقاومة السلمية لم يكن ليحقق النتائج الناجحة التي وصلت إليها هذه الحركة عندما قام المقهورون بالعمل الثوري المباشر في وجه الطغاة .. ويرى أن أكبر ظهير للطغاة في هذا الصراع هو استسلام المقهورين وسلبيتهم...! كما يرى أن النصر الذي تحقق للديمقراطية سنة ١٩١٨ لم يكن ليحدث بدون سنوات طويلة من النضال.. هذه المقاومة الطويلة المتواصلة والمثابرة هي التي خفّفت أولا من التعصب التقليدي للرجل البريطانيّ ضد المرأة .. وثانيا: عندما قرّر الرجال أن يكسروا أسلوب حياتهم المعتادة ويعلنوا المقاومة والعصيان المدنيّ تحقق لهم ما يريدون ..

وهكذا حصل البريطانيون رجالا ونساءً على حق التصويت في الانتخابات العامة عبر صراع طويل ومقاومة عنيدة ضد طغيان السلطات الحاكمة، صراع اتّسم بالعنف والتضحيات..!

تفكيك الديمقراطية :

هنا نقلب هذه الصفحة من الكفاح والنصر لننظر في الصفحة الأخرى ونرى قصة الوهن الذي دبّ في عضد الديمقراطية البريطانية، وكيف تم تفكيكها تدريجيًا عبر صراع شرس وهجمات متواصلة من جانب تحالف قوى المال والأعمال وسطوة الشركات الزاحفة .. حتى تم تفجير الديمقراطية في عهد تونى بلير رئيس وزراء بريطانيا السابق .. ومن داخل حزب العمال نفسه الذي كان في الماضي نصيرا صلبا للديمقراطية وحقوق الطبقات العاملة وصاحب مبادئ الديمقراطية الاشتراكية...!؟ النصف الثاني من هذا المقال إذن يتناول الإجابة على سؤال "بول فوت": كيف تمّ تبديد الصوت الانتخابي..؟

في سنة ١٩٦٤م وفي بداية فترة حكومة عمّالية كان يرأسها "هارولد ويلسون" زعيم حزب العمال، هبط عليه في مقره بداوْنِنْج استريت "لورد كرومر" مدير بنك لندن المركزي [لاحظ أنه بنك مستقل له نفوذه الهائل على الحركة المالية والاقتصادية .. ولكن مديره لا يخضع لسلطة رئيس الوزراء..!] . إنه يميني من حزب المحافظين سلطويّ حتى النخاع.. جاء ليظهر قلقه من عجز موازنة المدفوعات الذي ورثته الحكومة العمالية من حكومة المحافظين السابقة نتيجة سياسة وزير ماليتها تسببت في عجز مالي مقداره ثمانمائة مليون جنيه إسترليني..

اجتمع كبار أعضاء الحكومة لدراسة مقترحات "لورد كرومر" والنظر في حلول للخروج من هذه الأزمة .. ثم قرّروا ألا تلجأ الحكومة إلى تخفيض سعر الجنيه الإسترليني أو تعويمه .. فقد كانت هذه السياسة السبب في سقوط حكومة العمال السابقة، حيث أدت تلقائيًا إلى تخفيض أجور العمال .. ومن ثم اكتفى "جالاهان" وزير المالية بإجراءات سياسية لوقف النزيف المالي .. وبذلك اضطر إلى إرجاء كل الوعود التي قطعتها حكومة العمال على نفسها أثناء الانتخابات .. لم يُعجب هذا التصرف لورد كرومر .. واستمر في بيع الإسترليني .. حتى تدهور الاحتياط النقدي في البنوك ..

ويصف هارولد ويلسن في مذكراته (بعد ذلك) الحوار الذي جرى بينه وبين لورد كرومر في اجتماعهما يوم ٢٤ نوفمبر ١٩٦٤م قال: "لقد وصلنا إلى نقطة كان ينبغي أن نعود فيها إلى الشعب لانتخاب حكومة مخوّلة بصلاحيات أكبر بعد أن نحيطهم علما بأن حكومتنا مضطرة (بسبب موقف مدير البنك المركزي) للتراجع عن سياستها التي انتخبها الشعب لتنفيذها .. وأن عليها أن تنفذ سياسة حزب المحافظين التي عارضتها من قبل معارضة شرسة .." ويمضى هارولد ويلسون فيقول: "كان جواب مدير البنك المركزي صريحا في تأكيده أن هذه هي الحقيقة!!"

يقول ويلسون: "لقد سألته حينئذ: "هل معنى ذلك أن أي حكومة بقيادة أي حزب وتحت أي شعار أو برنامج مُعلن .. ومهما تكن السياسة التي خاضت

الانتخابات بغية تنفيذها يستحيل عليها أن تستمر ما لم تتحول فورا وبصورة مطلقة إلى سياسة حزب المحافظين..؟!" لقد اعترف الرجل بأن هذا تماما هو ما يقصده من حججه التي ساقها أثناء المناقشة .. وبرر ذلك بأن هذا هو ما تمليه الحتمية الاقتصادية على موقف الذين بيدهم السلطة السياسية والاقتصادية جميعا". وحجته في ذلك: أنه تحت وطأة وحجم أزمة اقتصادية من العيار الثقيل لابد من تعليق العملية الديمقراطية ..! وكان رد ويلسون حاسما وشجاعا بالرفض .. بل هدده بأنه ليس أمامه خيار إلا أن يعتصم بالديمقراطية إلى أقصى المدى، ومن ثم لابد من العودة إلى الناخبين للحصول منهم على صلاحيات أكبر للتعامل مع الأزمة .. وفي حالة مصارحة الشعب بتفاصيل الموقف فسوف يكون هناك إجماع شعبيّ بل زلزال يقلب الأمور على وجهها الصحيح .. وكان ردّ لورد كرومر بأن هذا قد يكون صحيحا .. ولكنه لن يكون في صالح الإسترليني ولا في صالح بريطانيا..".

يقول ويلسون: "غادر كرومر مقر مجلس الوزراء .. واستطاع أن يجمع ثلاثة مليارات دولار قرضا لبريطانيا من البنوك المركزية .. وحقق بذلك وقفًا مؤقتاً لأزمة الإسترليني..".

قصة هذا الصدام التاريخي المفتوح بين رجال البنوك وبين الحكومة المنتخبة هي وصف دقيق لحالة الخصومة الأبدية بين رجال المال والأعمال وبين الديمقراطية أو الحكومات الديمقراطية التي تحاول الالتزام بمصالح الطبقات العاملة أو الأغلبية المستضعفة التي انتخبتها للسلطة .. وكان جالاهان وزير المالية العُمّالي كلما أعلن زيادة في الإنفاق الحكومي لتدعيم الخدمات جاءته التحذيرات تترى من رجال البنوك الدائنة بالكفّ عن هذه السياسة الخاطئة.. وأنهم كانوا يتوقعون من الحكومة مسلكا مختلفا للحد من التضخم المالي ..

يصور جالاهان صعوبة المأزق المالى فيقول: "كان الأمر بالنسبة لي كالسباحة في أمواج هائلة كلما خرجنا من موجة عاتية أعقبتها موجة أعتى منها فتلطمنا قبل أن نتمكن من التقاط أنفاسنا..!".

بداية التنازلات:

من أهم الكتب التي تكشف عن قصة التنازلات العمالية المتدرّجة كتاب "كلايف بونتنج" بعنوان: "النكوص عن الوعود: العُمّال في السلطة ١٩٦٤ – ١٩٧٠" .. نشرته دار "هامش هاملتون" سنة ١٩٨٩ .. فقد كشف لأول مرة عن خلفيّة اتفاقية سرية بين حزب العمال البريطاني وبين الولايات المتحدة الأمريكية (تساعد أمريكا بمقتضى هذه الاتفاقية حكومة العمال البريطانية للخروج من أزمة الإسترليني في مقابل تدعيم الولايات المتحدة في حربها بفيتنام .. وإبقاء عدد كبير من القوات العسكرية البريطانية شرقيّ السويس .. وغير ذلك من الشروط..) وكلها شروط مناقضة لسياسة حزب العمال التقليدية المعلنة .. فهذه السياسة كانت دائما ضد المشاركة في حرب فيتنام، وضد الاستمرار في الإنفاق الباهظ على القوات الإمبراطورية .. وضد الإجراءات الاقتصادية التقشفية مثل خفض سقف الإنفاق الحكومي بحجة محاربة التضخم المالي .. وهكذا تنازلت حكومة العمال تحت تأثير الضغوط الاقتصادية وتلاعب رجال البنوك مع الولايات المتحدة لتتراجع عن السياسات التقليدية لحزب العمال .. وإنها لتفعل ذلك ضد قناعتها الدستورية والديمقراطية ..! .. ولأول مرّة (في هذا المناخ التنازلي) تضطر حكومة عمالية لمواجهة إضراب عُمّال النقل البحري بعنف شديد غير معهود .. ولا تستجيب لمطالبهم العادلة، وكان السبب هو تنفيذ الشروط السرية التي وضعتها أمريكا على القرض الذي قدمته للحكومة العمالية ..!

التحدّي السافر:

كان همّ حكومة المحافظين الأول في سنة ١٩٧٠ هو كبْح جماح الاتحادات العمالية واستخدام القوانين لتدعيم هذا الاتجاه .. ولكن عاد العمال مرة أخرى إلى السلطة سنة ١٩٧٤ وجاء معها "تونى بنْ" وزيرا للصناعة .. وكان يعتزم اتخاذ إجراءات حكومية لضبط سلوك الشركات التابعة للقطاع الخاص .. وقد أعلن عن ذلك في مذكّرة مفصّلة .. ولم تكن هذه الشركات لتستسلم لهذا الضبط

الحكومي ولو كان باسم مصالح الشعب وإرادته التي تبلورت في انتخاب هذه الحكومة ..!

يحكى لنا "تونى بن" في مذكراته عن واقعة ذات دلالة كاشفة حدثت في يوليه ١٩٧٤ ، فقد دُعي إلى حفل عشاء أقامه مديرو الشركة العملاقة لصناعة الصلب والصناعات الهندسية (GKN) .. في تلك الليلة هدده سير "راى بروك" رئيس مجلس إدارة الشركة بأنه إذا لم ترفع الحكومة إسم شركته من قائمة الشركات التي تعتزم الحكومة تأميمها فإن شركته ستضطر إلى إلغاء كل برامج استثماراتها المخططة للعام القادم .. يقول "تونى بنْ": "لم أصدّق ما سمعت من تهديد سافر بهذه الجرأة على الحكومة .. فطلبتُ من سير "راى بروك" أن يُعيد على مسامعي هذا التهديد المفاجئ .. فأعاده بهدوء وبرود شديدين" .. كان ردّ "تونى بنْ" بأنه لا توجود لدى الحكومة أي قوائم من هذا القبيل .. ولكن الدرس الذي استخلصه من الموقف: أن الرأسمالية تحتشد ضد إجراءات الضبط والرقابة التي تنوى حكومة العمال اتخاذها .. وتتحدّى الحكومة بل تهدّدها بالسقوط .. ولها في ذلك أساليبها وحيلها التي لا تنفد ..

إحتشاد قوى المحافظين في عهد مسز ثاتشر:

فاز حزب المحافظين برئاسة "مسز ثاتشر" في انتخابات ١٩٧٩ واستمرت في السلطة قرابة ستة عشر سنة متواصلة .. وفي عهدها تبلور نوع من الفاشية الجديدة في قلب النظام الديمقراطي العريق ...!

كان حزب المحافظين طوال فترة حكومات حزب العمال المتعاقبة منذ سنة ١٩٦٥ يدرس ويحتشد للقضاء على ركائز السياسات العمالية .. واستطاع الحزب أن يجمع صفوفه تحت قيادة جريئة تؤمن بفلسفة أكثر جسارة وحدّة .. قدّرت ألا يقوم لحزب العمال قيامة بعدها أبدا ..

تم في داخل حزب المحافظين انقلاب سياسي هادئ نُحّيَ فيه "إدوارد هيث"؛ وكان يُعتبر من أكثر قيادات الحزب يمينيّة بمقاييس عصره التقليدية .. وتربّعت مسز ثاتشر في مقعد القيادة .. فجاءت معها بفريق من المستشارين

المتطرفين في أفكارهم اليمينية .. جميعهم كان متأثرًا بفلسفة جديدة تقضي بتنفيذ برنامج عنيف لصالح الطبقة التي ينتمون إليها .. وكان من بين هؤلاء أستاذ نمساوي يُدعى "فردريك هايك" ..

لم تُخْفِ مسز ثاتشر إعجابها بأفكار هذا المفكر النمساوي (الرائعة) .. وخلاصتها: أن النظام الرأسمالي قام على أساس من الحرية .. وأن أي منظمة أو مؤسسة كإتحاد العمال تهدّر التوازن في المنظومة الرأسمالية فهي خطر على الحرية.. ثم تطرّق إلى النظام البرلماني فقال: إن شكلا من أشكال المجالس الديمقراطية المنتخبة ضروري ..[ولكن بدون أن تتدخل في شئون حرية السوق أو تعوق آليات السوق ..!]

كان من رأى هايك أن اتحادات العمال لابد من تكبيلها بالقوانين بحيث تفقد فاعليتها، وهكذا صدرت قوانين أكثر رجعيّة حرمت العمال من حقوق كانوا قد اكتسبوها منذ سنة ١٩٠٦ منها مثلا حرمان العمال من حق الإضراب أو التظاهر تأييدا لمطالب فئة أخرى من العمال...!

وكالعادة المتّبعة في كل النظم الفاشية قُدّمت مشروعات هذه القوانين القمعية باسم: (مقترحات لإصلاح الاتحادات العمالية..) .. وفي الحقيقة لا علاقة لها بالإصلاح من قريب أو بعيد .. وإنما كان القصد منها تقوية جانب أصحاب الأعمال والأثرياء في مواجهة القوى العاملة وإضعاف قدرة اتحادات العمال على تنظيم أنفسهم ضد الإجحاف الواقع عليهم من أصحاب الأعمال..

بهذه القوانين لم تستهدف حكومة ثاتشر تكبيل الاتحادات العمالية بالقيود فقط ولكنها هزمتهم شر هزيمة .. وانعكس هذا سلبا على مواقف قيادات حزب العمال .. مثلا: "نيل كينوك" زعيم الحزب كفّ عن معارضة هذه القوانين القمعية .. ودفن قادة الحزب التزاماتهم تجاه اتحادات العمال ..

كان قادة الحزب يعارضون الخصخصة بقوة (سواء في الصناعة أو الخدمات) .. وطالما وعدوا الجماهير بأن كل صناعة أو خدمة قام المحافظون بخصخصتها سيتم إعادتها إلى الملكية العامة .. وأبرز مثال على هذه المعارضة

الواضحة والمستمرة تجلّى في خصخصة الكهرباء .. حيث قام "تونى بلير" في البرلمان (وكان في ذلك الوقت وزير ظل) ليقدّم رؤية حزب العمال فقال: "نحن فخورون بأننا أخذنا الصناعة في الملكية العامة .. وسوف نعيد الكهرباء للملكية العامة لخدمة الشعب البريطاني .. ولن تُدار الكهرباء أبداً كمشروع تجاري خاص.." وفي المؤتمر السنوي للحزب قال "تونى بلير" مرة أخرى: "الخصخصة معناها ارتفاع الأسعار وأعباء جديدة على عاتق الطبقات العاملة..".

ولكن رأينا في أوائل التسعينات من القرن الماضي أن الحماس والمعارضة القوية لخصخصة الكهرباء والغاز والمياه تهدأ وتتراخى .. ولم يعد أحد يتحدث عن إعادة تأميمها.. واختفت كل الوعود السابقة من برنامج حزب العمال خلال انتخابات سنة ١٩٩٧ .. وقد ساعد على هذا التراجع المذهل الهزائم المتعاقبة لحزب العمال في كل الانتخابات .. وهكذا قطع حزب العمال علاقته بالجذور..!

في سنة ١٩٩٤ مات جون سميث خليفة نيل كينوك في زعامة الحزب بالسكتة القلبية وكان آخر قيادي عمالي يعلن ارتباطه بالقيم الاشتراكية والتزامه بالملكية العامة والتوظيف الكامل للقوى العاملة .. فلما رحل فجأة كان هناك إجماع صحفي على ترشيح تونى بلير زعيما لحزب العمال..!

كانت النغمة الجديدة لتونى بلير: أن العمال لا يمكن أن يكسبوا الانتخابات إلا بالتغييرات التي بدأ يبشّر بها في أوساط الحزب .. لقد أضعفت سنوات الهزائم عضوية الحزب وأُجبر عدد كبير من اليساريين على مغادرته .. وخلال ثلاث سنوات تفرّد "تونى بلير" بمخاطبة جماهير الحزب وقواعده في مؤتمراتهم السنوية بدون معارضة تُذكر .. فها هو شاب لامع يجيد سبك الكلام والعبارات المؤثرة ومعه أسرة شابة يرتفع إلى مقعد زعامة حزب العمال بلا منازع..!

ثورة تونى بلير:

استطاع تونى بلير أن يحدث تحوّلا فكريا في سياسات حزب العمال .. فما هو الأساس الأيديولوجي الذي وقع بمقتضاه هذا التحوّل الحاسم والمفاجئ في الحزب؟

في سنة ١٩٩٦ نُشر كتاب بعنوان: " ثورة بلير: هل حزب العمل الجديد قادر على العطاء ..؟ : إسراتيجية حزب العمال الجديد" من تأليف "بيتر مندلْسون" و"روجى ليدل" .. وهما شخصيتاق غريبتان عن حزب العمال تماماً.. كانا ينتميان إلى الحزب "الديمقراطى الليبرالي".. ثم أصبحا فجأة مستشارين لتونى بلير .. وفي حقيقة الأمر كانا هما المخططين للتحوّل السياسي في حزب العمال الجديد .. وكانا صانعيْ قرار على أعلى مستوى في السلطة .. وهو منزلة كانت موضع حسد واندهاش من جانب الوزراء الرسميين وأعضاء البرلمان المنتخبين.

يكشف الكتاب من أول صفحة عن حقيقة حزب العمال الجديد عندما يقرر "أن هذا الحزب يبدأ مسيرته من حيث انتهت حكومة مسز ثاتشر .. لا هدم كل ما جاءت به .. وعلينا أن نكون واضحين وفاهمين لما أحسن فيه المحافظون وأجادوا..".

الكتاب يتألف من ٢٧٤ صفحة إذا قرأته فلن تجد فيه إشارة واحدة عن شئ أخطأت فيه حكومة المحافظين .. وعليك أن تخوض -خلال القراءة- في عبارات فضفاضة وشعارات مطاطة لا تتبين فيها أي شئ من سياسة حزب المحافظين يمكن التخلّي عنها .. وكأن حزب العمال الجديد ليس إلا امتدادا لحزب المحافظين وتأكيدا لسياسته .. ويمكن أن تفهم من خلال السياق العام الحقائق التالية:

١- جميع القوانين التي اتخذتها حكومة المحافظين ضد اتحادات العمال قوانين تستحق الثناء ولا غبار عليها ..

٢- خصخصة الخدمات أثمرت تحسينات ملحوظة وبعضها زادت إنتاجيته بعض الخدمات التي تم خصخصتها مثل البريد والغاز ارتفعت إلى المستوى العالمي الذي يستحق الفخر به...!!

٣- أنه لا يجب إعادة الشركات التي تم خصخصتها إلى الملكية العامة..

٤- يؤمن المؤلّفان إيمانا مطلقا بآليات السوق التنافسية .. وهما مهتمان بأن تجد حكومة حزب العمال وسائل لتدعيم اقتصاد السوق ... والخلاصة النهائية أنه لا تأميم ولا اشتراكية ولا يحزنون ...!!

يروّج الكتاب لفكرة أصبحت حجر الأساس لسياسة حزب العمال الجديد الاقتصادية .. وهي المزاوجة في المشروعات بين القطاعين العام والخاص .. وأنه ليس للحكومة أن تتدخل في الاقتصاد ولا أن تشترى جزءا من الاقتصاد ليبرر تدخلها للسيطرة أو الضبط على الشركات أوالمؤسسات المالية ..

يعتقد المؤلفان أنهما بفلسفتهما إنما يبشران بمجتمع مثالي تتحقق فيه الكفاءة والعدالة الاجتماعية معا .. ولكن كيف يكون هذا من الناحية العملية..؟ لا إجابة على هذا السؤال وإنما هناك تأكيد دائم على كلمة سحرية متكررة: الاستقرار .. الاستقرار ..! فلا شئ ذو فائدة يمكن تحقيقه إلا بالاستقرار الاقتصادي..!

وهناك حماس منقطع النظير أن تتجنب حكومة العمال أي إجراء يعكر مزاج الأثرياء وأصحاب القوة الاقتصادية والمالية، ونقد شديد لمواقف حكومات حزب العمال السابقة تجاه القضاء على الجريمة .. ومن ثم اقتراح بوجوب تشديد العقوبات وتدعيم السجون .. [تحسّبا لظهور اضطرابات عنيفة من جانب العمال..].

وفي النهاية سوف يذهل القارئ الذي لديه قدرة على مواصلة قراءة هذا الكتاب للمدى الثوري الذي يقترحه .. فإن بناء الفكر النظري لحركة العمال البريطانية وإنجازاتها في مائة عام تقريبا تنقلب في هذا الكتاب رأسا على عقب .. وليس أدل على ذلك من الدور الذي رسمه الكتاب للحكومة العمالية التي انتخبها الشعب وهو دور يمنعها من أن تتدخل في الاقتصاد لصالح الذين انتخبوها وإنما لتدعيم الأغنياء والأقوياء وتقصر نقمتها وسيطرتها على الناس الذين يعيشون في قاع المجتمع .. وبهذا الدور كان التأثير على العملية الديمقراطية مدمّرا..

نعم .. قد تستطيع العملية الانتخابية تغيير الحكومة ولكن أي حكومة عمالية منتخبة على أساس فلسفة "مندلسون" و"ليدل" لا يمكن أن تَعدَ بأي تغيير أو إصلاح حقيقي.. وقد حاول اثنان من دعاة الاشتراكية في حزبِ العمال تنبيه الحركة العمالية إلى خطر ما هي مقبلة عليه جرّاء سياسة تونى بلير الجديدة .. إنهما "كِنْ كوتس" و"مايكل باريت" في كتاب نُشر لهما سنة ١٩٩٦ بعنوان The Blair Revelation "إنكشاف بلير" .. نزعا فيه عن "مندلسون" و"ليدل" الهالة التي أحاطتهما بها وسائل الإعلام وكشفا تدليسهما وزيفهما الفكري .. كما نبّها إلى بدايات الانحراف الذي ظهر على الحزب منذ عهد جون سميث .. ولكن تحذير القلّة الواعية من أصحاب التوجّه الاشتراكي في حزب العمال ضاع في خضم الرغبات العارمة للكثرة التي تشبثت بأمل جديد في الفوز بالانتخابات بعد حرمان طويل خارج السلطة بلغ ستة عشر عاما هي مدة حكم مارجريت ثاتشر .. وبدأت عملية إغواء للقيادات العمالية باحتوائهم في جنة الرأسمالية ليذوقوا بعض نعمها .. ففي ١٢ مايو ١٩٩٤ اليوم الذي تُوفي فيه زعيم العمال جون سميث حصلت "باتريشيا هيويت" وكانت السكرتيرة الصحفية لنيل كينوك ثم نائبة لجنة تعديل حزب العمال الجديد .. حصلت على وظيفة مدير مركز أبحاث واحدة من أكبر مؤسسات الاستشارات الصناعية والمالية (أندرسون كونسلتنج) ..

وفي صيف سنة ١٩٩٦ عُقد اجتماع في أكسفورد لمائة من وزراء الظّل والقادة من حزب العمال لتحاضرهم مجموعة من خبراء هذه المؤسسة كيف يكونون أصدقاء لرجال الأعمال لا أعداء لهم ..

وفي حمّى النصر الموعود التي اجتاحت كل ركن من أركان حزب العمال سلم الحزب نهائيا برامجه واستراتيجياته ليرسمها بلير ومندلسون وليدل وبطانتهم...!

وهكذا رأينا الحزب الذي أعلن سنة ١٩٧٩ بأنه فخور بأن يكون اشتراكيا يعلن سنة ١٩٩٧ بأنه فخور بأنه ليس اشتراكيا..!

لم يعد "حزب العمال الجديد" حزبا للعمال على الإطلاق .. حزب جديد حقا ولكن لا علاقة له بالعمال ولا بمصالح العمال ..! وقد كُتب المنفستو الجديد بطريقة أشعرت رجال المال والأعمال بأنه موجّه إليهم ومن هنا تداعوْا إلى قصعة العمال ليلتهموا وليمتهم الثمينة..!

ومرة أخرى يسقط الاشتراكيون في وهم جديد: أن هذا الاتجاه الأيديولوجي المستحدث ليس إلا تكتيكاً ذكيا للوصول إلى السلطة ثم يعود الحزب إلى سابق عهده .. ولكن هيهات ..! فقد اكتسح العمال صناديق الانتخابات بنصر هائل وأغلبية هائلة سنة ١٩٩٧ .. ولكن لوحظ أن بعض من دخلوا على مراكز السلطة لم تكن لهم وجوه عمالية معروفة وإنما وجوه "ليبرال ديمقراط" سابقين، كان منهم: "روجر ليدل" و"بيتر مندلسون" الذين أصبحا مستشارين (فوق العادة) لرئيس الوزراء لشئون الدفاع والشئون الأوروبية، و"ديريك سكوت" للاقتصاد.. وعدد آخر من المستشارين والخبراء أحاطوا ببلير كما يحيط السوار بمعصم اليد..

بلير يدمّر التقاليد الديمقراطية لحزب العمال:

في كتاب للصحفي والكاتب البريطاني "جورج مونبيُوت" بعنوان: "دولة أسيرة ...Captive state" نشر سنة ٢٠٠٠م، يتضمّن سجلا بأسماء رجال الأعمال الكبار الذين شغلوا مراكز قوة بالغة التأثير في حزب العمال الجديد .. ومن بين تأثيراتهم ظهور احتكارات هائلة .. إذ أصبحت شركة واحدة تملك وتهيمن على خدمات الغاز والكهرباء التي تدخل كل بيت في بريطانيا.. وفي النصف الثاني من كتاب "دولة أسيرة" يصف "مونبيوت" الصراع الخفي بين القوى غير المنتخبة صاحبة المال والأعمال وبين حكومات حزب العمال المنتخبة .. ويناقش أثر حق التصويت في الاقتراع العام على تطور الحركة العمالية في بريطانيا .. ويتابع الحكومات العمالية خلال القرن العشرين فيحلل أسباب نجاحاتهم وإخفاقاتهم في مجال تحقيق الهدف الأساسي المعلن لتحويل بريطانيا من الرأسمالية إلى الاشتراكية .. ثم ينتهي إلى القول بأن هذا الهدف ظل يضمحل

تدريجيا حتى أعلن استسلامه النهائي على يد بلير وبطانته .. ويحاجج الجناح اليميني في حزب العمال بأن بريطانيا نفسها قد تغيّرت وأن على حزب العمال أن يغيّر سياسته بالتبعية، وأصبحت الأولوية الآن لأي حكومة عمالية عادلة ومهذّبة، أن توازن بين مصالح الأغنياء والفقراء ولا ينبغي أن تكون (بعد الآن) معنيّة بتوزيع الثروة والسلطة ..

يقول المؤلف: إن كل ما يراهن عليه بلير الآن هو الاعتماد على كرم وإنسانية الأغنياء في توزيع الثروة والسلطة وفي إتاحة فرص التعليم والخدمات الصحية .. وبناء منازل مهذّبة للفقراء وتأمين معاشات للعاجزين وكبار السن..! [يعنى عملية تسوّل ..!]

وهكذا عادت بريطانيا لتصبح مجتمعا منقسما قسمة حادة: بين ملايين كثيرة من الفقراء بلا ملكية ولا كرامة ولا أمل .. محرومون حتى من نتاج عملهم في الصناعة، وبين قلة ضئيلة تستحوذ على السلطة والثروة جميعا ..

ويرى المؤلف أن هذه القسمة أصبحت تتجلى بوضوح مذهل على الساحة العالمية الواسعة فقد أصبح أكثر من خُمسيْ سكان العالم يعانون من الحرمان وعدم القدرة على الحصول على ما يسدّ رمقهم من الطعام .. وأكثر من هذه النسبة عاجزة عن الحصول على ماء نظيف للشرب ..

وأن هذه الكثرة الهائلة تعيش جنبا إلى جنب وتحت رحمة قلة قليلة تزداد يوما بعد يوم قسوةً وثراء .. ولا يتورع هؤلاء من استخدام ثرواتهم ووسائل إعلامهم وقواتهم الأمنية بل وجيوشهم أيضا لحماية ممتلكاتهم وامتيازاتهم وسلطتهم الفاشية .. وأبعاد هذا التقسيم اللاإنساني أكثر من أن يصدّقها عقل. والقادم على الطريق أبشع وأهول فإن الهوة بين الأغنياء والفقراء في اتساع متواصل ..!

يركز كثير من المراقبين على الهوّة السحيقة بين الدول الغنية والدول الفقيرة وهم على حق .. ولكن الهوة بين أغنياء كل دولة وفقرائها أشد وأبشع .. وقد استطاعت هذه القلة الغنية ترويض الأنظمة الديمقراطية والتعايش مع إفرازاتها

؛ إذ استطاعت أن تجعل حكوماتها المنتخبة عاجزة .. وجعلت برلماناتها غير قادرة على المحافظة على حقوق الجماهير التي وضعت فيهم ثقتها..!

وأكبر حجة يتذرع بها الأغنياء المحظوظون هي أن الثروة التي يحصلون عليها في القمة من شأنها أن تنحدر إلى أسفل ليحظى بشئ منها الكثيرون ممن يعيشون على السفح أو في القاع .. ولكن هذا لا يحدث أبدا لأن الثروة (بقدرة قادر) تندفع كالنافورة فقط إلى أعلى لتبقى هناك في القمة .. في قبضة الأغنياء وحدهم ولا تنحدر منها سوى قطرات شحيحة لا تثمن ولا تغني من جوع..!

لقد أقام هؤلاء الأغنياء فيما بينهم تضامنا حصينا لحماية أنفسهم رافعين شعار: لكي تحافظ على ثروتك ينبغي أن تتأكد أن البرابرة محجوزون خارج البوابة الحديدية فهؤلاء الذين حرمهم الله من الثروة يجب عزلهم بعيدا عن الأعين ولكن ليس بعيدا عن السيطرة..!

****

تبة فرعون : مرحبا بكم فى جهنم!

عن العشوائيات فى مصر أتحدث .. وقد بدأتُ أهتم بالجانب النظري منها ضمن قراءات سابقة فى ثمانينات القرن العشرين أتيحت لى خلال دراسة أهداها إليّ الصديق الراحل الدكتور "السيد الحسيني" أستاذ علم الاجتماع بجامعة قطر ، ثم رئيس قسم الاجتماع ووكيل كلية الآداب بجامعة عين شمس.. وكان قد قام بهذه الدراسة ضمن برنامج عالمي تبنّته الأمم المتحدة فى ذلك الوقت.. كشف فيها البحث عن بدايات نشوء العشوائيات (خلال الانفتاح الاقتصادي فى عهد السادات) فى مناطق قد لا يتوقعها القارئ مثل حي الوايلى..

وقد رصد الدكتور الحسينى ظهور مصطلحات جديدة مع هذا التطور العشوائي كمصطلح [مَطْرح] أي غرفة واحدة فى شقة ، بمعنى أن الوحدة السكنية -لأسرة من الطبقة المتوسطة الدنيا- لم تعد شقة كاملة بل مجرد غرفة واحدة يشترك قاطنوها مع سكان الغرف الأخرى ، الذين قد يصل عددهم إلى عشرين شخصا ، فى دورة مياه واحدة ، لقضاء الحاجة..

وتتناول الدراسة بالتحليل الرقمي أيضا ظاهرة سُكنى الأحياء فى مقابرالموتى.. وهى ظاهرة ليس لها نظير فى العالم .. باستثناء ما ورد فى قصص ورحلات السندباد البحرى فى أزمان وأماكن أسطورية .. عندما دُفن السندباد فى مقبرة زوجته بعد موتها كعادة أهل البلد ؛ إذا ماتت الزوجة دُفن معها زوجها حيًّا ، كنوع من الوفاء الإجباريّ..

وعلى بشاعة الفكرة.. وواقعها الأبشع فى القاهرة.. إلا أن هذا الواقع (أعنى سُكْنى المقابر) يعتبر حالة من الرفاهية يُحسد أصحابها عليها إذا ما قورنت بالحالات المروّعة التى نقلتها كاميرات برنامج الإعلامي عمرو الليثى بعنوان "واحد من الناس" .. شاهدتها بالمصادفة وأنا أتناول طعام العشاء فصدمتنى وتقلصت أمعائى وأصبت بحالة من الغثيان والدوار..

كنت أظن أن مارأيته ليس قطعة من مصر وإنما من كوكب آخر تبثّه قناة كونية.. ظهر هذا البرنامج فى غضون كارثة إنهيار صخور جبل المقطم على

سكان الدُّوَيْقَة، التى دُفن مئات من أهلها تحت الأنقاض وعجزت أجهزة الدولة أن تنقذهم .. وما صاحب ذلك من مظاهر بلادة الحس وانعدام الضمير، التى طبعت سلوك السلطات المسئولة..

ولكن عشوائية "تبة فرعون" بمنشية ناصر التى شاهدتها فى برنامج "واحد من الناس" فاقت جميع الكوارث والمآسي التى اتسم بها هذا العهد النّكد .. كان عمرو الليثى يصف بالكلمة والصورة .. ويعرض وجوها بائسة قانطة لواقع لا علاقة له بدنيا البشر.. يقول:

يسكن هذه المنطقة: آلاف الأسر المصرية.. يعيشون فى مساكن أقاموها بأنفسهم من الأخشاب القديمة البالية بأسقف من الصفيح والكرتون يضيفون إليها مزَقًا من البلاستيك والأتربة لتثبيتها ، فى محاولة لحماية أطفالهم وأنفسهم من مطر الشتاء .. ولكن هيهات..! وحتى لو هربوا من المطر فإن الحشرات القاتلة من العقارب والثعابين تقتحم عليهم مساكنهم فى الليل فتقتل صغارهم وتروّع كبارهم.. هذه المنطقة تحوطها التلال من كل ناحية.. وتكاد تختنق بالروائح الكريهة المنبعثة من أكوام الفضلات والتفايات العفنة..

ليس فى تبة فرعون ماء نظيف ولا صرف صحي ولا إضاءة ولا كهرباء ولا أى مرفق من مرافق الحياة يدل على أن هناك بشر..

قد تسأل مالذى جاء بهذا العدد الكبير من الناس، ومنذ متى..؟! يقول سكان الخرابة أنهم ضحايا زلزال حدث سنة ١٩٩٢ وقد جيء بهم قهرا إلى هذا الجحيم كإيواء مؤقت لحين إيجاد مساكن لهم.. هذا [المؤقت..] امتد الآن(٢٠٠٩م) على طول سبعة عشر سنة كاملة.. ولا يبدو فى الأفق أي شعاع من أمل فى تسلّم مساكنهم.. فأين هذه المساكن البديلة..؟!

- ترينا كامرات البرنامج عمائر جديدة على مرمى غير بعيد من الموقع غير مسكونة .. تبدو كاملة البناء.. ويقول الضحايا: إنها مكتملة هكذا منذ عدّة سنوات.. ولكن السلطات تماطل فى تسليمها لنا . ويقول بعض الشبان: "الحكومة استخسرتها فينا بعد أن تمّ بناؤها" .. كان محافظ القاهرة يعرف

المشكلة.. ولكنه رفض الاستجابة لدعوة صاحب البرناج التليفزيونى لمناقشتها والرد على استفسارات الضحايا وشكاواهم..

وبعد . هل تتصور أن هذه السلطات تكلفت فى بنائها شيئا...؟! الحقيقة التى تجنب مقدم البرناج التطرّق إليها -خجلا أو تحسّبا من المساءلة- أن تكاليف بنائها كان مصدره تبرعات جاءت من البلاد العربية الشقيقة .. وكأن مماطلة السلطات فى علاج المشكلة لأكثر من ربع قرن مقصود بها بث روح الإحباط واالقنوط التام عند الضحايا حتى يتركوا المنطقة الموبوءة ويتفرقوا بعيدا فى شعاب الأرض كما تفعل إسرائيل مع أهل غزة والضفة.. فإذا هاجروا أو تبدّدوا استولت عليها السلطات لحساب المستعمرين 'لصهاينة هناك ولحساب الأغنياء المترفين هنا .. وليذهب الضحايا من الفقراء إلى الجحيم ..

حقيقة أخرى من الحقائق المخزية.. أن النساء والأطفال يضطرون للحصول على حاجتهم من الماء أن يسيروا مسافات طويلة عدة مرات فى اليوم لشراء الماء فى [جراكن] تتراوح أسعارها بين خمسين قرشا إلى خمسة وسبعين قرشا للجركن الواحد.. وتحتاج كل أسرة عددا منها كل يوم..وهى أسر فقيرة أو قل إنها معدمة.. والأكثر خزيا أن الماء موجود فى خزان مياه جديد قائم على بعد أمتار من الموقع ولكنه محرّم عليهم..

يقول بعض السكان: كل ما نريده أن نعيش فى المساكن التى إقيمت لنا فى مشروع أطلقوا عليه مساكن سوزان مبارك.. أن نعيش نحن وأبناؤنا فى مأوى إنسانى آمن تحت سقف حقيقي.. أن نحصل على أبسط حقوقنا فى العيش كآدميين ..!

تقول سيدة: لقد فقدتُ ابنتيْ ؛ ماتتا من لدغ العقارب السامة.. وتقول أمّ أخرى: إبنى الوحيد عمره ثلاثة أعوام مريض بالتهاب الكبد الوبائى والكلى بسبب المياه القذرة التى نضطر لشربها، وكل ما يحصّله زوجى من العمل اليومي الشاق لا يكاد يغطى ثمن الأدوية اللازمة لعلاج ابننا..

هنا.. نرى نماذج من البشر أُجبروا على العيش فى واحدة من البؤرالعشوائية بالقاهرة.. عشوائية يرجع الفضل فى إقامتها ثم إهمالها إلى الدولة التى قذفت بضحايا الزلزال قسرا إليها من أول الأمر.. هذه البقعة الجهنمية من أرض مصر تستحق أن يُرفع عليها لافتة مكتوب عليها: "مرحبا بكم فى جهنم.." وهي لافتة استوحيْتها من لافتة مماثلة كانت مرفوعة على معسكر (فى كرواتيا) للاجئى البوسنة الهاربين بحياتهم فرارًا من المجازر الصربية..

إزاء "تبّة فرعون" ومساكن المشردين التى أطلقوا عليها إسم زوجة الرئيس- تفجرت فى عقلى انطباعات من الطفولة المبكرة ؛ ذكَّرتنى بتلك السورة القصيرة جليلة المعنى من القرآن الكريم ، كنت أرددها طفلا بقوة وحماس وأنا خارج من الكُتّاب .. أُباهى بحفظها قرنائى من الأطفال، وإن كنت لم أفهم معناها فى ذلك الوقت ، وإنما أَسَرَنِى جرْس كلماتها ووقْعها الموسقي الأخّاذ .. الآن بدأت أفهم معانيها ، وأنا أعيد ترديدها فى نفسى: " تبّت يدا أبى لهب وتبّ.. ما أغنى عنه ماله وما كسبْ .. سيصلى نارًا ذات لهبْ.. وامرأته حمالة الحطبْ .. فى جيدها حبل من مسدْ " .

الآن أصبحت أدرك أن مصر كلها قد أصبحت عشوائية هائلة مترامية الأطراف ، إسمها "تبّة فرعون" عليها لافتة كبيرة مكتوب عليها: "مرحبًا بكم فى جهنم"..! وعلينا أن ننسى تماما تلك اللافتة القديمة المتهرّئة ، التى لا تزال معلقة على باب مطار القاهرة الدولى "أدخلوها بسلام آمنين".. فلم يعد -هنا- أمن ولا سلام ولا دولة..!

****

نيجاتيف كاتب

أصوغ عنوان هذا المقال إستعارةً من مقال للدكتور يحي الرخاوى بعنوان "نيجاتيف إنسان" يقول فيه: " الذات الداخلية، إذا بلغت درجة بشعة من التشويه، من فرط ما لحقها من إنكار، وإلغاء، وإهمال، وإيلام، وسحق، لا يكون هناك حل إلا إخفاءها تماما بميكانزمات شديدة التغطية، تخفى صورة النفس المشوهة".. و الدكتور يحيى الرخاوى هو أستاذ الطب النفسي بكلية طب القصر العينى جامعة القاهرة، ولكنه حصل على جائزة الدولة التشجيعية في الآداب عن روايته "المشي على الصراط" سنة ١٩٧٩، وهذه مجرد إلماحة إلى تعدد مواهب الرجل وإهتماماته، بالنفس الإنسانية فى أبعادها المختلفة، فهو أستاذ وطبيب معالج للأمراض النفسية، وكاتب أديب، يمزج فى كتابته العلم بالأدب.. وله اهتماماته السياسية والاجتماعية.. وهو فوق هذا شخصية مشهورة فى الصحافة والإعلام المتلفز، وليس بحاجة إلى مزيد من تعريف.. ولعل من أبرز ما يميز نشاطه الفكري حواراته مع تلاميذه وأصدقائه، عبر موقعه على الإنترنت.. فهم يأتون إليه بتعليقاتهم واستفساراتهم، وهو يرد عليهم بما يزيل الغموض و الالتباس..

إنه يصور حالة فصامية تتمزق بين حلمين وصورتين: الحلم الذى ينطوى على أمل أن نعيش كما خُلقنا دون تشويه، وهو حلمنا المشروع أن نكون بشرًا كما خلقنا الله .. فإذا حيل بيننا وبين أن نكون أنفسنا بهذا المعنى، لايصبح أمامنا إلا إختيار واحد: الاستسلام بأن نلغى وجودنا لنصبح هذا الحلم الشبح ، الذى يصفه [بنيجاتيف] الصورة، وياليته نجاتيف عادي وإنما هو نجاتيف غير قابل للتحميض، بمعنى أنه يستحيل أن يتحوّل إلى صورة حقيقية.. فقَدَرُهُ أن يبقى شبحا أو عفريتةً شائهةً، بلا شخصية ولا ذاتية يتقَوّمُ بها وجوده..

هذا الإنسان الذى أصبح مفرّغا من الشخصية الذاتية، مع إدراكه الصاعق لبشاعة هذه الصورة، نراه يسارع بتشويه وجوده بأن يسقط أبشع ما فيه على

العالم.. ثم هو لا يستقبل إلا هذه البشاعة المشوهة، التى خلعها على العالم الخارجيّ، نفهم من كلام الدكتور الرخاوى أن هذه الحالة الفصامية ليست مقصورة على المرضى النفسانيين فحسب وإنما تمتد إلى الأشخاص العاديين (والكتّاب منهم)، يبدون أسوياء.. بينما هم قد تم تفريغ ذواتهم الفطرية الحية، من خلال عمليات برمجة تمارسها السلطات الطاغية.. لا بد أن أشير هنا إلى أن هذا الكلام تم نشره فى بداية سنة ٢٠١٠ عندما بلغت سطوة النظام السياسي الباطش قمتها، وبالمقابل بلغت قوة السحق على البشر أقصى مداها..

الدكتور الرخاوى.. يطرح هذه المعادلة مؤكّدا أن أبشع ما فيها هو سحق الذات الإنسانية.. كما يعبر عنها محاوره د. جمال التركي إذ يقول: " و ما أكثر البرامج الخفية التى تعمل فينا ولاندركها.. تم تنضيبها فى عقولنا فعملت فعلها فينا و نحن نعتقد أننا أحرار فى قراراتنا واختياراتنا وتوجهاتنا. إنها قوة البرمجة: أن تنفّذ إرادة واضع البرنامج معتقدا أنها إرادتك وأنك تفعل ما تريد دون أن تعى أو حتى تشك فى أن هذه إرادة غيرك.."

يستعرض د. جمال التركى فكرة د. الرخاوى عن الإنسان السوي الذى ينتقل فى إدراكه تدريجيا من الذاتي إلى الحقيقي خلال النُّضج (أو النموّ الكادح).. والذى يصفه بأنه " آلية رحلة الكدح إلى التناغم مع الوعى المطلق.. إلى وجه الحق تعالى" وهو هنا يشير بلا شك إلى الآية القرآنية:" يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربّك كدحا فملاقيه".

يسأل د. جمال: أليس لهذه النقلة من أدوات ومتطلبات، وهل المتاح من حولنا من إعلام و فكر و سياسة و فلسفة، يدفع برحلة الكدح هذه إلى التناغم مع الوعى المطلق فيثريها ليسمو الإنسان بما هو انسان، أم يعوقها فينتكس..؟!

أقول: إذا كان الإعلام والفكر والسياسة فى عقود ما قبل الثورة قد نجحت فى برمجة قطاعات واسعة من الناس لتفريغ ذواتها من الوعي، فإن الوضع لم يتغير كثيرا بعد الثورة؛ فما تزال هذه الأدوات تؤدى دورها السابق نفسه بتزييف

الحقائق على الناس، خصوصا خلال هذه الفترة الأخيرة الحاسمة التى يتم فيها اختيار رئيس للبلاد.. و يساهم ناقلو الأخبار وكتّاب الرأى فى هذه العملية على أوسع نطاق، إذ يبدو أن هناك اتفاق شبه كامل على الهجوم على الأغلبية البرلمانية المتمثلة فى الإخوان المسلمين للحيلولة بينها وبين أي سلطة حكومية، سواء فى رئاسة الدولة أو تشكيل الحكومة القادمة.. بل التهديد بتجريدها من مكتسباتها فى الإنتخابات النيابية بحل البرلمان.. والثابت هنا أنه بصرف النظر عن أخطاء إرتكبها الإخوان أو لم يرتكبوها، فأنا لن أجادل فى هذه الناحية، إنما لا ينبغى أن نتغاضى عن الحقائق التالية:

أولا- أن السلطة مع قوة الإعلام مع قوة رجال النظام السابق بمالهم وتغلغلهم فى إدارات الدولة قد استطاعوا بالفعل إحداث اضطراب شديد وتشرذم واضح فى صفوف التيارات الإسلامية وضرب بعضها ببعض، بحيث أصبح اتفاقها على مرشح واحد للرئاسة فى إطار المستحيل.

ثانيا- نجحت الصحافة والإعلام فى تشويش عقول الناخبين، وزرع الحيرة فى مواقفهم تجاه المرشحين الباقين بعد الاستبعادات التى تمت..

ثالثا- نتائج هذا الهجوم السُّلطويّ الإعلاميّ الفلوليّ، ينسجم تماما مع ما تصبو إليه إسرائيل و أمريكا معا: ألّا يصل إلى السلطة فى مصر رئيس أو حكومة ذات توجّهات إسلامية.. وحتى إذا لم يتمكنوا من حل البرلمان فيجب الإبقاء عليه ضعيفا تحت سيطرة القوى الأجنبية وركائزها فى مصر.. وأبرز هذه الركائز: رئيس ضعيف معاند، لا يستند إلى أغلبية برلمانية، أو قوّة شعبية كبرى منظّمة ومتجذّرة فى المجتمع، أو رئيس فلولي أو شبه عسكرى، يظل في حاجة إلى شرعية مُنْتَحَلِةٍ تسانده كالمجلس العسكري.. معتمدا فى معالجته لمشكلات مصر الإقتصادية على المساعدات والقروض الأجنبية لدرجة الاختناق ؛ بنفس الطريقة التى سار عليها نظام مبارك.. وهى سياسة لا تَعْمدُ إلى إغراق الضحية لتموت، وإنما الإبقاء عليها طافيةً برأسها فوق سطح الماَء، لتتنفس وتعيش دائما بمشاعر الرعب، تحت تهديد الموت غرقًا فى أي لحظة...

ومع كل هذا لا يزال يراودنى هاجس عقلي أن الشعب المصري سيفاجئنا فى انتخابات الرئاسة -كما فعل دائما- بنتيجة لم يتوقعها أحد، لنتحرّر جميعا من ضلالاتنا التى صنعها الكُتّاب "النِجاتِف" الذين صوروا لنا بأكاذيبهم الحق باطلا، وصوروا لنا الباطل حقا حتى اختلطت علينا الأمور، والتبست السبل، فادْعوا الله معى بدعاء رسوله صلى الله عليه وسلم، فما أحوجنا إليه هذه الأيام: " اللّهم أرِنَا الحق حقًّا وارْزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه"..

****

هل الصدام حتمي بين الإسلاميين والعلمانيين..؟

يندر أن تجد كاتبا علمانيا يصرّح بأنه علماني، وذلك لأن العلمانية كلمة رديئة السمعة عند الغالبية العظمى من المسلمين ، ولذلك يتجنب العلمانيون نسبة أنفسهم إليها حتى لا يتشكك الناس فى أهدافهم وينصرفوا عنهم فلا يقرأون لهم، ولكنك ستجد أنهم يعبرون عن المحتوى الموضوعي للعلمانية بالحديث عن ضرورة فصل الدين عن السياسة، وفى محاولة لإخفاء مقاصدهم الحقيقية يبرّرون هذا الفصل بقولهم أن السياسة تفسد الدين.. [على أساس فكرة يروجون لها] وهو أن السياسة لا أخلاق فيها وأنها على وجه التحديد قذرة ، والدين شيئ مقدس.. وأنهم حريصون على ألا يتلوث الدين بقذارة السياسة.. ولكن المتطرفين منهم لا يتحملون إخفاء حقيقة مقاصدهم، فهم لا يفتأون يكررون مقولة أن الدين إذا دخل فى السياسة على أي وجه يُنتج بالضرورة ما يسمونه "الحكومة الدينية" وأن مثل هذه الحكومة على حد تعبير د. يحيى الجمل أسوأ من الدكتاتورية البوليسية..

ويظل هذا الكلام موضع دهشة واستغراب، وباعثا على التساؤل.. مثلا: لماذا تظل السياسة دائما فى حظيرة القذارة..؟ لماذا تُستبعد منها الأخلاق ويُستبعد الدين..؟... وهل صحيح أن العلمانيين جادين فى حرصهم على نقاء الدين وقدسيته وفى رغبتهم عدم تلويثه كما يزعمون...؟ وأي دين يتحدثون عنه...؟ فإذا كانوا يتحدثون عن الإسلام، فماذا يعلمون من الإسلام مما يسمح بإمكانية فصله عن السياسة أوفصل السياسة عنه...؟ وهل إذا ألغيت السياسة من الإسلام هل يبقى الإسلام إسلاما أم يصبح شيئا آخر..؟ كل هذه أسئلة مطروحة ولكنى لست بصدد الإجابة عنها الآن.. فأكبر اهتمامى فى هذا المقال هو بحث مدي إمكانية أن يتّفق الإسلاميون والعلمانيون معا على مبادئ مشتركة من أجل هذا الوطن...؟، وما هي نقاط الخلاف الأساسية فيما بينهم..؟ وهل هى نقاط خلاف مما يستحيل علي الفريقين الالتقاء فيها..؟؟!

لقد بدا لى أن كل فريق متمتْرس فى خندقه، لا يريد أن يتزحزح منه قيد أُنملة..؟ وللإنصاف يجب أن نعترف أن الإسلاميين هم الذين يبادرون بالتنازلات رغبة فى الوصول إلى موقف مشترك بينهم وبين الآخرين، بينما يتشنّج العلمانيون فى مواقف متصلّبة.. ربما يُستثنى من هذا إلى حدٍّ ما "د. عمرو حمزاوى" فى بعض مواقفه الأخيرة؛ فهو يعلن أنه لا يريد فصل الدين عن السياسة وإنما يريد أن ينظم علاقة الدين بالسياسة والدولة.. ولكنه لا يقول لنا كيف سيفعل هذا وعلى أى أساس..؟؟ ولأنه لا يقدّم تفاصيل يمكن مناقشاته فيها، فليس من حقنا أن نسبق الأمور ونقول: "إن الشيطان يسكن أحيانا فى التفاصيل".. علينا أن نفترض فى كلامه حسن النية.. وبدرجة أقل نأخذ كلاما ورد فى مقال لكاتب علماني آخر يقول فيه:

"الطريق الوحيد للنهضة هو تطبيق مبادئ الاسلام الحقيقية: الحرية والعدل والمساواة .. وهذه لن تتحقق الا بإقامة الدولة المدنية التي يتساوى فيها المواطنون جميعا أمام القانون بغض النظر عن الدين والجنس واللون.." وهو كلام لا أجد فى كتابات الإسلاميين وتصريحات قادتهم شيئا يخالفه أو يناقضه..

كاتب هذا الكلام هو علاء الأسواني فى مقال له بعنوان: "هل نحارب طواحين الهواء.." المدهش أن العبارة التى ختم بها مقاله لا علاقة لها بموضوع المقال الأصلى من قريب أو بعيد، فالمقال فى جُملته هجوم على التاريخ الإسلامي.. وإنكار تام لكل منجزات المسلمين عبر أربعة عشر قرنا، لم يسلم منها فى نظره سوى بضع سنوات.. حيث يقول: "إن قراءة التاريخ الإسلامى تحمل لنا إجابة مختلفة.. فبعد وفاة الرسول[صلى الله عليه وسلم] لم يعرف العالم الإسلامى الحكم الرشيد العادل الا لمدة ٣١ عاما، هى مجموع فترات حكم الخلفاء الراشدين الأربعة: أبوبكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب.. الذين حكموا جميعا لمدة 29 عاما ... ثم الخليفة الأموى عمر بن عبدالعزيز الذى حكم لفترة عامين.

يعنى ٣١ عاما فقط من ١٤ قرنا من الزمان، كان الحكم خلالها عادلًا رشيدًا نقيا متوافقا مع مبادئ الإسلام الحقيقية. أما بقية التاريخ الإسلامى فإن نظام الحكم فيه لم يكن متفقا قط مع مبادئ الدين"..!

والمقال فيما بين المقدمة المشرقة والخاتمة المعتمة ، يحتوى على حشد هائل من الافتراءات تعبّر عن جهل صارخ بالتاريخ الإسلامي.. ولكنى سأصرف النظر عن ذلك كله كأنه لم يكن.. مكتفيا بالرد العقلاني المُفحِم للدكتور إبراهيم عوض فى مقال له بعنوان: "دون كيشوت الأسواني.. وطواحين الخلافة".. وسوف أتعامل مع عبارة الخاتمه، وآخذها مفترضا فيها حسن النية..

ثم أعود إلى السؤال الأصلى: إلى أي مدى يمكن أن يتفق الإسلاميون مع العلمانيين...؟ والإجابة على هذا السؤال وردت بالتفصيل فى كتاب شيخنا الجليل الدكتور يوسف القرضاوى فى كتاب له بعنوان " الإسلام والعلمانية وجها لوجه".. أحرص على إيرادها بالكامل لما لصاحبها من وزن ومصداقية لدى جماهير عريضة من القراء فى العالم الإسلامي وخارجه.. ولأنه يمثّل التيار الوسطي فى الفكر الإسلامي السائد..

يرجّح الشيخ القرضاوي أنه بالإمكان أن يتم الاتفاق مع العلمانيين المعتدلين فى أمور كثيرة منها:

١. ضرورة النهوض بأوطاننا والعمل على تنميتها والاستفادة من كل جديد فى العلم والتكنولوجيا، والوقوف ضد الجمود والتحجر فى الفكر والأدب والصناعة.. وتجديد الحياة المادية بكل ما يرقى بها وينمّيها ويطوّرها..

٢. ضرورة إصلاح الضمائر واستقامة الأخلاق..

٣. الاعتزاز بالاسلام باعتباره دين الأغلبية واحترام الأديان الأخرى السماوية لغير المسلمين..

٤. إقامة نظام سياسي يحقق (الديمقراطية).. وعلى إقرار كل الضمانات التى هيأتها للمحافظة على حق الشعوب فى اختيار حكّامها ومراقبتهم ومحاسبتهم وتغييرهم إن أساءوا .. وعلى احترام الدساتير المكتوبة ..

والانتخابات الحرة النزيهة.. والصحافة التى لا تستطيع الحكومة إغلاقها ، وعلى ضرورة وجود معارضة قادرة على أن تنصح وتنتقد بلا خوف من الحاكم وأعوانه..

٥. إقامة نظام اقتصادي يحقق زيادة الانتاج وعدالة التوزيع وترشيد الاستهلاك.. اقتصاد يُعْنَى بحماية الضعفاء من الأقوياء، وبحقوق الفقراء على الأغنياء..

٦. توفير الأمن لكل مواطن .. وتوفير الحرية له دينيا وسياسيا وفكريا، بما لا يهدم القيم السائدة والأصول العامة المتفق عليها فى هذا المجتمع..

٧. أن تكون بلادنا حرة من كل تبعية أجنبية ؛ عسكرية أو اقتصادية أو سياسية أو ثقافية..

٨. رفض الدولة الدينية" التى عرفها الغرب فى العصور الوسطى، الدولة التى تعادى العلم باسم الدين، و تقف مع الطغاة ضد الحرية، ومع الملوك ضد الشعوب وتزعم أنها تمثل فى الأرض سلطان الله...!

ففيم إذن يختلف الإسلاميون مع العلمانيين..؟!

يرى الشيخ إننا نختلف فى أمور أخرى أساسية وقضايا جوهرية.. على رأسها أن الإسلام يواجه العلمانية بشموله لكل جوانب الحياة الإنسانية مادية ومعنوية فردية واجتماعية، ولكن العلمانية لا تسلّم للإسلام بهذا الشمول.. فلا مفر من الصدام..

العلمانية - كما يرى الشيخ القرضاوى لا يمكن أن تكون محايدة كما يزعمون: "فهى تريد من الإسلام أن يكون تابعا لها ؛ يأتمر بأمرها وينتهى بنهْيِها.. إنها ترضى عنه إذا بقي محصورا فى الموالد والمآتم.. فى دنيا الدراويش والمجاذيب.. فى عالم الخرافة والأساطير.. أما أن يتحرك ويحرّرك ويوجّه الشباب ويقود الجماهير ويفجر الطاقات.. ويوجه التشريع والثقافة والتربية والإعلام ، ويعلّم الناس أن يدْعوا إلى الخير ويأمروا بالمعروف وينهوْا عن المنكر، ويقاوموا الانحراف والفساد .. فهذا ما لا ترضى عنه العلمانية بحال"..!

وقد حدد الشيخ المنافذ الرسمية التى يمكن أن تسمح بها العلمانية للإسلام فيما يلي: الحديث الديني فى الإذاعة والتلفاز.. الصفحة الدينية فى صحيفة يوم الجمعة.. حصة التربية الدينية فى برامج التعليم العام.. و قانون الأحوال الشخصية فى قوانين الدولة، ووزارة الأوقاف فى أجهزة الحكومة..."

وعلى حد تعبير الشيخ يقول:

"وعلى الإسلام أن يقتنع بذلك ، بل أن يقدم الشكر للعلمانية لأنها أتاحت له أن يطل برأسه من هذه النوافذ.. ولكن الإسلام يرفض هذه التبعية..."

وهكذا تواجه العلمانية شمولية الإسلام بشمولية الصدام معه فى كل الجبهات الأساسية، وأعنى بها تعاليمه الأربع الرئيسية: العقائد والعبادات والأخلاق والتشريع... و نجد تفصيل ذلك عند الشيخ فيما يلي:

فى العقيددة: العلمانية وإن قبلت العقيدة نظريا ترفض ما تستلزمه العقيدة من معتنقيها، وما تُوجِبُه على أبنائها.. والمسلم الذى يعيش تحت سلطان العلمانية يعانى من التناقض بين العقيدة التى يؤمن بها والواقع الذى يُفرض عليه.. لذلك يرى الشيخ أنه: "لا تعايش بين الإسلام الحقيقي والعلمانية الحقيقية...!"

وفى العبادة: يضرب الشيخ أمثلة كثيرة فيما يتعلق بمجالات الصدام.. نذكر من أبرزها الزكاة؛ وهي الركن المالي والاجتماعي من أركان الإسلام.. تُؤخذ من الأغنياء لتُردّ على الفقراء.. ولكن العلمانية تراها مجرد عبادة شخصية من شاء أدَّاها ، ومن شاء أعرض عنها ولا حرج ولا ملامة، ولكن يبقى ملتزما بحكم القانون أن يدفع الضرائب الوضعية كاملة، وإن قصّر فيها يعاقب..!

وفى الأخلاق: يقول الشيخ: " ربما يبدو أن العلمانية لا تعترض على الجانب الأخلاقي فى الإسلام.." ولكن إذا أمعنت النظر قليلا ستجد أن هناك خلافا فى موضعين:

الموضع الأول- أن الإسلام وإن كان لا يصادر على الغريزة الجنسية، إلا أنه يصر على تصريفها فى نطاق الزواج المشروع، الذى يجد فيه الزوجين السكينة والمودة والرحمة، وفى إطاره تتكون الأسرة التى هى نواة المجتمع... ويحرّم الإسلام الاتصال

الجنسي خارج الزواج.. ويعتبره من الزنى و الشذوذ الذى يجلب غضب الله ويشيع الانحلال والفساد فى المجتمع.. ولكن هذه الأحكام الإسلامية لا ترحّب بها العلمانية، بل تدع الحبل على الغارب للجنسين باعتبارها حرية شخصية...

ويرى الشيخ أن هذا الموضوع من المحكّات الأساسية التى تصطرع فيها العلمانية والإسلام: فالإسلام يغلق الأبواب التى تهب منها رياح الفتنة من: الأغنيات الخليعة.. والصور المثيرة.. والقصص المكشوفة.. والأزياء المغرية.. ويقاوم كل ألوان التبرّج والإثارة والخلوة، ويجتهد فى حلّ مشكلات الزواج، وإزاحة العوائق من طريقه، حتى يستغنى الإنسان بالحلال عن الحرام..

ولكن العلمانية لا تنظر إلى الأمر على أنه مشكلة تتطلب حلّا.. ولا ترى حرجا من إتاحة الفرص لاستمتاع أحد الجنسين بالآخر.. كما تفعل المجتمعات الغربية، وتنظر لموقف الإسلام هنا على أنه موقف متشنّج متزمّت، وتنظر إلى الدعاة الإسلاميين على أنهم معقّدون نفسيًّا.. يضخمون مسالة العلاقات الجنسية ويعطونها مساحة أكثر مما ينبغى..

أما الموضع الثانى- فيتمثل فى أن العلمانيين لا يحبون ربط الأخلاق بالدين، فالأخلاق الدينية عندهم موضع اتهام.. وإنما ينظرون إليها على أساس فلسفي عملى، أى أنها أخلاق مدنية خاضعة للظروف والتغيرات فى القيم الإجتماعية..

العلمانية والشريعة: من خبرته الطويلة يؤكد الشيخ القرضاوي: أن الجانب الذى تقف العلمانية ضده بصراحة وشراسة هو الشريعة، ويعنى بذلك الجانب التشريعي أو القانوني فى الإسلام.. يقول: "قد يتساهل بعضهم فى تشريعات الأسرة (الأحوال الشخصية)، ويعتبرونه مِنّةً منهم على الإسلام، أما العلمانية الأصلية الشاملة فلا تسمح للإسلام بأي مساحة فى التشريع، فالدين مكانه عندها فى الضمير والمسجد فحسب... "..

وللحديث بقية...

****

الفاشية الناعمة
وصناعة الرأى العام

عندما قامت الثورة البلشفية فى روسيا ساد الاعتقاد بأن هذه الثورة سوف تجتاح العالم من الأورال إلى أوروبا الغربية ثم تمتد فى زحفها إلى أمريكا الشمالية .. ولكن هذا الحلم الشيوعى لم يتحقق ، وشرع المفكرون الشيوعيون يبحثون عن أسباب ذلك ، وكان على رأس واحدة من لجان الدراسة رجل اسمه "جورج لوكاس" .. كان أرستقراطيا من أصل مجرى ، وكان أبوه من كبار رجال البنوك فى أمبراطورية "هابسبرج" قبل أن تندسر.

تعلم "لوكاس" فى ألمانيا حتى أصبح مُنَظِّرًا مشهورا ، واعتنق الشيوعية خلال الحرب العالمية الأولى ، وقد نسب إليه المؤرخون أنه كان يروّج لفكرة التعليم الجنسى فى المدارس وتسهيل الحصول على وسائل منع الحمل لغير المتزوِّجات ، وتيسير قوانين الطلاق .. وكان من الطبيعى أن تتصادم هذه الأفكار مع قيم الشعب المجرى وعقائده ، فهو شعب كاثوليكى متمسك بدينه ، ومن ثم ثاروا عليه ، مما اضطره إلى الهرب سرا إلى ألمانيا سنة١٩٢٢ ، وهناك التقى بمجموعة من علماء الاجتماع والمفكرين الشيوعيين ، وأسس معهم "معهد البحث الاجتماعي".

مدرسة فرانكفورت :

استطاع معهد البحث الاجتماعى خلال عقد واحد من الزمن أن يصوغ منظومة فكرية نفسية لمحاربة الرأسمالية الغربية ؛ الأفكار الأساسية فى هذه المنظومة تدور حول خلق مجتمعات انعدمت فيها الشخصة الفردية والروح الإنسانية ، لتحلّ محلها فكرة الطبقة والمجتمع .. فى هذه المجتمعات تتوارى فكرة الألوهية ليصبح الشيطان هو الحاكم الأكبر .. فإذا سيطرت القوى الشيطانية تحركت نزعات العنف الكامنة فى نفوس البشر كمقدمة لانطلاق

الثورة الشيوعية .. حول هذه الأفكار نشأ ما يُسمى فى تاريخ الفكر الغربى "مدرسة فرانكفورت" التى تزعمها "جورج لوكاس. "

كانت مهمة مدرسة فرانكفورت تتركز فى محاولة تدمير التراث والثقافة "المسيحية-اليهودية" لصالح ثقافة جديدة تُعمِّق شعور الناس بالاغتراب وتكشف عوامل الغضب والعنف .. وبذلك تخلق بربرية جديدة تمزق الإطار التقليدى للثقافة الغربية.

العجيب فى الأمر أن الغواية المتمثلة فى هذه الأفكار استهوت إلى جانب الشيوعيين شخصيات أخرى من الاشتراكيين غير الشيوعيين ، وعناصر من المتطرفين والصهاينة بل اجتذبت إليها بعض غلاة الرأسماليين الغربيين .

كان تمويل هذا المعهد يأتى فقط من "الكومنِتْرِن" الشيوعى ولكن بعد ذيوع شهرة مدرسة فرانكفورت أصبح التمويل يأتى من جهات أخرى أيضا ، منها جامعات ألمانية وأمريكية .. ومؤسسة روكفلر الأمريكية ، وشبكة كولومبيا للإذاعة ، ولجنة اليهود الأمريكيين والمخابرات الأمريكية ، ومكتب الممثل الأمريكى فى ألمانيا ، وغير ذلك من المؤسسات والمنظمات المعنيّة بأساليب السيطرة على البشر .

وأمام هذه الحالة التى اختلط فيها الحابل بالنابل أبدى ستالين تأففه واعتبر أن الأمور بلغت حد المسخرة ، فاعتقل "لوكاس" وجعله يعتذر ، ثم سجنه خلال فترة الحرب العالمية الثانية باعتباره أحد المتعاطفين مع العدو الألمانى .. غير أن "لوكاس" عاش بعد ذلك ليشهد ثورة المجر على الاتحاد السوفيتى سنة ١٩٥٦ وأصبح وزيرا فى حكومة "إمرى ناجى" .. ولكن الأمر لم يستمر طويلاً فقد جاءت دبابات الجيش السوفيتى لتسحق الثورة المجرية.

شخصيات وتوجهات:

من الشخصيات الهامة فى مدرسة فرانكفورت يبرز اسم "هربرت ماركيوز" الذى تحول إلى النازية ، ثم رحل إلى الولايات المتحدة ليصبح كبير محللى وزارة

الخارجية الأمريكية للسياسات السوفيتية فى عهد "مكارثى" ، ثم انتقل مرة أخرى ليصبح من أكبر اليساريين الجدد ، ثم أنهى حياته بالمساعدة فى إنشاء حزب الخُضْر (أنصار البيئة) فى ألمانيا الغربية .

ولكن يبدو أن أهم شخصيتين اشتهرتا فى مدرسة فرانكفورت هما "ثيودور أدِرْنو" و"ولتر بنجامين.".

نلاحظ فى جميع هذه الشخصيات أنها تتوحد فى سمات مشتركة : فهم جميعا متقلبو المزاج ، مصابون بقلق عارم ورغبة شيطانية فى إحداث انقلاب فى المجتمعات البشرية عن طريق السيطرة النفسية والفكرية على الإنسان ، ولديهم جميعا نزعات إلحادية متطرفة ، ولكنهم لا يشتركون بعد ذلك فى أيديولوجية واحدة ، ومن ثم نراهم متقلبين فى ولاءاتهم بين الشيوعية والرأسمالية والنازية والصهيونية .. كان "ولتر بنجامين" مثلا صهيونيا عاشقا لإسرائيل.

لعل أبرز نجاحات مدرسة فرانكفورت أنها استطاعت تطوير الإعلام الإليكترونى "الراديو والتليفزيون" ليصبح أداة قوية وفعالة للضبط الاجتماعى، ويرجع الفضل فى ذلك إلى كل من "ثيودور أدرنو" و"ولتر بنجامين. ".

الإلهام الفنى والإلحاد :

ترى مدرسة فرانكفورت أن يجعل المثقفون فى عصر الرأسمالية الحديثة هدفهم الأساسى هو القضاء على العقيدة التى كانت سائدة فى الثقافة الغربية عن مصدر "الإلهام الفنى"، فقد كان الاعتقاد السائد هو أن الفن ينبع من الوعى الذاتى للفنان بالمثال الإلهى الخالق .. بمعنى أن الفن إنما هو إلهام روحى مصدره الإيمان الدينى .. ومن ثم يرى "ولتر بنجامين" أن على النخب المثقفة أن تقوم بعرض الفن والتحدث عنه باعتباره نتاجا أو إلهاما ماديا أنثروبولوجيا، ناتجا عن تأثيرات مادية على العقل كتأثير الحشيش والأفيون على المخيِّلة الإنسانية .. فى نفس الوقت لابد من إيجاد أشكال جديدة تعمق الشعور بالاغتراب حتى يؤمن الناس أنهم بغير الاشتراكية سيعانون التعاسة .. إنها ثقافة لا تربط الإنسان بالأيام السعيدة البائدة ، ولكن بالأيام التعيسة الحاضرة .

بذلك يستطيع الفن الحديث تدمير الفن البرجوازى .. وينزع الإنسان من عقيدته الإلهية .. إذ يرى "ولتر بنجامين" أن الاختيار الوحيد فى الإبداع هو الثورة السياسية ، وأن برمجة اليأس الإنسانى بهذه الطريقة تعنى طرد الباعث الأخلاقى من السياسة .

كمثال على تطبيق هذه البرمجة فى الواقع رأينا "ولتر بنجامين" يحث ويتعاون مع "بريخت" الكاتب المسرحى المشهور فى تطبيق هذه النظرية .. وهكذا شرع "بريخت" يسخّر مواهبه الإبداعية للتأثير على المشاهدين بحيث يتركون المسرح فى حالة من اليأس والغضب اللَّذَيْن لا هدف لهما .

وكانت تحليلات بنجامين وأَدِرْنُو تمثل الأساس النظرى لكل الاتجاهات السياسية الإلحادية التى انتشرت كالوباء فى الجامعات الغربية مما دفع صحيفة "واشنطون بوست" للقول بأن "ولتر بنجامين" هو أعظم منظّر أدبى ألمانى فى هذا القرن .

بشّر بنجامين وأَدِرْنُو بالاستنساخ الميكانيكى للفن .. وجعلا هدف الفن متركزا فى التسلية بدلا من الإمتاع .. العجيب أن هذه التوجهات استهوت كل الأنظمة على اختلاف انتماءاتها الأيديولوجية : فقد استفادت بها البلشفية الروسية ومارستها ، بنفس القدر الذى استفادت بها الرأسمالية الغربية ومارستها.

وهناك شخصيات أخرى فى مدرسة فرانكفورت يرون أن الأسرة الحديثة بنظامها الأبوى دليل قاطع على الاتجاهات الاستبدادية فى المجتمع .. وأن النظام الأمومى هو الذى يمثل التقدم المطلوب للمجتمع [نوال السعداوي نموذج فى مصر] .. وقد رصدوا لهذا التقدم سبعة مؤشرات من أبرزها : ثورة النساء ، وتحرير المرأة ، وثورة الصبيان والمراهقين (استنادا إلى نظرية بنجامين و"سْبوك" وآخرين) للسماح للأطفال بتعاطى عقار الهلوسة تعبيرًا عن تمردهم على المجتمع..

وكانا وراء ظهور انحرافات الشباب الراديكالى متمثلة فى حركة "الهيبيز" وغيرها من حركات التمرد .. والعلاقات الجنسية الجماعية .. وبناء أسر (سايبة) على أسس اجتماعية وقانونية رخوة .. وإشاعة موضة الملابس والسلوك الموحد للجنسين (الإناث والذكور) .. وأخيرًا ترويج فكرة جنة المستهلك ..

وهى فكرة خطيرة على عقل الإنسان وسلوكه : ففى هذه الرؤية ينتهى دور الأم الطبيعية نهائيا ؛ ويبرز دور الأم التكنولوجية التى تتولى رعاية الأطفال وتُهَدْهِدُهُمْ بسيل لا ينقطع من الإعلانات المتلفزة .. فى هذه العملية يتحول الإنسَان عاطفيا إلى طفل يلتمس الأمن فى صدر أمه الحنون الذى يمدّه بفيض لا ينقطع من اللبن ، وبذلك تنعدم الحاجة إلى جهد الإنسان فى اتخاذ قراراته اليومية بنفسه ، لأن أمه الإعلانية تتولى عنه هذا العبء الذى لم يعد له لزوم.

سى السيد:

اخترعت مدرسة فرانكفورت صورة الشخصية المستبدة أو ما يمكن أن نسميه (سى السيد) كسلاح لاستخدامه ضد خصومها السياسيين ، والتضليل هنا قائم على افتراض أن تصرفات الشخص فى حد ذاتها ليست هى التى يُعوّل عليها فى الحكم وإنما مدى تطابق هذه التصرفات على المثل أو النموذج الذى ترسمه مدرسة فرانكفورت. وكان هذا النموذج للمستبد هو المناوئ للثورة البلشفية .. فغير الثوريين هم المستبدون ..! ، وهؤلاء كان من الواجب إعادة تعليمهم فى معسكرات الاعتقال البلشفية ..

ثم تغير هذا النموذج تحت تأثير الجماعات الصهيونية الأمريكية ومؤسسة روكفلر فأصبح المستبد هو "اللّاسامى" المعادى لليهود، ولكن -فى حقيقة الأمر- كان هذا مجرد عنوان الكتاب ، أما الهدف الحقيقى فقد كان قياس مدى انتماء الشخص للمعتقدات الغربية أو بمعنى آخر الثقافة الغربية العلمانية ، على هذا الأساس يتم تشخيص الحالة وبالتالى تحديد ما إذا كان صاحبها استبداديا متسلطا ومن ثم تتم إدانته.

هذه الخلفية الفكرية هى التى تلعب اليوم دورا خطيرًا فى تحييد المسلمين الأوروبيين وعزلهم وتوجيه الاتهامات ضدهم .. وتعميم هذه الأحكام التعسفية على كل المسلمين فى العالم تبريرا لمواصلة "الحرب على الإرهاب.".

وهكذا رأينا أن المعايير والقوالب التى خلقتها مدرسة فرانكفورت التى نشأت فى حضن الكومنترن الشيوعى هى نفس المعايير والقوالب التى استخدامتها الولايات المتحدة لتحديد من هم أعداؤها منذ الحرب العالمية الثانية إلى اليوم ، مع تغيير بسيط فى التسمية .. فبدلا من "المستبد" جاء مصطلح "الإرهابى المسلم".

ماركيوز والثورة الجنسية :

فى منتصف الخمسينيات من القرن العشرين شرعت أجهزة الاستخبارات الأمريكية المركزية تجرى تجارب واسعة النطاق على تأثيرات أقراص الهلوسة التى عُرفت باسم (LSD) فى عملية السيطرة على البشر ... وقد تبين من هذه التجارب أن تعاطى هذا العقار يجعل الضحية شخصية معادية للمجتمع ... أنانى متمركز حول ذاته .. مبالغ فى تضخيم الأمور .. فاقد الشعور بالوقت .. فهو فى حالة " تَوَهَان" عميقة .. وباختصار يكتسب سمات الشخصية التى وصفتها نظريات مدرسة فرانكفورت ، ولكن الذى حول نظريات مدرسة فرانكفورت إلى ثورة فى ستينيات القرن العشرين هو كتاب "ماركيوز" بعنوان "Eros and Civilization" نُشر عام ١٩٥٥م بتمويل من مؤسسة روكفلر.. زعم ماركيوز فى كتابه هذا أن الأمل الوحيد للإنسان لكى يفلت من سطوة المجتمع الصناعى هو تحرير غريزته الجنسية وإطلاقها لتتمرد على عقلانية التكنولوجيا ..

وهذا الترويج لفكرة أن الحياة إنما هى مجموعة من شعائر جنسية لم ينقطع؛ بل ظلت الفكرة تتعمق وتتجذر فى المجتمعات الغربية إلى يومنا الحاضر .. وقد هيمن تلاميذ ماركيوز وأدرنو بصفة مطلقة على الجامعات حتى اليوم .. بحيث

إنك لا تجد كتابا إلا فيما ندر - سواء فى الفنون أو الآداب أو اللغة لا يعترف بشكل صريح بأنه مدين لمدرسة فرانكفورت.

هال بيكر وغزو العقول :

"هال بيكر" خبير إعلامى فى الإدارة أو قل بالأحرى خبير فى التلاعب بعقول مديرى المؤسسات والقادة السياسيين .. أنشأ سنة ١٩٨١م برنامجا لوزارة الخارجية الأمريكية يعتمد على استخدام صور بالكمبيوتر لغسيل عقول قادة قطاعات التنمية فى العالم الثالث بهدف تطويعهم لقبول شروط صندوق النقد الدولى وبرامج السيطرة السكانية (تنظيم النسل!!..) .. وتهيئة هؤلاء القادة للانصياع لتوجهات الشركات متعددة الجنسيات ، فى العولمة والخصخصة ...

ترى كم من القادة والوزراء عندنا خضع لهذه البرامج الأمريكية..؟!

يقول "هال بيكر" : أنا أعلم السر الذى يجعل الأمريكى العادى يؤمن بأى شئ أريده أن يؤمن به .. فقط دعنى أسيطر على التليفزيون .. فأنت بمجرد أن تضبط تشكيل صورةٍ على الشاشة حتى تتحول إلى واقع .. حتى لو كان العالم الخارجى -أقصد خارج جهاز التليفزيون- لا يتطابق مع الصورة المتلفزة ، فإن الناس سيشرعون على الفور فى محاولة تغيير العالم لكى يتطابق مع هذه الصورة المتلفزة .

وخلال خمس عشرة سنة منذ تصريح بيكر لم تعد الولايات المتحدة وحدها ، بل العالم بأسره خاضعا لسيطرة شبكات إعلامية وشبكات إنترنت ذات قدرة هائلة على غواية البشر والتأثير على عقولهم.

هذه القدرة الهائلة – كما يصفها بيكر – إنما هى عملية تلاعب محكم التدبير موجّه لخلق الرأى العام وصياغته ليتوافق سلوكه تلقائيًّا مع التوجهات التى تمليها القوى الحاكمة والقوى المسيطرة .

وفى النضال المتواصل لخلق عالم موحد – فى عصر العولمة – الذى يتجاوز الدولة الوطنية والثقافات الخاصة ، سنجد أن آلة الحرب النفسية الجماهيرية

تحشد جهود كتاب وأطباء نفسيين فى جيش واحد لخلق المحتوى المناسب لغزو العقول .. وصياغة الرأى العام.

صناعة الرأى العام:

ربما تتساءل ما هذا الرأى العام الذى يُراد صياغته ..؟ -دعك من كتب علم الاجتماع أو علم النفس الاجتماعى وتعالَ لنرى كيف يعرِّفه صُنَّاع الرأى العام. يقول وُلْتَرْ لِبْمانْ Walter Lippmann ببساطة وتسطيح شديدين : "الرأى العام هو الصور التى فى رؤوس الناس عن أنفسهم وعن الآخرين وعن احتياجاتهم وأهدافهم" .. فمن يصنع هذه الصور.. ؟ والإجابة ببساطة شديدة وواقعية : إنه الإعلام المسموع والمنظور ؛ لاحظ أن الأشخاص الذين اكتسبوا شهرة خلال الإعلام يصبحون هم قادة الرأي العام .. من الشخصيات الرياضية والفنانين والفنانات وكل من ينصّبه الإعلام نموذجًا أو بطلًا من أبطال الرأى العام .. هؤلاء هم الذين يحددون للناس أفكارهم وأذواقهم ، بل ومواقفهم فى أعقد القضايا والمشكلات السياسية .

ومن ثم يؤكد لنا "ثيودور أدرنو" المهندس الاجتماعى لمدرسة فرانكفورت "إن قدرة الأمريكيين على التفكير سوف يتم تدميرها تماما حينما تنجذب غالبتهم لقضاء وقت فراغهم أمام أجهزة التلفزة" .. كتب أدرنو هذا الكلام فى خمسينيات القرن العشرين ، وهو فى غمرة حماسه بأفكاره الجديدة فى السيطرة على البشر ، ولم يكن للتليفزيون -فى ذلك الوقت- هذا الانتشار وتلك السطوة التى أصبحت له الآن !!.. واليوم يكشف لنا خبراء الحرب النفسية عن علم جديد غريب يطلقون عليه اسم "صناعة الضحايا Victimology

.. و هو علم طوّره معهد "تافسْتوك" بلندن .. ويقوم على أساس نظرية أنه من الممكن إحداث حالة من الفزع المقيم للأشخاص بمواصلة تعريضهم لصور ومناظر أفلام العنف السينمائى..

وقد تجاوزت المسألة مرحلة التنظير والتفكير الأكاديمى إلى التطبيق العملى.. فهناك الآن مؤسسات متخصصة ومراكز منوط بها اتخاذ قرارات على

أساس يومى أو اسبوعى لتحديد ماذا ينبغى للشعب الأمريكى أن يعرفه ، وماذا لا ينبغى له معرفته..؟ ماذا من الأخبار والقصص ستُعرض عليه..؟ وماذا منها لن يرى النور أبدا..؟! إنها عملية تجهيل للشعب الأمريكى والتلاعب به لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الإنسانية ..

أسوق إليك فى هذا الإطار ما سمعته من خبيرة عربية فى الأمم المتحدة صرحت فى لقاء لها على إحدى الفضائيات .. قالت : لقد ذهلت وأنا فى إحدى المؤتمرات أن مثقفة أمريكية لم تسمع مطلقا عن شئ اسمه معتقل "جوانتانامو" إلا أن جوانتانامو هذه منتجع سياحى على البحر يتمتع بشمس مشرقة ودفء دائم!! ..

ويقول خبير عربى فى برنامج آخر : لقد هالنى أن نسبة كبيرة من الأمريكيين يعتقدون أن الفلسطينيين هم المحتلون لأراضٍ إسرائيلية وأنهم هم المعتدون والمغتصبون .. ويعزو هذا إلى أن الإعلام الأمريكى قد حجب عنهم الحقائق ، ولم يسمح إلا بنشر آثار وصور العمليات التى يطلق عليها "انتحارية" فى الأراضى الإسرائيلية ، أما جرائم إسرائيل الوحشية على الشعب الفلسطينى كل يوم فلا تظهر صورها أبدا على شاشات التلفزة الأمريكية.

عقول ميتة :

تأتى فى هذا المجال دراسات مُستفيضة عن تأثير التليفزيون على الجهاز العصبى للإنسان .. وقد ظهر لنا أن تكرار مناظر معينة فى التليفزيون تسببت فى إغلاق جهاز التفكير المركزى فى المخ تماما .. وفى دراسات أخرى أثبتت أن الإدمان على مشاهدة البرامج التليفزيونية من شأنها إضعاف القدرة على التفكير النقدى لما يُعرض على شاشة التليفزيون .. ويرى أصحاب هذه الدراسات أن مجرد ورود الصور على الشاشة خصوصًا إذا كانت فى سياقِ برنامج إخبارى أو وثائقى يجعل لهذه الصورة مصداقية ، ويخلع عليها شعورا بأنها هى الواقع الحقيقى .. ولم ير أصحاب هذه الدراسات ما يستوجب الاستهجان أو الاستنكار ، بل يعترفون بأن التليفزيون ينتج أجيالًا من الناس بعقول ميتة ..

وأن هذا أنسب وضع لنجاح خطة كوكبية أكبر للسيطرة الاجتماعية تقوم بدراسبتها مؤسسة "تافِستوك" وفروعها فى العالم.

فنرى مثلا الخبيرين تريست وكنج (من معهد) تافستوك يحثان على شن حملة لإعادة تربية البشر لكسر آخر معاقل المقاومة الوطنية لصالح العولمة والنظام العالمى الجديد .. (فى هذا السياق اقرأ كتاب إمرى وتريست (Choosing a Future) اختيار المستقبل .

الفاشية الناعمة:

فى سنة ١٩٨١ قدم "برْترام جروس" ورقة إلى "مؤتمر المستقبل" أشار فيها إلى ولادة نظام عالمى جديد .. قال : فى الأيام القادمة سوف يُطرح على العالم ما يسميه معهد تافستوك بـ "الاختيار الحاسم" وهو اختيار بين عدد من البدائل كلها سيئة .. ولكن بسبب الرعب الذى سيسود فى ذلك الوقت وتحت ضغوط أحداث متلاحقة فيسضطر الناس إلى اختيار أقل البدائل سوءًا .. وهو يرى أن المجتمع الصناعى الغربى فى طريقه إلى التمزق والانفجار .. وسيؤدى هذا إلى فوضى عارمة .. تؤدى بدورها إلى ظهور نظام فاشى استبدادى .. إما على النمط الذى ظهر فى ألمانيا النازية أو نظام أكثر إنسانية يمكن تسميته "الفاشية الناعمة."

ويعتقد جروس أن هذا النوع الثانى من الفاشية هو الاختيار الأفضل .. وذلك لأنه يتضمن مشاركة جماهيرية وحرية أكثر .. وسيكون هو الشكل الديمقراطي المتاح لأكبر عدد من الناس.. لا يزعم جروس أنه نظام خالٍ من المعاناة والآلام .. تلك هى الفاشية الناعمة التى ستغرق المجتمعات البشرية بنظام معلومات كونى يشتمل على شبكات هائلة من تلفزة الكابلات والفضائيات والأقمار الصناعية وشبكات الحاسبات الآلية .. فمن سيدير هذه الفاشية الناعمة..؟

- يجيب جروس قائلًا : "إنهم نخبة عالمية مستنيرة من أبرزهم أصحاب صناعة وتكنولوجيا الاتصالات متعددة الجنسيات .. مصادر تمويلها عالمية ..

وستحكم هذه النخبة كتلا هائلة من الجماهير مُستمرة ليلها ونهارها أمام شاشات التلفزة .. هذا النوع من الجماهير يمكن كسبهم بسهولة كرعايا طيبين للنظام العالمى الجديد .. وذلك عن طريق إغوائهم بالمسلسلات والبرامج المسلية .. وإغراقهم بطوفان من المعلومات والتفاصيل التى لا حصر لها لا تسبب لهم إلا الارتباك والحيرة ، ثم التبلد الذهنى المزمن .. ومادمنا قد استطعنا كسب هذه الأعداد الهائلة من الجماهير الغائبة عن الوعى - من خلال الإعلام والتعليم - فإن المقاومة التى ستبديها الفصائل الوطنية المعارضة أو المتمردة سوف تنهار." انتهى الاقتباس من كلام "برترام جروس" ..

ويبدو أن الأمر ليس فيه "هزار" وإنما هو جدّ كل الجدّ .. ففى سنة ١٩٨٩ أقام معهد تافستوك ندوة فى جامعة "كيس وسترن رزيرف" الأمريكية لمناقشة أساليب تحقيق "فاشية عالمية بلا دولة.. " وفى سنة ١٩٩١ كرّس معهد تافستوك مجلة "العلاقات الإنسانية" لأبحاث هذا المؤتمر الذى ترددت فى أوراقه الدعوة إلى تسخير الإعلام الجماهيرى لتحقيق مشروع الفاشية الناعمة .

قتل المستقبل :

تساءل بعض المفكرين عن الإدمان التليفزيونى قال : تُرى ماذا سيحدث عندما يشبّ هذا الجيل من الأطفال المدمنين على مشاهدة التليفزيون ويتولى السلطة فى بلادنا؟ هل سيكونون مؤهلين للقيام بهذه المهمة ؟ هل سيكونون قادرين على التفكير ومعالجة المشكلات ؟.. -استبعد إمْرى وأصحابه السؤال من أساسه بحجة أنه سيكون هناك وقت كافٍ لتدريبهمَ على الحكم..! وقد بقيَ السؤال معلقا بلا إجابة شافية حتى جاء "لينتز" .. وكان أستاذا فى جامعة ولاية بنسلفانيا .. جاء ليحذّر الأمة بأن مستقبلها كارثى ، فقد لاحظ خلال دراسته لمهارات القراءة والكتابة عند الطلاب أن الإعلام الجماهيرى والتليفزيون بصفة خاصة قد دمّر هذه المهارات تماما ، فلم يعد معظم الطلبة يكتبون كتابة منطقية متماسكة ولا يتكلمون بعقلانية .. لا لقصور فى برامج التعليم ، ولكن لأنهم ليس لديهم الرغبة فى التفكير أصلا .. فقد رسخ التليفزيون فى عقولهم أن

الصورة .. والصورة وحدها هى الحقيقة وهى المعرفة المنشودة .. وما عداها فلا شئ .. لا أسئلة ولا استفسارات ولا جهد للتعمق فى عقول الآخرين وأفكارهم .. وإنما الصورة فقط وما يدور حولها من تعليقات .. وينتهى لينتز إلى هذه الخلاصة فيقول:

"لأننا سلمنا رءوسنا وأنفسنا لهذا الوهم الذى يصنعه التليفزيون فإننا سائرون حتما إلى جنون جماعى ، سيكون له انعكاساته المنظورة وغير المنظورة على مستقبل هذه الأمة .. سوف نبدأ نرى أشياء لا وجود لها فى الواقع .. وسوف نسلم لغيرنا أن يصنع لنا الوهم -على أنه هو الحقيقة- والنتائج لكل ذلك مروّعة."

هكذا يرى لينتز: أن النتائج ستكون مروّعة ، ولكن الذين يرسمون الخطط للسيطرة على البشر، والذين يروجون لفكرة الفاشية الناعمة يرون الأمور بمنظار آخر .. فهذه الشخصية السلبية المسلوبة الإرادة التى طرحت التفكير المنطقى والنقدى جانبا ، والتى تعتمد على آخرين ليصنعوا لها قراراتها ويرسموا مستقبلها هى الشخصية المطلوبة، والتى يعملون على صنعها من خلال وسائل الإعلام .. لاشك أنها الشخصية التى تتوافق تماما مع منظومة "الفاشية الناعمة" .. أو الديمقراطية الموهومة.

الوهم الضرورى:

الذى استخدم هذه المصطلح لأول مرة هو "راينهولد نيبور" ، وخلاصة فكرته هى : أن غالبية الجماهير من العوام والجُهّال .. وبحكم هذا الوضع فهم غير قادرين على التفكير الذى يستند إلى المنطق والتحليل ، فتلك خصوصية لا يتمتع بها إلا النخبة .. وهؤلاء [يقصد النخبة] عليهم خلق هذا "الوهم الضرورى" القائم على التبسيط والعاطفية من ذلك النوع الذى تبثه وسائل الإعلام عن طريق الصور المكرورة والقصص الخيالية وبرامج التسلية اللاهية.

وهكذا يرى راينهولد أن الجمهور العام لا قدرة له على صناعة قرارات معقولة .. فهم لا يعرفون ماذا يحتاجون .. ومن ثم فإنه من غير الأخلاقى ولا

اللائق إشراكهم فى الشئون العامة ، فإن هذا يشبه السماح لطفل ذى ثلاث سنوات أن يلعب بسكين المطبخ .. وحتى لا يتورط هؤلاء العوام فى مشاكل لا قبل لهم بها يجب علينا إلهاؤهم والحيلولة بينهم وبين الإنشغال بالشأن العام.

فمن يصنع القرارات إذن ؟ ... يجيب راينهولد : إنهم النخبة من الفئات المتخصصة .. القلة الذكية .. هؤلاء المراقبون الهادئون هم القادرون على اتخاذ القرارات التى تخدم مصالح أصحاب السلطة الحقيقية .. والمقصود هنا هم كبار رجال الأعمال والمال المسيطرون على الاقتصاد والسياسة.

يرد إلى ذهنى فى هذا السياق تصريح أدلى به حسنى مبارك فى أول زيارة له إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، بعد [مبايعته] رئيسا للدولة - عندما سأله أحد الصحفيين عن موقفه من الديمقراطية فى بلاده ، وهل تتوقف السلطات عن تزييف الانتخابات والخضوع لإرادة الشعب ؟

فأجاب الرجل ساخرًا : أنت تتحدث عن بلادى وكأنها أمريكا .. يجب أن تفهم أن أكثر من نصف شعبنا أمى لا يعرف القراءة والكتابة ..

[لعله نسى أن أكثره غارق فى مشكلات الفقر والبطالة المصنوعة] .. ثم تابع قائلاً : فماذا تتوقع أن تكون صورة الديمقراطية التى يمكن أن يختارها .. ! هكذا تفكر النخبة المتسلطة على الحكم فى بلاد العرب ، إنهم لا يفكرون حتى فى (الفاشية الناعمة) فهذا ترف لايقدرون عليه ، ومالديهم هو فاشية من العيار الثقيل ، فاشية المدفع والسجن والدبّابة..!

القبول المصنوع :

"ولتر لِبْمان" يضيف إلى فكرة "الوهم الضرورى" فكرة (القبول المصنوع) فهو يرى أنه فى المجتمعات الديمقراطية لا تستطيع أن تتحكم فى الناس بالقوة كما تفعل السلطات المستبدة فى بلاد العالم الثالث التى لا تمارس الديمقراطية ..ولكن عليك أن تتحكم فى تفكيرهم .. وهو يؤمن أن هذا من صميم النظرية الديمقراطية الليبرالية ، فى هذه الديمقراطية يجب أن يُسمع صوت الجماهير ..

ومن ثم عليك أن تتحكم فى صناعة هذا الصوت مسبقًا بحيث يأتى مطابقا لما تتوقع منه بمحض إرادته وحريته .. يتسق مع هذا التوجّه اعتقاد لبرمان أن الجماهير العامة ليسو إلا قطعانا هائمة – وعلينا أن نحمى أنفسنا من غضبة هذه القطعان .. وهذا لا يتأتى إلا عن طريق صناعة القبول أو "هندسة الموافقة" هنا يميز بين فئتين من الناس : النخبة الحاكمة والجماهير المحكومة .. ويرى أن كل فئة تحتاج إلى نوع مختلف من التعليم والإعلام .

فالنخبة المتميزة لابد أن يكون لديها فكرة دقيقة عن العالم حتى لايتخذوا قرارات خاطئة .. ولابد لهم أيضا أن يتشربوا عقيدةً مَا قبل أن يبدأوا عملهم فى خدمة الكبار .. فسواء كانت هذه النخبة ممن سيديرون سياسات الدولة أو من فرق المثقفين الذين يروجون لها ... يجب أن تكون عقيدتهم هى خدمة مصالح الأسياد الكبار .. ومن أجل ذلك فقط يُسمح لهم بالاطلاع على وسائل المعرفة الخاصة بالنخبة.

أما بالنسبة للجماهير العامة فإن وسائل الإعلام الموجهة إليهم تلعب معهم دورا مختلفا ، فهؤلاء يجب وضعهم خارج دائرة الاهتمامات الحقيقية الجادة؛ إنهم يمثلون من ٨٠ إلى ٩٠ فى المائة من الشعب .. وعلى وسائل الإعلام إلهاؤهم بالأفلام والمسلسلات ونجوم الكرة والموسيقى والغناء حتى لا يفكروا فى المشاركة فى صنع القرارات السياسية..

ويكمّل دور التليفزيون وسائل تسلية أخرى كثيرة من منتجات الثقافة الشائعة فى عصرنا الحاضر من : كاسيت و"سى دى" و"دى فى دى" .. وكلها من حيث الشكل والمحتوى تتبع نمطا واحدا .. وكلها تستهدف خلق جمهور من الناس مجرد من التفكير ومن القدرة على النقد .. مستهلك سعيد ببضاعته حتى لو كان محتواها مجرد نفايات ضارة .. إذ يبقى تأثيرها على عقول الناس وعواطفهم جدّ خطير..!

****

عمالقة وأقزام فى تاريخ منظمة اليونسكو

اليونسكو ليست كلمة وإنما هى إختصار لعبارة (UNESCO) ترجمتها العربية (منظّمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة) .. ويدل الإسم إجمالا على مجالات عمل واهتمامات ونشاط هذه الوكالة المتخصصة بين وكالات الأمم المتحدة المختلفة .. ولعلها الأبرز والأشهر بين جميع الوكالات الأخرى. ربما يرتبط إسم هذه المنظمة فى ذاكرة الناس ببناء قاعات دراسية فى البلدان التى دمرتها الحرب .. أوترميم وإنقاذ الآثارالتاريخية والتراث العالمي. ولكن الهدف الأساسي الذى حدّدته منظّمة اليونسكو لنفسها هدف أكبر وأكثر طموحا وذلك هو بناء حصون السلام فى عقول البشرعن طريق التربية والعلم والثقافة والتواصل بين الشعوب ..

والسلام فى مفهوم اليونسكو لا يعنى مجرد إنتفاء النزاعات .. وإنما له معنى عملي ينطوى على توفير ميزانيات تُخصص للبناء وليس للقتل والتدمير .. وإقامة بِنَى أساسية ومرافق تعمل بكفاءة وتقدّم خدمات ملموسة .. ومساعدة الشعوب للنهوض بمشروعات من أجل المستقبل .. السلام فى مفهوم اليونسكو يقوم على أنفس متحررة من العنف والرغبة فى الإنتقام .. ومنفتح على أفكار التضامن والتعاون بين البشر .. واحترام الإختلاف والحوار .. وتعزز منظمة اليونسكو جهود الشعوب الساعية إلى التنمية البشرية الدائمة وتنمية علاقات التضامن عن طريق بناء السلام القائم على العدل وحقوق الإنسان والديمقراطية .. والحقيقة أن هذه المهمة هى مبرر وجودها .. وينبغى أن تكون مادة عملها اليومي ..

كلام جميل ونوايا حسنة تبدو فى كل سطر بل فى كل عبارة .. مثل كل دساتيرالمؤسسات العالمية والدول .. ولكن يتوقف الأثر النهائي عند التطبيق على الأشخاص الذين يتصدون لتفسيره ويقومون بتنفيذه .. وهنا فقط تظهر الفروق الفردية بين الناس .. فتتجلى العبقرية والسمو الفكري والأخلاقى عند بعضهم .. وتجد الضحالة والخسّة والنفاق عند بعضهم الآخر .. وبين هذين

الطرفين المتناقضين -من أعلى قمة إلى اسفل درك- مساحةٌ كبيرة من النماذج البشرية التى انْطوت دخائلها على مزيج من عناصر السمو والانحطاط .. فى تركيبات بشرية تثير العجب ...!

وليست منظمة اليونسكو بمنأى عن هذا التصنيف البشري المختلط .. وأنا أقصد الذين تولّوا إدارتها منذ أول مدير عام لها "سير جوليان هاكسلى" البريطاني سنة١٩٤٦ إلى كويشيرو ماتسورا الياباني سنة ١٩٩٩ (المدير الحالي)..

هذه السنة [٢٠٠٩م] هي سنة الترشيح لمديرِعام جديد .. وقد قامت مصر بترشيح وزير الثقافة فاروق حسنى لهذا المنصب وتقف وراء ترشيحة بقوة غير محدودة .. لأسباب غير مفهومة..!!

سوف أتجاوز اللغط والجدال الشديد حول أهلية هذا المرشّح للمنصب بصفة مؤقته وأنفذ إلى نقطة بالغة الأهمية .. ربما تكون نقطة محورية للمقارنة فيما بعد .. فعنوان المقالة يشير إلى عمالقة وأقزام فى تاريخ منظمة اليونسكو .. من بين هؤلاء العمالقة أحد مؤسسيها وأول مديرعام لها "سير جوليان هاكسلى" البريطاني .. فقد كان عالما وفيلسوفا وكاتبا مشهورا .. هو علماني قحّ .. نعم .. ولكنه أحد النماذج التى تمثّل أصدق تمثيل حضارة مادية ، وإمبراطورية لم تغرب الشمس عنها أحقابا من الزمن.. ولكنها خرجت مدرّجة بدماء حرب عالمية مدمّرة أثخنتها بالجراح .. ومع بداية غروب الشمس عنها بدأت تخرج الشعوب المقهورة تناضل من أجل حريتها واستقلالها .. ولم تعد القوى الإمبراطورية الأستعمارية بقادرة على كبح جماح هذه الشعوب بقوة السيف .. فبدأت تعمل على إحتواء كل هذه القوى الجديدة فى منظمات عالمية تقوم بدور تطويع الشعوب الناهضة أوالمتمردة .. لصالح القوي الإمبريالية الكبرى؛ خصوصا أنها لم تعد ترى جدوى فى مواجهة حرب عالمية أخرى فيما بينها .. وينطبق هذا التوجّه الجديد على كل المنظمات الدولية إبتداءً برأسها (الأمم المتحدة) وانتهاءً بكل فروعها ووكالاتها .. ولكن القصة لا تنتهى دائما عند ما تريده الدول الكبرى وتشتهيه .. لأن تطورات الأمور تتخذ أحيانا مسارات لا تتحقق فيها

كل ماتشتهيه وتخطط له هذه الدول دائما .. والأمثلة على ذلك كثيرة لا مجال هنا للتفصيل فيها ..

أتجه مباشرة إلى اليونسكو وأعمد إلى نقطة إنطلاق أساسية هى الفترة التى عاصرتُ فيها أبرز تطور فى كل تاريخ المنظمة وّهى الفترة التى تولى فيها أحمد مختار أمباوْ قيادتها.. وكان أول وآخر إفريقى مسلم عظيم يتولى هذا المنصب ثلاثة عشر عاما فيما بين سنة ١٩٧٤ وسنة ١٩٨٧ .. كان حكيما وعبقريا .. وعملاقا لم يتكرر ولن تجد له نظيرا من قبله ولا من بعده (حتى الآن على الأقل..!!)

أتحدث عن اليونسكو وعن أحمد مختار أمباوْ .. لا كمراقب من بعيد بل كشاهد معاصر ومشارك من داخل منظمة اليونسكو خبيرا ثم مستشارا .. كانت شخصية هذا الرجل ومواقفه تجذب إهتمامى وإعجابى .. فقد تصدّى لمحاولات الهيمنة الأمريكية والإسرائيلية على توجّهات المنظمة وقراراتها بجرأة نادرة وواجه تحدياتها ومؤامرتها عليه وعلى المنظمة .. ولم ينحرف قيد أنملة عن تنفيذ براجه فى خدمة الشعوب المحرومة .. والبلاد التى تفتقر إلى الخبرات والتخصصات رفيعة المستوي .. وتصحيح المسارات التى انحرفت فيها المنظمة قبل عهده عن ميثاقها وأهدافها الحقيقية .. وكان يستند فى ذلك كله إلى موافقات شبه إجماعية من المؤتمر العام الذى يجتمع فيه ممثلو الدول الأعضاء كل عامين لتحديد السياسات العامة والخطوط الرئيسية لعمل المنظمة .. ويقرر براجها وميزانيتها .. وهو الذى يعين مديرها العام كل أربع سنوات بناء على توصية المجلس التنفيذى الذى يتألف من ٥٨ دولة ...

كانت المنظمة فيما سبق قد أوكلت إلى لجنة من كبار الكتاب والمؤرخين الغربين كتابة مؤلف عن تاريخ العالم .. فخرج فى ستة مجلدات كبيرة .. قرأه الدكتور عبد العزيز كامل وزير الأوقاف المصري الأسبق وعضو مكتب الإرشاد لجماعة الإخوان المسلمين الأسبق (أيضا) .. وكتب عنه فى صحيفة الأهرام سنة ١٩٧٥ منبّها إلى إلى وجود مغالطات واضحة عن الإسلام والمسلمين خصوصا فى المجلد الثالث .. قال: إنها صادمة لمشاعر كل مسلم يعتز

بدينه .. و كان المجلد معنيّ بعرض تاريخ التطور العلمي فى العالم .. فاستبعد فيه تاريخ العلوم عند المسلمين تماما .. علاوة على تشويه تاريخ المسلمين برمّته .. ثم توالت بعد ذلك أصوات الدول فى العالم العربي والإسلامي بضرورة سحب هذا المجلد وإلغائه .. فقرر مختار أمباوْ إنشاء لجنة لمراجعة هذا العمل وتنقيته مما فيه من أخطاء .. ولكن اللجنة إكتشفت فى الكتاب عيوبا كثيرة لا تتعلق بالموضوع فحسب وإنما بالمنهج أيضا وهى عيوب خطيرة .. فقد ورد فى التقرير بالنص:

" يوجد تحريفات خطيرة للحقائق فيما يتعلق بإعداد المصنّف وتصميم مادّته، وترى أنه ينبغى إعادة كتابة التاريخ البشري .. والإستغناء تماما عن العمل السابق ذى المجلدات الستة ..." .. وكان هذا أول عمل تصحيحي فى مسار المنظمة الثقافي يتولاه مختار أمباوْ بحكمة وجدارة .. وكانت هذه الخطوة جُزْءًا هى أول ما لفت إنتباهى إلى شخصيته المتميزة القوية .. ومن هنا بدأت أتابع مواقفه وأعماله .. حتى لحظة مغادرته للمنظمة سنة ١٩٨٧ ..

أود أن أشير فقط إلى بعض مواقف ذات دلالة خاصة على أصالة توجّهات هذا الرجل المسلم المناضل الشجاع: فهو الذى كافح ليفسح لمنظمة التحرير الفلسطينية مقعد مراقب فى منظمة اليونسكو .. رغم أنف إسرائيل والولايات المتحدة إذ كانا يعتبرانها آنذاك منظمة إرهابية .. وهو الذى سعى لاستصدار قرار من الأمم المتحدة بعدم تقديم اي مساعدات لإسرائيل طالما هى مصرّة على المضيّ فى حفريّاتها غير الشرعية تحت المسجد الأقصى، وتعريضه للانهيار .. وهو الذى تبنى مشروع حديقة الأزهر فى الدّراسة (بالدراسة والتمويل) .. على موقع مرتفع فى قلب القاهرة .. يقول هو: "لمنح القاهرة مساحة خضراء كرئة تتنفس بها .. فى موقع يزخر بآثار معمارية عريقة .. لتكون نموذجا عالميا للتطوير العمرانيّ " ..

لقد قصد بهذا المشروع أن يكون حالة دراسية لتطوير مدينة تاريخية فى العالم الإسلاميّ .. ونموذجا للتنمية البيئية .. وإعادة تأهيل السكان .. وإحياء المعالم الأثرية .. هذه بعض مآثر مختار أمباوْ .. فكّر فى هذه النقطة .. وقارنها

بمشروعات سياحية تجارية سمحت بها وزارة الثقافة بجوار قلعة صلاح الدين الأيوبي بالمقطّم .. رغم تحذير المثقفين المخلصين بأن هذه المشروعات فيها تشويه بل تهديد لهذا الأثر التاريخي العظيم .. إن الإنسان ليأخذه العجب والدهشة ويتساءل: هل كان أحمد مختار أمباو أكثر وطنية لمصر وأكثر حرصا على آثارها الإسلامية من وزارة ثقافتنا .. أم أن المسألة تتعلق باختلافات جذرية فى النسيج الأخلاقي والعقديّ والسواء النفسي بين الشخصيات الإنسا نية .. إختلافات ترفع بعضها إلى القمة وتهبط ببعضها الآخر إلى ما تستحقه من دركات الهبوط ...؟!!

****

الأموال المصرية المنهوبة:

هل يمكن استردادها..؟!

دُعيت إلى ندوة أقامتها مؤسسة "جلوبال فيجن" Global Vision 2000 ، انعقدت فى مبنى مجلس الشيوخ البريطاني.. لمناقشة التحوّلات الجارية فى العالم الإسلامي بعد انطلاق الثورات الشعبية فى البلاد العربية.. وقد كشفت الندوة عن حقائق وتغيّرات مذهلة قد بدأت تتفاعل فى الفكر الغربي، لست هنا بسبيل التطرّق إليها..

ولكن أثار اهتمامى بصفة خاصة باحث ومفكر انفرد بميزة لا بد من التنويه بها.. خصوصا فى الوقت الراهن، حيث بدأت مصر تبحث عن أموالها التى سرقها الدكتاتور المخلوع وأسرته وأعوانه.. أما الرجل فهو "محمد رفيق.." أحد أكبر خبراء البنوك.. فقد أمضى عقودا من عمره يعمل فى المؤسسات المالية.. وعمل مستشارا لعدد من البنوك المركزية الكبرى.. وبسبب اطلاعه على أدقّ خفايا هذه المؤسسات ومعرفته لأسرارها هالَهُ ماتنطوى عليه معاملاتها من جرائم لا أخلاقية... فقد تكشّف له أن هذه البنوك تقوم بدور شرير فى هذا العالم.. وأنها وراء عمليات نهب ثروات الفقراء لحساب الأغنياء.. ووراء الكوارث الاقتصادية التى تصيب الشعوب.. وأن كل هذا يجرى بتواطؤ من الحكومات..

كفر الرجل بفلسفة المنظومات المالية والاقتصادية الغربية، وكفر بممارساتها الانتهازية .. فتخلّى عن دينه واعتنق الإسلام.. وليست هذه أول مرة أعرف فيها خبيرا من خبراء المال والبنوك يعتنق الإسلام من مقترب المعاملات المالية.. ولكن حالة محمد رفيق تتميز كما أشرت بخصوصية جديدة.. فقد تطوّع الرجل مع مجموعة من الخبراء من زملائه بإنشاء "فريق متخصص" لدراسة وبحث الأموال التى نهبتها الدكتاتوريات الحاكمة فى بلاد العرب.. وأودعتها

تحت أسماء شخصية فى البنوك الغربية.. وهدف الفريق هو مساعدة الشعوب المنهوبة على استرداد أموالها ..

وهنا بيت القصيد.. فقد علمتُ أن الحكومة المصرية تعتزم ابتعاث لجنة من خبراء المال والقانون إلى البلاد الغربية للمطالبة بهذه الأموال.. وهذه خطوة ضرورية فى طريق طويل وشاق للوصول إلى هذه الأموال واستردادها.. ولكن ليس هذا وحده كافيا.. لماذا..؟! لأن الأموال المسروقة غير معروف قيمتها الحقيقية .. ولأن البنوك يمكن أن تخفى حقائق كثيرة عنها.. كما أن الحكومات الغربية ترى أن من مصلحتها الإحتفاظ بهذه الأموال فى بنوكها.. خصوصا فى هذه الظروف التى تتفاقم فيها الأزمة الإقتصادية العالمية باطراد غير مسبوق...

وأودّ أن أنبّه إلى أنه ليس صحيحا ما يعتقده بعض الكتاب المصريين: "أنه لا خوف ولا قلق على إسترداد الأموال المسروقة ما دامت فى بنوك الغرب".. فالخبراء العارفون ببواطن الأمور هنا يقولون كلاما آخر: "إن ما يُعلن عن هذه الأموال لا يمثل إلا جزءًا طفيفا من قيمتها الحقيقية.. وأنها يمكن ألا تُسترجع أبدا." وهناك شواهد على ذلك كثيرة تتعلق بمليارات الدولارات التائهة فى هذه البنوك .. أودعها حكام لصوص ثم قُتلوا أوماتوا أو سكتوا عنها.. ولم تستطع الشعوب أن تستردّها.. ومن أمثلة ذلك أن أموال دكتاتور الفلبين فرديناند ماركوس، وشاه إيران لم تُسترد حتى الآن...!

والأدهى من ذلك أن تقوم الدول التى توجد فيها هذه الأموال بمصادرتها لصالحها الخاص.. وقد أشار إلى هذه الحقيقة الفاجعة المستشار يحيي البنا ممثل وزارة العدل في مفاوضات التوقيع علي اتفاقية الامم المتحدة لمكافحة الفساد واسترداد الأموال المنهوبة.. وأنا لا أستبعد أن تقوم الدول الغربية بهذا الإجراء.. خصوصا وأنها تعانى فى الوقت الخالى من أزمات مالية خطيرة.. وفى حاجة إلى أى أموال ولو كانت أمولا مسروقة.. الطريق إلى استرداد هذه الأموال إذنْ ليس طريقًا سهلا.. بل محفوفا بالعقبات والأشواك...!

وإذا أردت أن تتعرّف على بعض الحيل التى يمارسها لصوص المال وتساعدهم البنوك على إخفاء معالمها بحيث يصعب أو يستحيل التحقق منها أو

استردادها ، فإليك بعض الأخبار التى ترددها الصحافة فى الوقت الراهن.. دون أن تثير ما تستحقه من اهتمام.. تقول هذه الأخبار: "إن معظم ثروة أسرة مبارك قد تم «التعامل معها» فى الأيام الأولى لقيام الثورة المصرية.. وأنه قد تم تسييل جزء كبير من الأصول الثابتة فى عدد من الدول الأوروبية.. كما تم تحويلها عبر معاملات نقدية إلى دولة عربية ثم إلى دولة عربية أخرى.. " ثم يمضى الخبر فيؤكد: "ان المتبقى من هذه الاموال والأصول أصبحت قيد التجميد.. ولكن عملية الحصر لم تنته بعد.."..

تعرف من هذا الخبر أشياء وتستغرب أشياء أخرى: فمثلا: تعرف أنه فى الأيام الأولى للثورة كانت هناك أيدٍ خفية غير معروفة تلاعبت بالأصول الثابتة فباعتها وأودعت قيمتها فى البنوك الأوربية ثم نقلتها بعد ذلك من بنك فى بلد عربي إلى بنك آخر.. ولكن الخبر لا يوضح لك لماذا..؟ والإجابة التى لا يمكن أن تحصل عليها هى: إخفاء معالم هذه الأموال بحيث يستحيل الوصول إليها.. وتستغرب: من هم أصحاب هذه الأيدى الخفية التى تتلاعب فى ظلمات البنوك..؟ ولماذا لم تنتهِ عملية الحصر بعد.. ؟؟ وأعتقد أنها لن تنتهى أبدا..!! ثم تستغرب أيضا القول بأن المتبقى أصبح قيد التجميد.. والسؤال هو إذا لم تكن قد انتهيت بعد من حصر الأموال فكيف تزعم أنك قمت بتجميد شيء لا تعرف مقداره بعد..؟!

ثم انظر إلى الأمثلة التى يضربونها لإلقاء مزيد من الإخفاء والتضليل.. وجرْجرتْ الباحثين إلى متاهات من الوقائع والإجراءات المعقّدة.. يقول الخبر: "إن امتلاك الرئيس أو أسرته «فندقا على سبيل المثال« فى إحدى العواصم الغربية لا يعنى أن هذا الامتلاك غير شرعى «حتى لو قُدّر ثمنه اليوم ببلايين الدولارات، فربما لم يكن هذا ثمنه وقت شرائه، ثم إنه يمكن الدفع بأن أصل المال تم الحصول عليه من خلال عملية قانونية تماما لشراء وبيع أراضى ثم المضاربة فى البورصة.."

يعنى انه حتى فى حالة ثبوت ملكية الأسرة أو أحد أفرادها لفندق مثلًا فى مكان ما فلن تستطيع أي بعثة مصرية أن تضع يدها عليه وتقول هذا مالنا

أعيدوه إلى مصر... لماذا..؟ يقول صاحب التصريح: لأن عليك أولا أن تثبت قدْر الجزء المسروق من القيمة الحالية للفندق.. فهذ فقط هو حق مصر.. أما باقى القيمة فليست كذلك..!

كما يمضى فيقول "إن الأمر «سيستغرق وقتا.. وأنه سيتم فى إطار القوانين الحاكمة التى تتطلب بالضرورة إثبات عدم شرعية هذه الأموال...!" وأنت لا تعرف ماهى هذه القوانين الحاكمة.. ولا تعرف تفسيراتها وتأويلاتها وتكييفاتها المختلفة...! هذا هو نوع المعاملات الخبيثة التى ستصادفها أى بعثة تذهب للبحث عن الأموال المصرية المنهوبة واستردادها...!

ولكن نخلص من هذا كله إلى القول بأن المهم أن من يريد البحث عن هذه الأموال سيحتاج إلى من يرشده فى دهاليز هذه البنوك وخفاياها وألاعيبها التى لا تنتهى.. علما بأن جميع اللصوص لن يعترفوا بحقيقة مسروقاتهم أبدا ولا كيف تصرّفوا أو تلاعبوا بها.. و هم بالتأكيد يتمنّون أن يُسْدَل عليها ستار التعتيم، حتى وإن لم يستفيدوا هم بها.. إنهم يفضّلون أن تضيع فى ظلمات البنوك على أن تستردّها شعوبهم.. فهناك مصلحة مشتركة بين هذا النوع من اللصوص وبين البنوك الأجنبية..

وفريق محمد رفيق بخبرائه ورجال القانون فيه قد كرّسوا أنفسهم لهذه المهمة الإنسانية.. فى خدمة الشعوب لاسترداد أموالها المُغيّبة فى سراديب البنوك الغربية.. وهذه دعوة منّى إلى الجهات الرسمية المعنية باسترداد هذه الأموال أن تتصل بمحمد رفيق مدير الفريق.. و أنا على استعداد لتيسير وسائل الاتصال إذا طلبتها جهة رسمية جادة..

******

نظرية الأقفية

أستعير هذا العنوان من مقال كتبه صديقى الدكتور محمد على العريان .. عندما زار مصر -بعد غيبة طويلة- فى أواخر عهد السادات، فهالَهُ ما لاحظ من انْقلاب فى حياة المصريين: سلوكياتهم، وقِيمهم الأخلاقية، وعلاقاتهم الاجتماعية .. مما شكّل له صدمة، جعلته عاجزًا عن فهْم مشاعر الناس الحقيقية؛ لأن تعبيراتِ وجوههم لم تعدْ تتأثر ولا تتغير بما يقولون أو يسمعون.. وفى هذا يقول: "رايت أقنعة ولم أرى وجوهًا حقيقية... لقد انْطمسِتْ الوجوه.. توارتْ خلف أقنعة صناعية، لا علاقة لما يبدو عليها، بما يجرى فى العقول والمشاعر.." ومن ثم راح يبحث عن هذه المشاعر فى الأقْفِيةِ بدلا من الوجوه .. حيث الأقفية ما تزال أقرب إلى الطبيعة، لا يُحْتَمَلُ معها تزوير فى الانفِعالِات .. ومن ثم كان عنوان مقاله "نظرية الأقفية".. فيها من الفكاهة الساخرة بقدر ما فيها من الحسرة والأسى..

والمزج بين السخرية والحكمة.. بين الجدّ والهزل، من خصائص الدكتور العريان، لا فى كتاباته فحسب بل فى حياته العامة: وله فى هذا نوادر وطرائف لا حصر لها.. سمعت بعضها من الدكتور عبد الوهاب المسيرى، فقد كان تلميذ العريان فى مدرسة دمنهور الثانوية.. وستجد الكثير من الصور الساخرة فى آخر كتاب له بعنوان "العريان والزمان" سجّل فيه خبراته مع الناس والحياة..

آخر رسالة وصلتنى منه يقول فيها: " أكتب إليك وأنا فى الطائرة متوجِّهًا إلى سويسرا، فقد وقعتُ على الأرض من الزحام أثناء أداء العمرة، فتهَشّمتْ عظام الحوض، ونُصِحْتُ بالْتماس العلاج فى سويسرا، لأنها حالة معقّدة؛ فأنت تعلم أنِّى مصاب بالسكّري وهشاشة العظام.. ولا أدرى إن كنتُ سأراك أمْ لا..؟ على أي حال نلتقى إن شاء الله، فى الدنيا أو فى الآخرة...!" وكان قد أودع عندى كُتبه قبل السفر.. فأضاف: "ستصلك وصيّتى بشأن الكتب إن لم يُقدَّر لنا اللقاءُ فى هذه الدنيا..!" .

كان -يرحمه الله- لا يعوقُهُ عن إطلاق النكتة الساخرة شيء، حتى وهو فى أشد حالات الألم.. وكانت له قدرة فريدة على التصوير الكاريكاتيري للشخصيات التى ينتقدها؛ إذ يسدِّد إليها طعناتٍ رشيقة كوخْز الإبَرِ، أما إذا استبدّ به الغضب والقرف من شخصية مقزّزة، فإنه يطعن بكلمات عنيفة، كالصّفع المُدَوّى على الأقفية، ومثال ذلك: مدير مدرسة عَمِلَ بها أيامًا، ثم تركها احتجاجًا على أسلوبه الدكتاتوريّ فى الإدارة.. كتب فى وصفه: " إنه كائن لا يُطاق.. فقد كان مسْخًا مستبدًّا، مُفْرِطًا فى الترهُّل .. يمتلئُ مقعده بكرش يغطّى ركبتيه.. ويتَهَدَّلُ شحمه من الجانبين .. لاتكاد تميّز بين وجهه وقفاه عن باقى جسمه؛ فهو كتلة واحدةٌ متّصلةٌ بلا عنق.. كلامه صياح ناشِزٌ مختلط بِضُرات.. حتى لَتَسْمَعُ صوته وتشم رائحته الكريهة عن بُعدٍ..!" ووصف هذه الشخصية مرة فقال: "إنها كتلة مَرَضيّة فى جسم المجتمع؛ فالشحم المُفْرِطُ المُكْتَنَزُ فيها، هو طعامٌ مسروقٌ من أفواه عشرات الجوعى والمحرومين من ابناء المجتمع..!

فما الذى استدعى هذه الصور، وبعثها من مَرْقدها فى أعماق الذّاكرة..؟!

إنه مشهدٌ تلفازيٌّ جمع بين إعلامي مفرطْ فى السِّمْنة يطلقون عليه إسم "أبو حمّالات" ، وهو يجلس على مقعدٍ كبير يملأه بجسم مكتظٍّ بشحمه المُتَنامِى، ويقبع أمامه تابعٌ إمّعة هزيل؛ هو رسّام كاريكاتير مغمور، لم يجد ما يثير خياله، سوى لحية رئيس الجمهورية وقفاه، ليرسمها فى أشكال منافية للذوق، لا تثير خيالا ولا تنِمُّ عن موهبة .. ظلّ الإعلامي المنتفخ يسخر ويتطاول على الرجل الفاضل ، بعبارات وإشارات بذيئة.. مستغرقًا فى القهقهة، بينما كرشه يترجرج أمامه، كأنما أصابته نوبة من الإسهال الهستيريٍّ ؛ فلم يكن فى الأمر ما يثير الضحك، بقدر ما يبعث على الدهشة والاشمئزاز.. لقد تحول المشهد فى -محطة للتلفزة- من إعلام ذى مضمونٍ محكوم بقواعدَ مهنيّة، إلى غرزة حشاشين ، فى أحط عشوائيةٍ مُنْفَلِتَةٍ من كل قواعد الذّوْقِ والأخلاق...!

"القفا" كلمة عربية، لها فى الأدب والتاريخ والدين والسياسة وعلم النفس، والموروث الشعبي، استخدامات تكاد لا تُحصى.. ومع ذلك لم ترد فى القرآن بلفظها أبدًا، وإنما أُسْتُعيضَ عنها بتعبير مجازي يرمز إليها.. لحكمة لا يدركها إلا

الله .. ربما لسابق علمه أنها ستكون مستودعا لنفايات لفظية من السخرية والسخافات والسفاهات، تُسْتَحْضَرُ إلى الذهن بمجرّد ذكرها كتابةً أو نُطْقًا.. لذلك تجنّب القرآن استخدامها.. ولعل هذه واحدة من معجزات القرآن فى استشراف المستقبل البعيد...!

أنظر إلى قوله تعالى: {...منْ قَبْلِ أنْ نَطْمسَ وُجُوهًا فَنَرُدّهَا عَلَى أَدْبارِهَا...} والطمس هو المَحْوُ؛ لذلك اَستنتجَ بعضَ المفسِّرين أن يتحوّل الوجه بالطمس مسطّحًا ممْسوحًا كالقفا، خالٍ من الملامح الإنسانية التى ميّز الله بها الوجه الإنسانيّ.. ورأى بعضهم احتمالا آخر للمعنى فقال : "إن طمس الوجوه هنا يعنى رَدَّهَا إلى الأدبار، بجعْلِ أبصارهم منْ ورائهم.. ويحتمل أن يكون المراد هو: "ألّلا نُبقي لهذه الوجوه سَمعًا ولا بَصرًا ولا أثَرًا... أو نجعل وجوههم من قَبلِ أقْفيَتهم؛ فيمشون القَهْقَرى، أو نجعل لأحدهم عينين من قفاه.. بدلا من وجَههَ..وهذا أبلغ في العقوبة والنَّكالْ".. ثم يضيف: "وهو مثلٌ ضربه الله لهم، في صرْفهم عن الحق وردّهم إلى الباطل ورجوعهم عن المحجّة البيضاء إلى سُبُل الضلالة.. حيث يمشون القَهْقَرَى على أدبارهم..".

وقد لا حظ أحد الظُّرفاء عرامةَ الغضب الذى استبد بالمصريين بعد الثورة، على شخصيات بليدة الحس، تربّعتْ فى مقاعد السلطة اغتصابًا، وفى مقاعد الصحافة والإعلام ميراثا أوعِمالةً، فقدّم نصيحةً عبقريّةً لامتصاص الغضب الجماهيري.. بإقامة تماثيل فى الميادين العامة تمثّل الشخصيات المكروهة من الشعب.. قابلة للضرب على القفا...!

من جانبى: أرشّح لقائمة هذه الشخصيات المكروهة: [أبو حمّالات] وتابعه الإمّعة.. مع لفيف من الصحفيين والإعلاميين الذين اتخذوا من الكذب بضاعة لتضليل الناس واللعب بعقولهم، ومن الختال والمكر أسلوبا فى واصطياد المتحدثين خالى الذهن، لتوريطهم فى تصريحات ساذجة، بُغْيَةَ السخرية والاستهزاء بهم، إرضاءً لأصحاب الفضائيات من أعداء الثورة المصرية..

لاحظ الدكتور العريان فى مقاله أن الأقفية تتمايز فى أحجامها وأشكالها وتقلّصاتها وحركاتها.. وأن فى كل حالة منها تعبيرا برّانيّا لما يدور فى أخْلادِ

أصحابها.. ثم مضى بعد ذلك يفصّل فى خصائص وأخلاقيات كل نوع منها: فهناك: المقتّر البخيل، والمبذر المستهتر، والخجول، والصفيق، والمستبد المتكبر، والمنافق المتلوّن، وصاحب الرأي والإمّعة ، والفاجر المجاهر بفجوره، واللص المتسلل إلى أموال الناس وأعراضهم .. الخائض فى شرفهم وسمعتهم.. إلى آخر هذه الخصال البشرية المتباينة.. حتى أوضاعهم الإجتماعية استطاع الدكتور العريان أن يقرأها فى أقفيتهم.. فكيف استطاع هذا..؟ لا أدرى، ولم أناقشه فى ذلك عندما عاد إلى كانبرا فى ذلك الوقت فقد كنت مشغولا بأشياء أخرى..

فى هذا السياق تنصح سيدة عربية على موقعها الإلكتروني قريناتها بدراسة أقفية أزواجهن، للتعرّف على صفاتهم وأخلاقهم. أما أنا فأعتقد أن المخطوبات أولى بهذه النصيحة، فى الاهتمام بأقفية خُطّابهنّ قبل أن تقع الفأس فى الرأس...!

ولا يهمّ بعض الساخرين من إخوانهم إلا درجة حرارة الأقفية فيسألون: "هل أصبح قفاك ساخنا لتسوية الخبز عليه..؟" وهذا هو المعادل الموضوعي للمثل الشعبي: "خرج وقفاه يقمّر عيش".. ومن أمثلة السخرية بالشخص الصفيق "المتنّحْ لا علاج له إلا الصفع على القفا.." ومن الاستخدامات المبتذلة لكلمة "أقفية" ما يذكره صحفي لبناني عميل لبشار الأسد، وهو يتهكّم على الثورة السورية، معلّقًا على صورٍ مأخوذة لبعض المتظاهرين من الخلف فيقول: " إنها ثورة الأقفية.. ".

ويذكر لنا التاريخ أن أحد أباطرة الرومان كان يحلو له أن يأمر بتركيع صفّ من العبيد ليمشى بحذائه على أقفيتهم متّجهًا نحو عرشه.. وقد رأيت بنفسى نموذجا مصغّرا لهذا، صباح يوم من أيام عام ١٩٤٣م -وأنا ذاهب إلى مدرسة "الفاروقية الإبتدائية بالزقازيق" على باب معسكر إنجليزي مجاور للمدرسة- ضابطًا إنجليزيا أشار إلى جنديّ من السيخ أن يركع، ثم وضع حذاءه على قفاه ليرتفع عليه إلى صهوة جواده... وكان ضرب السياط على الأقفية من أساليب التعذيب التى مارستها الكنيسة ضد معارضيها فى أوربا.. فيما عرف باسْم " محاكم التفتيش "..

نشر في المصريون يوم ٠٨ / ١٠ / ٢٠١٢

******

تهريج إعلامي أم تهريج سياسي..!؟

المشهد الإعلامي فى مصر يتسم بنوع من العبثية الواضحة التى لا تخفى على القارئ الواعى، ناهيك عن المراقب والمحلل.. ولأنها عبثية غبية، فيها استهانة بعقول الناس سمّيْتُها تهريجا.. ولست أجد لها وصفا أفضل من هذا الوصف.. إقرأ معى هذه الأخبار:

الخبر الأول: جاء على لسان الدكتورأحمد البرعى وزير القوى العاملة قال:

" إن الحكومة ورثت عن الحكومات السابقة ١٣٦ مليار جنيه عجزا في الموازنة، بجانب ضياع ٤٣٦ مليار جنيه من أموال التأمينات، بالإضافة إلى تزايد الدين الداخلي الذي وصل إلى أكثر من تريليون جنيه.."

ثم اقرأ هذا الخبر على لسان وزير آخر فى نفس الحكومة هو حازم الببلاوى وزير المالية (وبعد يومين اثنين) فقط.. يقول: " إن أموال التأمينات آمنة والدين العام بلغ تريليون جنيه فقط.." وينفى صحة ما تردد حول ضياع ٤٣٦ مليار جنيه من أموال التأمينات والمعاشات.".

وأقول: إذا لم يكن وزير القوى العاملة قد أدلى بهذا الكلام فعلا للصحافة، وإذا كان وزير المالية من جانبه لم يردّ عليه بما نشر بعد ذلك على لسانه.. فنحن أمام تهريج إعلامي من العيار الثقيل.. أما إذا كان الخبر الإعلامي عن كلام الرجلين صحيحا فنحن أمام تهريج سياسي من عيار أثقل...!

فالمشهد الذى أمامنا يتضمن أن وزيرين من حكومة واحدة يتحدّثان عن موضوع واحد: أحدهما يثبت ويحذر من كارثة مالية توشك أن تحل بالبلاد.. والآخر ينفى ويحاول أن يطمئن الناس على الأوضاع المالية والإقتصادية فى مصر.. مع أنه لم ينفِ حقيقة أن الدين العام قد بلغ تريليون جنيها وليس أكثر...! لذلك أكدت وزارة المالية، في بيان لها، أنها حريصة على توضيح كافة الحقائق أمام الراى العام، ومن منطلق الشفافية والحرص علي عدم تأثر الاقتصاد

القومي سلبا بسبب تلك الأخبار والتقارير المغلوطة، وحمايةً لاستقرار المجتمع في هذه الظروف التي تمر بها الدولة...

أنا أفهم أن تردّ وزارة المالية على أخبار وتقارير صادرة من جهات غير مسئولة.. ولكن أن تصدر هذه الأخبار من وزير فى نفس الحكومة فهذا هو التهريج بعينه.. فلابد أن يكون احد الوزيرين كاذبا أو مهرّجا...

الخبر الثاني: فى يوم ١١ سبتمبر الماضى، تحدثت الأهرام فى صفحتها الأولى عن تفاصيل خطيرة عن ثورة مضادة وأصابع خارجية تستهدف [إسقاط مصر].. هذه التفاصيل الخطيرة جاءت على لسان وزير العدل، الذى قال: "إنه تلقى تقريرا خطيرا بشأن تورُّط عدد من الدول المجاورة لمصر فى تقديم مبالغ مالية تفوق التصوّر.. تُقدَّر بالملايين من الدولارات .. لبعض الجمعيات الحقوقية ومنظمات المجتمع المدنى".. وقال: " إن ما يحدث فى الشارع المصرى تحركه بعض الأيادى الخارجية والداخلية، بهدف تخريب المنشآت العامة ومؤسسات الدولة، كما تستهدف انتهاك الأمن القومى للبلاد وترويع المواطنين".. وأضاف وزير العدل: "إن ما تشهده البلاد هو جزء من مخطط يجرى تنفيذه منذ فترة بهدف إسقاط مصر، وان ثمة أنظمة فى دول محيطة تخشى أن يتكرر لديها ما حدث فى بلادنا.." وأضاف: أن رئيس الوزراء سوف يصدر بيانا عن هذا الموضوع خلال الأيام القليلة المقبلة...!

كلام وزير العدل كلام خطير جدا لأنه يتضمن مؤمراتٍ وخططًا لانتهاك الأمن القومى وترويع المواطنين.. الآن وقد مضى مايقرب من شهر، والناس فى انتظار بيان أو إجراء أو موقف من جانب رئيس الوزراء حتى نعرف حقيقة هذه المؤمرات ومن يقف وراءها من أعداء الخارج وعملاء الداخل.. وماذا اتخذت الحكومة من إجراءات بصددها..؟! ولكن لا بيان .. ولا موقف ولا تكذيب للخبر ولا يحزنون.. وكأن وزير العدل كان يهرف بكلام مجانين... وهذا هو التهريج السياسي بجدارة...!

ليس فقط لأن الكلام صادر من وزير فى أعلى سلم المسئولية وفى صميم واجباته.. وليس لأن رئيس الوزراء لم يعلن بيانا ولاموقفا واضحا وحاسما فى

الموضوع .. ولكن لأن رئيس الوزراء صمت صمت القبور وكأن الموضوع لا يهمه.. ومن ناحية أخرى لم يحاسب وزيره على خفته وإشاعة الأكاذيب، إذا كان قد تبين له أن مايقوله وزير العدل غير صحيح .. وكان أقل شيء نتوقعه من رئيس وزراء أمين على مسئوليته تجاه الشعب هو إعفاء وزيره من منصبه لأن كلامه هو الذى روّع المواطنين بهذا التهريج السياسي غير المسئول...!

فى هذا الإطار أيضا هناك العديد من الأخبار والوقائع التى جرت وعلم الناس منها على لسان كبار المحققين الأمنيين أن هناك تقارير بل تحقيقات أثبتت وجود أناس يتآمرون ويدفعون الملايين لتجنيد صعاليك وبلطجية ، كما فى أحداث الهجوم على السفارة الإسرائيلية.. ومديرية أمن الجيزة.. وتبين من التحقيقات الأمنية تفاصيل كثيرة عن سيارات مرسيدس عُرف أن أصحابها متورطون فى تحريض الشبان.. وأن بعضهم كان يوزع أقنعة واقية لعدد من الأشخاص خلال الأحداث المذكورة.. وأن هناك شخصية غنية صاحب مزرعة بطريق مصر إسكندرية هى التى تموّل هذه الاضطرابات وتدفع للبلطجي الواحد بين خمسة آلاف وعشرين ألف جنيه...!

وقبل هذا ثارت زوبعة إعلامية كبرى إثر تصريحات رسمية عن توزيع ملايين الدولارات الأمريكية على جهات وأشخاص فى مصر لإثارة الفوضى فيها.. وقيل لنا أن التحقيق فى هذا جارٍ وأنه سوف تعلن نتائجه ويعرف الناس من يرتشى ليخون مصر ويتآمر على تخريبها.. وغير ذلك من وقائع أخرى ثارت حولها زوابع إعلامية وسياسية وانتظر الناس نتيجةً للتحقيقات وتقديم المتهمين للمحاكمات لكى تأخذ العدالة مجراها وتتخلص مصر من أعدائها فى الداخل والخارج .. ولكن لا شيء يتحرك فى البِرْكة الآسنة.. وكما يقول المثل الشعبي: "لا حياة لمن تنادى...!"

فهل نحن أمام تهريج إعلامي..؟ أم تهريج سياسي..؟ أم أنه تهريج ذو وجهين: أعنى تهريج إعلامي هو صدًى لتهريج سياسي .. يبدأ فى السياسة وينتهى فى الإعلام.. ولا تترتب على أحد فيه مسئولية أمام هذا الشعب الذى فقد ثقته فى كل من السياسيين والإعلاميين على السواء...؟!

أعود إلى وزير المالية حازم الببلاوي مرة أخرى فى خبر يقول فيه: إن مصر تدرس حزمة قروض صندوق النقد الدولي التي رفضتها في السابق.. ثم أضاف : "إن مصر لن تغير موقفها لكنها ستغير توجّهها." تلاحظ فى هذه العبارات القليلة: انتكاسًا فى السياسات والمواقف من قروض البنك الدولي.. وكلاما مائعا مثل الذى تعوّدنا على سماعه فى زمن النظام البائد.. وإلا فما معنى "أن مصر لم تغير موقفها ولكنها ستغير توجّهها ..؟!"

لقد حذّرت كثيرا من مخاطر قروض البنك وصندوق النقد الدوليين فى مقالات عديدة، وأثبتّ أن هذه القروض كانت وراء الكوارث والمجاعات التى حلّت بشعوب العالم الثالث.. ولكن يبدو أن الإقتصاديين التقليديين عندنا يستحيل عليهم أن يفهموا غير ما تعلموه فى جامعاتهم وعلى يد أساتذتهم الأجانب.. ولم يفهموا أن هناك ثورة ضد "القواعد الذهبية" التى حكمت الاقتصاد العالمي حقبة من الزمن.. هناك أفكار جديدة ومقتربات جديدة.. ولكن ما زال رجال الاقتصاد عندنا أسرى أفكارهم البالية.. ما زالوا يتوقعون أن يجدوا حلولا لأزماتهم عند البنك والصندوق المسحور.. غير مدركين أن نظام الإقتصاد العالمي يترنّح الآن بلا علاج ولا شفاء.. وأجدر بالبنك والصندوق أن يذهبا لعلاج كارثة أمريكا المالية فقد بلغت ديونها الآن ما يقرب من خمسة عشر تريليون دولار..

وقد بدأ الشعب الأمريكي يثور ويتظاهر ضد المتحكمين فى السياسات المالية والإقتصادية المُصمَّمةُ لخدمة حفنة من الأغنياء على حساب بقية الشعب.. مما أدّى إلى تقويض الطبقات المتوسطة.. و تحميل الفقراء وحدهم أعباء التدهور الاقتصادي.. وقد ترتب على هذا تفاقم الهوّة بين الفقراء والأغنياء السوبر..

إتخذ المتظاهرون الأمريكيون من شارع وول ستريت رمز السلطة المالية فى أمريكا مركزا لمظاهراتهم على غرار مظاهرات ميدان التحرير.. فإذا كانت أمريكا تملك علاجا لأحد فلْتعالج نفسها أولا.. وهذا بالضبط ماصرّح به قادة الاتحاد الأوربي عندما حاولت أمريكا أن تقدم لهم النصيحة لتفادى انهيار اليونان

وغيرها من دول الاتحاد.. قالوا لأوباما وفرّ نصائحك لنفسك.. لا حاجة لنا بها..!

وإذا كانت أمريكا جادة فعلا فى مساعدة مصر فلْتساعدها (ليس بالمعونات والقروض المشبوهة) ولكن برد الأموال المنهوبة والمهرّبة فى بنوكها والتى سرقها لصوص نظام مبارك ، من أسرته ووزارئه .. وأنبّه أنه يجب على مصر "وبأسرع ما يمكن" أن تعمل على استرداد الذهب المودع فى البنوك الأمريكية والأوربية وفى متاهات الدول الخليجية.. ولتكن هذه معركة مصر الحقيقية: إسترداد الذهب .. والأموال المنهوبة.. والمخفية فى البنوك الأجنبية..

من قبيل التهريج السياسي أيضا أذكر الآتى:

أولا- تبرير وزير الإعلام للهجوم بقوّات أمنية مكثّفة على مقر "الجزيرة مباشر مصر" وإيقاف البث بزعم أنها تنتهك القانون وتنتهك السيادة المصرية، علاوة على أنه تهريج مفضوح- هو انتهاك صريح لحرية الشعب فى الحصول على المعلومات.. ألم يكن أولى وأجدر بوزير الإعلام أن يوجّه إلى نفسه هذا السوال: لماذا يتجه المصريون إلى الجزيرة ويثقون فيها ولا يثقون فى فضائياتك المتعدّدة...؟!

ثانيا- تبرير إمتداد العمل بقانون الطوارئ.. الذى كان من أسوأ منتجات النظام البائد.. لذلك رفضه الشعب وكان إلغاؤه ولا يزال على رأس قائمة مطالب الثورة..

ثالثا- بقاء وزارة الداخلية على حالها واستمرار جهاز مباحث أمن الدولة تحت إسم جديد.. يمارس نفس الدور الذى اعتاد عليه فى زمن المخلوع.. وفقدان الأمن فى الشارع المصري..

كل هذه مؤشّرات على حالة من العبث والتهريج السياسي.. وعلامة على مستقبل مضطرب تدفعنا إليه قهرا قوى عمياء غير ديمقراطية.. لا تتمتع بمصداقية من جماهير الشعب الغاضبة.. فحتى عندما يتم انتخاب برلمان جديد.. وتأتى حكومة جديدة منتخبة فستجد نفسها مكبّلة بأغلال متراكمة من

العهد البائد.. مضافا إليها مشاكل وأزمات هائلة تفاقمت وتجذّرت فى الأرض خلال فترة الحكومة الانتقالية...

أنا لا أثبّط الهمم ولكنى أنبه الذين سيتسلمون السلطة القادمة إلى أن الطريق ليست مفروشة بالورود بل بالأشواك والألغام.. وما ذلك إلا لأن السلطة الانتقالية لا تؤدّى واجبها كما ينبغى...!

****

على سطح الثورة تطفو الحثالة

تلاحظ الطاهية الخبيرة أن القِدْرَ الذى يُطْهى فيه الطعام عندما يبدأ فى الغليان تتصاعد فُقّاعات صغيرة تحمل معها شوائب داكنة اللون تنتشر على سطحه.. فتشرع فى التخلّص منها لأنها عناصر غريبة عالقة تفسد الطعام إذا بقيت فيه وتكسبه رائحة كريهة.. فإذا أُهملت تراكمت على غطاء القِدْرِ وعلى حوافّه فتلتصق وتتكلّس وتتحول بالحرارة الشديدة إلى مادة سوداء يصعب تنظيف القدر منها..

وهكذا تفعل الثورات فى المجتمعات الإنسانية: إنها تحتدم بالغضب والرغبة العارمة فى التغيير.. وتستأصل عناصر الفساد من جذورها .. فإذا تمكّنت من هذا طَفَتْ هذه العناصر على سطح المجتمع لتشكل طبقة معتمة من نفاياته فوق مجرى الثورة المتدفّقة .. تماما كالزبد الذى يطفو على سطح السيل الجارف.. مع الفارق.. وهو أنه فى السيل الجارف تتولى قوانين الطبيعة التى أودعها الله فى الكون بالتخلص من الزبد والنفايات الضارة فلا يمكث فى الأرض إلا ما ينفع الناس..

ولذلك أقول: إن الثورة فى المجتمعات الإنسانية تكون أكثر شبها بقِدْرِ الطهي.. يحتاج إلى رعاية بشرية مدرّبة لتطهيره أولا بأول مما يطفو على سطحه من نفايات .. تعكر صفوه وتحجب الرؤية الصحيحة لما يتفاعل داخله من صراعات بين قوى الخير وعناصر الشر المُعِيقة.. فإذا لم تتوفّر الرعاية البشرية المخلصة الواعية طال الصراع وزادت طبقة النفايات كثافة و اضطربت جهود المخلصين للثورة الراغبين فى التغيير والإصلاح.. وارتفعت أصوات الأوباش والحثالة ..

ولقد ابْتُليت مصر ابتلاء مزدوجا فلم يتوفّر لها بعد الثورة حكومة مخلصة واعية ولم تستمر الثورة الحقيقية إلا قليلا حتى تمزقت قياداتها وضعف دفعها وقفزت عليها عناصر دخيلة متخفّية فى عباءة الثورة ولكنها تسلك ضد أهدافها إما عن غفلة وإما عن قصد وعَمْد .. وكلاهما يعمل لصالح الثورة المضادة..

لا أريد أن أتمادى فى سرد العوامل السلبية التى تعمل على تمكين الثورة المضادة لحرمان هذا الشعب من منجزات ثورته العظيمة.. فهناك مُنْجزات إيجابية راسخة كالطود .. يستحيل إنكارها أو التقليل من شأنها.. وتتمثّل فى برلمان الأمة الذى انتخبه الشعب بإرادة حرّة لأول مرة فى تاريخه الحديث.. وأرى أن العملية الديمقراطية سوف تجرى إلى نهايتها المحتومة.. رغم كل ما يحاك ضدّها من مؤامرات.. ورغم عمليات القتل والتخريب التى تسارعت حوادثها واحتدّت إيقاعاتها وشملت العديد من مجالات الحياة فى مصر.. لسوف يتم وضع دستور للبلاد وسيتم انتخاب رئيس لمصر وستقوم حكومة وطنية مدنية لتتسلم السلطة من المجلس العسكري..

وهنالك فقط يمكن أن تبدأ العملية الحقيقية لإصلاح مصر وتخليصها من الفساد السياسي والمالي والاقتصادي والاجتماعي والأمني .. وهنالك فقط ستبدأ محاكمة حقيقية لرموز النظام البائد الذين تسببوا فى تخريب مصر ونهب ثرواتها وبيعها للأجنبي.. وقتلوا الأبرياء من أبناء هذا الشعب الثائر .. محاكمة حقيقية لكل من هم الآن رهن السجون ويحضرون محاكمات شكلية هزلية.. وكل الذين لم تشملهم بعدُ قوائم الاتهام ولم يُستدْعوْا بعد للمحاكمة على جرائمهم ...

ثقتى ويقينى بأن سناريو التخريب المتصاعد لن يفلح فى تدمير منجزات الشعب الثائر .. قد يفلح فى إطالة فترة الصراع.. أوتعويق عملية الإصلاح.. وقد يؤدّى إلى مزيد من الخسائر فى الأرواح والأشياء.. ولكن قوى الإصلاح والإنقاذ نافذة إلى غاياتها بقوة وإصرار .. هذا اليقين وتلك الثقة لم يأتيا من فراغ وإنما من إيمان بأن كتلة هذا الشعب الأساسية قد كسرت حاجز الخوف من كل ما هو دون الله.. وانفلت عقالها من ربقة العبودية لغير الله .. وفى هذا سر قوّتها.. وفى أحضانها تحيا الثورة الحقيقية..

وتبقى لى بعض ملاحظات أشير إليها فيما يلى:

أولا: لا ينبغى أن يُعوّل أحد على حكومة أو مجلس عسكري أثبتت التجارب أنهما أبعد ما يكونان عن آمال الشعب وطموحاته.. ويغلب عليهم

جميعا أنهم يفكرون بعقلية ما قبل الثورة.. ويسلكون وكأنهم سلطة فى دولة مستقرّة.. مع أنهم لا يملكون الحد الأدنى من مقومات الدولة.. ودليل فشلهم الأكبر أنهم خلال عام من انطلاق الثورة لم يستطيعوا إحداث تغيير جذرى فى وزارة الداخلية.. بحيث تتحول إلى أداة حقيقية لإعادة الأمن ، وإقامة القانون.. ولا تستطيع اليوم حكومة جديدة منتخبة أن تعتمد على هذه الوزارة بأوضاعها و بتركيبتها الحالية.. لماذا..؟!

لأن جميع وزراء الداخلية منذ حكومة الجنرال أحمد شفيق إلى اليوم لم يتخذ أحدٌ منهم الإجراءات الصحيحة لتطهير هذه الوزارة من عناصر الفساد ولا من العقلية القمعية التى كانت سائدة متحكّمة فى عصر مبارك و العادلى.. إنهم جميعا لا يملكون الجرأة الثورية ولا الخطط المدروسة.. ولا التصوّر الصحيح لما يجب عمله لإعادة تنظيم هذا الجهاز القاسد .. الذى كان أداة مبارك فى حكم مصر وإذلال شعبها.. وقد كتبت كلاما كثيرا فى طريقة إصلاح هذه الوزارة منذ اندلاع الثورة .. ولا أعود إليه فقد انتهت فاعليته مع مرور الزمن.. واستهداف مبنى هذه الوزارة بالذات له دلالات لا تخطئها العين، فقد استعصت على الإصلاح ولم تشعر الجماهير بأي تغيير فيها.. فزاد غضبهم عليها.. واحتقنت مشاعرهم ضدّها.. وضد كل ما تمثّله..

وأسأل هل الحل يكمن فى تسليم السلطة الآن من العسكري إلى سلطة مدنية مؤلّفة بأي طريقة خارج إطار البرلمان.. وبعيدا عن العملية الديمقراطية.. كما يفعل البعض اليوم، إذ يدفع بمجموعات من المرتزقة إلى الشارع للتظاهر والاعتصام.. لفرض أفكاره بالقوة على الشعب..؟ أقول لا.. وألف لا...! فالذين يدعون إلى هذا لا يحترمون الديمقراطية أصلا.. ولا يسعون إلا لمزيد من الفوضى والخلاف وتصعيد الصراع .

السلطة بتركيبتها الراهنة المتمثلة فى مجلسها وجنزورها ليست إلا سلطة مؤقتة لن تستمر أكثر من بضعة أشهر لتسليم عهدتها إلى رئيس دولة منتخب وحكومة منتخبة .. والصبر عليها أسلم وأهون من تسليم السلطة إلى حكومة غامضة المعالم.. لا سند شرعيّ لها ولا قوة شعبية حقيقية تساندها.. وإنما يُراد

فرضها قهرا.. لغايات وأهداف غامضة لا يمكن التنبؤ بها ولا يستطيع البرلمان كبح جماحها... وكثرة الحديث عنها والإصرار عليها يثير الشكوك فى دوافع أصحابها..

ثانيا: تسارع أحداث العنف المخطّطة وكثرة عمليات القتل والسطو المسلح والحرائق.. وخطف الأشخاص للمطالبة بفدية مالية.. كلها ظواهر دخيلة على الثورة وعلى طبيعة هذا الشعب الأصيلة .. ولكنها مفهومة فى مجتمع لم تتبلور فيه عملية إصلاح حقيقية.. ولم تظهر فيه سلطة شرعية من اختيار الشعب.. ترعى شئونه وتخلّصه أولا بأول من عناصر الفساد والأمراض الطافية على سطحه.. وتقف السلطة الحالية فيه لا موقف المتفرّج فحسب بل موقف المتهم الذى لا يمكن الوثوق فى براءته.. لأنها لم تفعل ما كان ينبغى أن تفعله فى الوقت الذى أراد الشعب فيه أن تفعله...! وهذا من شأنه أن يزيد من أعباء التركة المثقلة بالفساد من عهد مبارك..

فالحكومة القادمة سوف تحتاج إلى أداة استخبارية أمنية وعسكرية مخلصة وفعّالة تضع يدها على الحقائق والتدابير والمؤامرات التى تدور فى أرض هذا الوطن ومن حوله .. للتمكن من التصدى لها وتفريغها قبل أن تتفجّر.. وفى حاجة إلى قوّة أمنية تمكّنها من تنفيذ القانون والقبض على المجرمين مهما كانت صفتهم ومراكزهم وسلطاتهم... فهل يملك البرلمان المنتخب.. والحكومة المحتمل تشكيلها تصورات دقيقة لاحتياجاتها فى هذين المجالين: مجال الأمن ومجال المعلومات...؟

ثالثا: الأمر يحتاج إلى عقول مبتكرة.. وهمم نافذة.. ومعرفة علمية دقيقة بالأشخاص والعناصر التى يمكن توظيفها لتغيير وإصلاح التركيبات المتكلّسة فى هذين المجالين .. لقد عجزت الشرطة والاستخبارات عن وقف المجزرة التى وقعت فى بور سعيد .. وتشير أصابع الاتهام إلى رجال فى السلطة هناك شاركوا إما بالتواطؤ وإما بالتدبير أو بهما معا..! والأمر يحتاج إلى تحقيق ومساءلة فورية ؛ إذ يبدو لى أن المسألة أكبر من إثارة الشغب والفوضى ، وإنما يرتقى إلى جريمة هدم الدولة وتدمير مؤسساتها.. لا أستبعد هذا الآن فهناك قوى فى

داخل السلطة تسعى لانهيار الدولة فى مصر.. لماذا..؟! ولصالح من...؟! ربما احتجت إلى مقال آخر للإجابة على هذا السؤال...

الأهم من كل شيء الآن هو أن يتنبه أصحاب المسئولية فى المستقبل القريب.. إلى ما ينتظرهم من مسئوليات جسام وأن يستعدوا لها بمشروعات وحلول نافذة لأن الشعب لم يعد لديه صبر أكثر على احتمال هذه الكوارث ولا احتمال الميوعة والمهازل التى تتكشف عنها السلطة الحالية يوما بعد يوم...

لقد ركزت على موضوع الأمن والمعلومات الاستخبارية لأنهما عصب الاستقرار السياسيي.. والتفريط فيهما أو الاستهانة بهما يعرّض المكتسبات السياسية والديمقراطية للانهيار.. ومن ثَمّ كانت أولويتهما على ما سواهما.. ولكنى لا أغفل أبدا أهمية العوامل الاقتصادية والاجتماعية.. ولا أغفل بصفة خاصة عن أهمية العوامل الدعوية و الفكرية التى تضيء الطريق و تستنهض الهمم وترفع الروح المعنوية وتقوّى عزائم العاملين فى مجالات البناء والإصلاح على اختلافها ..

لذلك أدعو قوى الإصلاح والبناء أن تستيقظ وتشرع فى وضع خطط وآليات تحقيق أهداف الثورة وطموحات هذا الشعب صاحب الثورة وصاحب التضحيات.. وأدعو نوّاب الشعب ألا يتخذوا من مجلسهم مَكْلَمَة.. فقد مضى زمن الكلام.. أقول لهم: اجعلوا من مجلسكم حلقات دراسة ومناقشة واستدعوا كل خبراء وعباقرة هذه الأمة وما أكثرهم .. ليطرحوا مشروعاتهم الإصلاحية للنهوض بهذه الأمة من المصير المظلم الذى يخططه لها أعداؤها فى الداخل والخارج على السواء...

****

سيناريو حرب الخليج الرابعة

كانت الحرب العراقية الإيرانية فى ثمانينات القرن الماضى هى حرب الخليج الأولى.. وحرب تحرير الكويت من القوات العراقية هى حرب الخليج الثانية، وكانت الحرب الثالثة هى الغزو الأمريكي للعراق سنة ٢٠٠٣، أما الحرب التى تمهّد لها أمريكا فى الوقت الراهن بين السعودية وإيران فهى الحرب الرابعة.. ولكنى أود أولا أن أزيل بعض التباسات حول هذا الموضوع : فأنا لست متعاطفا مع إلنظام الإيرانى ولا النظام السعودى.. لأسباب سياسية خالصة ليس لها علاقة مطلقا بالأيديولوجيات الدينية.. ولكنى مع ذلك متحيز ضد التدخل الأمريكي (الصهيوني) فى المنطقة وأتوجّس من أهدافه وأغراضه المدمرة..

تسألنى عن سر موقفى من إيران..؟ وإجيب ببساطة: لأن النظام الإيراني تكشّف عن غباء سياسى شديد بانحيازه الفاجر لبشار الأسد ونظامه الإجرامي ضد ثورة الشعب السوري.. الذى انتفض ليتحرر من سطوة نظام دكتاتوري بشع.. جثم على صدره أكثر من أربعة عقود.. و كان يمكن لإيران

-لو أرادت- وقْف المذابح اليومية التى يقوم بها بشار وقواته وشبّيحته.. ولكنها -بدلا من هذا- تورطت فى مساندته.. وعملت بذلك على إطالة أمد العذاب الذى يصبه على الشعب.. إن قتل الأطفال السوريين والتمثيل بجثثهم جريمة مشتركة مروّعة تلوث بدمائها يد إيران كما تلوث يد بشار الأسد..

غباء النظام الإيراني أدّى ألى النتائج التالية: فقدت إيران مصداقيتها فى العالم العربي والإسلامي.. وانحسرت موجات التمدد الشيعي الذى كانت تعوِّل عليه إيران فى نشر نفوذها بالمنطقة.. وأهم من كل هذا أنها خسرت الشعب السوري.. وخسرت بذلك مَعْبَرا حيويا للمساعدات التى كان يتلقّاها حزب الله فى لبنان.. وفقد حزب الله -بالتبعية- ماتبقّى له من سُمعةٍ ومصداقية إكتسبها نتيجة معاركه وانتصاراته ضد غزوات الكيان الصهيوني على جنوب

لبنان.. مرتين فى عقد واحد من الزمن.. كل ذلك تبدّدّ بفضل الغباء السياسي الإيراني...!

أما النظام السعودي فلن يغفر له التاريخ احتضانه للدكتاتور اليمني على عبد الله صالح، الذى أفلس وخرب اقتصاد بلاده فى تمويل حربه على الشعب اليمني، ويعيش اليوم على التشجيع والإمدادات المالية التى يتلقّاها من النظام السعودي.. لإطالة حكمه فى اليمن ضد إرادة الشعب الذى ثار لحريته وكرامته، وتحمل المجازر الوحشية التى راح ضحيتها آلاف الشهداء والجرحى على امتداد الشهور.. وعندما لجأ على صالح للعلاج فى السعودية اعتقد العقلاء أنها فرصة للسعودية لإقناعه بالبقاء فيها وتسليم السلطة سلميا للشعب.. ولكن كان واضحا أن للسعودية حسابات أخرى فهى حريصة على إفشال الثورة اليمنية حتى لا تمتد آثارها إلى المملكة.. ولا يهمها أن يقتل الدكتاتور الدموي نصف الشعب اليمني لتحقيق هذا الهدف..

ولكن عدم تعاطفى مع النظامين الإيراني والسعودي لا يعنى على الإطلاق موافقة ضمنية على المؤامرة الأمريكية لجر الدولتين إلى حرب خليجية رابعة.. سوف تؤدى بالضرورة إلى تدمير الدولتين معا وتدمير دول الخليج معهما وسيكون المنتصر فقط أمريكا وإسرائيل.. أعرف أن البعض يستبعد أن تفتح أمريكا على نفسها حربا جديدة -وقد فشلت- بعد أن أُنهكت فى حربي العراق وأفغانستان.. وهى الآن تمهّد للخروج منهما.. ولكنى ما قصدت قط أن أمريكا ستتورط بقواتها البرية فى هذه الحرب.. فهى لم تتورط فى الحرب العراقية الإيرانية (فى ثمانينات القرن الماضى) ولم تنفق دولارا واحدا فيها..

وإنما قامت دول الخليج بكل نفقات الحرب واستفادت أمريكا من بيع أسلحتها للعراق ولدول الخليج.. وشجعت الطرفين على الاستمرار فى الحرب وإطالة أمدها ما استطاعت إلى ذلك سبيلا.. على أمل إنهاك الدولتين وتحطيم قواهما العسكرية والاقتصادية تمهيدا لاحتلالهما فى المستقبل.. وهذا ما فعلته مع العراق.. وهى تريد اليوم لعب نفس الدور مع السعودية وإيران... فما الذى يحفز أمريكا الآن لهذا السناريو الخبيث.. وهل من دليل أو مؤشّرات عليه...؟؟

وما هى أهدافه الحقيقية...؟! كل هذه أسئلة منطقية.. سألتها لنفسى ووجدت لها إجابات تاريخية مقنعة.. يؤكدها واقع الحال...

فى مقال سابق بعنوان "مصر وباكستان فى قلب إعصار" تحدثت عن استخدام أمريكا لعميل يُدعى "دافيد هيدلى" مزدوج الجنسية (أمريكي باكستاني) لتوتير العلاقات بين الهند وباكستان: إذ تولى تدريب أشخاص فى باكستان وأشرف عليهم لتنفيذ عمليات إرهابية مشهورة فى مومباي، واستخدمت شخصا آخرلحمل كمية من اليورانيوم المشع لمنظمات موصومة بالإرهاب فى باكستان .. وكان الغرض من هذا هو إشعال حرب بين الدولتين من جهة ، واتهام باكستان من جهة أخرى بعدم قدرتها على حماية أسلحها النووية من التسرّب إلى المنظمات الإرهابية، مما يعرّض الأمن العالمي للخطر.. ورأت فى هذا تبريرا كافيا لتفكيك المنشآت النووية الباكستانية أو توجيه ضربة لتدمير هذه المنشآت..

والمهم فى القصة أن أمريكا تختار لتنفيذ خططها التآمرية كالعادة عملاء مسلوبى الإرادة.. من مدمنى المخدرات.. ومحكوم عليهم بأحكام مختلفة بالسجن.. ليسهل ابتزازهم ووضعهم تحت السيطرة المخابراتية الكاملة.. وهو نفس الأسلوب الخسيس المتكرّر الذى تستخدمه الآن لتصعيد العداء بين السعودية و إيران ، وذلك باختلاق قصة الإيرانيّين اللذيْن قُبض عليهما بتهمة محاولة اغتيال السفير السعودي فى أمريكا.. وقد اعترف العميلان –وفقا للخطة الأمريكية– بجريمتهما.. كما زعما أنهما يعملان لحساب الحرس الثوري الإيراني.. هذا التشابه بين الحالتين الباكستانية والإيرانية يمثلان عندى مؤشرا قويا لاتجاهات التفكير التآمري الأمريكي.. وما تخططه أمريكا من مؤامرات لتخريب المنطقة ، مستغلة التناقضات المذهبية والسياسية بين الفرقاء...

ومن الناحية التاريخية يجب ألا ننسى أساليب جهاز المخابرات الأمريكية فى تدبير عمليات إغتيال كبرى فى أمريكا على يد عملائها ثم تصفية هؤلاء العملاء: وأبرز مثال على ذلك مقتل "روبرت كنيدى" أثناء حملته الانتخابية للرئاسة سنة

١٩٦٨ .. ثم أُلصقت التهمة بعميل عربي مسكين من فلسطين إسمه "سرحان سرحان"..

وقصة وضع قنبلة تحت مقعد السفير السعودي فى المطعم الذى اعتاد التردد عليه.. تعتبر قصة ساذجة وعبثية بالنسبة لجرائم القتل المحكمة التى ارتكبتها المخابرات الأمريكية فى الماضى: للرئيس جون كنيدى.. وللزعيمين الزنجيين: مارتن لوثر كنج، وملكوم إكس..

والأكثر عبثية وخِفّة أن يبتلع النظام السعودي الطُّعم ويذهب إلى مجلس الأمن لتصعيد المواقف العدائية ضد إيران.. دون أن ينتظر حتى تتبين الأمور ويتثبّت من الحقيقة.. وكانت هذه الخطوة جزء من السيناريو الأمريكي الخبيث لتسريع الصدام...! فما هى الدوافع والأهداف الأمريكية الصهيونية...؟:

أولا: خريف الغضب فى أوربا وأمريكا ليس حديث خرافة ولا هزل فيه؛ فقد بدأت الشعوب فى دول الغرب تدرك أن النظم المالية الرأسمالية المسيطرة تحابى الأغنياء على حساب الفقراء، وأن النظم السياسية ليست أكثر من أداة فى يد أصحب المال والبنوك تستخدم القوانين والضرائب وقوات الأمن لتسخير الدولة فى خدمة الأغنياء، ومن ثم فإن انتشار البطالة وغلاء المعيشة وانسداد الأمل فى مستقبل أفضل ليس حالة طارئة ستزول.. أو نتيجة أخطاء فى سياسات أحزاب أو حكومات سرعان ما يتم تصحيحها.. ولكنها أوضاع ترسّخت لحالة دائمة من انعدام العدالة الاجتماعية وتهميش مقصود للطبقات المتوسطة وسحْقٌ مُمَنْهج للفقراء..

إقرأ إن شئت سلسلة مقالاتى: "الإنسان فى عالم التكتلات الاحتكارية"، فستجد فيها إرهاصات لهذه التحوّلات فى الرأى العام الغربي تجاه الفساد المالي.. وضد الانحياز للقلة المتحكمة فى النظام الاقتصادي العالمي.. وإقرأ بعناية محتوى البيان العالمي لحملة «التوحد من أجل تغيير العالم» التى تدعو لتظاهرات سلمية ضد ما أسمته بدكتاتورية المؤسسات المالية.. وستجد أن كثيرا من مفرداتها قد تطرقتُ إليها بتفصيل منذ بضع سنوات فى مقلات عديدة.. ولم يكن ذلك إلا بفضل من الله وهدايته...

ثانيا: الأزمة المالية الخانقة التى انتهى إليها الاقتصاد الأوربي والأمريكي، جُرّبت فيها كل العلاجات الممكنة فى الترسانة الاقتصادية ولم تنجح.. وما أظنها ستنجح على المدي القريب أو البعيد.. لقد وصل الاقتصاد الغربي القائم على القروض والفوائد إلى طريق مسدود.. وهذا اقتناع أصبح راسخا فى عقول الحكومات الغربية لا تصرّح به.. وفى عقول المراقبين والمحللين .. ولذلك تتجه أمريكا إلى علاجات غير تقليدية للخروج من الكارثة: حرب عالمية جديدة.. قد تشتعل ابتداءً فى باكستان أو فى الخليج كما أشرت.. حرب تمكُنها من السطو على موارد الطاقة والموارد الطبيعية الأخرى والأموال المودعة والمستثمرة فى بلادها.. وبصفة خاصة الاستيلاء على الذهب، بتشريعات وقوانين جديدة [قادمة على الطريق لا محالة].. وسيعرف العالم حينذاك معنى " الفاشية الناعمة" التى تتجه إليها أمريكا والغرب.. وقد كتبتُ عنها منذ بضع سنوات مضت..

ثالثا: إذا نجحت أمريكا فى إشعال الحرب بين إيران ودول الخليج فلن تشترك فيها بقوات برية.. لن تكرر خطأها الفاحش فى أفغانستان والعراق.. ولن تنفق دولارا واحدا فى هذه الحرب.. فسوف تتحمل دول الخليج نفقاتها كاملة.. وتكتوى شعوبها وشعوب المنطقة بنيرانها وكوارثها .. ولكن هذا لايمنع أن تشترك أمريكا وإسرائيل بصواريخها الموجهة وبقذائفها المدمرة.. وسيكون على رأس أهدافها المفاعلات النووية ومنظومة الصواريخ الإيرانية.. لا لأن إيران تملك قوة نووية كما تملك باكستان.. ولكن للقضاء على أي احتمال أن تملك هذه القوة فى المستقبل القريب أو البعيد..

ولا ننسى أن مادلين أولبرايت وزيرة الخارجية السابقة -فى عهد كليتتون- قالت فى ردها على سؤال صحفي أثار غضبها بإلحاحة وجداله.. معترضا على استهداف إيران رغم أن كل الأدلة تشير إلى أنها لا تملك أسلحة نووية ولا تقوم بصناعتها.. فقالت غاضبة: نحن -أصلًا- لا نريد أن تمتلك إيران [التكنولوجيا] النووية..! فلتة لسان كاشفة.. كما تعلمنا من النمساوي "سيجموند فرويد" مؤسس التحليل النفسي الشهير...

رابعا: مايثير العجب والدهشة عند البعض أن أمريكا تحت تأثير أزمتها المالية الخانقة.. والتى تعلم أنها لم تعد تملك فى حوزتها ولا فى مواردها حلا سلميا لانهيارها الاقتصادي الوشيك، والتى لا تزال متورطة فى حرب العراق وأفغانستان.. تطمع فى شن حرب مدمّرة على ثلاثة دول أخرى من أكبر الدول المسلمة ؛ هى مصر وباكستان وإيران..

ولا يستغرب القارئ أننى أضفت مصر إلى القائمة المستهدفة أمريكيا.. فأمريكا بالفعل تشن على مصر حربا من نوع مختلف قليلا.. فكل ماتفعله أمريكا فى مصر من [الإغواء والرشوة واللعب بالمعونات والقروض والجاسوسية وشراء الضمائر الميتة] هو حرب خسيسة ضد الشعب المصري وضد ثورته وضد مستقبله الديمقراطي.. وهى تستخدم فى حربها جيشا من المصريين، يقومون بالحرب نيابة عنها.. كما تستعين بأنظمة حكم عربية تعيش حالة من الذعر خوفا من انتقال الثورة إلى بلادهم.. وتنتهز أمريكا فى تنفيذ مخططاتها ضعفَ وتشوّشَ السلطة القائمة الآن فى مصر.. هذه السلطة التى تتصرف وكأنها مكبّلة اليد والقدم والدماغ.. أشبه مايكون بحالة شلل.. أغرت بنيامين نتنياهو أن يعتقد أن هذه السلطة –على حدّ قوله– تمثل "نافذة فرص" لأنه لا يعلم كيف سيكون تعامل السلطات المصرية في أعقاب تلك الانتخابات القادمة، مع قيام الإسلاميين بالترشح فيها...!

هاجس إسرائيل إذنْ هو هاجس أمريكا.. ولذلك ينتهزان الفرصة القائمة قبل أن يلحق بها التغيير غير المضمون.. والأمر فى باكستان وإيران ليس بعيدا عن الصورة المصرية فيما يتعلق بالحكومات الضعيفة المتورّطة فى الخطايا والفساد.. والتى تتمتع بقدر غير قليل من الغباء.. وكل هذا يشجع أمريكا وإسرائيل على تسريع خطواتهما نحو استدراج هذه الدول لحروب سريعة تؤدى إلى سقوطها وتخريبها: من الداخل كما الحال فى مصر.. أو من الخارج كما الحال بالنسبة لإيران وباكستان.. ودول الخليج.. وعندئذ تتداعى الشركات الأمريكية لإعادة بناء ما دمّرته الحرب...! الحجة الأزلية للنهب على أوسع نطاق.. ولعل أمريكا ترى فى هذا النهب الواسع فرصتها الأخيرة للنجاة من الانهيار

الاقتصادي الوشيك.. خصوصا بعد أن تضع يدها على مصادر البترول بصفة مطلقة.. فى إيران وفى كل دول الخليج...!

وليس معنى هذا أن تنجح المخططات الأمريكية الإسرائيلية بالضرورة .. ولكننا ننبه إلى مخاطر قادمة على الطريق.. خصوصا مع ضبابية الرؤى.. وغشاوة الأعين والأفئدة.. وظلمات تكتنف الضمائر.. وغياب الإضاءات الكاشفة على جانبي الطريق... نسأل الله النجاة من كيد الكائدين وتدبير الحاقدين، والله المستعان فى كل وقت وحين...

****

ظاهرة جنجريتش تطفو من جديد

على سطح السياسة الأمريكية، تبرز لنا من وقت لآخر، تصريحات عنصرية فجّة تعبّر عن مكنونات الصدور، وقد توارت لبعض الوقت خلف خطاب دبلماسي ناعم.. ولكنها تنفجر معلنة عن نفسها على ألسنة أناس يتمتعون بقدر كبير من الغباء والعنصرية أكثر من غيرهم، كان بوش الثانى واحدا منهم أما "نيوت جنْجريتْش" فقد تفوق على الجميع فى غبائه وعنصريته، وفجاجته المعهودةَ، وَقدَ سبق أن كتبت عنه فى مجلتيْ الهلال والمختار الإسلامي منذ ما يقرب من عشر سنوات..

نيوت جينجريتش الآن يدخل حلبة المنافسة كمرشح للحزب الجمهوري فى انتخابات الرئاسة الأمريكية المقبلة .. وقد افتتح حملته الدعائية بهجوم عنصري فاقع اللون ضد العرب والمسلمين .. ولم يخجل أن يطلق أكبر فرية فى التاريخ؛ إذ يصف الفلسطينيين بأنهم شعب "مُخْتَرَع" لتدمير إسرائيل.. ويحاول إشاعة الذعر بين الأمريكيين، بادعائه أن الشريعة الإسلامية هى أكبر تهديد للولايات المتحدة، وأن خطورتها لا تقل عن خطورة الإرهاب العالمي.. وقد تسأل عن مراجع هذا الرجل الذى يستمد منها معلوماته ومعارفه.. وأجيبك أنه من تصريحات له سابقة يعترف ببالغ تأثره ببطولات الممثل الأمريكي جون وين فى أفلام الغرب الأمريكي لدرجة أنه يتمثّل به ويقتبس من كلامه..

ولا أستبعد أنه استمد معلوماته الأخيرة عن الإسلام والمسلمين من كلام الممثلة فكتوريا جاكسون فى برنامج متلفز لها تزعم فيه أنها جلست مع رجال مخابرات الـ(إف بى آي) ست ساعات، حيث كشفوا لها بالأدلّة أن الإخوان المسلمين يخططون للاستلاء على الولايات المتحدة الأمريكية، وإخضاعها لقوانين الشريعة الإسلامية..! إقرأ هذا التهريج فى:

Victoria Jackson: Muslim Brotherhood Taking Over America, Six Hour FBI Meeting

ثم استمع إلى مهرّج آخر من طراز جنجريتش هو رئيس الوزراء الكندي "استيفان هاربر" الذى يدّعى أنه يعبّر عن قلق بلاده وخشيتها من إمكانية أن يكون النظام الجديد في مصر أسوأ من نظام الدكتاتور المخلوع حسني مبارك.. ورغم أنه يعترف بإن الانتخابات البرلمانية هي "أول انتخابات حرة في تاريخ البلاد، وأنها كانت تمرينا إيجابيا جدا"، لكن في الوقت نفسه يزعم –كاذبا– أنه كانت هناك أقليات اضطُهدت من بينها المسيحيون الأقباط وغيرهم...!

ولا ينتهى التهريج السياسي والإعلامي عند هذا الحد بل تأتى الصحيفة الإسرائيلية "يديعوت أحرونوت" فى نفس السياق لبث الخوف فى أوربا تجاه التقدّم الذى أحرزه الإسلاميون فى الانتخابات المصرية الأخيرة .. فتنشر مقالا رئسيا بعنوان "مستقبل الإسلام في أوروبا".. يقول كاتبه " إنه إذا ما استمر نمو المظاهر الإسلامية في أوروبا بالدرجة المشاهدة حاليا، فإنه من المتوقع أن تتحول أوروبا كلها للإسلام بحلول نهاية القرن الحالي..!." إنه يروّج لنفس الفزاعة الإسلامية التى بدأت النخب المثقفة الغربية تبرأ منها بعد قيام ثورة ٢٥يناير٢٠١١.

كل هؤلاء يعتمدون فى خطابهم على إنكار الحقائق، ويراهنون على جهل شعوبهم بالعالم الخارجي، ولا يخجلون من تزييف الواقع.. وقد وضع بعض علماء النفس السياسى هذه الظاهرة تحت المجهر وقدموا دراسات مشهورة فى هذا المجال تتعمق فى أصولها وتردها إلى نوع خطير من التنشئة يتعرض لها الأطفال فى حياتهم المبكرة.. ومن أبرز هؤلاء العلماء:

Michael Milburn و Sheree D. Conrad فى كتابهما المعنون:

Politics of Denial, "سياسة الإنكار".

وقد تناولا شخصية نيوت جنجريتش كنموذج لهذه الظاهرة المرضيّة بشيء من التفصيل، معتمدين على مقابلات صحفية مستفيضة أجرتها الكاتبة الصحفية "جيل شيهي" Gail Sheehy سنة ١٩٩٥م التقت فيها بسبعين شخص من أسرة نيوت جنجريتش وأصدقائه وأقاربه، كشفت فيها عن صورة

مثيرة لحياة شخصية تعرضت في طفولتها للعنت وسوء المعاملة من أب سكير قاسي قمعي النزعة فأصبحت في حياتها السياسية والاجتماعية نموذجا للغضب والإنكار، واتسمت مواقفها بردود الأفعال العاطفية والتعميمات الواسعة التي لا تستند إلى أي أساس منطقي أو علمي.

تكشف لنا شيهي في دراستها أن نيوت جنجريتش لا ينتمي إلى أسرة جنجريتش، فأبوه هو "بيج نيوت كاكفيرسون" وأما جنجريتش فهو اسم أسرة أبيه بالتبنّي "بوب جنجريتش". لم يعرف نيوت الصغير اسم أبيه الحقيقي إلا بعد أن بلغ سن السادسة عشرة من عمره .. قيل له إن أباه الحقيقي تنازل عنه – وهو في سن الثالثة – لزوج أمه الثاني، في مقابل مبلغ من المال ، وذلك لحاجة أبيه السكير إلى المال للإنفاق على شرابه.

وكان من الطبيعي أن يتفجر نيوت سخطا على هذه الصفقة الآثمة عندما علم بها وأن يغضب غضبًا عارمًا على هجر أبيه له .. وقد لازمه هذا الغضب والسخط خلال مسيرة حياته كلها.

تسجل شيهي في دراستها كيف كان وجهه يتفجر بالغضب وينتفض بدنه وهو يذكر لها واقعة اكتشافه لفعلة أبيه الشائنة، كما تكشف لنا عن حقيقة أخرى وهى أن أباه هذا كان هو الآخر ضحية لهجر أبيه له، وحقيقة ثالثة وهى أن بوب جنجريتش زوج أمه كان هو أيضًا ضحية هجر أبيه له، وأنه ظل محرومًا من رعاية الأسرة مقيمًا في دار لرعاية الأيتام والمهجورين لم يتبنّاه أحد حتى بلغ سن التاسعة عشرة من عمره..

هل أستطيع أن أقول أن هذا هو نموذج الأسر المنحلّة التى ينشأ فيها أكثر السياسيين الذين يديرون سياسة العالم الغربي.. وتتشكل فيه البنية الأساسية لوجاناتهم و لأفكارهم عن العالم وعن البشر.. وخصوصا عن الإسلام والمسلمين اليوم.. وهى أفكار قائمة على إنكار الحقيقة والافتراء على الحق والعداء والكراهية، بلا مبرر ولا منطق..؟! أنظر إلى بعض تفاصيل البيئة التى نشا فيها واحد منهم كما ترد على لسانه:

يصف نيوت جنجريتش أباه وزوج أمه بأن كلاهما متسلط مستبد.. ويذكر أنه كان في عراك دائم مع زوج أمه منذ تبنّيه حتى بلغ سن التاسعة عشرة من عمره.. فهجر البيت.. كما تؤكد أخته أن جميع أفراد الأسرة كان يرهب بوب جنجريتش.. وفي مقابلة جيل شيهي مع هذا الرجل حاول أن يبرئ نفسه أمامها فقال: لقد قيل عني أنني كنت شديد القسوة على "نيوت" ولكن العقوبات البدنية في ذلك الوقت كانت أمرًا مقبولًا بل مستحسنًا أكثر منها هذه الأيام .. واعترف أيضًا أنه لم يحتضن هذا الغلام أبدا في حياته.

بدا جنجريتش – في أحد لقاءاته مع شيهي – أنه كان واعيًا بتأثير طفولته المؤلمة على حياته السياسية حيث قال: لقد وجدت طريقة لإغراق شعوري بعدم الأمن في هدف كبير يبرر كل ما أريد أن أبرره.. ومع ذلك ظلّت مواقفه تعكس هذا الغضب الكامن الذي لم يستطع التخلص منه أبدا.

يستخلص المؤلفان أن مشكلات جنجريتش في طفولته التي تكاتفت عليها عوامل الهجر والرفض وقسوة العقوبات البدنية والصراع الأسري هي التي صنعت هذه الحالة المرضية، ويعتقدان أنها حالة نموذجية مقنّعة للعلاقة بين آلام الطفولة وسياسة الكبار.

وقد تناول "روبرت جودوين" .. أحد علماء النفس الإكلينيكي شخصية جنجريتش بالتحليل في مقالة له بمجلة "التاريخ النفسي" سنة ١٩٩٦م، وخلص إلى نتائج تؤيد نظرة "جيل شيهي". كما يرى "هاري جنتريب" وهو محلل نفسي آخر بأن نموذج جنجريتش هو أخطر أنواع القادة السياسيين لأنه يجمع سمات الانطواء المتطرف: من التوتر وأوهام العظمة والخيال التعويضي الجامح مع النرجسية، والاكتفاء بالذات والشعور بالتعالي على الآخرين والموت العاطفي...!

ويدلل على ذلك بعبارات قوية الدلالة من كلام جنجريتش نفسه مثل قوله:

"أريد أن أنقل الكوكب بأسره وسأفعل .. وسوف أحصل على جائزتي..." وقوله: " أكتفي بقراءة الكتب ولا أسعى للأصدقاء.." وقوله: " أنا أحولُ بين الأمريكيين وبين محرقة أوشفيتز.."

ويخلص جنتريب إلى القول بأن الذات المنسحبة من الواقع الزاخر بالحياة تحاصر نفسها في قلعة فكرية لتتحرر من الاحتكاك أو التواصل مع الآخرين، وتشكل نظاما عاطفيًّا خاصًّا مغلقا على نفسه عاجزا عن التقمص العاطفي أو التواصل والرحمة .. في عالم كهذا ينعدم المعنى الحقيقي للحياة.

يقول مؤلفا كتاب "سياسة الإنكار": ينعكس غضب جنجريتش مباشرة في عباراته وصوره اللغوية المشحونة بالانفعالات الساخطة والكلمات اللاذعة التي يستخدمها في حملاته الانتخابية ضد خصومه، كما ينعكس في توجيهاته لزملائه في الحزب الجمهوري أن يحرصوا على وصف منافسيهم بأنهم خونة وبأوصاف أخرى مثل: فاسدين ومرضى وشواذ.. وبذلك تتحول الحملات الانتخابية إلى عملية "ردح" وشتائم، و تنابذ بالألقاب، تتلاشى فيها القضايا الجادة والبرامج السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تهم الجماهير.

من أمثلة ذلك أنه في سنة ١٩٧٨ قاد حملة تلويث ضد منافسته سيناتور "فيرجينيا شابارد" لأنها صرحت مرة للصحفيين أنها قد تضطر للذهاب إلى واشنطن تاركة زوجها وأطفالها في جورجيا، فوصف جنجريتش هذا التصرف بأنه دليل على التحلل من الروابط والمسئوليات الأسرية .. وسنرى أن جنجريتش هذا – متناقضا مع نفسه – يذهب بعد عام ونصف من القطيعة إلى زوجته التي كانت في المستشفى فى انتظار عملية استئصال الرحم ليناقش معها شروط انفصالها نهائيا ، ثم يخرج ليصرح للصحافة بأنها لم تكن بالجمال الذي يؤهلها لتكون زوجة رئيس ناجحة..!..

في أحد لقاءات "جيل شيهي" مع جنجريتش سألته: هل أنت إنسان رحيم..؟

فرد ببساطة: أنا لا أفهم معنى هذه الكلمة!..

ثم وصف لها شعوره بالغضب عندما سمع أن طفلا تخرج من المدرسة الابتدائية دون أن يتعلم القراءة.. ثم عقّب قائلا: هل هذه رحمة أم مجرد غضب..؟!

تقول شيهي: من الواضح أن جنجريتش لا يستطيع ممارسة التقمص العاطفي الذي يجعله قادرا على التعاطف مع مشكلات الآخرين وآلامهم.. فهو لا يشعر في هذه المواقف إلا بشيء واحد هو الغضب.

إنها إذن ظاهرة جنجريتش تطفو من جديد على سطح السياسة الأمريكية، والغربية بصفة عامة كرد فعل مرضيّ للثورات العربية والثورة المصرية بصفة خاصة، التى أتاحت للقوى السياسية الإسلامية الفوز فى الانتخابات البرلمانية مما يؤذن بعصر جديد تتلاشى فيه التبعية المصرية للهيمنة الأمريكية الصهيونية لا فى مصر وحدها بل فى العالم العربي بأسره..

****

هنري كيسنجر وسياسة التحكم السكاني

أزعم أن هناك استراتيجيات أمريكية تأخذ مجراها في بلاد العالم الثالث للقضاء على نسبة كبيرة من سكانه .. تأتي أحيانًا في ثوب تحديد النسل أو التحكم السكاني أو تنظيم الأسرة، فالولايات المتحدة ترى أن الزيادة السكانية في هذا العالم خطر على أمنها القومي.. وسوف نناقش هذه النقطة بعد قليل.

ولكن دعنا نستعرض بإيجاز مذَكِّرة بالغة الأهمية لهنري كيسنجر -مستشار الأمن القومي في عهد الرئيس نيكسون- بعنوان: "تأثير النمو السكاني في العالم على أمن الولايات المتحدة ومصالحها في العالم الخارجي" .. ربما يكون من المفيد للقارئ أن أسوق إليه أولاً هذه المعلومة: لم يكن الاسم الأول لكيسنجر هو "هنري" فذلك اسم مُنتحل لتسويقه في مجتمع مسيحي، وأما اسمه الأصلي فهو "هاينز" (ألماني يهودي).. فماذا كتب كيسنجر في مذكرته..؟ إنه يحذر من النمو السكاني المتسارع في العالم الثالث لأنه حسب رأيه يهدد مصالح الولايات المتحدة الإستراتيجية والاقتصادية والعسكرية، كما يحذر من الدول التي تملك أعدادًا كبيرة من السكان تكفي لاستغلال مواردها إلى الحد الأقصى من الكفاءة لأنها ستشكل قوى عالمية جديدة منافسة، ذات خطر على أمن الولايات المتحدة ..

ولكي تضمن الولايات المتحدة مصالحها العسكرية والاقتصادية على حساب الدول النامية يرى أنه لا مناص من عمليات التحكم والسيطرة لكبح جماح النمو السكاني في هذه الدول .. وقد حدد في مذكرته ثلاثة عشر دولة رأى أن نمو سكانها سينتهي إلى جعلها قوى صاعدة .. واقترح ضرورة أن تمارس الولايات المتحدة عليها ضغوطًا جادة حتى تتبنى هذه الدول برامج فعالة لتحديد النسل بحيث لا يزيد متوسط عدد الأطفال لكل أسرة عن طفلين بأي حال .. ولكي تخفي الولايات المتحدة خطتها وأهدافها الحقيقية عليها أن تدفع بمنظمات دولية مثل البنك الدولي وصندوق النقد الدولي ومنظمة الصحة العالمية بتنفيذ هذه الأهداف وتقوم بتمويلها .. على أن يشترط البنك الدولي على

كل دولة تتقدم لطلب مساعداته المالية أن تتبنى أولًا برنامجًا فعالًا لتحديد النسل..!

بعد كل هذا أحب أن ألفت نظر القارئ إلى أن كيسنجر -على ما اشتهر به من عبقرية دبلوماسية ومن إنجازات مرموقة في السياسة الخارجية- لا يعدو أن يكون مجرد أداة في يد مجموعة بالغة القوة من رجال المال والأعمال هي في الواقع أقوى وأعلى في سلطتها ونفوذها من الحكومات الظاهرة المعروفة للناس .. ولكن هذه المجموعة أو النخبة من البشر لا يُعرف عنها إلا النذر اليسير، فهي شديدة الحرص على إخفاء نفسها وإخفاء طبيعة أهدافها وأنشطتها السرية عن أعين المتطفلين..

أيديولوجية النخبة الحاكمة:

التحكم في سكان الأرض كان دائمًا حلم الطغاة أمثال "هتلر" و"موسليني" و"لينين" و"ستالين" .. وهذه النخبة الخفية بالتأكيد تتمتع بعقلية الطغاة .. فهم لا يقفون عند حد في سعيهم الرهيب للتحكم في حياة البشر وتشكيلها وفق أطر وقوالب، يساعدهم في صنعها مجموعة أخرى من الخبراء والعلماء يتمتعون أيضًا بنفس العقلية .. ويعتقدون أنهم آلهة أو أنصاف آلهة لأنهم يستطيعون في معاملهم تطوير وسائل وتكنولوجيات للتحكم في الجينات واستنساخ الحيوانات والبشر .. والتأثير على صحة الإنسان سلبًا وإيجابًا، ويعتقدون مثل النمرود وفرعون أنهم يهبون الحياة أو يسلبونها وفق مشيئتهم..

هذه النخبة أو العصابة تعتنق أيديولوجية لا إنسانية ولا أخلاقية مثل فكرة "ميكافيلي": الغاية تبرر الوسيلة، بمعنى أنه لا بأس من استخدام أي وسيلة ولو كانت إجرامية لتحقيق هدف مرغوب فيه .. وهم جميعًا من أنصار نظرية "مالتوس" الذي قال: إن البشر يزيدون وفق متوالية حسابية .. ومعنى هذا أننا سنصل إلى وضع تعجز فيه الأرض عن أن توفر الغذاء الضروري لسكانها .. وأن الحروب والأوبئة قد تقلل من خطر هذا الانفجار السكاني، ولكنها ليست

كافية لتحقيق التوازن بين السكان والموارد الغذائية المتاحة.. لذلك لابد من استحداث وسائل بيولوجية وكيميائية لتقليص سكان الأرض.

تؤمن هذه النخبة بأن الموارد الطبيعية في الأرض لا تحتمل ولا تحتاج أكثر من ثلاثة مليارات وثمانمائة مليون نفس فقط بينما بلغ سكان الأرض الآن أكثر من ستة مليارات .. ومعنى هذا أن الضرورة تدفع إلى العمل بكل وسيلة على إبادة ما لا يقل عن مليارين ومائتي مليون نفس من البشر!!..

من يقوم بتمويل هذا المشروع الإجرامي؟:

كتب بروفسور "جوئيل كوهين" – رئيس مركز أبحاث السكان في جامعة روكفلر وجامعة كولومبيا في إحدى مقالاته: "كان تحديد النسل هو الشغل الشاغل للنخب الأوروبية، والأمريكية خلال القرن العشرين .. وقد أنشأ "جون روكفلر" الثالث سنة ١٩٥٢ "مجلس السكان" لصندوق النقد الدولي.. وإلى جانب ذلك هناك مؤسسات تعمل تحت غطاء الأعمال الخيرية في مجال التحكم في النسل بنشاط لا يفتر .. من أبرزها مؤسسة "فورد" ومؤسسة "روكفلر" .. وهي تصب بلايين الدولارات لتحقيق هذه المهمة .. فمثلًا قدم صندوق الأمم المتحدة للسكان منذ إنشائه سنة ١٩٦٩ ستة بلايين دولارًا كمساعدات للدول النامية لتحديد النسل .. ومع ذلك فهذا الصندوق لا يمثل أكثر من ربع الميزانيات المخصصة لهذا الغرض.. وهي تزيد عن بليون دولار في السنة الواحدة .. وإذا ذهبت تدقق في إنفاق الولايات المتحدة خلال وكالتها للتنمية العالمية فستجد أنها تُخصص لتحديد النسل في العالم الثالث ميزانيات أكثر مما تقدمه للرعاية الصحية ومساعدات الأغذية مجتمعة.

ثم تتجلى عبقرية الشر في الترويج لهذه المهمة خلال الإعلام العالمي، بأنها اهتمام عالمي بموارد الأرض والتلوث البيئي، وبحقوق النساء .. والصحة الإنجابية وتنظيم الأسرة إلى آخر هذه الشعارات البراقة التي أصبحت عملة متداولة في وسائل الإعلام المحلية وعلى لسان كل مسئول حكومي، ولكن

الحقيقة أنهم تحت هذه الشعارات والعناوين 'المشهورة والمرغوبة ينفذّون أهدافًا وخططًا أخرى تحت عناوينها الحقيقية المستترة، من أهمها:

١. تقليص عدد سكان الأرض في العالم الثالث.

٢. تخفيض مستوى الذكاء عند عامة الناس باستثناء النخب الحاكمة.

٣. التحكم في العقول لتيسير التلاعب بها وتوجيهها فيما يُعرف باسم "صناعة الرأي العام".

٤. زيادة الفقر.

٥. نشر الأمراض لدى الجماهير.

٦. التمكين لاحتكارات صناعة الأدوية بحيث تصبح هي المصدر الوحيد الذي يلجأ البشر إليه مضطرين في علاج أمراضهم، ومحاربة كل وسيلة أخرى بديلة للعلاج ليس من خلال الدعاية المضادة فقط، ولكن بإصدار تشريعات وقوانين تحرّمها وتقضي عليها في النهاية .. والمتتبع لهذه القضية في أمريكا وفى الاتحاد الأوروبي سيرى العجب العجاب..!

ربما يُدهش القارئ وقد يضحك غير مصدق أني أشرت ضمن أهداف خطة تقليص السكان في الأرض: تخفيض مستوى الذكاء وزيادة الفقر ونشر الأمراض بين عامة الناس، ولكني أدعوه إلى الصبر قليلًا حتى نتناول هذه المسائل بالشرح والتفصيل في سياقها، بل أدعوه أن يلتفت حواليه ويقارن بين الحال عندنا خلال العقود القليلة الماضية وبين ما وصل إليه الحال في هذه المجالات المذكورة آنفًا.

إنك إذا ذهبت تدقق النظر في الإجراءات والأنشطة المتصلة بالتحكم السكاني فستجدها محفوفة بالجرائم والنوايا السوداء، وربما بالجهل والغباء لدى بعض الحكومات التي تدعي الذكاء، وتنفذ السياسات السكانية المفروضة عليها دون تمحيص أو معارضة.

أعود إلى دراسة هنري كيسنجر التي أوجزناها -فيما سبق- لأبرز نقطة هامة وأكشف عن خبث هذه الخطط .. يقول كيسنجر: "لا يوجد حل واحد للمشكلة السكانية في العالم الثالث ، بل هناك عدة حلول ينبغي أن نقوم بها حيث تبدو للناظر إليها على أنها غير متصلة بعضها ببعض فلا تجذب الانتباه إليها. من هذه الحلول: ما يتصل بشئون البيئة .. ومنها ما يتصل بالصناعات الدوائية ، وسياسات الصحة العامة، وما يتصل بها من مراكز أبحاث طبية وجامعات وتدريب علماء .

ومنها ما يتعلق بتطوير أسلحة بيولوجية .. أضيف إلى هذا تحذير لأنصار البيئة في نشرتهم الدورية لسنة ١٩٧٢ يقول: "إن كوكب الأرض سينهار حتمًا بحلول سنة ٢٠٥٠م ما لم يتوقف النمو السكاني وتوضع حدود رادعة لهذا النمو.."، ولذلك فإن تحديد النسل – ليس كما يُروج له – من أنه مسألة اختيارية لتحسين النسل وتنظيم الأسرة .. ولكنه عملية قسرية مفروضة على الشعوب المستضعفة، والملاحظة التي لا ينبغي أن تغيب عن ذهن القارئ هي ربط كيسنجر الواضح بين هذه السياسات السكانية وبين الأمن القومي الأمريكي، بمعنى أن زيادة النمو السكاني عندنا يعتبره الأمريكيون – من وجهة نظرهم – خطرًا على أمنهم القومي.

وأمام هذا البلاء النازل لا نملك إلا أن نستعيذ بالله ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

****

نصف الساعة الذى غير تاريخ أمة

لا أتحدّث عن نصف الساعة الأولى للواقعة التى انهارت فيها أبراج نيويورك، وتغيّر بعدها تاريخ العالم.. ولا عن نصف الساعة الذى دُمِّرت فيه الطائرات المصرية وهى رابضة على الأرض فى اليوم الخامس من يونية ١٩٦٧ فحُسِمت الحرب لصالح العدو الصهيوني.. ولا حتى عن اللحظات الكونية التى وسوس فيها إبليس إلى أبينا آدم فأخرجه من الجنة إلى شقاء الدنيا.. ولكنى أتحدث عن نصف الساعة الغامض فى يوم مشئوم من سبتمبر ١٩٧٨م .. ذلك اليوم الذى إنفرد فيه الرئيس الأمريكي جيمى كارتر بالرئيس السادات فى اجتماع وحدهما.. وخرج بعدها السادات ليوقع على اتفاقية كامب ديفيد ناسيا كل اعتراضاته الغاضبة طوال فترة المفاوضات..

وصف محمد إبراهيم كامل وزير خارجية مصر الأسبق ما جرى خلال مفاوضات كامب ديفيد بكلمة واحدة بليغةٌ قال: إنها " مذبحة " .. فقد تأكد له أن هذه الاتفاقية خطيرة على أمن مصر وعلى الأمن القومي العربي.. وأنها جريمة فى حق القضية الفلسطينية.. لذلك نصح للسادات بإلحاح ألا يوقع عليها .. فلما رفض السادات نصيحته وسخر من آرائه قرر التنحى وتقديم استقالته.. حتى لا يكون شريكا فى جريمة اعتبرها خيانة وطنية عظمى.

سجل الرجل مذكراته فى كتاب كبير الحجم (٦٧٦ صفحة).. شديد الأهمية بعنوان: " السلام الضائع في اتفاقات كامب ديفيد " .. تناول فيه المؤلف تفاصيل المفاوضات يوما بيوم.. وساعة بساعة.. وذكر فيه طريقة تعيينه المفاجئ وزيرا دون استشارته.. وقد شعر بأن تعيينه بهذه الطريقة كان نذير شؤم بالنسبة له.. وقد تأكدت هواجسه خلال فترة المفاوضات التى وصفها بأنها كانت بالنسبة له كابوسا مُروِّعًا..

لقد بدأ مسلسل المأساة قبل هذا التعيين باستقالة سلفه إسماعيل فهمي وزير الخارجية واستقالة محمد رياض وزير الدولة للشئون الخارجية بعد أن أعلن السادات عزمه القيام بزيارته التاريخية للقدس في التاسع من نوفمبر عام

١٩٧٧. ولكي يكمل السادات طاقمه إلى المفاوضات جاء ببطرس بطرس غالى بدلا من محمد رياض.. وصديقه القديم محمد ابراهيم كامل ظنّا منه أنه سيكون طوع بنانه..

يصور الكتاب الأجواء الكئيبة فى كامب ديفيد وكيف كان مناحم بيجن عنيدا مشاكسا متصلبا.. وكان السادات متساهلا متنازلا بدرجة مذهلة.. وكيف كان الرئيس الأمريكي جيمى كارتر منحازا لكل مطالب الجانب الإسرائيلي ضاغطا على الجانب المصري ليستجيب لكل مطالب بيجن المتعنّتة..

يذكر "كامل" أن السادات فى مرحلة من المفاوضات بدا يائسا من الوصول إلى نتيجة حتى أنه قرر الانسحاب والعودة إلى مصر.. قال : "إن التفاهم مع بيجن من رابع المستحيلات.. إنه يلعب بكارتر الساذج...!" واعترف السادات أيضا أنه فى الجلسات التى لم يحضرها سوى الرؤساء الثلاثة أنه وافق على تنازلات كثيرة "لكى يسهّل مهمة الرئيس كارتر.. ولكن بيجن لم يتزحزح ستيمتر واحد عن موقفه..."

ولكن فجأة تغير موقف السادات بعد اجتماعه منفردا مع جيمى كارتر لمدة نصف ساعة.. يقول "كامل: " خرج السادات بعدها منتعشا تبدو عليه دلائل السرور والفخر.. وهو يقول: "إن الرئيس كارتر رجل عظيم وذو ذكاء خارق.. لقد حل المشكلة ببساطة شديدة وأراحنى تماما.." فلما سُئِل: كيف..؟ قال السادات كلاما لم يقتنع به أحد آنذاك..

ولم أقتنع أنا به عندما قرأت الكتاب لأول مرة فى تسعينات القرن الماضى.. ولما عدت لقراءته منذ أيام لأتحقق من الأمر فلم أجد إجابة شافية مقنعة تكشف عن حقيقة ما جرى بين كارتر والسادات فى تلك "النصف ساعة" المشئومة.. التى غيرت مجرى التاريخ من السّيّئ إلى الأسوأ: فى مصر وفى فلسطين والمنطقة العربية بأسرها.. وما زلنا نعانى من آثارها ومعقّباتها حتى هذه اللحظة.

يصف كامل الحماس المفاجئ الذى حلّ بالسادات بعد ذلك الاجتماع المريب.. حتى أنه سأله قائلا: "المهم ماهو الاتفاق الذى ستوقّع عليه...؟" فردّ السادات: "سأوقّع على أى شيء يقترحه الرئيس الأمريكي كارتر.. [دون أن أقرأه...]" فلما اعترض كامل.. هبّ السادات واقفا وكرّر بصوت مِلْؤه التحدّى: "سأوقّع عليه دون أن أقرأه...!"

يقول كامل معلّقًا: " قلت لنفسى بأن مثل هذا الشخص لو كان رب عائلة صغيرة لسارعت بالحجْر عليه.. فما بالك وهو رئيس مصر يتحكم فى أربعين مليونا من البشر...!" وبدأت الهواجس تدور فى عقله والأسئلة تنهال عليه تملأه بالشكوك العاصفة: " هل السادات بهذه البلاهة... أم هل أصابه الجنون..؟ ولماذا يتحوّل إلى عبد ذليل فى حضرة كارتر.. يتلقّى تعليماته كأنه موظف عنده..؟! هل هو بكامل قواه العقلية.. وهل أصيب بانهيار عصبي...أم أنه يقوم بتمثيل مشهد درامي...؟!

أدرك "كامل" أن المشكلة الأساسية تكمن فى الرئيس السادات نفسه: "فقد استسلم للرئيس كارتر تماما.. الذى استسلم بدوره لمناحم بيجن" وتأكد ساعتها أن "أي اتفاقية ستُبرم فى نهاية الأمر على هذا الأساس ستكون كارثة على مصر وعلى الشعب الفلسطيني وعلى الأمة العربية جميعا..."

ويضيف كامل مذهولا: "لقد حِرْتُ تماما فى تفسير مراميه وسلوكه وتصرفاته غير المفهومة.. وانتهى تفكيرى إلى أنه إما أن يكون فى حالة انهيار تام سلب إرادته.. أو أن تكون التكنولوجيا الأمريكية قد نجحت فى السيطرة عليه وتوجّهه مغناطيسيا... وإما أن يكون قد أصيب بالجنون والعمى معا...!".. "أما الاحتمال الأكثر إيلاما فهو أن يكون قد قبِل أن يلعب دورا [ما] فى الشرق الأوسط واختار -ويعلم الله منذ متى- أن يكون عميلا للولايات المتحدة.. والانحراف بمصر نحو الانضمام إلى حلف إستراتيجى أمريكي إسرائيلى مصري..."

ونسي محمد إبراهيم كامل أن يذكر احتمالا آخر تستخدمه المخابرات الأمريكية عادة لابتزاز القيادات السياسية فى العالم الثالث: "فضيحة مسجلة بالصوت والصورة..."

المهم أن كامب ديفيد أخرجت مصر من الإجماع العربي وأخْلت الساحة لإسرائيل تعبث فى الساحة العربية كما يحلو لها بدون رادع .. بدأ هذا فى عهد السادات، ثم ترسّخ فى عهد مبارك.. لتصبح مصر بالفعل عميلا فى حلف أمريكي صهيوني..

تسأل: ما أهمية العودة إلى هذا الماضى البغيض ...؟ وإجابتى بكل بساطة تنقسم إلى شقّين: الأول أننا بعد الثورة نشعر مجدّدا بالآثار المترتبة على اتفاقية كامب ديفيد ثم اتفاقية السلام التى تلتها.. وما نتج عن كل هذا من كوارث وقيود تكبل حركة الشعب المصرى نحو تحقيق حريته وسيادته على أرضه.. وتوشك أن تقضى على ثورته.. وتحرف مسيرة الديمقراطية التى يحلم بها.. وأبسط مثال على ذلك أحداث السفارة الإسرائيلية الذى اُتُّخذ ذريعة لإحياء قانون الطوارئ الذى ثار الشعب لإلغائه.. فلو لم تكنْ هناك كامب ديفيد واتفاقية سلام منكود .. ما كانت لتوجد سفارة إسرائيلية أصلا فى مصر ولما نشأت المشكلة العنكبوتية التى يراد بها اصطياد الثورة والأمة كلها لتحقيق أهداف خبيثة واستنساخ نظام مبارك مرة أخرى فى مصر...

أما الشق الثانى وهو الأخطر –فى نظرى– فهو أن الهواجس والشكوك التى عصفت بعقل محمد إبراهيم كامل تجاه مسلك السادات كما بيّنها فى مذكراته هى نفس الهواجس والشكوك التى تعصف اليوم برءوس عدد غير قليل من المفكرين تجاه ما بدا من تصرفات السلطة القائمة –بتركيبتها المعقّدة– وما تكشّف عنها من حقائق ومؤشرات فى الآونة الأخيرة...

أنظر معى فى هذه الوقائع:

أولا: اجتماع الفريق "دافيد جولدفين" قائد القوات الجوية الأمريكية، مع رئيس الأركان المصرى ونائب رئيس المجلس الأعلى للقوات المسلحة الفريق

سامى عنان، وهو اجتماع يُقال أن عددا من أعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحة قد حضره.. فما الذى جرى فى هذا الاجتماع...؟ لا أحد يعرف.. لأنه لم يصدر بيان عنه للشعب يفسر سر هذا الاهتمام الأمريكي المشبوه فى غير مناسبة.. والكلام عن "بحث الموضوعات ذات الاهتمام المشترك" كما ذكرت وكالات الأنباء يشبه نفس الكلام العام المائع الذى أعلنه السادات بعد "لقاء نصف الساعة" المشئوم فى كامب ديفيد.. ونتساءل باندهاش: ما هى تلك الموضوعات ذات الاهتمام المشترك بيننا وبين أمريكا..؟:

أهو اهتمام أمريكا بالديمقراطية التى تتذرع به للتدخل فى شئون مصر بتوزيع الرشاوى على أفراد وجمعيات مدنية وأجهزة صحافة وإعلام.. لخدمة مصالحها الخاصة ومصالح ربيبتها إسرائيل.. و –بالتأكيد– ضد مصالح مصر وشعبها وثورتها...؟!

أم هومحاولة للاتفاق على الخطوات التالية لتحجيم دور التيارات السياسية الإسلامية التى بدا أن كفّتها ترجح كفة الأصدقاء اللبراليين والعلمانيين.. والنشطاء الطائفيين..؟ أم هو بصفة خاصة حديث الغواية وإغارة الصدور ضد حزب بعينه ذى مرجعية إسلامية لمنعه من السيطرة على الحكومة المنتخبة القادمة...؟!

أم هو الحديث عن التدابير الممكنة والسيناريوهات المحتملة لتأجيل الانتخابات ومد الفترة الانتقالية إلى أجل غير مسمّى تحت أي ذريعة مصطنعة.. مثل أحداث السفارة والهجوم على مديرية أمن الجيزة ووزارة الداخلية...؟!

لقد بدا واضحا لكل ذى عينين أن هنك مصالح وأهداف تشترك فيها وتسعى لتحقيقها أمريكا وإسرائيل.. مع فلول النظام البائد وقوى سياسية لا تريد الديمقراطية وتخشى من الانتخابات القادمة .. وقوى أخرى فى داخل السلطة.. نعرف بعضها .. ونجهل بعضها الآخر.. يسوؤها أن تنكشف عوراتها المستترة إذا مضت الديمقراطية فى طريقها الصحيح .. واستقام أمر المحاكمات المنعقدة لمبارك وأركان نظامه [فى العلن].. واتضحت للناس الحقائق المستورة

والعلاقات الخفية بين مبارك وبين رجال هنا وهناك.. يضعون اليوم أيديهم على قلوبهم خشية المفاجآت...!

إن القادة الأمريكيين لا يهتمون بالسفر الطويل والحضور إلى مصر ليتشاوروا أو ليستمعوا إلى وجهات نظر.. فذلك أمر يسير.. يقومون به من خلال الاتصالات الهاتفية والمؤتمرات الإلكترونية المتاحة على شبكة الأنترنت بين البيت الأبيض والمجلس العسكري.. ولكنهم يحضرون ليعرضوا خططًا وتدابيرلتحريف مسار الثورة وإعاقة التحول الديمقراطي.. فالراجح عندى أن أمريكا لا يمكن أن تسعى لشيء فيه مصلحة لمصر أو للشعب المصري.. فهذا من رابع المستحيلات.. إنها غواية شيطانية تطلّ برأسها من جديد...!

ثانيا: دعا "معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى" الرئيس الأمريكى باراك أوباما إلى [تحذير الناخب المصرى] من تأييد بعض القوى السياسية المصرية التى تناصب الولايات المتحدة العداء؛ ما يهدد النفوذ الأمريكى المتراجع فى مصر منذ تنحى مبارك فى فبراير الماضى.. وأن يذكّر المصريين بما هو على المحك فى اختيارهم للزعماء السياسيين، وأيضا أن يذكّر أولئك القادة بأن خياراتهم لها عواقب... ويفصح ساتلوف مدير المعهد عن هدفه عندما يتوقع: أن تتراوح نتائج الانتخابات البرلمانية المصرية «بين السيئ والأسوأ"، والسيئ فى نظره هو أن القوى الليبرالية التى يصفها بالأصلاحية لن تحصل على أغلبية، والسؤال المهم عنده هو ما مدى الأغلبية النسبية التى ستحصل عليها القوى الإسلامية...؟!

وفى هذا كما ترى دعوة صريحة لتدخل أمريكي سافر فى الشئون الداخلية لمصر.. وتهديد سافر للناخب المصري: ألّا يعطى صوته فى الانتخابات للإسلاميين.. لأن أمريكا على ثقة بأن القوى العلمانية واللبرالية الصديقة لن تحصل على الأغلبية .. ومن ثم تنبه الناخبين المصريين وقادتهم أن هناك عقوبات أمريكية تنتظر من يخالف التوجيه الأمريكي... فيالها من ديمقراطية.. تريدها أمريكا لمصر...! أمريكا إذن تنفق ملايين الدولارات فى مصر لا من أجل الديمقراطية ولكن لوأد الديمقراطية وقمع الثورة التى جاءت بها.. ويبدو أن

هذا بعض أسرار الاجتماعات المريبة.. تحاول فيها أمريكا إقناع المجلس العسكري بعمل شيء لوقف هذا التحول الديمقراطي بأى وسيلة..!

ثالثا: بنفس القدر .. فإن هذا الخوف من ديمقراطية مصر هو الذى يحرك إسرائيل كما يحرك أمريكا.. لأن ديمقراطية مصر فى نظر إسرائيل ستأتى بحكومة وطنية منتخبة حساسة لنبض الشارع، الذى طفح به الكيل من جراء الانتهاكات الإسرائيلية لسيادة مصر والاستهانة بشعبها والاعتداءات المتكررة على أرضه وحريته وكرامته.. ودعْمها للنظام الاستبدادي الذى جَثَمَ على صدره عقودا من الزمن.

من هنا نفهم كلام "إسحاق ليفانون " السفير الإسرائيلى الذى غادر مصر مذعورا بعد محاولة اقتحام السفارة حيث قال: "إن الثورة المصرية لم تقدم أو تفعل أي شىء إيجابى في مصر" .. فمقياس الإيجابية عند هذا الصهيوني هو مصلحة إسرائيل .. وهذا أمر طبيعي فالثورة جاءت لمصلحة شعب مصر والقضاء على النظام الذى كان مكرّسا لحماية إسرائيل وحماية مصالحها..

ثم نراه يحثّ إسرائيل "على أن تدرس جيدا ما حدث لمصر حتى تفهم وتستوعب الأمور وتقيّم الاوضاع عقب التغيرات التي تشهدها مصر.." متابعا: "إن مصر لم تعد اليوم مثلما كانت في حكم الرئيس السابق حسني مبارك"..

وهذا صحيح وصحّي جدّا.. ولكن أنظر لتعرف ماذا يقصد من كلامه .. فقد صرّح في حوار له مع القناة العاشرة الاسرائيلية: " أن الاوضاع في القاهرة وصلت إلى حد لا يُصدّق، مما سمح لجماعة الإخوان المسلمين بلعب دور إيجابى ونشط فى الحياة السياسة بعد ان كان محظورا عليها تماما خلال حكم مبارك..!".. وهذا هو بيت القصيد .. فهو يعبّر عن رغبة دفينة لإعادة النظام السابق أو إقامة نظام آخر على غراره يكبّل القوى السياسية التى لا تريدها إسرائيل.. ولا تريدها أمريكا أيضا.. ومن ثم فهو يهدد كما هددت أمريكا الشعب المصري بالعواقب الوخيمة التى يمكن أن تلحق به إذا انتخب الإسلاميين لحكم البلاد.. يقول السفير الإسرائيلي: "على المصريين أن يعلموا الآثار السلبية التى ترتبت على هذا العداء الشديد لنا، والذى دفعهم للتظاهر

ومهاجمة السفارة، وأنصحهم بالتمسك بمعاهدة السلام بين البلدين للمصلحة المشتركة...! ثم يأتى وزير الدفاع الإسرائيلي ليهدّد برفع درجة الاستعدادات العسكرية لمواجهة التغيير المحتمل فى القيادة السياسية بمصر بعد الانتخابات...!

والخلاصة أننا لا نعانى فقط من آثار كامب ديفيد وماترتّب عليها.. وإنما نواجه من جديد نفس الأجواء الكئيبة لتلك الفترة التعيسة ونتوجس خيفة من الغواية..؟؟ ولا تؤرّقنا فقط "نصف الساعة" التى قلبت دماغ رأس الدولة وأخرجت قطار مصر والعرب من التاريخ عقودا طويلة .. وإنما ننظر بعين الريبة لأنْصاف الساعات التى تجمع أي قيادة أمريكية بالقيادات المصرية.. دون أن يعرف الشعب تفاصيل هذه اللقاءات وأهدافها بأمانة وشفافية ... فليس بين مصر وأمريكا، [ولا ينبغى أن توجد] أسرار عسكرية ولا سياسية ولا اقتصادية يصح إخفاؤها عن الشعب.. لقد مضى ذلك العهد الذى كانت تُدار فيه شئون مصر بواسطة عصابة كانت تحتكر السلطة وتحتقر الأمة.. وتحيط علاقاتها الخارجية بسرية.. بعيدا عن وعى الشعب وضد إرادته ومصالحه...

****

مقدونيا: جولة في التطهير العرقي

في مقالتين سابقتين حاولت الكشف عن جذور الأزمة المقدونية واستشراف أبعادها، وقد عرفنا أن الدولة تتألّف من عنصرين بشريين هما: السُّلاف المسيحيين ، والألبان المسلمين الذين يمثلون ثلث سكان مقدونيا.. وتطرقتُ إلى الأسباب الكامنة التي دفعت فئة من أبناء مقدونيا وهم الألبان لثورة مسلحة على سلطة الدولة بعد أن يئسوا من استجابتها لمطالبهم التي تتلخص في الحصول على حقوق متساوية مع مواطنيهم المقدونيين السُّلاف. ولكن بدلا من معالجة الأمور بالحوار والمفاوضات لجأت السلطات المقدونية إلى أساليب القمع وتصعيد العنف إلى درجة إعلان الحرب، متذرعة بحجة أن المقاومة المسلحة يقوم بها دخلاء من دولة أجنبية ، وعلى وجه التحديد أشارت السلطات إلى جيش التحرير الألباني المتسلل إلى مقدونيا عبر الحدود مع كوسوفا، كما حددت السلطات المقدونية هدف هؤلاء الإرهابيين الدخلاء بأنه زعزعة استقرار مقدونيا الديمقراطية الآمنة، وأنه لا توجد مشكلات تبرر تمرد ألبان مقدونيا..

وقد عرفنا أن ادعاءات حكومة مقدونيا إدعاءات كاذبة ؛ فالمقاتلون الذين يقاومون السلطة هم مواطنون أصلاء لا دُخلاء، وأن الألبان المسلمين لهم مشكلات خطيرة ومزمنة، وأصبح من الواضح الآن أمام المجتمع الدولي تفاصيل هذه المشكلات، وأن الحكومة المقدونية لا تريد أن تعترف بها ولا ترغب في معالجتها إلا بوسائل القمع والعنف المفرط، ولذلك وجدت الدول الغربية أنه لا مفر من التدخل لإيجاد حلول سلمية للأزمة المقدونية لإدراكها أن الحرب لن تزيد الأزمة إلا تعقيدا وتفاقما.

يبدو من تصريحات وسلوك الوسطاء الغربيين – حتى الآن – أنهم مغنيون أكثر من أي شيء آخر بنزع سلاح الثوار الألبان، وعندما يتحدثون عن وقف العنف فإنهم لا يلتفتون إلى عنف الدولة وإرهابها وعملياتها الوحشية ضد المدنيين الألبان، ولكنهم يذكرون فقط ضرورة وقف العنف الألباني.

يتضح هذا جليًّا في تصريحات خفير سولانا (المنسق الأعلى للسياسة الخارجية للاتحاد الأوروبي) .. يقول:

إنني أدين بشدة المتطرفين المسلحين الذين يتحدّون المؤسسات الديمقراطية في مقدونيا، مشيرا بأصبع الاتهام إلى المقاتلين الألبان، ولكنه لا يتطرق إلى الأعمال الوحشية التي ترتكبها القوات المسلحة وقوات الأمن ضد المدنيين الألبان ولا يدين الحرب الشاملة التي تستخدم فيها هذه القوات الطائرات الحربية والصواريخ والمدافع والدبابات لتدمير بيوت الألبان وإحراق أرضهم، ووصف "خفير سولانا" السلطات المقدونية بأنها "المؤسسات الديمقراطية" ينطوي على مبالغة كبيرة بل هو تزييف للواقع وتضليل للرأي العام، فلو كانت هذه مؤسسات ديمقراطية حقيقية تمثل الشعب تمثيلا صحيحا وتعكس النسب العددية للسكان لما لجأ الألبان إلى السلاح أصلا.

وكيف تكون مؤسسات ديمقراطية هذه التي تستبعد أكثر من ثلث السكان من المشاركة السياسية وتكرس هذا الوضع من التمييز العنصري بقوانين وقرارات وإجراءات أمنية تعسفية، لذلك لا تجد تصريحات خفير سولانا آذانا صاغية من المقاتلين الألبان لأنهم لا يثقون في مصداقيتها ولا في نزاهة موقف صاحبها وحياده، وكيف يثقون فيه وهم يرون أكبر همه أن يجردهم من السلاح أولا ، وهو الأداة الوحيدة التي جعلته مع غيره من السياسيين الغربيين يلتفتون إلى مشكلة الألبان في مقدونيا ويهرولون لإيجاد حلول سلمية لها ..!

استمعنا كثيرا إلى وكالات الأنباء العالمية تنقل إلينا أخبار الأزمة المقدونية وتوقفنا على تطورات الصراع بين المقاتلين الألبان وبين السلطة التي يحتكرها السلاف في مقدونيا، وقد صورت لنا الموقف على أنه صدام بين مؤسسات شرعية للدولة في مواجهة متمردين متطرفين من الألبان لا يمثلون إلا أنفسهم، ولم تذكر لنا هذه الوكالات الغربية أن هؤلاء المتطرفين ليس القتال هدفهم النهائي فهم الذين يقبلون باتفاقات وقف إطلاق النار ويحترمونها ولكن الطرف الآخر الذي يوصف بالشرعية لا يحترم هذه الاتفاقات ولا يلتزم بشروطها، وهو

الذي يخرق هذه الاتفاقات بمزيد من القصف والاعتداءات في مسلسل منظم لا يحيد عنه.

دعنا نستمع على سبيل التغيير لوجهة نظر ألبانية .. كلها لمنظمات خيرية أو ثقافية لا تشتغل بنشاط سياسي أصلا ، ولكن هالها ما يحدث في مجتمعات الألبان المسلمين من أحداث جسام لا يمكن السكوت عليها أو تجاهلها .. وهي وجهة نظر صدرت في بيانات مبكرة ولكنها تعبر عن استنكار واضح لا لتطور الحرب ضد المواطنين الألبان فحسب بل استنكار واضح لدلالات هذه الحرب ودوافعها العنصرية التي اتسمت بها منذ البداية.

في هذا المجال صدر بيان من الاتحاد الإسلامي في مقدونيا بتاريخ ٨ مايو ٢٠٠١م ورد فيه ما يلي:

من خلال متابعتنا للأحداث في كومانوفا (وهي منطقة ألبانية في شمال مقدونيا)، وتحليلنا لها تبيّن لنا أن ما يجري في الآونة الأخيرة يهدد بالانتشار إلى آفاق أوسع، وأن قصف القرى التي يعيش فيها المسلمون بدأ يتخذ سمات التطهير العرقي والإبادة الجماعية وممارسة الإستراتيجية المعروفة باسم "الأرض المحروقة"، ولكن المسلمين لم يستجيبوا لتهديد السلطات المقدونية بالويل والثبور إذا هم لم يبادروا بإخلاء قراهم والنزوح منها إلى جهات أخرى، وذلك لأن المسلمين يخشون إن هم خرجوا من قراهم لا يستطيعون العودة إليها مرة أخرى لأنهم على وعي بأن المخطط يستهدف تدمير هذه القرى ومحو معالمها من الوجود بحيث يستحيل التعرف على ملامحها والدرس ماثل أمامهم، فإخوانهم الذين هجروا قراهم تحت وابل القصف العشوائي للقوات المقدونية في مرتفعات سارا والجبال المحيطة بالعاصمة "سكوبيا" منذ شهور لم يستطيعوا العودة إليها، وقد ازداد الألبان يقينا بما حدث في البوسنة من قبل، فالمسلمون البشناق الذي اضطروا لهجرة قراهم منذ عشر سنوات لا يزالون مشردين عاجزين عن العودة إلى قراهم أو إعادة بناء مساجدهم التي هدمها الصرب.

ويمضي بيان الاتحاد الإسلامي في إيراد شيء من التفاصيل .. يقول:

دمرت القوات المقدونية - حتى الآن - خمسة عشر مسجدا في كومت نوفا .. وأكد شهود العيان أن الطائرات العمودية التابعة للجيش المقدوني كانت توجِّه صواريخها بطريقة انتقائية إلى مساجد منطقة كوما نوفا في محاولة واضحة للتطهير العرقي والديني لهذه المنطقة المسلمة.

ويناشد البيان في ختامه رئيس جمهورية مقدونيا بصفته القائد الأعلى للقوات المسلحة أن يأمر بوقف إطلاق النار وتمكين وصول المساعدات الإنسانية للمشردين المعرضين للموت جوعا في العراء.

أما الجمعية الخيرية الثقافية المسماة "مرحمة" فقد أصدرت بيانًا في ٢٩ مايو سنة ٢٠٠١م موجهًا إلى حكومات ومنظمات وشعوب العالم الإسلامي أشارت فيه إلى حقائق أخرى ذات مغزى في تطور الأزمة المقدونية حيث ذكر البيان أن دولة أكرانيا (وهي دولة سلافية أرثوذكسية) مثل مقدونيا قد بدأت في وقت مبكر بإرسال طائرات هليكوبتر مع أسلحة أخرى بأطقمها البشرية المدربة، وذلك بتحريض من روسيا (العدو التاريخي للمسلمين في البلقان) كما يتجلى في تصريح لوزير الخارجية الروسي يربط فيه بين مشكلة مقدونيا والمشكلة الشيشانية، ويؤكد على ضرورة محاربة ما أسماهم بالمتمردين الإرهابيين في كلا البلدين بجميع الوسائل..

وترى جمعية مرحمة في هذا التصريح الروسي وفي مسلك أوكرانيا العدواني تجاه الألبان وفي تعزيزها مع اليونان للقوات المقدونية بالإمدادات العسكرية، ترى "مرحمة" أن العالم الأرثوذكسي يحشد قواه العسكرية والسياسية لمحاربة المسلمين في البلقان، ومن ثم لم يبق أمام المسلمين الألبان في مقدونيا إلا أن ينظموا أنفسهم في كتائب للدفاع عن النفس في إطار جيش التحرير الألباني.

ويؤكد البيان أن القوات المقدونية بقصفها الواسع لا تركز على المقاتلين الألبان وإنما تعمد إلى دك القرى حول كوما نوفا وعددها خمسة وعشرون قرية حيث شرع المسلمون يهجرون بيوتهم ويلجأون إلى القرى والمدن المجاورة .. وقد لوحظ أن السلطات المقدونية عندما توقف اللاجئين عند نقاط التفتيش تلقي القبض على أي شاب مهاجر مع أسرته بحجة التحقيق معه والتأكد من

علاقته بالإرهابيين .. ثم لا تعرف الأسرة مصير ابنها بعد ذلك .. ويعلق بيان مرحمة على هذا قائلا:

إن الواقع يشهد دائما بأن المسلمين ليس لهم عند السلطات المقدونية حرمة المواطنين ولا قيمة المواطنين ولا حقهم في الحياة.

ويضرب على ذلك مثالا بواقعة جرت قبل صدور هذا البيان بيومين في قرية "سلوبشانه" حيث أطلق الجيش المقدوني قذائف على منازل في هذه القرية فدمرتها وتسبب ذلك في مقتل عشرة نساء وأطفال وشيوخ من أسرة زيبرى، وجرح ٨١ شخصا آخرين ولم يكن هناك تبادل إطلاق نار يبرر هذا الاعتداء الوحشي على المدنيين .. ويمضى البيان قائلا:

لقد دُمرت البيوت ولم تعد صالحة للسكن ومنعت السلطات وصول مواد الإغاثة إلى القرية إمعانا في محاولة كسر صمود السكان المسلمين وإجبارهم على الهجرة خارج مقدونيا.

ثم يقارن البيان بين أوضاع الألبان أيام يوغوسلافيا السابقة وبين أوضاعهم بعد الاستقلال فيقول:

"كان للألبان مدارسهم الخاصة التي تعلم باللغة الألبانية، ثم جاء الحكم الذي يسمونه ديمقراطيا فحرم الألبان من مدارسهم ، فلما أقاموا جامعة ألبانية في تيتوفا حاصرها الجيش يوم الافتتاح فأثار هذا العمل العدواني الاضطراب بين الحاضرين الذين اُضطروا للرد على الاستفزازات بالاشتباك مع هذه القوات فوقع بين الحاضرين كثير من الضحايا بين قتيل وجريح وأُلقي القبض على رئيس الجامعة وأعضاء هيئة التدريس."

هذه الجامعة الألبانية هي المنفذ الوحيد لحصول الألبان على تعليم جامعي.. وهي تضم ١١ ألف طالب ألباني لم يسمح لهم بدخول الجامعتين المقدونيتين التابعتين للدولة في مدينتي سكوبيا ومناستير.

ويصف بيان مرحمة كيف تتعمد السلطات المقدونية إثارة الاضطرابات وعدم الاستقرار في المناطق التي تسود فيها أغلبية ألبانية ويضرب على ذلك

مثالا بتدخل هذه السلطات تدخلا سافرًا في انتخابات المحليات كما حدث عندما فاز الحزب الألباني الديمقراطي بزعامة "أربي جعفر" فلما تصدى لها المواطنون الألبان لجأت السلطات إلى استخدام العنف فقتلت في مدينة "جوستيوار" عددا من المسلمين وأصابت ما يقرب من خمسمائة بجراح وألقت القبض على ألف آخرين أودعتهم السجون بدون محاكمات.

ويؤكد بيان مرحمة على الحقيقة التي أصبحت واضحة أمام جميع الألبان في مقدونيا وهي أن السلطات التي يحتكرها السلافيون .. تسعى إلى تغيير المعادلة السكانية حتى يبقى السلافيون هم الأغلبية وذلك بإجبار المواطنين الألبان على الهجرة خارج البلاد وهو نفس الهدف الذي سعت إليه صربيا دائماً عبر تاريخها الطويل في كوسوفا.

ولذلك جعلت السلطات المقدونية حدودها مفتوحة فقط للهجرة من البلاد في اتجاه واحد لا رجعة منه ومنعت وصول أي مساعدات أو إمدادات إلى إخوانهم الألبان في مقدونيا.

وفي نفس الوقت قامت هذه السلطات بإجراء خطير ستكون له عواقب وخيمة حيث عمدت إلى تسليح المواطنين المسيحيين في المناطق ذات الأغلبية المسلمة بهدف المساهمة في إرهاب المسلمين وقتلهم وهو تصرف غبي من جانب السلطات المقدونية التي لا تتوقف عند حد في سبيل قمع الثورة الألبانية والقضاء عليها.

لم يكن المواطنون المدنيون من المسيحيين - في أي وقت من الأوقات - هدفا للمقاتلين الألبان، ولكنهم بانحيازهم إلى جانب السلطات الباطشة واشتراكهم بالسلاح في إرهاب وترويع جيرانهم الألبان يعرّضون أنفسهم للانتقام من جيش التحرير الألباني.

إن الصدام المسلح لا يزال مقصورا على المواجهات القائمة بين جيش التحرير وبين القوات المقدونية، فإذا انتقل هذا الصدام إلى صفوف المدنيين السلاف تحوّل إلى حرب أهلية حقيقية، وهو الأمر الذي يتحرّى المقاتلون

الألبان ألا يتورطوا فيه .. فهم يعلمون أنه طالما بقي الصدام محدوداً يظل الأمل قائما في إنهائه بمعالجة أسبابه خلال المفاوضات، ولكنه يخرج عن نطاق السيطرة إذا تحول إلى حرب أهلية.

وفي محاولة لإنهاء الصراع الألباني السلافي في مقدونيا يتدخل وسيطان أحدهما أوروبي والآخر أمريكي يحاولان جمع ممثلي السلطة المقدونية مع ممثلي الأحزاب السياسية الألبانية في مفاوضات تستهدف الوصول إلى تسوية سلمية يرضى عنها الطرفان وهي مهمة عسيرة، وعسرها يأتي من جانب الطرف السلافي الذي يُطلب منه اليوم تنازلات كبيرة عن امتيازات مغتصبة استأثر بها قرابة قرن من الزمان، فقد استحوذ السلافيون على السلطة بعد هزيمة الدولة العثمانية وانفردوا بالإدارة والثروة دون الألبانيين المسلمين الذين هُمِّشوا واستُغلوا وأُجبروا على الحياة كمواطنين من الدرجة الثانية إن لم يصبحوا غرباء في وطنهم يعانون من الضيق والاضطهاد حتى اضطر كثير منهم إلى الهجرة خارج مقدونيا متحملين في ذلك ألوانا أخرى من التمييز والاضطهاد يرونها أخف وطأة مما يلاقونه في وطنهم الأصلي مقدونيا.

فاللاجئون الذين اتجهوا إلى اليونان كانوا يوقفون عند الحدود ولا يُسمح لهم بالدخول إلى الأراضي اليونانية إلا إذا نفذوا شرطين:

التخلي عن الإسلام واعتناق الأرثوذكسية، وانتحال أسماء مسيحية بدلا من أسمائهم الإسلامية، وقد قبل الكثير من اللاجئين الألبان هذه الشروط على كره لها حتى لا يعودوا إلى جهنم مقدونيا، على الأقل سيجدون في اليونان فرصة عمل وإيواء واستئناف للعيش بدل من أن يعيشوا في أوطانهم في حالة تسوّل وإذلال وبدون أمل في المستقبل.

ولكن الأغلبية الألبانية في مقدونيا ترى في الانتفاضة المسلحة أملا جديدا وفرصة مواتية للتحرر وممارسة حياة كريمة في وطنهم، لذلك يتشبثون بوجودهم في مقدونيا رغم الحرب التي تشنها عليهم القوات المقدونية بغرض استئصالهم من أرضهم.

فإذا كان الظلم في مقدونيا قديم فلماذا إذن تفجرت الثورة الآن ولم تحدث قبل ذلك؟

ليس صحيحًا أن الألبان المقدونيين لم يتمردوا على السلطة في الماضي أو كانوا مستسلمين للظلم طول الوقت، فلم تخلو السجون المقدونية من المعارضين والمتمردين على الظلم من الألبان، ولكن حدث هذا كله في غيبة كاملة من وعي الإعلام الخارجي وفي ظل حكومات استبدادية في عهد يوغوسلافيا الملكية أو في عهد يوغوسلافيا الشيوعية.

ولعل هذا هو السبب في الشعور بالمفاجأة التي أصابت الناس في العالم الخارجي عندما تفجر الصراع المسلح في مقدونيا، فقد كان الاعتقاد السائد من قبل أن مقدونيا بلد آمن ومستقر وخالٍ من الاضطرابات العنصرية التي اجتاحت بلاد مجاورة مثل البوسنة وكوسوفا تحت قيادة السفاح العنصري سلوبودان ميلوسوفيتش.

وعندما قامت القوات الصربية بعمليات التطهير العرقي في كوسوفا سنة ١٩٩٨ توجه الألوف من اللاجئين الألبان إلى مقدونيا ضمن بلاد أخرى مجاورة، ولكن لم يتوقف المشاهدون طويلا أمام الاستياء الذي صرح به المسئولون المقدونيون بسبب تدفق اللاجئين نحو مقدونيا رغم أن مقدونيا لا تتكلف شيئا من ميزانيتها لإيوائهم في المخيمات التي تنفق عليها وتديرها المنظمات الدولية..

ولم يتنبه المشاهدون ولم يتساءلوا عن سبب إغلاق الحدود المقدونية في وجه اللاجئين الألبان أياما قبل أن تسمح لهم بالدخول تحت ضغوط دولية وفي أثناء هذا الإغلاق أتيحت الفرصة للقوات الصربية أن تلحق باللاجئين وتقوم بتفتيشهم وتجريدهم مما تمكنوا من حمله معهم من أموال وممتلكات شخصية لتضيف إلى مأساتهم الإنسانية مزيدا من عوامل التعاسة والقنوط، لم يلتفت المشاهدون ولم يتوقفوا طويلًا ليتساءلوا فيم كل هذا التوجّس والخوف من وجود اللاجئين الألبان في مقدونيا؟.

ذلك لأن المشاهد الخارجي لا يدري أن الهاجس التقليدي المزمن لدى السلاف المقدونيين هو المعادلة السكانية بينهم وبين الألبان وحرصهم على أن يبقى السلاف أغلبية، ويخشون أن يتأبّد وجود اللاجئين في مقدونيا فلا يستطيعون العودة إلى كوسوفا فتنقلب المعادلة السكانية لصالح الألبان ويفقد السلاف تفوّقهم العددي وامتيازاتهم التي يؤسسونها على هذا التفوق.

مثل هذا الهاجس السكاني كان هو الحافز الأكبر لسفاح عنصري مثل سلوبودان ميلوسيفيتش للقيام بأبشع جرائم التطهير العرقي للبوشناق والألبان في كل من البوسنة وكوسوفا، وهو نفس الهاجس الذي يؤرق الإسرائيليين ويدفع سفاحا عنصريا آخر مثل شارون لارتكاب جرائمه اليومية ضد المدنيين الفلسطينيين..

وما يحدث الآن في مقدونيا للألبان ليس بعيدا عن هذه الصورة البشعة التي عاصرناها في يوغوسلافيا السابقة ونشاهدها اليوم تجري أمام أعيننا في فلسطين المحتلة، ونعلم أنها تحدث على نطاق واسع في وفي أماكن أخرى من العالم ضحاياها في كل حالة من المسلمين.

وهي ظاهرة تحتاج إلى مزيد من الرصد والدراسة والتحليل والتسجيل، فلربما يكون هذا فقط هو ما في وسع جيلنا أن يقوم به، ومن ثم لا ينبغي أن نفرط في هذه المهمة وهو أضعف الإيمان، حتى يهيئ الله لهذه الأمة المغلوبة على أمرها جيلاً آخر، أقدر منا على مواجهة هذه الخطوب بقوة أكبر وعزيمة أشد وإيمان أكثر رسوخا .. فمن يدري..!

أردت بهذا الاستطراد أن أشرك القارئ في فهم ما يجري للألبان المسلمين المقدونيين في إطار المأزق الإسلامي الأكبر فمشكلة المسلمين في مقدونيا ليست إلا حلقة واحدة في سلسلة المشاكل التي تحيط بالمجتمعات المسلمة في أنحاء العالم.

ولكي نستأنف الحديث عن الأزمة المقدونية إجابة على السؤال الذي طرحناه آنفاً لماذا الثورة الآن؟..

أقول: لقد فوجئنا بل دهشنا عندما تفجرت الثورة الألبانية في مقدونيا، وأنا أتكلم - على وجه الخصوص - بلسان حال إعلامنا العربي المتخلف الذي استقبل أخبار الانتفاضة الألبانية في مقدونيا باستنكار واضح، وقبل دون مناقشة أو مراجعة مزاعم الحكومة المقدونية التي أشاعت فرية مؤداها أن المقاتلين الثائرين في جبال مقدونيا هم متسللون من جيش تحرير كوسوفا، جاءوا لزعزعة الأمن والاستقرار في مقدونيا، وليعضوا - بزعمهم - اليد التي تقدمت لألبان كوسوفا بالمساعدة عندما لجأوا إلى مقدونيا فرارًا من حملات القتل والترويع والإبادة.

وقد تبين لنا فيما بعد أن مزاعم الحكومة المقدونية لم تكن إلا محض كذب، والآن فقط يدرك العالم أن ألبان مقدونيا لهم مشكلات حقيقية وأنهم يعانون من أوضاع مأساوية تُهدر فيها حقوقهم الإنسانية والسياسية، ويحتاجون إلى تدخل خارجي لمساعدتهم في استخلاص هذه الحقوق من بين أنياب نظام عنصري لا يقل شراسة عن نظام ميلوسيفيتش.. فإن كان هناك من خلاف فذلك أن العنصريين السلاف في مقدونيا لا يملكون مثل ذلك الجيش الضخم المدجج بالسلاح الذي ورثته صربيا من يوغوسلافيا السابقة .. فجيش مقدونيا يتراوح عدده بين عشرة إلى إثنتي عشرة ألف جندي، لذلك تتعاون قوات الأمن مع القوات المسلحة جميعا في حملات عسكرية منظمة على المسلمين الألبان.

إبراز هذه الحقائق كلها أمام الرأي العام العالمي واستنفار المجتمع الدولي للقيام بواجبه في مساعدة الألبان المقدونيين في الحصول على حقوقهم المسلوبة - هو الهدف الأول من قيام الثورة الألبانية، وهو بالتالي العنصر الأول من عناصر إجابتنا على سؤال: لماذا الثورة الآن؟.. فما هو العنصر الثاني؟:

أقول: لقد استوعب ألبان مقدونيا الدرس الذي أدركه إخوانهم في كوسوفا بعد أربعة أعوام من الصبر والانتظار ظل فيها زعيمهم إبراهيم رجوفا- يبشرهم بحل سلمي وعدته به الدول الغربية ، ولكنها لم تفِ بهذا الوعد أبدًا؛ فالغرب لا يأبه لسعي المتسولين ولا يستمع لشكوى الضعفاء المستذلين..

ولم يبدأ الغرب فى التدخّل إلا بعد أن ظهر جيش تحرير كوسوفا ، يتصدّى لصربيا بقوة السلاح .. حينذاك فقط تنبهت الولايات المتحدة الأمريكية والدول الأوروبية، وأدركت ضرورة التدخل لوقف الحرب حتى لا تتسع رقعتها وتندلع خارج حدود كوسوفا إلى دول البلقان الأخرى حيث يتمدد المارد الألباني المسلم مقطّع الأوصال . بين العديد من دول البلقان.

و كان الخوف الأكبر هو أن يستيقظ هذا المارد من رقدته ويحدث الاضطراب في هذه الأنظمة الهشة القائمة على ترويضه.

خلاصة:

سبق أن أوضحت في مقالات سابقة وفي كتابي عن كوسوفا أن القضية الألبانية في البلقان قضية واحدة وأن الدول الأوروبية قد أهملت متعمدة معالجة مشكلة القومية الألبانية، وتجاهلت النضال القومي للألبان الذي كان يسعى لجمع شمل الألبان في دولة واحدة.

لقد صيغت الكيانات السياسية في أوروبا الشرقية على أساس قومي، وكانت آخر تسوية في هذا المجال انقسام دولة "تشيكوسلوفاكيا" إلى دولتين ليستقل كل من التشيك والسلوفاك بكيانهم الخاص بهم ، وقد رحبت أوروبا بهذا الانفصال واعتبرته تصحيحا لأوضاع خاطئة .. ولكن أوروبا هذه هي نفسها التي قررت في مؤتمر لندن ١٩١٢ – ١٩١٣م أن تعالج القومية الألبانية بطريقة معاكسة فاجتزأت شريطًا من أرض الألبان ممتدا على ساحل بحر الأدرياتيك وأعلنت أن هذه هي ألبانيا، أما بقية الأرض الألبانية فقد مزقتها أشلاء وألحقتها بدول صربيا والجبل الأسود واليونان ومقدونيا . وهكذا تشتت الألبان في دول مختلفة وأُقيمت بين أبناء الشعب الواحد الحدود والسدود فأهدرت بذلك النضال القومي للألبان عبر تاريخهم الطويل ، وقضت على حلم الألبان في الوحدة.

وتغاضت أوروبا زمنا طويلا عن الممارسات الإرهابية والقمعية التي تعاني منها المجتمعات الألبانية المسلمة في ظل أنظمة عنصرية مستبدة بلغت في طغيانها واستهانتها إلى حد الإبادة الجماعية والتطهير العرقي والديني للألبان.

لقد اتخذت أوروبا موقفًا سلبيا ثابتا في كل ما يتعلق بمشكلات القوميات والأقليات المسلمة فيها، بل أراها تعمل على تفاقم هذه المشكلات، لأنها تعلم أن شيوع الاضطراب وعدم الاستقرار والفقر في المجتمعات المسلمة هو الوضع الأمثل لتنصير هذه المجتمعات و تغريبها بحيث تفقد هويتها الدينية والثقافية المتميزة تحت مطارق التجويع والتجهيل والتبشير والاضطهاد، فأوروبا لا تقبل بالتعددية الدينية حتى وإن بدت المسيحية فيها لا تعني – عند الغالبية العظمى من الأوروبيين – شيئاً مذكورا..!

تركيبة (العِرْق والدين والقومية) في أوروبا تركيبة شديدة التعقيد يصعب تفكيكها.. وهي تركيبة ثقافية تسكنها نزعة عنصرية عميقة الجذور، ومن خلال هذه المنظومة العنصرية ينظر الأوروبيون إلى الإسلام والمسلمين في أوروبا ؛ لذلك رأينا تراخيا وتواطؤًا من الدول الأوروبية ضد المسلمين فى حرب الإبادة التي تعرّض لها المسلمون في البوسنة وفي كوسوفا ثم في مقدونيا، ليس هذا فحسب وإنما ينتهز الغرب ظروف الهيمنة التي فرضها بوجوده العسكري والسياسي في هذه المناطق لإحداث تحولات اجتماعية وثقافية ودينية في مجتمعات المسلمين.

وتأكيدً لهذا تشيع في كتاباتهم أن تديّن الألبان تديّن هش وأن إسلامهم ضعيف، وقد ردد هذه المزاعم السفير الصربي في القاهرة في لقاء تلفازي بقناة النيل الثقافية خلال شهر مايو الماضي (٢٠٠١م)، ولإشاعة هذه المزاعم عن ألبان كوسوفا هدفان:

١. تيئيس المسلمين في العالم من جدوى مساعدة المسلمين الألبان وإضعاف تعاطف المسلمين مع قضيتهم.

٢. تبرير النشاط التبشيري المسيحي المتعاظم في كوسوفا الذي يجري على نطاق واسع بواسطة عشرات المؤسسات التي دخلت كوسوفا تحت مظلّة تقديم المساعدات الإنسانية للمشردين.

ومن ناحية أخرى يثير المتطرفون العنصريون في السلطة المقدونية أنصارهم السلاف في الشارع المقدوني للقيام بأعمال شغب وتخريب ومظاهرات يعلنون فيها سخطهم ورفضهم للمفاوضات الجارية مع الألبان.

ولقد رأينا من تصريحات المتظاهرين ومحرضيهم أن الرفض الذي يعبرون عنه ليس موجها إلى نتائج المفاوضات فهي شديدة التواضع ولا تحقق شيئا مذكورا من مطالب الألبان، ولكنه رفض موجه إلى مبدأ التفاوض في حد ذاته. بينما لا يرى العنصريون سوى الحل العسكري، بالقتل والإبادة والتهجير القصري للألبان خارج مقدونيا .. وهذا ما عبر عنه أحد قادة المتظاهرين السّلاف في مقابلة تلفازية على قارعة الطريق .. يقول: "إننا نريد سلاحا لنقوم بقتل الألبان .. إن الحديث الذي يفهمه الألبان لا يكون إلا عبر فوهة البندقية".

لا غرابة إذن أن يقوم هؤلاء المتعصبون المبرمجون الذين تم غسل عقولهم بما يضخه الإعلام السلافي من أكاذيب وافتراءات ضد الألبان وضد الإسلام - لا غرابة أن يقوم أمثال هؤلاء باعتداءات وحشية على مساكن الألبان ومتاجرهم ومساجدهم في العاصمة المقدونية "سكوبيا" وإشعال النار فيها بعد نهب محتوياتها كما شاهدنا على شاشات التلفزة يوم الخميس ٩ أغسطس ٢٠٠١م ولا غرابة أن تعود الاشتباكات المسلحة بين قوات الأمن ورجال المقاومة الألبانية المسلحين بعنف شديد في تيتوفا وغيرها من المناطق ذات الأغلبية الألبانية المسلمة.

ويحرص الغرب على معالجة القضية الألبانية المزمنة في البلقان أجزاءً وأشلاءً (يعني بالقطّاعي) وليس جملة واحدة، ولا يدخر الغرب وسعه للإبقاء على الألبان شيعا وجماعات مبعثرة في كيانات سياسية مختلفة لا يملكون فيها شيئًا من أسباب القوة أو السيادة على مصيرهم أو أرضهم.

أوروبا لا تنسى أن الألبان كانوا من أقوى دعائم الدولة العثمانية وأكبر المدافعين عنها خلال خمسة قرون حكم فيها العثمانيون منطقة البلقان..

كان المسلمون هم القوة العظمى التي يُحسب لها ألف حساب في أوروبا ..

******

تعريف بالمؤلف

- مفكر وكاتب موسوعي ، جمع بين الفلسفة وعلم المكتبات والمعلومات والاقتصاد والسياسة والإدارة والتاريخ ..

- ولد فى قرية بهوت بالقهلية (مصر) سنة ١٩٣٤. ولهذه القرية تاريخ مشهور فى الثورة على الاقطاع ..

- تعلم فى مدارس بهوت والزقازيق والمنصورة ، وتخرّج من قسم الدراسات الفلسفية بآداب جامعة القاهرة ، عام ١٩٥٧م. والتحق -فيما بعد- بالدراسلت العليا فى أستراليا.

- كان من أوائل من عملوا أمناء متخصِّصين للمكتبات المدرسية ، وبدأ عمله سنة ١٩٥٨ بمدرسة طوخ الثانوية ؛ فكان رائدًا لحركة ثقافية فى هذا المجتمع خلال الستينات من القرن العشرين.

- عمل مديرًا للمركز الثقافي المصري فى الفلبين من ١٩٦٤-١٩٦٥. ثم موجهًا للمكتبات المدرسية فى محافظة القليوبية ؛ وأنشأ أول مكتبة سمعية فى مصر، وعدة مكتبات أخرى للإطفال ، واهتم بالدراسات التحليلية لأدب الأطفال ، وله فى هذا المجال مقترحات إصلاحية ..

- هاجر إلى أستراليا عام ١٩٧١، وعمل خبيرًا بمكتبة جامعة "بندجو" بولاية فكتوريا من ١٩٧١- ١٩٧٤م .

- انتقل سنة ١٩٧٤ إلى المكتبة القومية الاسترالية فى كامبرا (العاصمة الفدرالية) ليسهم فى إصدار البيليوجرافيا الوطنية ، وفى تطوير المكتبة الوطنية للأفلام ..

- أتاحت له المكتبة القومية (أثناء العمل) فرصة الالتحاق بالدراسات العليا بجامعة كانبرا؛ فأتم دراسة المكتبات والمعلومات وإدارة المؤسسات خلال ثلاث سنوات انتهت سنة ١٩٧٧ .

- فى سنة ١٩٨٠ أنتدبته منظمة اليونسكو خبيرا ليشرف على إنشاء وتجهيز مكتبات جامعة قطر الجديدة، ووضع سياسة للتزويد وبرامج لتدريب الأمناء والعاملين بها، وإنشاء وسائل منهجية لتقييم الأداء الوظيفي.

وفى وقت لم يكن هناك شيئ إسمه شبكة الإنترنت أنشأ بالمكتبة نظاما إليكترونيا للاتصال بقواعد المعلومات العالمية ، وذلك لخدمة الباحثين وطلاب الدراسات العليا، بالاطّلاع على أحدث المقالات والأبحاث العلمية، وخلاصات للرسائل الجامعية فى شتى المجالات العلمية.

- تولى إدارة مكتبات جامعة قطر بين ١٩٨٧ و١٩٩١م لاستكمال مشروع ميكنة المكتبات.

- له العديد من الدراسات فى علم المكتبات وتكنولوجيا المعلومات ، وإسهامات عديدة فى المؤتمرات والندوات حول تطوير المكتبات الجامعية بدول الخليج .

- انتدبته منظمة اليونسكو كمستشار لها فى مهمات خارج قطر، وموافاتها بتقارير ميدانية، عن تطوير الخدمات المكتبية، ونظم المعلومات: فى سلطنة عمان، واليمن الجنوبية ، والبحرين . كما انتدبته فى بعثة خاصة إلى مجلس الوحدة الاقتصادية العربية (كان مقره حيذاك فى عمّان - الأردن) ، وإلى إدارة الأزهر بالقاهرة لتقديم مقترحات تساعد فى تطوير مكتبة الأزهر الجديدة، ومكتبة جامعة الأزهر..

- فى أثناء عمله وخلال عشر سنوات قضاها فى قطر، كانت له إسهامات ونشاطات عامة متعددة، فى مجالات مختلفة: فقد كان من الأعضاء الموسسين لمشروع " إسهامات المسلمين فى الحضارة الإسلامية" الذى استهدف اختيار مائة كتاب من أبرز الكتب العربية التى أعتبرت ركائز هذه الحضارة فى شتى مجالات المعرفة العلمية والفكرية، وإعادة نشرها وترجمتها إلى اللغات الحية الكبرى لتعريف العالم الغربى بحقيقة ما توصّل إليه العقل المسلم فى تقدّم الحضارة العالمية.

ودعته الإذاعة القطرية لتقديم سلسلة من الحوارات والأحاديث حول القراءة، والتثقيف الذاتى.. وصدرت له مجموعة من المقالات فى مجلة "الدوحة" و "مجلة التربية" القطرية، وصحيفة الشرق القطرية، وغيرها من الصحف والمجلات، كانت تدور معظمها حول: الاستخدام الأمثل لموارد المكتبات، والتعريف بما طرأ من تقدمات فى هندسة المعلومات ، واستخدامها فى مجالات التربية والتعليم، وتنمية التحصيل المعرفي لدى التلاميذ .. وتهيئة المعلّمين لعصر ثورة المعلومات..

- عاد إلى مصر فى يولية ١٩٩١ ليتفرغ للبحث والكتابة عن قضايا الاقتصاد الإسلامي ، وعن الأقليات المسلمة المضطهدة فى العالم ، وعن الظلم الإمبريالي للشعوب المستضعفة فى العالم الثالث .. وكشف الأقنعة عن منظمات دولية تتستّر خلف شعارات التنمية ، مثل البنك والصندوق الدوليين ، ومنظمة التجارة العالمية .. وكشف عن التطهير العرقي وعمليات الاستئصال والإبادة ضد المسلمين فى البوسنة وكسوفا ومقدونيا والفلبين والشيشان وآسيا الوسطى..

- كتب عن شخصيات مؤثرة فى العالم (إيجابًا وسلبًا) منها : على عزت بيجوفيتش ، وجورج جالاوي ، وجورج دبليو بوش ، وديك تشينى..

- بلغت كتبه المنشورة ٢٢ كتابًا ، وكتبه تحت الطبع ستة كتب.. إلى جانب مئات المقالات والأبحاث المنشورة فى الصحف والمجلات العربية ..

* * * * * *

مؤلفات سابقة:

١. الإسلام بين الشرق والغرب. تأليف على عزت بيجوفيتش، (ترجمة) ، تقديم الطبعة الثالثة للدكتور عبد الوهاب المسيري. القاهرة: دار الشروق ٢٠٠٩

٢. مختصر الإسلام بين الشرق والغرب: إعداد وتقديم . ط١.القاهرة: دار المختار الإسلامي ، ط٢ مكتبة الإمام البخاري، ٢٠٠٩

٣. الإعلان الإسلامي. على عزت بيجوفيتش،(ترجمة). القاهرة: دار الشروق ، ١٩٩٩ وطبعة٢ مكتبة الإمام البخاري ، ٢٠٠٩

٤. مذكرات على عزت بيجوفيتش (ترجمة واختصار). ط١، القاهرة: دار المختار الإسلامي، ٢٠٠٤ وط٢ مكتبة الإمام البخاري، ٢٠٠٩.

٥. مشروعات الإصلاح والنهوض بالعالم الإسلامي فى فكر الرئيس على عزت بيجوفيتش. الجيزة: مركز الإعلام العربي، ٢٠١٢.

٦. البوسنة فى قلب إعصار. القاهرة: دار المختار الإسلامي ، ٢٠٠٠.

٧. كوسوفا بين التشويه والأساطير. القاهرة: المختار الإسلامي ، ١٩٩٨.

٨. كوسوفا بين الحقائق التاريخية والأساطير الصربية. القاهرة: دار المختار لإسلامي، ٢٠٠٠

٩. الحرب الشيشانية بين التأليف والتزييف. القاهرة: دار المختار لإسلامي ، ٢٠٠٠.

١٠. محمد أسد: سيرة عقل يبحث عن الإيمان. ط١ القاهرة: دار المختار الإسلامي، وط٢ مكتبة الإمام البخاري. ٢٠٠٩.

١١. تجديد الفكرالديني فى الإسلام لمحمد إقبال- الإسكندرية، مصر: مكتبة الإسكندرية ، ٢٠١٠ (تمت ترجمته بتكليف من مكتبة الإسكندرية ضمن مشروع إعادة نشر مؤلّفات المفكرين الإصلاحيين فى العالم الإسلامى).

١٢. الإمبريالية الأمريكية من الغطرسة إلى الانهيار. تقديم أ.د. عادل حسن غنيم. القاهرة: مكتبة ألإمام البخاري للنشر والتوزيع، ٢٠١٣.

١٣. نهب الفقراء: الإنسان فى عالم التكتُّلات الاحتكارية . تقديم أ.د. كمال عرفات نبهان. القاهرة: مكتبة ألإمام البخاري للنشر والتوزيع، ٢٠١٢.

١٤. الشيطان طبيبًا : الحرب البيولوجية على العالم الثالث. القاهرة: مركز الإعلام العربي، ٢٠١٣.

١٥. الدولة العثمانية فى أوربا: من سمات العبقرية فى الحضارة الإسلامية. تقديم أ.د. عادل حسن غنيم . القاهرة: مكتبة ألإمام البخاري للنشر والتوزيع، ٢٠١٢.

١٦. الفلبين . القاهرة: دار المعارف .١٩٦٩ (سلسلة شعوب العالم) .

١٧. البؤساء: مجموعة من القصص الفلبينية القصيرة للأديب الفلبيني "بيينْفِنيدو سانْتوس" (ترجمة). القاهرة: المؤسسة الدولية للنشر والمعلومات ، ١٩٨٤.

١٨. الدولة اليهودية، لثيودور هرتزل. (ترجمة). تقديم ومراجعة أ.د. عادل حسن غنيم. ط٢ القاهرة: مركز نصوص ،٢٠٠٦ صدرت طبعته الثالثة من مكتبة البخارى ٢٠٠٩م.

١٩. سقوط الأكاذيب : تفنيد شبهات العلمانيين حول الشريعة الإسلامية. القاهرة: مكتبة ألإمام البخاري للنشر والتوزيع، ٢٠١٣.

٢٠. تاريخ بهوت : مخطوطة بقلم صالح محمد فارس (بحث وتحقيق). القاهرة: جزيرة الورد،٢٠١٣.

٢١. تاريخ القليوبية: مخطوطة بقلم صالح محمد فارس (بحث وتحقيق). القاهرة: جزيرة الورد،٢٠١٤.

22. The History of Israeli-Arab Conflict (1952-1975); an Annotated Bibliography. Canberra College of Advanced Education. (Australia), 1976.

****

كتب تحت النشر

٢٣. عندما يحرس الغنم ذئب ، وتؤذّن الشياطين فوق المنابر.

٢٤. قراءة جديدة فى عالم الفكر والأدب .

٢٥. الإسلام والمسلمون فى آسيا الوسطى.

٢٦. الإسلام والمسلمون فى الفلبين .

٢٧. محمد إقبال : فكره وإبداعاته.

٢٨. عبقرية الثورة المصرية .

****

الفهرس

****